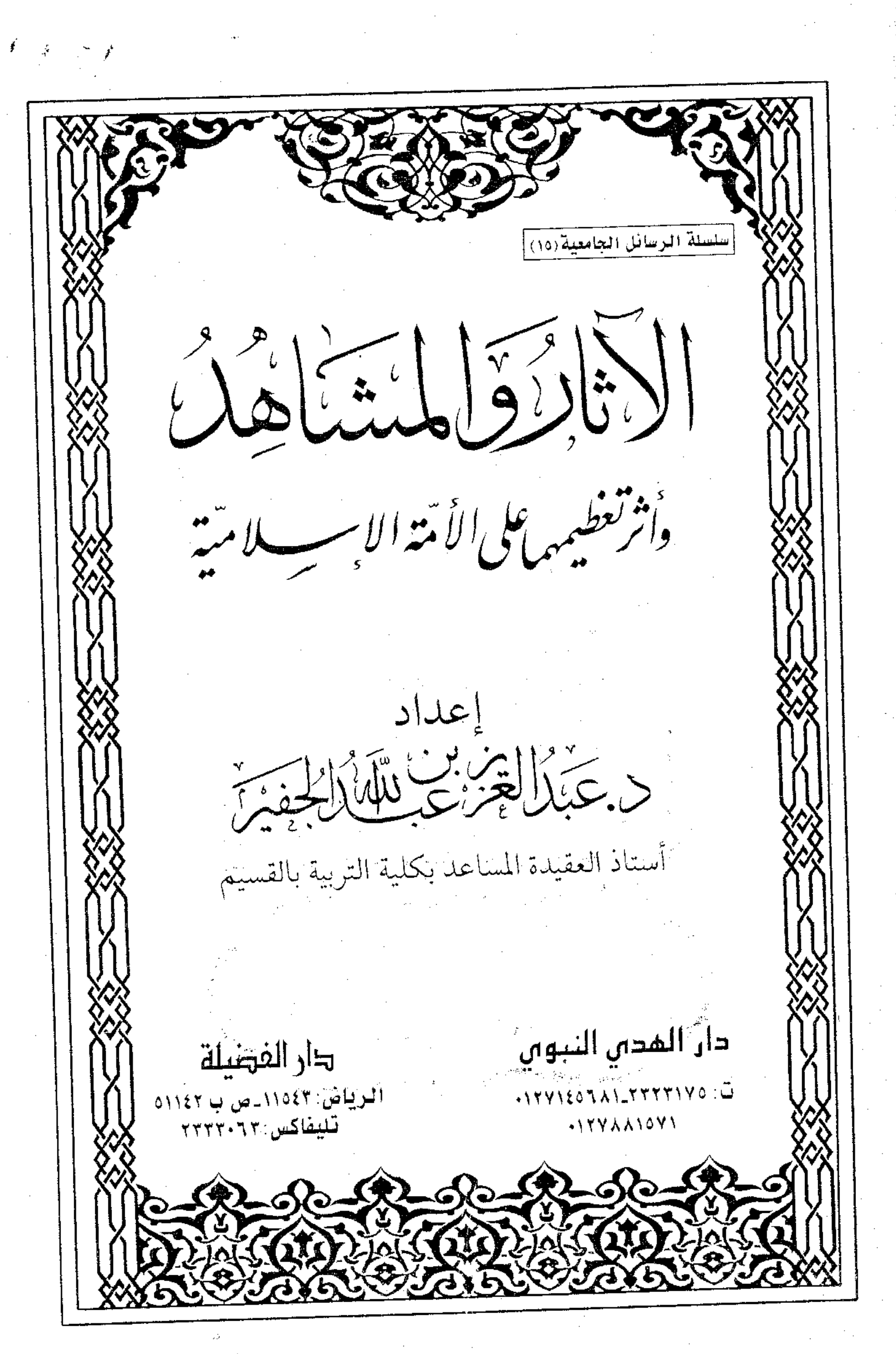


سلسلة الرسائل الجامعية (١٥)

الآثار والمشاهد

وأثر تعظيمهما على الأمة الإسلامية

إعداد

د. عبد العزيز بن عبد الله الجفير

أستاذ العقيدة المساعد بكلية التربية بالقسيم

دار الهدي النبوي

ت: ٢٣٢٣١٧٥ـ ٠١٢٧١٤٥٦٨١ـ ٠١٢٧٨٨١٥٧١

دار الفضيلة

الرياض: ١١٥٤٣ـ ص ب ٥١١٤٢

تليفاكس: ٢٣٢٣٠٦٣

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٣/١٤٥٨٥

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الناشر
دار الهدى النبوى للنشر والتوزيع
مصر - المنصورة
ت : ٢٣٢٣١٧٥-٠١٢٧١٤٥٦٨١-٠١٢٧٨٨١٥٧١

دار الفضيلة للنشر والتوزيع
الرياض ١١٥٤٣- ص.ب ٥١١٤٢
تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣



أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها الباحث الى كلية أصول الدين ـ قسم العقيدة في جامعة أم القرى للحصول على درجة الماجستير ، وقد نال درجة الماجستير بتقدير ممتاز بإشراف الدكتور / علي العلياني .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ سورة النساء، آية: ١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠ ـ ٧١.

ثم أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله عز وجل وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وخير الأمور ما كان خالصًا لله وإتباعًا لنبي الله محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

وبعد . . .

فإن الله عز وجل بعث في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فاتفقت دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على دعوة الناس إلى توحيد الله بالعبادة وعلى اجتناب الشرك.

هذا وإن الشرك غالبًا لا ينتشر دفعة واحدة بل على مراحل وفترات وأن غالب بداياته تكون بتعظيم شيء وتقديسه على غير هدى من الله ولا من رسله سواء في



ابتداء التعظيم أو في كيفيته، ثم يزداد ذلك حتىٰ يبلغ دركات الوثنية وأن النبي بأبي هو وأمي ﷺ رؤوف رحيم بأمته، ومن ذلك حجزه أمته عن كل طريق أو درب يوصل إلىٰ الشرك، وجعل كثيراً من تلك الحماية للتوحيد إنما هي في طلب الترك فهو أقوىٰ في الأثر والنتيجة وأمته ﷺ أقدر وأيسر علىٰ تنفيذه من طلب الفعل.

إذ أن الناس إذا طلب منهم أن يعملوا عملاً ما فإنهم يتفاوتون في الاستطاعة والقدرة علىٰ التنفيذ.

أما إذا طلب منهم ترك شيء فإن تنفيذ هذا الطلب لا يكلفهم شيئًا إلا التوقف عن العمل.

وقد كان عامة ما ورد في الكتاب والسنة بخصوص حماية التوحيد إنما هو النهي عن أسباب الشرك مثل النهي عن اتخاذ قبره ﷺ عيدًا، والنهي عن الشرك وأسبابه، وهي أشهر وأكثر من أن تحصر.

وقد تقدمت إلىٰ جامعة أم القرىٰ في كلية الدعو وأصول الدين في قسم العقيدة بأطروحة ماجستير بعنوان:

«تعظيم الآثار والمشاهد وأثره في الأمة الإسلامية»

* **سبب اختيار الموضوع:**

قرأت في كتاب: مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز - رحمه الله تعالىٰ - الجزء الأول: التوحيد وما يلحق به رداً علىٰ مقال منشور في جريدة الندوة الصادرة في ٢٤/ ٦/ ١٣٨٠هـ بعنوان: آثار المدينة المنورة وعلىٰ رد آخر علىٰ مقال منشور في جريدة الندوة أيضًا الصادر في ٢٤/ ٥/ ١٣٨٧هـ، وهذا المقال بعنوان: «الآثار الإسلامية» وقرأت أيضًا فيه جوابه - نفع الله به وغفر له - عن سؤال هو: هل يجوز أن يبنىٰ علىٰ موضع أهل الكهف مسجد؟

ثم قرأت حول هذا الموضوع ووجدت أن كثيراً من الشرك يقع فيه الناس بسبب إعطاء أهمية وتعظيم زائدين لبعض الأشياء أو الأشخاص أو المواقع مما يفضي إلىٰ الغلو في محبتها وتقديسها ثم إلىٰ الإنشغال بها وعبادتها من دون الله.

خطة البحث

تتكون من مقدمة ودراسة تمهيدية وثلاثة أبواب وخاتمة.

ففي **المقدمة** ذكرت سبب اختيار الموضوع وما يتعلق بذلك.

وفي **الدراسة التمهيدية** عرفت كلاً من الآثار والمشاهد وبعض المسميات التي تدخل تحتهما والمقصود بالآثار والمشاهد في هذا البحث، وتحدثت فيها أيضًا عن أهمية الموضوع وصلته بالعقيدة الإسلامية حيث أنه هناك ألصق وأقرب.

وجعلت **الباب الأول** دراسة تاريخية لتعظيم الآثار والمشاهد وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول: عن تعظيم الآثار والمشاهد عند قوم نوح وكيف وصل بهم ذلك إلىٰ الشرك وعبادة الأوثان.

الفصل الثاني: عن تعظيم الآثار والمشاهد عند أهل الكتاب وفيه مبحثان:

أحدهما عن تعظيم الآثار والمشاهد عن اليهود.

والآخر عن تعظيم الآثار والمشاهد عند النصارىٰ.

الفصل الثالث: وفيه مبحثان:

أحدهما عن تعظيم الآثار والمشاهد عند الهنود.

والآخر عن تعظيم الآثار والمشاهد عند الفرس.

الفصل الرابع: عن تعظيم الآثار والمشاهد عند فرق تنتسب للإسلام وفيه مبحثان أيضًا.

أحدهما عن تعظيم الآثار والمشاهد عند الشيعة.

والآخر عن تعظيم الآثار والمشاهد عند الصوفية.

أما **الباب الثاني** فهو تأصيل وتقعيد لمسألة تعظيم الآثار والمشاهد وبيان ما ورد في حقها في القرآن والسنة وكيفية تعامل السلف الصالح معها حسب توجيهات الكتاب والسنة وخير من قام بذلك الصحابة رضوان الله عليهم فكان هذا **الباب ثلاثة فصول:**

الفصل الأول: وذكرت فيها نماذج مختلفة من الآثار التي وردت في القرآن الكريم.

الفصل الثاني: ذكرت فيه أيضًا نماذج مختلفة من الآثار التي وردت في السنة المطهرة.

أما الفصل الثالث فذكرت فيها موقف السلف الصالح ـ متمثلاً بالصحابة رضي الله عنهم ـ من الآثار والمشاهد وتطبيقهم الكتاب والسنة على المشاهد والآثار في عصرهم. **وقسمته إلى ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: موقفهم من آثار النبي ﷺ.

المبحث الثاني: موقفهم من آثار ومشاهد الأنبياء والصالحين.

المبحث الثالث: موقفهم من آثار ومشاهد الأمم البائدة.

أما الباب الثالث، فإنه لما كانت مباحث البابين الأولين تركز في الأول على جانب المشاهد، وتساوت الآثار والمشاهد في الباب الثاني فإني جعلت **الباب الثالث** عن الآثار في العصر الحاضر وجعلته على فصلين.

الفصل الأول: الدعوة إلى تعظيم الآثار وفيه مبحثان:

أحدهما بداية الدعوة إلى تعظيم الآثار في العصر الحاضر ونشأتها وأسبابها ومدى مصداقيتها.

والآخر عن الوسائل التي استخدمت من نظم وقواعد وطرق في ذلك.

أما الفصل الثاني: فإن الكلام فيه عن أثر تعظيم الآثار على الأمة الإسلامية وقد قسمته إلى **ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: بينت فيه أن ذلك التعظيم يؤدي إلى الشرك بالله تعالى.

المبحث الثاني: بينت فيه أن تعظيم الآثار يفسد الولاء والبراء عند المسلمين.

المبحث الثالث: بينت فيه أن ذلك التعظيم للآثار ينتج من ضمن ما ينتج تفتيت المسلمين وتشتيتهم وتفرقهم.

ثم وضعت بعد ذلك خاتمة فيها أهم نتائج البحث. ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع ثم الفهارس وفيها فهارس للآيات والأحاديث والآثار التي وردت في ثنايا البحث وكذلك فهرس محتويات الرسالة، واقتصرنا هنا على فهرس المصادر والمراجع، والموضوعات حتى لا يطول البحث.

وقمت بإرجاع الأقوال إلى أصحابها وأشرت إلى ذلك في الهامش مباشرة وعند ذكر المرجع لأول مرة أعرف به بمعنى أني أذكر اسم الكتاب ثم المؤلف ثم المترجم إن كان هناك مترجم ثم دار النشر ثم بلد النشر ثم سنة النشر ثم الجزء ثم الصفحة حسب ما أجد منها على الكتاب، وعزوت الآيات إلى مواضعها في القرآن الكريم.

أما الأحاديث فإني عزوتها إلى مراجعها وهي على قسمين تقريبًا أحدهما ما رواه البخاري ومسلم إما معًا أو أحدهما.

أما القسم الآخر فهو مما رواه غيرهما لكني اكتفيت بعزوها إلى مصادرها فقط وقد تأكدت منها جميعها تقريبًا من ناحية صحتها تأكدًا أوليًا وذلك بتصحيح العلامة ابن حجر رحمه الله تعالى في كتابه: تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل، مكتبة ابن تيمية، القاهرة. وبتصحيح الشيخ ناصر الدين الألباني يرحمه الله في كتابه صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

وفي الختام لا أنسى أن أقول أن الله عز وجل أبى أن يكون الكمال لكتاب إلا لكتابه ـ وهذه المقولة قد سبقت بها ـ وأن ما فيه من صواب فهو من توفيق الله عز وجل وما فيه من خطأ فإني أستغفر الله من ذلك وأتوب إليه.

ولا يفوتني أن أتقدم شاكرًا ومقدرًا لكل من ساهم معي في هذا الجهد المتواضع وأول من أبدأ به والداي عفا الله عنهما وأسأل الله أن يجزل لهما المثوبة والأجر ويغفر

لهما ذنوبهما . . . آمين .

كذلك أتقدم شاكراً ومقدراً لجامعة أم القرى إدارة ومدرسين وأخص منهم جميع من درست عليه كذلك أتقدم شاكراً ومقدراً لكلية الدعوة وأصول الدين وأخص منها قسم العقيدة .

كذلك أتقدم شاكراً ومقدراً للمشرف على هذه الرسالة فضيلة الدكتور/ **علي بن نفيع العلياني** الذي كان له دور مشكور في هذه الرسالة وقد أولاني من اهتمامه ورعايته وفتح لي صدره وبيته فجزاه الله عني خير ما جزى مشرف عن طالب .

كذلك أتقدم شاكراً ومقدراً للمناقشَين الكريمين اللذَين تفضلا واقتطعا جزءً مهمًا من وقتهما الثمين وقاما مشكورين برتق ما في هذه الأطروحة من شقوق، وتقويم ما فيها من اعوجاج وما هذا منهما إلا نصحًا وتوجيهًا يجري عادة مثله بين الأب وابنه .

أسأل الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهما وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وعونًا للجميع على الطاعة، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

وكتبه

عبدالعزيز بن عبدالله الجفير

تمهيد

تعريف الأثار والمشاهد

أ ـ تعريف الآثار:

تعريف الآثار في اللغة.

الآثار: جمع أثر .

والأَثَر: بقية الشيء والجمع آثار وأُثور .

والأَثَر: بالتحريك ما بقي من رسم الشيء .

والأَثَر: الأجل وسمي به لأنه يتبع العمر .

وأصله من أثر مشيه في الأرض فإن من مات لا يبقى له أثر ولا يرى لأقدامه في الأرض أثر .

والأَثَر: الخبر والجمع آثار .

والأَثَر: مصدر قولك أثرت الحديث آثره إذا ذكرته عن غيرك .

وسمنت الإبل والناقة على أثارة أي على عتيق شحم كان قبل ذلك، ومطلق البقية من الشيء . وسيف مأثور : في متنه أثر أي مفعول به .

وأثر السيف : ضربته .

وأُثْر الجرح: أثره يبقى بعد ما يبرأ .

والتأثير: إبقاء الأثر في الشيء .

والآثارُ: الأعلام واحده الأثر .

والأُثْر: خلاصة السمن .

والأُثـرُ: العلامة المنطبعة مطلقًا[1] .

---

(١) لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت لبنان، مادة أثر جـ٤، ص٥ ـ ٩ ؛ **وانظر:** الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، لبنان، ط٢/ ١٣٩٩هـ، مادة أثر، جـ٢، ص٥٧٥ ـ ٥٧٦ ؛ **وانظر:** تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي . مكتبة=

• تعريف الآثار عند الأثريين:

للآثار عند أصحاب هذا الفن تعاريف كثيرة منها :

١ ـ مخلفات الأبنية والعمائر القديمة كالبيوت والقصور والمعابد والتماثيل وما إليها[١] .

٢ ـ كل ماهو الأثر الحقير أو العظيم للصناعة والفن البشريين خلال القرون[٢] .

٣ ـ الأشياء التي صنعها الإنسان أو استعملها من مسكن وأثاث وأدوات وفن ثم تخلفت عنه[٣] .

٤ ـ هي مخلفات الأبنية والعمائر القديمة كالمقابر والمعابد وغيرها[٤] .

٥ ـ ما خلفه السابق للاحق أي ما خلفه الإنسان السابق للإنسان اللاحق، وهو أجمعها وأدقها، وهذا هو ما وصل إليه الآثاريون من تعريف للآثار بعدما كانت الآثار تشمل الناتج الفكري المكتوب والشفاهي المسمى بالفولكلور[٥] .

والآثار لها علم يختص بها وعُرِّف بأنه:

١ ـ دراسة ما صنع الناس وما فعلوا حتى يمكن فهم كل طريق من طرق حياتهم[٦] .

=الحياة بيروت لبنان، مادة أثر، جـ٣، ص٤؛ **وانظر:** القاموس المحيط، مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز أبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، مادة أثر ١/ ٣٧٥ .

(١) دائرة المعارف الحديثة، أحمد عطية الله، مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، ١/ ٢٢ .

(٢) تاريخ علم الآثار، جورج ضو، ترجمة بهيج شعبان، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثالثة، ص٧ .

(٣) مدخل إلى الآثار الإسلامية، حسن الباشا، دار الاتحاد العربي، نشر دار النهضة العربية، ١٩٧٩م، ص٩ .

(٤) معجم المصطلحات الأثرية، محمد كمال صدقي، كلية الآداب قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود، طبعة أولى، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٨هـ، ص٤٤، ولا فرق بين الأول والرابع إلا بزيادة الأمثلة وفي الأول زيادة التماثيل وفي الرابع زيادة المقابر .

(٥) وسوف يأتي مزيد بسط عند الكلام عن نشأة الآثار .

(٦) رجال الآثار، د. روبرت، ج بريد وود، ترجمة كمال الملاخ، دار الفكر العربي، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٠م، ص٨ .

٢ ـ دراسة بقايا الماضي[١] .

٣ ـ معرفة بقايا القوم من أبنية وتماثيل ومحنطات ونقود وما شاكل ذلك[٢] .

٤ ـ دراسة الأشياء التي صنعها الإنسان أو استعملها من مسكن وأثاث وأدوات وفن ثم تخلفت عنه[٣] . أي أن هذه الأشياء تخلفت عن الإنسان .

٥ ـ هو العلم الذي يصف الأشياء القديمة ويستمد المعرفة بالعصور الغابرة عن طريق دراسة مخلفاتها القائمة بالإضافة لما يمكن الحصول عليه من علوم الحيوان والنبات القديمة والبيئة المصاحبة[٤] .

٦ ـ علم دراسة مخلفات الأمم السابقة سواء المادية منها أو الفكرية الثابتة أو المنقولة، الظاهرة منها أو المطمورة وذلك لتحقيق أهداف هامة وحيوية[٥] . وهذا التعريف الأخير هو أجمعها وأشملها لكنه باب واسع جداً لذلك عند الأثريين بشكل عام يتركز البحث عن الآثار المادية من ناحية النوع ويمتد إلى حدود عدة آلاف سنة ماضية من ناحية الزمن[٦] .

٧ ـ علم الآثار : مولد حديث في مقابل ـ ARCHEOIOGIC ـ أركيلوجيا ـ فرع علمي يعني بدرس الأبنية والنقوش والتصاوير والكتابات. ويتكون من :

أ ـ أدبـــي : وغرضه فك رموز النقوش .

ب ـ صناعي : وغرضه درس صناعات القدماء .

---

(١) الآثار الغارقة، روبرت سلفر برج، ترجمة، د. محمد الشحات نشر مؤسسة سجل العرب القاهرة، مصر، ١٩٦٥م، ص٥ .

(٢) شمال الحجاز (الجزء الأول الآثار) حمود بن ضاوي القثامي، نشر دار البيان العربي، طبعة ثانية، ١٤٠٤هـ، جدة، ص١٩ ـ ٢٠ .

(٣) مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص٧ .

(٤) معجم المصطلحات الأثرية، ص٤٤ .

(٥) علم الآثار، د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد رفعت، دار الشروق، جدة، ص٦ .

(٦) انظر: مدخل إلى علم الآثار، السير ليونارد وولي، ترجمة، د. حسن الباشا، مراجعة عبدالمنعم أبو بكر، الإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم بمصر، سلسلة الألف كتاب (٩٤) ص١٣ .

جـ ـ معاشي: وغرضه درس أساليب العيش والحياة ونظام الحكم والأدوات[١].

٨ ـ علم الآثار: هو البحث عن المعرفة وليس مجرد البحث عن الأشياء[٢].

٩ ـ ولا يعني علم الآثار اليوم مجرد الحفر بحثًا عن الكنوز المدفونة؛ يبحث عالم الآثار ليعرف كيف يبني الناس بيوتهم والأطعمة التي كانوا يأكلونها والأسلحة التي يستعملونها، وكيف كانوا يلبسون، وكيف كانوا يعبدون آلهتهم[٣].

١٠ ـ . . . علم الآثار بمدلوله الحديث يختلف عن ذلك اختلافًا بينًا. فهو يتلخص في أمرين يرتبط كل منهما بالآخر كل الارتباط:

وأولهما: أعمال الحفر والتنقيب واستخلاص الآثار وتسجيل أوصافها وأوضاعها بالنسبة لغيرها والمحافظة عليها وترميمها.

وثانيهما: استخدام هذه الآثار المكتشفة في إلقاء أضواء جديدة على الحضارة الإنسانية الماضية وتطورها واستنباط التاريخ منها[٤].

١١ ـ علم الآثار: دراسة ما صنع الناس وما فعلوا حتى يمكن فهم كل طريق من طرق حياتهم.

فعلم الآثار: هو الطريق الذي تفهم منه أفعال الناس عن طريق دراسة ما فعلوه أكثر من مجرد الإستناد إلى ما قالوه هم عن أنفسهم[٥].

والأثري والآثاري: عالم الآثار والباحث في الآثار والمتخصص بها والمشتغل بها[٦].

---

(١) المعجم موسوعة لغوية علمية فنية، ص٦.

(٢) دائرة المعارف الحديثة، ١/ ٢٢.

(٣) الآثار الغارقة، ص٨ ـ ٩.

(٤) مدخل إلى علم الآثار، مقدمة المترجم ص٥.

(٥) رجال الآثار، روبرت. ج. بريد وود، ص٨، ٩.

(٦) المعجم موسوعة لغوية علمية فنية، ص٦، دائرة المعارف الحديثة ١/ ٢٢، وشمال الحجاز الجزء الأول الآثار، ص: ١٩ ـ ٢٠.

والعلاقة بين المعنى في اللغة والمعنى عند أصحاب هذا الفن واضحة جدًا وهذه القضية واضحة من إلقاء نظرة على مناهج الدراسة في كليات الآثار وأقسامها.

ب – تعريف المشاهد في اللغة:

المشاهد: جمع مشهد، المُشَاهَدَةُ، المعاينة وشهده شهودًا أي حضره.

والمَشْهَدُ: المجمع من الناس، وامرأة مُشْهِد: حاضرة البعل.

والمَشْهَدُ: مَحْضَرُ الناس ومجتمعهم.

ومشاهدُ مكة: المواطن التي يجتمعون بها.

والمشهد: مكان استشهاد الشهيد[١].

والمشاهد: غزوات النبي ﷺ.

والمقصود بالمشاهد في الإصطلاح هي: الأمكنة التي فيها آثار الأنبياء والصالحين من غير أن تكون مساجد لهم، بين القليل الذي لا يتخذونه عيدًا والكثير الذي يتخذونه عيدًا، وهي مقامات الأنبياء والصالحين وهي الأماكن التي قاموا فيها أو أقاموا أو عبدوا الله سبحانه لكنهم لم يتخذوها مساجد[٢].

والمشهد: البناء على الميت[٣]، وكذلك القبور التي يبني عليها مساجد تسمى مشاهد[٤].

---

(١) لسان العرب ٣/ ٢٣٩ ـ ٢٤١، وتاج العروس ٢/ ٣٩٣ والقاموس المحيط ١/ ٣١٧ والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٢/ ٤٩٤.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١١هـ ـ ١٩٩١، جـ٢، ص٧٥٠، ٧٥١.

(٣) تلخيص كتاب الإستغاثة المعروف بالرد على البكري، شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن تيمية وبهامشه كتاب الرد على الأخنائي لابن تيمية أيضًا المطبعة السلفية، بمصر ١٣٤٦هـ، ص٣٥٠.

(٤) حاشية كتاب التوحيد، عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ، ص٣٧٥ في الحاشية.

العلاقة بين المعنى في اللغة وفي الاصطلاح: أن هذه الأماكن سواء كانت قبوراً أو آثاراً لصالحين أو لأنبياء إنما هي مجمع الناس ومشهد سواء كان على صفة دورية كالأعياد أو كيفما اتفق.

• **العلاقة بين المشاهد والآثار:**

بين الآثار والمشاهد علاقة قوية وهي علاقة عموم وخصوص أو علاقة جزء بكل، فالمشاهد جزء من الآثار فكل مشهد أثر ولا ينعكس من حيث المعنى الإصطلاحي، فالقطعة من النقود القديمة أثر لكنها ليست مشهداً وكذلك الآنية القديمة.

ويلحق بالآثار والمشاهد: النصب التذكارية وأماكن انطلاق الثورات والزعماء والأماكن الفاصلة في منعطفات تاريخ الغزوات والمعارك وقبر الجندي المجهول والعَلَم وما يشبه ذلك من المعالم الوطنية.

• **أهمية الموضوع:**

سد الذرائع في الدين الإسلامي جانب مهم وصرح حائل بين شرائع الإسلام عموماً وأصوله خصوصاً وبين مايفسدها فكل ما يوصل إلى المفسدة والمحرم ويفضي إليه فهو ممنوع شرعاً سواء كان في ذاته محرماً أو مباحاً، ومن ذلك «نهى الله تعالى عن سب آلهة المشركين قال تعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...**﴾[1]، لكونه ذريعة إلى أن يسب المشركون الله سبحانه وتعالى عدواً وكفراً على جهة المقابلة والمجازاة بالمثل.

وأخبر النبي ﷺ أن **«من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه قالوا وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»**[2].

(١) سورة الأنعام، آية: ١٠٨.

(٢) الجامع الصحيح (صحيح مسلم) للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٠٦هـ ـ ٢٦١هـ): شرح صحيح مسلم لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، حققه جماعة من العلماء، دار العلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م. ٢/ ٤٤٦ كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها.

وحرم ﷺ القليل من المسكر وإن لم تحصل به مفسدة لئلا يكون داعياً إلى شرب الكثير فقال ﷺ: **«ما أسكر كثيره فقليله حرام»**[1].

«ونهى ﷺ أن يختلي الرجل بامرأة أجنبية عنه إلا مع ذي محرم قال ﷺ: **«لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذي محرم.. الحديث»**[2].

ومن ذلك أيضاً اتفاق الصحابة رضي الله عنهم على قتل الجماعة الكثيرة بالواحد لئلا يتخذ ذريعة إلى إهدار الدماء بتعاون الجماعة على قتل المعصوم فيضيع دمه. ومن حماية التوحيد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بقطع الشجرة التي كانت تحتها البيعة، وأمر بإخفاء قبر دانيال سداً لذريعة الشرك والفتنة ونهى عن تعمد الصلاة في الأمكنة التي كان رسول الله ﷺ ينزل بها في سفره وقال: **«أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟ من أدركته الصلاة فليصل وإلا فلا»**[3].

ونهى عن البناء على القبور فعن جابر رضي الله عنه قال: **«نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه»**[4] وأمر ﷺ بطمس القبور المرتفعة وطمس التماثيل فعن أبي الهياج الأسدي[5] قال قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: **«أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً**

(١) سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجه، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩١٣م، ٢/ ٢٥٧، أبواب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام حديث رقم ٣٤٣٥، ورواه الترمذي تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري (١٢٨٣ ـ ١٣٥٣هـ) راجعه عبدالرحمن محمد عثمان، نشر محمد عبدالمحسن الكتبي، المكتبة السلفية بالمدينة، مطبعة الفجالة، القاهرة، مصر الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م، ٥/ ٦٠٥ ورقمه ١٩٢٧ وقال عنه الترمذي: حديث حسن غريب من حديث جابر.

(٢) رواه مسلم: شرح صحيح مسلم ٩/ ١١٧ كتاب الحج باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره.

(٣) انظر عن ما سبق إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تعليق محمد الأنور، أحمد البلتاجي، نشر دار التراث العربي القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ١/ ٢٩٦ ـ ٣٠٢.

(٤) رواه مسلم: جـ٧ ص٤١ كتاب الجنائز باب النهي عن تجصيص القبر.

(٥) هو حيان بن حصين أبو الهياج الأسدي الكوفي، انظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ يوسف المزي ٦٥٤ ـ ٣٤٢هـ تحقيق: أحمد علي عبيد، وحسن أحمد أغا، دار الفكر بيروت لبنان الطبعة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م. ٥/ ٣٠١.

إلى سويته»[1] .

ونهى ﷺ عن الصلاة إلى القبور وعن الجلوس عليها فعن أبي مرثد الغنوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»**[2]، ولعن ﷺ اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور الأنبياء مساجد، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجدًا»** قالت: **«ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا»**[3] .

وحذر أيضًا ﷺ من البناء على القبور وحذر من الصور، فعن عائشة رضي الله عنها قالت لما اشتكى النبي ﷺ ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال: **«أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله»**[4]، وهذا سدًا لذريعة اتخاذها أوثانًا.

ومن اليقين أن الرسل دعت إلى عبادة الله وحده قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...﴾[5] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾[6] .

وأمرنا سبحانه وتعالى باتباع الرسل فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ

(١) رواه مسلم: ٧/ ٤٠، كتاب الجنائز باب تسوية القبر.

(٢) رواه مسلم: ٧/ ٤٣، كتاب الجنائز باب النهي عن الجلوس على القبر.

(٣) الجامع الصحيح (صحيح البخاري) للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي (١٩٤هـ-٢٥٦هـ) فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، ومكتبتها، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ، جـ٣، ص٢٣٨، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور.

(٤) رواه البخاري ٣/ ٢٧٤، كتاب الجنائز، باب بناء المسجد على القبر.

(٥) سورة النحل، آية ٣٦.

(٦) سورة الأنبياء، آية ٢٥.

اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾[1] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿... فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾[2] .

وكان مما أمرنا الله به من اتباع عبده ورسوله محمد ﷺ إزالة الشرك وأدواته من الأصنام والأضرحة والتماثيل في هدم ذي الخلصة وإزالة التماثيل والأصنام من الكعبة يوم فتح مكة وأن التهاون والتساهل في ذلك إنما هو من خطوات الشيطان التي نهانا الله عن اتباعها فكل خطوة صغيرة مهما كانت في الصغر تجر لما بعدها مما هو مثلها أو أكبر منها حتى تخرج المتبع لها من دين الله قال تعالى: ﴿... وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾[3]، وكما ترى فهي خطوات كل واحدة أكبر مما قبلها الأولى صغيرة والثانية كبيرة والثالثة كفر، وقد أخبر سبحانه وتعالى أن ذلك يؤدي إلى الباطل الذي هو مسلك الكفرة قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ...﴾[4]، وهذا سيتضح أكثر في قصة قوم نوح -عليه الصلاة والسلام- وكيفية عبادتهم للأصنام.

ولما كانت الصور والتماثيل والإهتمام بالقبور بذرة الشرك والوثنية وكانت معارضة لأصل التوحيد أو لكماله وجب حماية التوحيد والذود عنه وإغلاق كل طريق ومنفذ يوصل إليه ولو كان ذلك على المدى البعيد فضلاً عن المدى القريب «والحماية تعظم كلما كانت المعصية أعظم وأكبر فإن الشيطان يلقي في قلب الإنسان الوسائل التي توصل إلى هذا الأمر ولهذا تجد أن باب الشرك قد سده النبي ﷺ وسد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه، وأيضًا باب الزنا حمي حماية عظيمة حتى منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وما أشبه ذلك لئلا يكون ذلك ذريعة إلى الزنا

(١) سورة آل عمران، آية ٣١.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآيتان ١٦٨-١٦٩.

(٤) سورة محمد، آية ٣.

لأن النفوس تطلبه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[1] فكل ما يقرب إليه منهي عنه لأنه يجرّ إليه، فالنهي عن الزنا جاء بالنهي عن كل ما يوصل إليه، فإذا التزم المسلمون بالابتعاد عن مقدماته وبريده فإنهم لن يقعوا فيه بإذن الله تعالى.

وفي باب الربا أيضًا حُمي الربا بحماية عظيمة حتى أن الرجل ليعطي الرجل صاعًا طيبًا من البر بصاعين قيمتهما واحدة ويكون ذلك ربًا محرمًا مع أنه ليس فيه ظلم.

فالشرك قد يكون من الأمور التي لا تدعو إليه النفوس كثيرًا لكنه أعظم الظلم فالشيطان يحرص على أن يوصل ابن آدم إلى الشرك فحَمَى النبي ﷺ جانب التوحيد حماية تامة محكمة حتى لا يدخل الإنسان الشرك»[2].

* * * * *

(١) سورة الإسراء، آية ٣٢.

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، شرح محمد بن صالح العثيمين، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ: ٣/ ٢٧٩، بتصرف يسير.

الفصل الأول

تعظيم الآثار والمشاهد

عند قوم نوح عليه السلام

تعظيم الآثار والمشاهد

عند قوم نوح عليه السلام

نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام أول الرسل[1] ﷺ أجمعين أرسله الله إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى توحيد الله عز وجل إلا أنهم مكروا مكرًا كبارًا «لإبطال دعوته وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس»[2].

واستخدموا حمية الجاهلية وعصبيتها فيما بينهم وحرضوا بعضهم على الاستمساك بتلك الآثار والمشاهد التي أول أمرها كان تذكارًا لقوم صالحين محبوبين حتى تحولت بالتدريج إلى أن يطلبوا منها البركة، ونما تقديسها وتعظيمها في النفوس بما زينه الشيطان، فقالوا فيما بينهم كما أخبر الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾[3].

فتذاكروا فيما بينهم جملة الآلهة وخصوا أكبرها بالذكر تهييجًا للحمية في القلوب لهذه الأصنام استكبارًا عن الحق وصدًا له من أن يصل إلى أفراد الناس.

وقد بين المفسرون رحمهم الله تعالى كيف وصل الحال بقوم نوح من جراء تعظيم الآثار التي هي صور الصالحين إلى درجة عبادتها من دون الله وعلى رأسها ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فقال الطبري[4] رحمه الله تعالى بعد أن روى بسنده:

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل هود: ٢٥ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ٦/ ٤٢٨، حديث رقم ٣٣٤٠ وفيه: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت القاهرة الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ٦/ ٣٧١٦.

(٣) سورة نوح، آية: ٢٣.

(٤) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الإمام العلم المجتهد عالم العصر أبو جعفر الطبري، من أهل طبرستان، ولد ٢٢٤هـ وتوفي ٣١٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ١٤/ ٢٦٧.

«كانوا قومًا صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[1].

وقال غيره من المفسرين: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾: أي أصنامكم وهو عام في جميع أصنامهم ثم خصوا بعد أكابر أصنامهم وهو ودّ وما عطف عليه روي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الزمان ماتوا فصورت أشكالهم لتذكر أفعالهم الصالحة ثم هلك من صورهم وخلف من يعظّمها ثم كذلك حتى عبدت، ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها وقيل بل الأسماء فقط إلى قبائل من العرب فكان ودّ لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ويغوث لمراد، ويعوق لهمدان، ونسر لحمير[2]، ولذلك سمت العرب بهذه الأسماء»[3] أي عبد يغوث ونحو ذلك.

وقال البخاري[4] رحمه الله تعالى باب **(ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق)** عن ابن عباس رضي الله عنهما: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائها ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[5].

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري) محمد بن جرير الطبري، شركة مكتبة ومطبعة البابلي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ، ٢٩/ ٩٩.

(٢) كلب وهذيل ومراد وهمدان وحمير أسماء قبائل من العرب.

(٣) تفسير النهر الماد من البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بابن حيان الأندلسي الغرناطي، ٦٥٤-٧٥٤هـ، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ٨/ ٣٤٠ انظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٩١.

(٤) أبو عبدالله البخاري، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغير بن بردزبة وقيل بذدزبة وهي لفظة بخارية معناها الزراع، ولد سنة ١٩٤هـ، وتوفي ٢٥٦هـ. سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩١.

(٥) فتح الباري، رواه البخاري، كتاب التفسير باب ودًا وسواعًا ولا يغوث ويعوق، ٨/ ٥٣٥.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالىٰ: «فلما مات آدم بقي أولاده بعده عشر قرون علىٰ دين أبيهم دين الإسلام ثم كفروا بعد ذلك وسبب كفرهم الغلو في حب الصالحين كما ذكر الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾[1] وذلك أن هؤلاء الخمسة قوم صالحون كانوا يأمرونهم وينهوهم فماتوا في شهر فخاف أصحابهم من نقص الدين من بعدهم فصوروا صورة كل رجل في مجلسه لأجل التذكرة بأقوالهم وأعمالهم إذا رأوا صورهم، ولم يعبدوهم ثم طال الزمان ومات أهل العلم فلما خلت الأرض من العلماء ألقىٰ الشيطان في قلوب الجهال: أن أولئك الصالحين ما صوروا صور مشايخهم إلا ليستشفعوا بهم إلىٰ الله فعبدوهم»[2].

ومن النظر في تلك التفاسير والروايات يستخلص منها أن بداية عبادة الأصنام وأصلها لا تتعدىٰ أن تكون بسبب تعظيم ما لم يعظمه الله من الآثار أو اتباع لما تهواه الأنفس وتميل إليه الأهواء في غير ما هو مشروع، وأن وضع الشيء للذكرىٰ والتذكر مزلق شنيع يردي بصاحبه في هوة سحيقة من المهالك في الدنيا والآخرة، وأن الشيطان وأتباعه من شياطين ومتكبري الجن والإنس يستغلون نقطة الضعف هذه وهي حب الذكرىٰ والتذكر في أخذ الصور التذكارية والإحتفاظ بها للذكرىٰ ومثل ذلك في نصب التماثيل التذكارية، ويزرعون في نفوس العامة حبها وتعظيمها ومن ثم تقديسها والتيم بها وطلب البركة منها ومن ثم التقرب إليها والتقريب لها وصرف ما لا يجوز صرفه لغير الله لها وذلك من خوف ورجاء ومحبة وخضوع وتذلل وطلب ورهب ونذر وقصد، ومعلوم أن معظم النار من مستصغر الشرر.

* * * * *

---

(١) سورة نوح، آية: ٢٣.

(٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ، محمد بن عبدالوهاب، دار القلم، بيروت، ص٥.

الفصل الثاني
تعظيم الآثار والمشاهد
عند أهل الكتاب

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : عند اليهود.

المبحث الثاني : عند النصارى.

*****

المبحث الأول

تعظيم الآثار والمشاهد عند اليهود

أهل الكتاب لفظ يطلق ويراد به اليهود والنصارى[1]، فيكون الكلام هنا عن فئتين: اليهود والنصارى.

الفئة الأولى: اليهود:

اليهود هم ورثة إبليس ومقلدوه فإنهم يشتركون معه في أنهم وإياه يعلمون الحق ولا يعملون به بل إنهم يعملون بما تمليه عليهم رغائب أنفسهم وأهواؤهم ويشتركون معه بداء الكبر والاستعلاء.

وإن الكبر والجهل هما من ألد أعداء البشر؛ فمن وجّه العبادة لله على غير مراد الله فإنما دخل من بوابة الجهل، ومن أنِف من عبادة الله واتبع هواه وهو يعلم الحق فقد دخل من بوابة الكبر والاستعلاء.

وهذا الأخير هو ما تمسك به اليهود على غالب فتراتهم وأحوالهم فهم «لا يعبدون الله بل يستكبرون عن عبادته ويعبدون الشيطان، لا يعبدون الله ومن قال إن اليهود تعبد الله فقد غلط غلطًا قبيحًا»[2].

«وقد أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت»[3] قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ... الآية﴾[4].

(١) انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، المكتبة القيمة، مدينة نصر، مصر، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ ص٣٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم، العاصمي النجدي الحنبلي وساعده ابنه محمد، تطوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ، مطابع دار العربية بيروت، لبنان، جـ١٦، ص٥٦٤.

(٣) المرجع السابق ١٦/ ٥٦٥.

(٤) سورة النساء، آية: ٥١.

بل بلغ بهم الكبر أن فضَّلوا وثنية قريش على الإسلام وذلك لتحقيق أطماعهم وأغراضهم فهم يمجدون أنفسهم ويحاولون أن يلبّوا شهواتها، وتُهِمُّهُم الغاية بغض النظر عن الوسيلة قال الله تعالى في ذلك عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)﴾[1].

ومما يجلي صورة الكبر عند اليهود موقفُهم من الأنبياء فالنبي عندهم كائن ديني صغير لا يداني الكاهن الأعظم في المعبد في أورشليم لذلك قتل اليهود كثيرًا من الأنبياء، واشتهر النبي عندهم أنه زعيم المعارضة لذلك يتآمرون عليه فيقتلونه[2] قال الله تعالى عنهم ﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾[3] «فعلم أنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا فيقتلون فريقًا من الأنبياء ويكذبون فريقًا من الأنبياء وهذا حال المستكبر الذي لا يقبل ما لا يهواه»[4]، وعقوبة من يتكبر عن آيات الله هي كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾[5]، فهذا «حال الذي لا يعمل بعلمه»[6].

ولقد تنوع طغيان اليهود وكثرت نتائج كبرهم حتى بلغت مقام الألوهية

(١) سورة النساء الآيات ٥١ ـ ٥٢. وانظر تفسير القرآن العظيم، اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ، دار المعرف، بيروت، لبنان ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ١/ ٥١٣.

(٢) نقلاً عن الدكتور حسن محمد توفيق ظاظا في اتصال هاتفي أجريتُه معه ـ سيأتي بيانه ص٤١ ـ وسألته عن عدة نقاط عن اليهودية وهو متخصص في هذا المجال وله في ذلك كتب كثيرة.

(٣) سورة البقرة، آية: ٨٧.

(٤) فتاوى ابن تيمية، ٧/ ٦٢٤ ـ ٦٢٥.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٤٦.

(٦) فتاوى ابن تيمية ٧/ ٦٢٥.

والربوبية فقد قالوا: ﴿... يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[١] ورد الله عليهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾[٢].

وبلغ من شدة غلوهم في أنفسهم واعتدائهم على ربهم أنهم زعموا أن يعقوب صارع الرب وأن يعقوب لم يفلت الله ـ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ـ حتى باركه وسماه إسرائيل[٣].

• **الغلو عند اليهود:**

يتضح الغلو عند اليهود ويظهر تسلسله من خلال معرفة تاريخهم، فاليهود كقوم تناسلوا في مصر ومكثوا فيها إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام وكانت مصر تحت حكم الفراعنة، والسحر فيها منتشر والوثنية فاشية، ومن ضمنها عبادة العجل والشمس وإله الخصب و «العجل أبيس وكان للمصريين ـ الجاهليين ـ عناية بالغة بعبادة هذا العجل لدرجة أن العجول المؤلهة لديهم كانت إذا ماتت حنطوها كما يحنط الآدمي»[٤].

وكذلك السحر فإنه منتشر في الجاهلية الفرعونية[٥] قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) الآيات﴾[٦]. فحب العجل والشغف بالسحر أشربت قلوب كثير منهم.

(١) سورة المائدة، آية: ٦٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٤.

(٣) انظر: أخلاق اليهود وأثرها في حياتهم المعاصرة، وفا صادق، دار الفرقان، عمان الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م ص١٣.

(٤) انظر: جنايات بني اسرائيل على الدين والمجتمع، محمد ندا، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، ص٣٨.

(٥) انظر المرجع السابق، ص٣٦.

(٦) سورة الأعراف الآيات: ١٠٩ ـ ١١٤.

أما السحر فكانوا يزعمون أنهم به يطلعون على الغيب فلم يكن له ذكر في عهد موسى عليه السلام وهم يستعملون الدم المستنزف من الأطفال النصارى في السحر والشعوذة والتعاويذ والرقى، وفي معتقد الحاخامات أن هذا الدم مقبول جدًا لدى الشياطين إذ يقدمون لهم به البشرية كقرابين لا البهائم[١]، ومعلوم أن السحر لا يتم إلا بالشرك بالله والعياذ بالله.

أما من ناحية عبادة العجل فإنهم ما أن أغرق الله فرعون وقومه وأنجى الله موسى عليه السلام وقومه، فإنهم وجدوا قومًا يعكفون على أصنام لهم فغلبت عليهم الوثنية وتحركت في سويداء قلوبهم رواسب العجل فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا كما لهؤلاء القوم آلهة وأخبر الله عن ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾[٢].

علمًا أن موسى عليه السلام مكث في قومه قبل خروجهم من مصر ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة كما في بعض الروايات.

ثم بين لهم موسى عليه السلام وضع هؤلاء العاكفين واستنكر عليهم أن يبغي لهم إلهًا غير الله، وذكر لهم جملة من فضائل الله عليهم وآلائه فمنها أن الله فضلهم في زمنهم على العالمين.

وأن الله أنجاهم من آل فرعون مما كان يسومهم به من سوء العذاب من تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾[٣].

(١) انظر: القرابين البشرية والذبائح التلمودية عند الوثنيين واليهود، فتحي محمد الزغبي، مطابع غباشي، بطنطا، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ص٢٨٨، من نص كتاب إظهار سر الدم المكتوم للحاخام ناوفيطوس اليهودي سابقًا.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٣٨.

(٣) سورة الأعراف، الآيات: ١٣٩ ـ ١٤١.

ولم يقف أسلاف يهود عند هذا الحد فإنهم لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه جمعوا ذهبًا وصنع لهم به السامري عجلاً جسداً له خوار وزعم أنه إلههم وإله موسى يقول سبحانه وتعالى عن ذلك: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾[1] ﴿... وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ...﴾[2]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾[3] ثم إن أولئك تابوا فتاب الله عليهم.

ثم بعد وفاة نبي الله سليمان عليه السلام انقسموا إلى مملكتين وتولى عليهم أربعون ملكًا خمسة منهم على الإسلام وخمسة وثلاثون تقريبًا على الشرك وعبادة الأصنام وأعلنوا ذلك، وأصنامهم متعددة وكثيرة منها العجول الذهبية وقد بنوا لها الهياكل وجعلوا لها سدنة ونسبوا لها الخلاص من مصر[4] وكانت عبادة العجل مما أخذوه من وثنية مصر.

وعبدوا مع العجل من ضمن ما عبدوا الكبشين[5] والبعليم وعشتاروت والسواري كوشان وبعل بريث وعجلون ملك موآب وآلهة آرام وآلهة صيدون

(١) سورة البقرة الآيات: ٥١ ـ ٥٤.

(٢) سورة البقرة آية: ٩٣.

(٣) سورة الأعراف الآيات: ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٤) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن حزم الظاهري، ت ٤٥٦، المطبعة الأدبية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣١٧هـ، جـ١، ص١٥٧ وما بعدها، وانظر: هداية الحيارى، وانظر أطماع اليهود وأسفارهم، فؤاد حسين مزنر، دار الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ص٢٣.

(٥) بذل المجهود في إفحام اليهود، الحكيم السموأل بن يحيى بن عباس المغربي، ت ٥٧٠هـ قدم له وخرج نصوصه وعلق عليه عبدالوهاب أبو طويلة، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، ص٢٠٢، وانظر أطماع اليهود وأسفارهم ص٢٣.

وآلهة بني عمون وغيرها[1].

«ولم تزل بنوا إسرائيل كانوا يعصون الله بعبادة صنم «بعلا» وصنم «أستروت» «الذي للزهرة»[2].

واليهود على هذا قد «عبدوا الأصنام وجعلوا لها السدنة لتعظيمها، وعظموا رسومها وطقوسها وبنوا لها البيع والهياكل وعكفوا على عبادتها»[3].

وقد وردت عبادة البعل في كتاب الله منسوبة إلى قوم إلياس وقوم إلياس في أظهر أحد قولي المفسرين هم بنو إسرائيل[4] قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)﴾[5].

واليهود لا ينكرون ذلك إذ هو موجود في كتبهم من ذلك: «وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب»[6] . . . «فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ثماني سنين»[7]. «فعبد بنو إسرائيل عجلون ملك موآب ثماني عشرة سنة . . .»[8].

«وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا

(١) انظر جنايات بني إسرائيل على الدين والمجتمع، ص٤٥، وما بعدها وانظر أطماع اليهود وأسفارهم، ص٣٥، وانظر اسرائيل والتلمود، دراسة تحليلية، ابراهيم خليل أحمد، الناشر مكتبة الوعي العربي، ١٩٦٧م، ص٩٤.

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م، ص٣٠.

(٣) انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص٢٠٦.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) ٤/١٩.

(٥) سورة الصافات الآيات ١٢٣ ـ ١٢٨.

(٦) قضاة: ٢ : ١١ ـ ١٢.

(٧) قضاة: ٣ : ٨.

(٨) قضاة: ٣ : ١٤.

الرب ولم يعبدوه»[١] .

«فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . . . وعبدوا آلهتهم . . . وعبدوا البعليم والسواري . . . »[٢] .

ومما يقدسه اليهود ويعظمونه ويحجون إليه ويدعونه من دون الله ويلتمسون منه البركات ويطلبون منه الغفران والحاجات **ومن المشاهد:**

١ ـ في مسجد الخليل أو إبراهيم ـ وهو ما يسمى خطأ الحرم الإبراهيمي ـ يظنون أن به قبر إبراهيم عليه السلام وقبر زوجته سارة وكذلك ابنه يعقوب وبعض أبنائه ويظنون أنهم مدفونون بقبو تحت المسجد وهذا في فلسطين .

٢ ـ قبر الربدي عمرام ـ حاخام من حاخامتهم ـ موجود في مدينة وزان بالمغرب وعند القبر وسائل للراحة والإقامة من مساكن وفنادق لأجل حجاج قبره .

٣ ـ قبر العزير وهو موجود في العراق قرب الكوفة ويزوروه اليهود من جميع أنحاء العالم .

٤ ـ قبر أبي حصيرة في دمنهور بمصر .

٥ ـ قبر ومعبد ابن عزرا وهو مزار من مزارات اليهود في الفسطاط قرب مسجد عمرو بن العاص .

٦ ـ قبر راحيل أم يوسف على الطريق بين القدس وبيت لحم في المنتصف عند الكيلو الثامن بينهما في فلسطين .

٧ ـ ولليهود في لتوانيا وبولندا أضرحة ومزارات تنسب إليها ولايات وكرامات ويقصدها اليهود من مختلف العالم .

٨ ـ عندهم تمائم يعملونها من الذهب والفضة والحديد وغير ذلك يقرأون فيها تعاويذ ويذكرون بعض أسماء معظميهم .

٩ ـ طريقة صوفية باسم : بعل شم طوف الذي ظهر في لتوانيا وأسس طريقة

---

(١) جنايات بني اسرائيل على الدين والمجتمع ص٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) قضاة : ٣ : ٦ ـ ٧ . وانظر التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ، ص٣١، حاشية رقم ١ .

صوفية ونسب لنفسه كرامات ومعجزات ثم توارثها أبناؤه من بعده ثم انتقلوا إلى إسرائيل .

١٠ ـ وعندهم ـ آخر تقليعة كما يقولون ـ مكاتب في بلدان مختلفة ومتفرقة وخاصة في الدول الأوربية فمن أراد شيئًا أو حاجة أو مغفرة يكتب كل ما يريده في ورقة ويقدمها إلى أحد هذه المكاتب ويدفع مبلغًا وقدره، ثم ترسل الورق بالفاكس إلى المركز بالقدس، وتؤخذ هذه الصورة التي ارسلت بالفاكس توضع في شق من الشقوق فيما يسمونه : حائط المبكى»[١] .

فهذا شرك ووثنية سببها تعظيم المشاهد والآثار وتعظيمٌ ما أنزل الله به من سلطان .

ومما عظّمه اليهود من الآثار التلمود والحاخامات، وتعظيم الحاخامات عند اليهود تعظيم ورثه بعضهم عن بعض فالمعظم جنس الحاخام على تجدده وتعظيم اليهود للتلمود متلازم لتعظيمهم للحاخامات إذ أنه من وضع الحاخامات .

- **تعريف التلمود:**

هو كتاب تعليم ديانة اليهود وآدابهم فهو بالنسبة للتوراة عندهم أشبه بالسنة النبوية بالنسبة للقرآن عند المسلمين ـ من حيث البيان وأشبه بالتفسير وشرح السنة من حيث أنه كلام العلماء حول الوحي المنزل، والتلمود وضع في الأسر البابلي[٢] على يد الحاخامات .

والحاخامات، والكهنة هم الذين يضعون لليهود شرائعهم ويشرحون لهم التوراة والتعاليم الدينية ويعلقون عليها .

---

(١) مصدر هذا هو اتصال هاتفي أجريته مع الدكتور حسن محمد توفيق ظاظا، باحث كبير ومتخصص باللغة العربية والفكر اليهودي كان يعمل في مركز الملك فيصل في الرياض، وجرئ الاتصال يوم الأحد، ٤/٢/١٤١٦هـ، بعد الظهر .

(٢) الأسر البابلي حدث لليهود عندما غزاهم نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق. م وقيل ٥٨٧ ق. م وقتل ملكها ودمر أورشليم، وأسوارها وهيكلها وأحرقها بالناس ونهب خزائنها وقتل ثلث سكانها وسبى ثلثًا ورحل به إلى بابل عاصمته وأبقى الزمنى والشيوخ. انظر : المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، تأليف د. محمد علي البار، دار القلم دمشق. الدار الشامية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ص٩٩ .

واليهودي العادي ليس أهلاً لذلك فمن هنا جاء تقديس بل وعصمة علماء الدين عند اليهود.

والتلمود هو مجمل القواعد والوصايا والشرائع والتقاليد الدينية والأدبية والشروح والتفاسير والروايات المختلفة المتعلقة بدين وتاريخ جنس بني إسرائيل.

والتلمود على قسمين: المشنا والجمارا!

فقد كان اليهود حتى كتابة التلمود يتناقلونه مشافهة، فلما كثر عليهم وكبر دونوه وسموه المشنا، ثم زيد عليه متون وحواشي وشروح كثيرة وسميت هذه الزيادات بالجمارا.

والتلمود تلمودان: تلمود بابلي وتلمود أورشليمي، وهما مختلفان لغة ومحتوى حيث انقسم مُلك سليمان عليه السلام بعد وفاته إلى مملكتين فأصلا ودونا بعد زوال ملك بني إسرائيل بزمن طويل.

ويرجح بأن عملية تدوين التلمود قد بدأت مع بداية عملية تدوين التوراة في بابل في القرن السادس قبل الميلاد وظلت ممتدة بعد رجوع اليهود من الأسر البابلي سنة ٥٣٩ ق. م. في عدة مدن من فلسطين كالقدس وأريحا وطبرية.

وحجم التلمود البابلي أكبر من حجم التلمود الأورشليمي بأربعة أضعاف، والتلمود كما هو الآن بأصوله ومتونه وشروحه وتعليقاته يبلغ ستة وثلاثين مجلداً مطبوعة باللغة الانجليزية، وهي تشبه فعلاً موسوعة تشمل كل حياة اليهود[١].

ومما يتضح به تعظيم اليهود للتلمود والحاخامات **النقاط التالية:**

١ ـ اعلم أن أقوال الحاخامات هي أفضل من أقوال الأنبياء.

٢ ـ أن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارة (التلمود) فليس له إله.

٣ ـ أن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله.

٤ ـ أن مخافة الحاخامات هي مخافة الله»[٢].

---

(١) انظر: جذور الفكر الصهيوني، داود عبد العفو سنقرط، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ص٨٨ وما بعدها.

(٢) الإسلام والأديان دراسة مقارنة، د. مصطفى حلمي، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، ص١٥٨، وانظر الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة د. يوسف نصر الله، دار القلم، دمشق، دار العلوم، بيروت طبعة دار القلم الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م ص٥٠ وما بعدها.

٥ ـ أن الله يستشير الحاخامين على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لا يمكن حلها في السماء.

٦ ـ اليهود يعتقدون أن لكل الحاخامات سلطة إلهية وكل ما قالوه يعتبر أنه صادر من الله.

٧ ـ يجب الإلتفات إلى أقوال الحاخاميين أكثر من الإلتفات إلى شريعة موسى[١].

وتصور النقطة الثالثة السابقة أن ما يريده الحاخامات هو الذي يكون ويلغوا في هذا الأمر من الجرأة على الله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ أن ذُكر عنهم أنه «قد وقع يوماً الإختلاف بين الباري تعالى وبين علماء اليهود في مسألة فبعد أن طال الجدال تقرر إحالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الرابيين واضطر الله أن يعترف بغلطه بعد حكم الحاخام المذكور»[٢].

«وقال الحاخام مناحم في أقوال الحاخامات المتناقضة فيما بينها: «إنها كلام الله مهما وجد فيها من التناقض! فمن لم يعتبرها أو قال إنها ليست أقوال الله فقد أخطأ في حقه تعالى».

وذكر في كثير من كتب اليهود: «أن أقوال الحاخامات المناقضة لبعضها منزلة من السماء ومن يحتقرها فمثواه جهنم وبئس المصير».

والحاخامات الذين ألّفوا التلمود يأمرون بالطاعة العمياء لهم ويدعون أن ما جاء في التلمود من التناقض بين أقوال الحاخام «هلال» والحاخام «شماي» صادر كله من الله، ولو أن هذين الحاخامين لم يتفقا على لفظة مهمة أو غير مهمة، وقد حصلت مشاحنة يوماً ما بين حاخامين: أحدهما يدعي الرابي «شايا» والثاني «بار كبارة» وحلف كل منهما أن أحد الخامات قال كيت وكيت مما ادعوه، ولم يفصل في الخلاف الواقع بينهما، فجاء الحاخام «روسكي» وقال: «إن الحاخامين المذكورين قالا الحق لأن الله جعل الحاخامات معصومين من الخطأ...»[٣].

---

(١) انظر عن: ٥ و ٦، ٧: جذور الفكر اليهودي، ص٩٥.

(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود، ص٥٣.

(٣) المصدر السابق، ص٥٢ ـ ٥٣.

فهذه العصمة للحاخامات على أمور متناقضة في جهة وزمان غير منفكين والأدهى والأطم أن «حمار الحاخام لا يمكن أن يأكل شيئًا محرمًا»[١] وهذا يتمشى مع المثل القائل كلب الوزير وزير الكلاب. فكما أنك لن تجد مخرجًا لعصمة الحاخامات فإنك لن تجد مخرجًا لعصمة حمار الحاخام.

وتعظيم اليهود للتلمود إنما هو تعظيم للآثار أدى بهم إلى الاستكبار على الله والغلو في حاخاماتهم، وتعظيمهم إنما هو تعظيم للآثار من حيث النوع فنوع الحاخامات يتوارث اليهود تعظيمهم.

بقي أن يُعلم أن ما يذكر عن الحاخامات من الأمور الخارقة كالقول أن الحاخام الفلاني يخلق عجلاً له ثلاث سنين إنما هو ممارسة للسحر حيث أن كثيراً من اليهود مولّعون به واشتهروا به وارتبط بهم والتلمود يذكر ذلك: «كان الرابي (يناي) يحول الماء إلى عقارب وقد سحر يومًا ما امرأة وجعلها حمارة وركبهاووصل عليها إلى السوق... إن أحد مؤسسي ديانة التلمود كان في إمكانه أن يخلق رجلاً بعد أن يقتل آخر وكان يخلق كل ليلة عجلاً عمره ثلاث سنوات بمساعدة حاخام آخر، وكانا يأكلان منه معًا وكان أحد الحاخامات أيضًا يحيل القرع والشمام إلى غزلان ومعيز، وقال معلم السحر (إليفاس ليفي) اليهودي: (إن التلمود أول كتاب سحري)[٢] «والتلمود يمتلئ بطقوس السحر والشعوذة والعرافة»[٣] وهذا الخلق المزعوم والإحالات شرك في توحيد الربوبية ومن ثم في الألوهية.

بقي أن أذكر ما ورد من تعظيم الآثار والمشاهد عند اليهود في القرآن قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ...﴾[٤].

فالأحبار علماء اليهود والرهبان عباد النصارى ومعنى الآية أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً لأنهم أطاعوهم كما

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود ص٥٣.

(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود، ص٦٢ـ٦٣.

(٣) التلمود تاريخه وتعاليمه، ظفر الإسلام خان، دار النفائس، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٥هـ، ص٧٢.

(٤) سورة التوبة: آية ٣١.

تطاع الأرباب[١].

ومن السنة: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٢]. وفي الصحيحين أن عائشة وعبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهم ـ قالا: لما نزل برسول ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال ـ وهو كذلك ـ «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما صنعوا[٣].

وهذه الأحاديث فيها دلال على أن اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مشاهد وهي على هذه الحال أدت بهم إلى الشرك بالله.

ويتصف اليهود بالذات بأوصاف شتى فهم «الأمة الغضبية وهم «اليهود» أهل الكذب والبهت والغدر والمكر والحيل قتلة الأنبياء وأكلة السحت ـ وهو الرشا والربا ـ أخبث الأمم طوية وأرداهم سجية، وأبعدهم من الرحمة، وأقربهم من النقمة، عادتهم البغضاء، وديدنهم العداوة والشحناء بيت السحر والكذب والحيل، لا يرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم من الأنبياء حرمة ولا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، ولا لمن وافقهم عندهم حق ولا شفقة ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نصفة، ولا لمن خالطهم طمأنينة ولا أمنة، ولا لمن استعملهم عندهم نصيحة، بل أخبثهم أعقلهم وأحذقهم أغشهم وسليم الناصية ـ وحاشاه أن يوجد بينهم ـ ليس بيهودي على الحقيقة، أضيق الخلق صدوراً وأظلمهم بيوتًا، وأنتنهم أفنية وأوحشهم سجية، تحيتهم لعنة ولقاؤهم طيرة شعارهم الغضب، ودثارهم المقت»[٤].

«واليهود لا ينشئون الأحداث كما يزعمون لأنفسهم وكما يتوهم من تبهرهم سيطرة اليهود في الوقت الحاضرولكنهم يجيدون انتهاز الفرص واستغلالها لتنفيذ مخططاتهم الشريرة، اليهود طبعوا على الانحراف فلا تستجيب جبلتهم المنحرفة

(١) فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، شركة مكتبة، ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م، ٢/ ٣٥٣.

(٢) رواه البخاري: ١/ ٦٣٤ ومسلم: ٥/ ١٥.

(٣) رواه البخاري: ١/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤، ومسلم بنحوه ١٦/٥.

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٣٠ ـ ٣١.

لدواعي الخير ولا تستقيم على الهدى إلا أن يشاء الله، جحدوا فضل الله عليهم وجحدوا أنبيائهم وجحدوا كل فضل قدمه إليهم أحد من البشر وقابلوا كل ذلك بإنكار الجميل والطمع والجشع وقساوة القلب.

اليهود انطووا على أنفسهم، بعد أن كرهتهم الأمم لخصالهم السابقة فامتلأت نفوسهم بالحقد الدفين على الأمم كلها، يريدون أن يقضوا على كل شعوب الأرض ليبقوا هم وحدهم أو يريدون أن يسخروا الشعوب لمصالحهم وتحقيق أغراضهم الرخيصة.

اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار المؤهل للسيادة والزعامة والنبوة ومن ثم ينبغي أن تكون الأمم الأخرى خدمًا وعبيدًا لهم.

كان اليهود قبل بعثة النبي ﷺ يتنبأون بوجود نبي جديد من اليهود، فإذا قاتلهم المشركون توعدوهم بأنه سيبعث نبي نقاتلكم معه قتل عاد وإرم فلما ظهر النبي الجديد - ﷺ - وكان من غير نسل داود ضاقت صدورهم وتحرك الحقد في قلوبهم وفاضت نفوسهم بالعداوة الشديدة للنبي ﷺ خاصة وللأمة الإسلامية عامة قال تعالى فيهم: ﴿... وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾[1].

وقد ظل اليهود يحملون هذه العداوة الدينية ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، كما ظلوا يحملون نفسية العلو والاستكبار وأن لهم رسالة خاصة من قبل الله تعالى في الأرض، حتى جاء على لسان أحد أقطاب اليهودية العالمية وهو «زيف غرينبرج»: (إن علو اليهود على ما عداهم من الأمم يكمن في رسالتهم ألا وهي المراقبة التاريخية على العالم، ذلك أن الشعب اليهودي هو الشعب الذي اختاره خالق الكون.. شعب له رسالة خاصة، إليه يرجع حق تعيين الخبيث من الطيب، إليه يرجع حق تعيين السبيل الذي يجب أن تتبعه الإنسانية وهذا القانون هو القانون الأزلي الذي جاءت به التوراة وليست هذه فلسفة أو فكرة دينية بل إنها حقيقة أزلية)[2] فلا يزال الخبث والكبر يجري في عروقهم والعنصرية العمياء تفسد قلوبهم.

---

(١) سورة البقرة آية ٨٩ وانظر معنى الآية في: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٣٤.

(٢) مخاطر الوجود اليهودي على الأمة الإسلامية، د/ محمد عثمان شبير، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢، ص١٤، ١٦-١٧.

المبحث الثاني

تعظيم الآثار والمشاهد عند النصارى

الفئة الثانية: النصارى.

النصارى الآن هم الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى بن مريم عليهما السلام ويسمون أنفسهم بالمسيحيين نسبة إلى المسيح بن مريم عليه السلام.

وعيسى عليه السلام كغيره من الرسل قبله لم يبعث إلا لقومه خاصة، وقومه هم بنو إسرائيل، ولكن بني إسرائيل انقسموا إزاء دعوته إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: كفرت به وكذبته وعادته.

الطائفة الثانية: آمنت به واهتدت بهديه.

الطائفة الثالثة: غلت فيه وهي فرق:

فريق جعله إلهًا من دون الله.

فريق جعله وأمه إلهين من دون الله.

فريق جعله شريكًا لله وهم نوعان.

نوع جعله شريكًا آخر من الله.

نوع جعله شريكًا ثالثًا مع الله وهؤلاء قسمان:

قسم يجعل الثلاثة: الله وعيسى ومريم.

قسم يجعل الثلاثة: الله وعيسى وروح القدس[1].

هذا الغلو في عيسى عليه السلام وُجد بعضه في عهده عليه السلام كرد فعل لمن عاداه وسبه من اليهود.

والذين كفروا بعيسى عليه السلام وعادوه وَشَوْا به عند الحاكم الروماني كي

---

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق د. علي بن حسن بن ناصر، د. عبدالعزيز ابراهيم العسكر، حمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى ١٤١٤هـ، ٢/ ١٣.

يقتله وجرى ما جرى من الشر والفتنة حتى شُبِّه لهم وصلبوا يهوذا الإسخريوطي ظنًا أنه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ...﴾[١].

وتعرّض أتباع عيسى بن مريم عليه السلام إلى أنواع من الإضطهاد المتتالي سواء من الحكام الرومانيين أو ممن عاداه وكذبه من بني إسرائيل وهذا هو الأكثر.

وكان وقت مبعث عيسى عليه السلام إبّان سلطة الإمبراطورية الرومانية على كثير من بقاع العالم الأوربي والشمال الإفريقي والشام عمومًا وشمال غرب آسيا[٢].

وكانت شعوب الدولة الرومانية أكثرها وثنية وإن كانت وثنيات مختلفة، وكان اليهود لهم جاليات متفرقة في بلدان الدولة الرومانية الوثنية مثل: روما والاسكندرية وأنطاكية وأثينا وهذه المدن كانت مراكز للفلاسفة أيضًا.

وبنو إسرائيل على تفرقهم واختلافهم في عيسى عليه السلام وغيره محسوبون عند الدولة الرومانية يهود على السواء بمعنى أن الدولة الرومانية كانت تنظر للعداء بين أتباع عيسى عليه السلام وبين مكذبيه على أنه مشكلة يهودية داخلية.

وانتشر أتباع عيسى عليه السلام في الدولة الرومانية بين ظهراني جاليات اليهود المتفرقة في بلدان الدولة يدعونهم إلى دين المسيح عليه السلام.

وكان هناك تقارب كبير في الديانة بين أتباع عيسى وأتباع موسى عليهما السلام فلما استقل أتباع عيسى بكنيسة مستقلة وانفصلوا عن معابد اليهود كان ذلك عاملاً من عوامل اتساع هوة الخلاف والافتراق.

فقد بدأت الكنيسة المستقلة تمارس طقوسها مخالفة لليهود بل خالفت شعائر عيسى عليه السلام.

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) النصرانية من التوحيد إلى التثليث، د. محمد أحمد الحاج، دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م، ص٤٨.

ثم اشتد انحراف اتباع عيسى بدخول بولس[١] اليهودي في ديانة النصارى ومن المعلوم أن أصل شريعة عيسى عليه السلام قريبة جدًا من شريعة موسى عليه السلام شرعه ومنهاجًا، أو ليس بينهما من فروق إلا ما جاء في شريعة عيسى عليه السلام من تحليل بعض الذي حرم على اليهود في شريعة موسى.

وكان أئمة شريعة عيسى عليه السلام. الأولين من أشراف بني إسرائيل من آل عمران وغيرهم[٢].

● أثر اليهود في إدخال الوثنية وإفساد شريعة عيسى عليه السلام:

كان من المواقف الصعبة التي عاشها النصارى الأُول هي عداوة الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام من اليهود فقد ضيقوا على النصارى واضطروهم إلى الهرب من بيت المقدس إلى المناطق المجاورة باستثناء الحواريين.

وكان اليهود يستعينون بالحكام الرومانيين والعوام الوثنيين ماأمكنهم ذلك وحاولوا أن يفتنوا النصارى عن إيمانهم ودينهم بالعنف والقوة من جهة، وحاولوا إفساد دينهم من جهة أخرى من داخله بنشر البدع والفرق فيهم وخاصة الفرق الباطنية القائلة بألوهية عيسى عليه السلام[٣]، ثم تلا ذلك ظهور بولس.

ويعتبر بولس هو المؤسس الحقيقي للديانة النصرانية المنحرفة، وقد طور فكرة المسيح من الناحية اللاهوتية ومن الناحية الإنسانية (الناسوتية)، وجعلها تتناسب مع فكرة الإنقاذ والمخلص القديمة الموجودة عند كثير من الوثنيات فقدم آدابًا مستحدثة

(١) بولس: ولد في طرطوس بآسيا الصغرى اسمه الأصلي شاءول روماني الجنسية، نشأ نشأة يهودية متحمسًا لأبيه ووطنه كان يضطهد النصارى ثم انخرط في النصرانية وأفسدها من داخلها بما أدخل فيها من الوثنية الرومانية وغيرها من الوثنيات.
انظر: النصرانية من التوحيد إلى التثليث ص١٤٢ ـ ١٥١.

(٢) انظر (مذكرة عمر فاروق) دراسات إسلامية، الملل والنحل: الاديان، إعداد عمر فاروق عبدالله، وعمر فاروق عبدالله كان نصرانيًا ثم أسلم وهو استاذ بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة (مذكرة مكتوبة بخط اليد) بتصرف ص٨٢. وانظر: المسيحية، شارل جنيير، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان ص١١٢ ـ ١٤٠.
وانظر النصرانية من التوحيد إلى التثليث ص٤٥ ـ ٤٨.

(٣) المصدر السابق، ص٨٢.

من طابع قديم مألوف وبهذا فصل دعوة عيسى عن أصولها في شريعة موسى عليه السلام.

وراسل بولس الجاليات المتفرقة في الدولة الرومانية من بني إسرائيل ودعا غيرها من الوثنيين، ونشط في ذلك ليدخل في ديانة النصارى طقوس الوثنية بدليل تنازله عن بعض الواجبات في الديانة النصرانية كإسقاط الختان وتسامحه عن بعض معتقدات الوثنيين وتساهله في إباحة لحم الخنزير فيدخل أكبر عدد ممكن من الوثنيين على ما معهم من وثنيات ويفسد بذلك دين عيسى بن مريم عليه السلام واندمجت بذلك الوثنية الرومانية بشريعة عيسى عليه السلام وغلبت الوثنية وكثر أتباع بولس ونشطوا في ذلك.

ومن الصور التي حقق بها هذا الاندماج ما يأتي:

١ - أن جعل عطلة الأسبوع يوم الأحد متبعًا في ذلك تقاليد Mithra ميثرا وأهمل يوم السبت وهو اليوم المقدس عند اليهود.

٢ - واقتبس بولس من الوثنيات كذلك أعياد رأس السنة وعيد القيامة وعيد الغطاس وأطلق عليها مسميات جديدة فعيد الربيع عن ostara أصبح عيداً لخروج عيسى من القبر حسب زعمهم.

وطقوس السر المقدس أخذت مكان معبد التضحية عند اليهود، وعيسى أصبح عندهم ابن الله حملت به أمه العذراء حملاً غير طبيعي، واحتلت صورة العذراء والمسيح مكانًا مقدسًا احتلته قديمًا صورتا حوروس وأوزيروس وضعتا في كل الكنائس[1].

وقال بألوهية المسيح وألوهية الروح القدس وأدخل قصة الفداء للتكفير عن خطيئة البشر من الوثنيات القديمة، وألغى الختان وأباح أكل لحم الخنزير[2] وكان بولس ينصح حديثي الإيمان أن يحتفظوا بما كانوا عليه من أحوال قبل إيمانهم

(١) المسيحية ضمن سلسلة: مقارنة الاديان، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة الطبعة الثامنة ١٩٨٤م بتصرف ص٩٤ - ٩٥.

(٢) المسيحية لأحمد شلبي، بتصرف ص١٢٩.

بالمسيح[1].

وحرص بولس على كثرة الأتباع وصار يقبل جميع من يدخل في النصرانية من أبناء جميع الديانات الوثنية علمًا أن أغلب هؤلاء الوثنيين يلغون كثيراً من وثنياتهم في الواقع لكنهم يلغونها بالاسم فيكون اسمها النصرانية وهي في الواقع الوثنية السابقة التي عليها ذلك الوافد[2]، فالنصرانية لم تستطع مدافعة الوثنيات فإنها إن كانت انتصرت عليها فذلك لأنها قد تحولت هي إلى تأليف ديني تجتمع فيه سائر العقائد والشعائر النابعة من العاطفة الدينية الوثنية المختلفة وقامت الديانة النصرانية بترتيبها وتركيبها وأضفت عليها الانسجام الذي تفتقر إليه بحيث استطاعت أن تقف بمفردها أمام أشتات من المعتقدات والشعائر التي يؤمن بها أعداؤها دون أن تظهر ضعفًا أو نقصًا عنها[3].

وكثر أتباع بولس ونشّطوا دعوته حتى «أنه كان يأتي البترك العظيم منهم إلى كنيسة معينة لصنم من الأصنام يعبده المشركون فيحتال حتى يجعلهم يعبدون مكان الصنم مخلوقًا أعظم منه كملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء كما كان بالأسكندرية للمشركين كنيسة فيها صنم اسمه ميكائيل فجعلها النصارى كنيسة باسم ميكائيل الملك وصاروا يعبدون الملك بعد أن كانوا يعبدون الصنم ويذبحون له.

وهذا نقل لهم من الشرك بمخلوق إلى الشرك بمخلوق أعلى منه، أولئك كانوا يبنون الهياكل ويجعلون فيها الأصنام بأسماء الكواكب كالشمس والزهرة وغير ذلك فنقلهم المبتدعون من النصارى إلى عبادة بعض الملائكة أو بعض الأنبياء»[4].

وكان بعد ذلك «مما ساعد على تغلغل الوثنيات في الديانة النصرانية اضطهاد الرومان لليهود - والرومان كانوا يعدون النصارى من فرق اليهود - ثم ثار اليهود على الرومان حوالي عام ١٣٢م من جراء كثرة ما لقوه من الإضطهاد، فما كان من الرومان إلا أن دمروا بيت المقدس والهيكل وطردوا اليهود من بيت المقدس ومنعوهم

(١) المسيحية لأحمد شلبي، بتصرف ص١٣٠.

(٢) انظر: المسيحية نشأتها وتطورها، شارل جنيبر، ص١٠٤.

(٣) انظر المصدر السابق، ص١٢١.

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ص٤/ ٣٨٢.

من الإقتراب منه وأحرقوا كتبهم، وكثر الاضطهاد على اليهود على فترات متقطعة، وإحراق الكتب كان من أسباب انفصال النصرانية عن أصولها اليهودية وهو أمر في غاية الخطورة حيث فقدت النصرانية أصولها التوحيدية[1]، ومن جراء تدمير بيت المقدس خرج النصارى المقيمون بالقدس وأقاموا في بلاد الوثنية الضالعة مع روما ورحب النصارى بتدمير الهيكل[2].

وكانت الجاليات اليهودية المتفرقة في الامبراطورية الرومانية قد وصلتها الدعوة إلى النصرانية فلما سقطت القدس فقدت النصرانية قبلتها وساعد ذلك كله على ظهور المراكز الأخرى كالإسكندرية وأنطاكية، وروما، وكانت الإسكندرية بالذات مركز المذاهب النصرانية الهلينية المائلة إلى الإنفصال عن اليهودية وبضياع اللغة والكتب الأصلية ضاعت كثير من معالم رسالة عيسى عليه السلام وفقدت مقوماتها عند النصارى وخاصة بعد استقلال المراكز[3].

• دور الدولة الرومانية في انحراف النصرانية إلى الوثنية:

بعد تدمير الرومان للقدس والهيكل نهضت كنائس مشربة بالوثنية بالزعامة النصرانية فكان الجدل والنقاش شديداً بين الموحدين من النصارى وبين من يرى التثليث ويقول بالمعتقدات الوثنية الأخرى سواء اليونانية منها أو الإغريقية أو الفرعونية أو الفينيقية وطال النقاش وأخذ فترة من الزمن حتى «جمع قسطنطين امبراطور الروم البطاركة والأساقفة فيما يسمى بمجمع فينيقية سنة ٣٢٥م، ليضع حداً لهذه الاختلافات وليقرر حقيقة المسيح وكان عدد المجتمعين ٢٠٤٨ وكان رأي قسطنطين أن كل العقبات التي وضعت في وجه الدعوة لم توقف إنطلاقتها فضلاً عن استئصالها فخير للدولة، والحال هذه أن تترك لها سبيل الظهور لتتنافس مع الأفكار المختلفة فإذا أثبتت صلاحها أخذت سبيلها للإنتشار العلني وإذا كانت الوثنية الرومانية المفلسة هي الأفضل لم تخسر الدولة شيئاً.

ومن هنا أطلق قسطنطين للنصارى حرية التحرك تحت سلطانه فكان عهد

(١) مذكرة عمر فاروق، ص٨٢.

(٢) النصرانية من التوحيد إلى التثليث ص٤٧.

(٣) انظر مذكرة عمر فاروق عبدالله، ص٨٣.

الانفراج الأول في تاريخ النصرانية وتنفست فيه الصعداء ولكن الذي حدث هو أن أناجيل كثيرة قد برزت وكل واحد يدعي أنه الحق وبينها من التناقض ما يستحيل معه التوفيق لذلك دعت السلطة الرومانية كبار البطاركة والأساقفة إلى مؤتمر يصفّون فيه خلافاتهم حتى كان مجمع نيقية الآنف الذكر، وفي هذا الاجتماع دوت الأصوات وتفجرت النظريات المختلفة بل المتباينة في شأن المسيح حتى استقر الأمر على فريقين أحدهما يقول بإنسانية المسيح، وأنه رسول الله وعلى رأسه آريوس، وقد انضم إليه ما يقارب ثلثي المؤتمرين، يقابله فريق الأقلية القائلين بألوهيته وعلى رأسهم بطريرك الإسكندرية، وكان طبيعياً أن يتجه قسطنطين إلى تأييد الفريق الأقرب إلى وثنيته إذا كان شديد التشبث بها[1].

ثم لم تلبث أن دفعت الأمبراطورية بكل طاقاتها لنصرة هذه الأقلية فأصدرت المراسيم وشهرت سيف العقوبات على كل مخالف لبطرك الأسكندرية حتى تفجرت المجازر الطائفية وغرقت شوارع الأسكندرية بدماء المخالفين[2].

بعد ذلك تعددت المجامع واضطهدت الكنسية أهل التوحيد من النصارى وفشت الوثنية وعظّمت الآثار والمشاهد، وكان ذلك من أسباب الشرك بالله عند النصارى فكثير من الكنائس تبنى على قبور ويتجهُ إلى هذه القبور بطلب المغفرة وقضاء الحاجات و «كنيسة القديس بطرس ـ أكبر كنيسة من نوعها في العالم المسيحي ـ تقوم على مساحة مكرسة للعبادة المسيحية منذ أكثر من سبعة عشر قرناً؛ إنها قائمة على قبر القديس نفسه ـ صياد السمك ـ حواري المسيح وتحت أرضيتها يقع تيه من المقابر الأثرية والخرائب الرومانية القديمة»[3].

فبعد أن كانت النصرانية موحدة تؤمن بالله الواحد ما لبث أن نشأت فيها أفكار

(١) انظر الملل والنحل ١/ ٢٢٣ محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ) تحقيق: محمد سيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة البابلي الحلبي بمصر ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، وكتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية لمحمد طاهر التنير ومحمد المجذوب، دار الشواف، الرياض، ١٩٩٢م ص١٧٠.

(٢) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: محمد طاهر ومحمد المجذوب، ص١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) مجلة المختار، عدد مايو، سنة ١٩٥٨م، مقال الفاتيكان: المدينة القديمة المقدسة، بقلم: دونالد كارلوس بيتي، ص٤٠.

غريبة نادت بالتثليث والأقانيم والتجسد، وتقديس الصليب والعشاء الرباني والمشاهد وغيرها.

فالتثليث أو تأليه المسيح سواء بكونه ثالث ثلاثة مع الله وروح القدس أو بتأليهه مع الله أو مع أمه من دون الله غلوّ في المسيح عليه السلام وتعظيم، ففكرة التثليث والأقانيم يعرفها الفكر الوثني منذ غابر العصور، والعلماء والمؤرخون النصارىٰ كلهم يعلن أن هذا التثليث الذي تقوم عليه نصرانية بولس وبطريرك الاسكندرية إنما هو القدر المشترك بين معظم الوثنيات الضاربة في القدم . . .

كان لدىٰ أكثر الأمم البائدة تعاليم دينية تقول باللاهوت الثلاثي . . . إذا أرجعنا البصر نحو الهند نرىٰ أشهر عباداتهم التثليث ويعبرون عنه بالأقانيم الثلاثة (برهما، فشنو وسيفا) ويؤمنون بأن هذه الثلاثة إنما تشكل ثلاث هيئات لشيء واحد تمامًا كما يقول النصارىٰ (أب وابن وروح قدس إله واحد . .)[1].

وهذه نقولات التثليث عند أمم مختلفة:

لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم دكته مرور القرون صنمًا له ثلاثة رؤوس علىٰ جسد واحد والمقصود منه التعبير عن الثالوث، والبوذيون الذين هم أكثر سكان الصين واليابان يعبدون إلهًا مثلث الأقانيم يسمونه فو ومتىٰ ودوا ويصورونه في هياكلهم بشكل الأصنام التي وجدت في الهند.

ويوجد في أحد المعابد المختصة ببوتالا في منشوريا تمثال فو مثلث الأقانيم.

وأنصار لادوكوا متذا وهو الفيلسوف الصيني المشهور وكان قبل المسيح عليه السلام بأربع سنين وستمائة يدعون شيعة تاوو ويعبدون إلهًا مثلث الأقانيم.

والمصريون القدماء كانوا يعبدون إلهًا مثلث الأقانيم مصورًا في أقدم هياكلهم ويظن أهل العلم أن الرمز الذي يصورونه وهو جناح طير ووكر وأفعىٰ إن هو إلا الإشارة عن ذلك الثالوث واختلاف صفاته.

وكان قسيسو هيكل ممفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم

(١) انظر العقائد الوثنية في الديانة النصرانية محمد طاهر التنير ومحمد المجذوب، نقلاً عن بعض من كتب عن النصارىٰ، ص١٧٢.

الدين بقولهم إن الأول خلق الثاني والثاني مع الأول خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس.

وكان اليونانيون القدماء الوثنيون يقولون إن الإله مثلث الأقانيم وإذا شرع قسيسوهم بتقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات إشارة إلىٰ الثالوث ويرشون المجتمعين حول المذبح بالماء ثلاث مرات ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ويعتقدون بأن الحكماء قد صرحوا أن كل الأشياء المقدسة يجب أن تكون مثلثة ولهم اعتناء قام بهذا العدد أي التثليث في كافة أحوالهم الدينية.

وكان الرومانيون الوثنيون القدماء يعتقدون بالتثليث وهو الله أولاً ثم الكلمة ثم الروح، وكان الفرس يعبدون إلهًا مثلث الأقانيم مثل الهنود تمامًا وهم «اورفرد ومثرات واهرمان».

وكان الأشوريون والفينيقيون يعبدون آلهة مثلثة الأقانيم وكان للفلنديين إله اسمه «تر يكلاف» وقد وجد تمثال له في هرتو بخوبرج له ثلاثة رؤوس علىٰ جسد واحد.

وكان السكندنافيون يعبدون إلهًا مثلث الأقانيم يدعونها «أودين وتورا وفري» ويقولون عن هذه الثلاثة أقانيم إنها إله واحد وقد وجد صنم يمثل هذا الثالوث المقدس بمدينة أو بسالة من أسوج . . .

والتتر الوثنيون عبدوا إلهًا مثلث الأقانيم وعلىٰ أحد نقودهم الموجودة صورة هذا الإله المثلث الأقانيم.

والمكسكيون يعبدون إلهًا مثلث الأقانيم يدعونه «تزكتليبوكا» ولما أرسل النصارىٰ داعيًا للنصرانية بين الهندوس المكسكيين أخبر بأنه لا داعي لدعوتهم إذ أنهم يؤمنون بإله كائن في السماء وأنه مثلث الأقانيم وهو الإله الأب والإله الابن والإله روح القدس ويعبدون صنمًا اسمه تنكاتنكا يقولون عنه أنه واحد ذو ثلاث أقانيم وأنه ثلاثة أقانيم إله واحد.

والهندوس الكنديون يعبدون إلهًا مثلث الأقانيم ويصورونه بشكل صنم له ثلاث رؤوس علىٰ جسد واحد.

وهكذا نرى التشابه بين أديان الوثنيين[١]، ويتضح بذلك وثنية تثليث النصارى وأساسها الوثني ولا تزال تماثيل المسيح عليه السلام وأمه وصورة حمامة وسط دائرة من نور رمز روح القدس منتشرة في الكنائس وهذا اهتمام منهم بالآثار وتعظيم لها أدى بهم إلى عبادتها[٢].

وقد قال الله تعالى عنهم: ﴿... وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ...﴾[٣].

وكان أول ما كان من تقديس أمر الصور والتماثيل للتذكر والتعظيم حينما انعقد «المجمع السابع بأمر الملكة ايريني بمدينة نيقية ويسمى المجمع النيقاوي الثاني سنة ٧٨٧ وكان أعضاؤه ٣٧٧ أسقفًا وأصدروا القرار بتقديس صور المسيح والقديسيين لا لعبادتها وجاء هذا القرار: (إنا نحكم بأن توضع الصور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط، بل في البيوت وعلى الجدران في الطرقات لأننا إن أطلقنا مشاهدة يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسل وسائر القديسيين في صورهم شعرنا بالميل الشديد إلى التفكير فيهم والتكريم لهم فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور لا العبادة)»[٤].

«وهكذا دخلت هذه العبادة في الكنيسة غير أن الشرقيين لم يقبلوا غير الصور وتمسك الغربيون بالتماثيل والصور جميعًا وما زالت هذه حالهم إلى اليوم»[٥].

إن حركة الإصلاح الكنسي التي حدثت في أول القرن السادس عشر الميلادي كان من أهم مبادئ الإصلاح فيها هو «عدم اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس

(١) انظر العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر التنير تعليق: محمد ابراهيم الشيباني، مكتبة ابن تيمية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، ص٣٨-٤٥ وانظر أيضًا النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١١١. وانظر المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام، د/ محمد وصيفي، دار الفضيلة، ص١٣٥-١٤١٥ وانظر المسيحية، أحمد شلبي ص١٣٥.

(٢) انظر النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١٤٧-١٤٨.

(٣) سورة التوبة، آية ٣٠.

(٤) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، بمصر، ص١٤٤-١٤٥.

(٥) المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام، ص١٢٣.

وعدم السجود لها فذلك للوثنية أقرب»[١].

لكن الرهبان استخدموا الحيل لجرّ العوام إلى تقديسهم فالعوام ينظرون إلى من ظهرت على يديه خوارق على أنه ولي وبلغة النصارى هو قديس عظيم[٢]، فمن ذلك «الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة وهو أن بعضهم مرّ بدير راهب وأسفل منه نخلة فأراه النخلة صعدت شيئًا فشيئًا حتى حاذت الدير فأخذ من رطبها ثم نزلت حتى عادت كما كانت فكشف الرجل الحيلة فوجد النخلة في سفينة في مكان منخفض إذا أرسل عليه الماء امتلأت حتى تصعد السفينة وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في التكحل بدموع السيدة يضعون كحلاً في ماء متحرك حركة لطيفة فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة فيخرج من عينها فيظن أنه دموع، ومثل الحيلة التي صنعوها بالصورة التي يسمونها القونه بصيدنايا وهي أعظم مزاراتهم بعد القمامة[٣] وبيت لحم حيث ولد المسيح وحيث قبر -على زعمهم- فإن هذه صورة السيدة مريم -على زعمهم- وأصلها خشبة نخلة سقيت بالأدهان حتى تنعمت وصار الدهن يخرج منها دهنًا مصنوعًا يظن أنه من بركة الصورة»[٤].

وهكذا أدى تعظيم الصورة والتماثيل إلى استحباب وضعها في أماكن العبادة وفي الطرقات والبيوت[٥]، وإن لم يكن بقصد العبادة لكنه مع مرور الوقت أدى إلى عبادتها وتقديسها ودعائها من دون الله.

● **تقديس الصليب:**

«إن فكر الصلب للتكفير ليست من النصارى في شيء ويبدو أنها وردت

(١) المسيحية أحمد شلبي، ص٢٦٠، وانظر محاضرات في النصرانية، ص١٨٧.

(٢) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/ ٣٣٨.

(٣) أي كنيسة القيامة.

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٢/ ٣٣٩-٣٤٠.

(٥) انظر المصدر السابق، نفس الجزء والصفحات، حاشية رقم ٤ من صفحة ٣٩٩.

للنصرانية من عقائد أخرى وبخاصة عقيدة الهنود إذ أننا نجد هذه الفكرة من عقائد الهنود قبل أن يأتي المسيح بمئات السنين. فهم يعتقدون أن كرشنا المولود البكر الذي هو نفس الإله (فشنو) الذي لا ابتداء له ولا انتهاء تحرك حنواً كي يخلص الأرض من ثقل حملها فأتاها وقدم نفسه ذبيحة عن الإنسان، ويصورونه مصلوبًا مثقوب اليدين والرجلين ويصفون كرشنا لذلك بالبطل الوديع المملوء لاهوتًا، لأنه قدم نفسه ذبيحة من أجل البشر.

وفي بلاد النيبال والتبت يعتقدون أن إلههم (أندرا) سفك دمه بالصلب وثقب بالمسامير لكي يخلص البشرية من ذنوبهم وأن صور الصلب موجودة في كتبهم[١].

يقول ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ تحت عنوان: أول من ابتدع شارة الصليب قسطنطين: «لما سمع أهل رومية بقسطنطين وأنه مبغض للشر محب للخير وأن أهل مملكته معه في هدوء وسلامة كتب رؤساؤهم إليه يسألونه أن يخلصهم من عبودية ملكهم فلما قرأ كتبهم اغتم غمًا شديدًا وبقي متحيرًا لا يدري كيف يصنع...، فظهر له على ما يزعم النصارى نصف النهار في المساء (صليب) من كوكب مكتوبًا حوله: (بهذا تغلب) فقال لأصحابه رأيتم ما رأيت؟ قالوا: نعم، فآمن حينئذ بالنصرانية، فتجهز لمحاربة قيصر المذكور[٢]، وضع صليبًا كبيرًا من ذهب وصيره على رأس البند وخرج بأصحابه فأعطي النصر على قيصر فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وهرب الملك ومن بقي من أصحابه فخرج أهل رومية إلى قسطنطين بالإكليل الذهب وبكل أنواع اللهو واللعب فتلقوه وفرحوا به فرحًا عظيمًا فلما دخل المدينة أكرم النصارى وردهم إلى بلادهم بعد النفي والتشريد وأقام أهل رومية سبعة أيام يعيدون للملك وللصليب»[٣].

(١) انظر: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد التنير، ومحمد المجذوب، ص٣٣.

(٢) قيصر المقصود الملك الذي طلب من قسطنطين أن يخلصهم منه ومن عبوديته.

(٣) كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، شمس الدين محمد بن أبي بكر، ابن القيم الجوزية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، المكتبة القيمة، مدينة ناصر، مصر الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ ص٢٥٨.

«والثابت تاريخيًا أن النصارى في القرون الأولى قبل الملك قسطنطين لم يعرفوا رسم علامة الصليب على وجوههم بالأصابع وظهر تبرير ذلك برواية تحكي عن هذا الملك أنه رأى في السماء صورة صليب من ذهب وملك يقول له: إن كنت تريد غلبة أعدائك فاجعل هذه الصورة علامة قدامك (وآمن وفعل ما قاله الملك فنصر وهو الذي بحث عن صليب المسيح حتى وجده مدفونًا وعمل من المسامير التي كانت فيه لجامًا لفرسه وزين جبينه بصليب من ذهب فاستمر لنا علامة على النصر والظفر)[١].

ثم تذكر النصارى أسبابًا لتقديسهم وتعظيمهم الصليب فزعموا أن المسيح عليه السلام قال: (إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني) ومعنى حمل الصليب عندهم هو الاستهانة بالحياة والاستعداد للموت في أبشع صورة أي صلبا على خشبة كما يفعل بالمجرمين والآثمين.

وقويت فكرة تقديس الصليب بعد صلب عيسى ـ على حد زعمهم ـ فأصبح أداة تذكر النصارى بالتضحية الضخمة التي قام بها المسيح من أجل البشر، كذلك من أسباب تعظيم الصليب إعتقاد النصارى أن الصليب يشبه الصليب الذي لمس جسم المسيح عند صلبه على حد زعمهم[٢].

ومن العجيب أن الكنيسة التي تعلن الحرب على الأصنام هي بذاتها تقدس صليبًا مصنوعًا من معدن أو خشب وتوصي بتقديسه»[٣].

وأصبح حمله علامة على أتباع المسيح[٤].

وفلسفوا ذلك بأنه «إشعار بإنكار النفس واقتفاء أثر المسيح في هذا الإنكار والسير وراء مخلصهم وفاديهم»[٥].

(١) الإسلام والأديان، دراسة ومقارنة، ص٢٢٧.

(٢) انظر المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام، ص١٢٢، حاشية رقم ٢.

(٣) المسيحية، أحمد شلبي، ص١٧٤.

(٤) انظر محاضرات في النصرانية، ص١١.

(٥) محاضرات في النصرانية، ص١١٠.

وأصبح الصليب يعبد ويقدس تقديس عبادة ويدعى ويناجى عند النصارى فمن ذلك قولهم: «السلام عليك أيها الصليب خلص هذا الجمهور المجتمع اليوم لتقديسك أيها الصليب الذي أتى بالخلاص للأشقياء»[١].

«للثالوث الأقدس ولصليب ناسوت ربنا يسوع المسيح وللعذراء المباركة الدايمة البتولية ولجميع القديسين[٢] ليكن الحمد الدائم والكرامة والثناء والمجد في كل الخليقة ولنا مغفرة خطايانا إلى الأبد آمين»[٣] هكذا يقولون في دعائهم.

فالصليب أثر من الآثار بعد أن كان أداة لقتل المسيح عليه السلام على حسب افتراء أهل الكتاب وما قد شبه لهم، وكان حقه أن لا يعظم ولا يقدس لكن أصبح له مكانة وقداسة وارتقى به النصارى حتى بلغوا به درجة الإله وتوجهوا إليه بالعبادة وأصبحت الكنائس مليئة بما يسمونه بالتصاوير والمناظر الدينية وهي تعني صور القديسين وصوراً للمسيح عليه السلام وأمه - على زعمهم الباطل - وصور الصليب وصوراً تترجم بعض المعجزات التي تنسب للمسيح عليه السلام كما تحتوي الكنيسة غالباً على العديد من الإيقونات[٤] التي تحكي قصة حياة المسيح من البشارة ثم الميلاد ثم العماد بنهر الأردن ثم دخول القبر ثم قيامة اليعازار، ثم أحد السعف ثم زواج قانه ثم العشاء الأخير، ثم الصلب، ثم صعود الروح، ثم التجلي[٥].

«وأصبح النصراني الذي لا يرسم الصليب على وجهه أو لا يقبله يعد مرتداً عن

(١) المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام، ص١٢٢.

(٢) تنقش جدران أكثر الكنائس ويرسم عليها مناظر للقديس، انظر آثار مصر القديمة في كتابات الرحالة العرب والأجانب، جيلاس عباس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ص١٨١.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) الإيقونة كلمة يونانية تعني صورة ومع انتشار المسيحية اكتسبت هذه التسمية أهميتها وأصبحت تطلق على صور المسيح والعذراء والقديسيين، انظر آثار مصر القديمة ص١٨٥.

(٥) آثار مصر القديمة، ص١٨٥.

النصرانية»[١].

ومن الآثار التي يحج إليها النصارى ويعظمونها ويقدسونها كنائس وأديرة ومنشآت دينية خاصة في مصر وفلسطين والشام فـ«بالرغم من قصر المدة الزمنية التي سادت فيها المسيحية كديانة رئيسية للمصريين - القرن الرابع حتى السابع الميلادي - إلا أن تلك المدة قد أمدت مصر ببعض أهم آثارها ومعالمها المسيحية من كنائس وأديرة ومنشآت دينية وقد لفتت هذه الآثار نظر معظم الرحالة الغربيين الذي عدوا ارتياد تلك المناطق جزءً من زيارتهم للأماكن المقدسة ونوعاً من الحج»[٢].

لكن السبب الرئيس إنما هو المنشآت الدينية والمقصود بها الأماكن التي تنقّل بينها المسيح عليه السلام أثناء لجوء العائلة المقدسة كما يقولون[٣] كمنطقة المطرية وبها ثلاث مزارات بستان البلسان والبئر الذي يسقي البستان - ويقال أن أم المسيح غسلت فيه ملابس المسيح - وشجرة العذراء.

وبستان البلسان نبت بعد أن صبت أم المسيح ماء غسيل ثياب المسيح على الأرض حسب زعمهم، أما بستان البلسان فإنه يستخرج منه دهن لعلاج المبرودين وللنصارى فيه غلو عظيم فإنه «لا يصح عندهم لأحد أن يتنصر إلا إذا انغمس في ماء المعمودية ويعتقدون أنه لابد أن يكون في ماء المعمودية شيء من دهن البلسان»[٤].

ولهم في ذلك شعر:

انظر إلى أنوار بشر البلسم ... فهي سبيل صحتي من سقم

لكونها فيما يقال تنتمي ... إلى المسيح السيد ابن مريم

وكانت ملوك الفرنج تتغالى في ثمنه ولهم فيه اعتقاد عظيم ولا يتم النصر

(١) انظر: المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام ص١٢١.

(٢) آثار مصر القديمة، ص١٦٦.

(٣) آثار مصر القديمة، ص١٩٢.

(٤) آثار مصر القديمة، ص٢٠٢.

عندهم إلا بدهن البلسان يضعون منه شيئًا في ماء المعمودية وينغمسون فيه وكان يُشترىٰ بثقله ذهبا»[1].

فصحة الأبدان والنصر على الأعداء يطلبان من دهن شجرة يزعم أنها نبتت من غسالة ملابس عيسىٰ بن مريم عليه السلام.

وقد ورد في كتاب الله سبحانه وتعالىٰ وسنة نبيه ﷺ ما يدل على غلوهم في صالحيهم وآثارهم:

قال تعالىٰ: ﴿ ... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿ ... فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿ ... اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾[4].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ

(١) آثار مصر القديمة، ص٢٠٢.

(٢) سورة المائدة، الآيات: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) سورة النساء، آية: ١٧١.

(٤) سورة التوبة، الآيات ٣١ ـ ٣٢.

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ ... وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ... ﴾[5].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) ﴾[6].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾[7].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ

(١) سورة المائدة، الآيات: ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٣) سورة يونس، آية: ٦٨.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٢٦.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٠١.

(٦) سورة البقرة، الآيات: ١١٦ ـ ١١٧.

(٧) سورة النساء، الآيات: ١٥٦ ـ ١٥٨.

انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤)﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥)﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً

(١) سورة النساء، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٤.

(٢) سورة مريم، الآيات: ١٦ ـ ٣٥.

وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾[2].

فهذه الآيات واضحة الدلالة والبيان على الأمور الآتية:

الأمر الأول: أن الله تعالى خلق عيسى عليه السلام من غير أب.

الأمر الثاني: أن الله سبحانه وتعالى ليس له صاحبة ولا ولد تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الأمر الثالث: أن ما عند عيسى عليه السلام من المعجزات كإحياء الموتى وشفاء المرضى وخلق الطير كل ذلك بإذن الله سبحانه وتعالى.

الأمر الرابع: الدعوة إلى المباهلة: فقد طلب الله من نبيه محمد ﷺ دعوة

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٤٥ ـ ٥١.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٥٩ ـ ٦٤.

النصارى إلى المباهلة ممن يحاج في عيسى عليه السلام ويدعي غير ما قال الله عنه ثم دعاهم إلى نبذ الشرك والدخول في الإسلام.

وعن عائشة أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»**[١].

وعن جندب قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: **«إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد أني أنهاكم عن ذلك»**[٢].

* * * * *

(١) رواه مسلم: ٥/ ١٤.

(٢) رواه مسلم: ٥/ ١٧.

الفصل الثالث

تعظيم الآثار والمشاهد عند أمم أخرى

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعظيم الآثار والمشاهد عند الهنود.

المبحث الثاني: تعظيم الآثار والمشاهد عند الفرس.

*****

المبحث الأول

تعظيم الآثار والمشاهد عند الهنود

بلاد الهند بلاد واسعة وفيها عدة ديانات من أقدمها وأكثرها انتشاراً الديانة الهندوسية.

ويرى بعض علماء الأديان أنها ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وهي تنسب إلى برهما ولها أسفار مقدسة عندهم تسمى الفيدا ومعناها المعرفة أو العلم وهي أربعة مجموعات وكل مجموعة تنقسم إلى قسمين:

أ ـ قسم للأدعية والصلوات وتسمى منترا.

ب ـ قسم للتعاليم المتعلقة بالعبادات والشرائع وتسمى برهمانا.

وهذه المجموعات الأربع هي:

١ ـ الريج فيدا وهي في العبادات والصلوات والأدعية.

٢ ـ ياجورفيدا وهي أوراد وتنزيه وأدعية وصلوات تتلى في بعض المناسبات.

٣ ـ سامان فيدا وهي مجموعة مزامير وأناشيد للمناسبات والعبادات.

٤ ـ آثار فانافيدا وهي مجموعة من أدعية وأوراد ورُقى ضد السحر وضد الأرواح الخبيثة[1] وهذا على حد زعم الهندوس.

● **عقيدة الهندوس في الله:**

تَجْمَع عقيدة الهندوس في الله بين وحدة الوجود وتعدد المعبودات فتقرر الأسفار البرهمية أن الله واحد لا شريك له وأنه قد صدرت عنه جميع الكائنات وسرت منه روح في الجماد والنبات والحيوان فالموجود بحق هو الله وليست هذه الكائنات إلا مظاهر منه وهذا بعينه وحدة الوجود[2] ثم حصل تغيير في معتقدهم

(١) انظر عن ما سبق: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، علي عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع القاهرة مصر، ص١٧٥ ـ ١٧٨.

(٢) انظر تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة ص٢٣، وانظر الأسفار المقدسة في الأديان

وتحريف على مر الأيام ودخل في اعتقادهم عقيدة التثليث فقد زعموا أن براهما كان قبل الوجود في فضاء لا نهاية له ثم خلق العالم بقوة إرادته وبفيض من ذاته وسمى نفسه الخالق.

ثم انبثق الإله المدمر ـ سيفا ـ وهو إله الدمار والخراب ولو ترك وشأنه لأفنى كل الموجودات لهذا انبثق من براهما إله ثالث يحفظ ويجدد الكائنات وهذا الإله هو فيشنو.

ويتجه البرهميون بمعظم عباداتهم إلى ذلك الإله الحافظ فشنو[1].

وعن مبدأ عبادة الأصنام عندهم فإن لذلك قصة وهي أن ملكًا من ملوك الهند نال من الملك مناه فرغب عنه وزهد في الدنيا وتخلى للعبادة والتسبيح يريد من وراء ذلك رؤية الرب ثم إن الرب تجلى له ودار بينهما كلام وعند نهاية الكلام خشي هذا الملك أن لا يرى الرب وخاف أن ينساه[2] فأجابه الرب: «فإن غلبك نسيان الانسية فاتخذ تمثالاً كما رأيتني عليه وتقرب بالطيب والأنوار إليه ـ أي إلى التمثال ـ واجعله تذكاراً لي لئلا تنساني حتى إن عنيت فبذكري وإن حدثت فباسمي وإن فعلت فمن أجلي قال الملك قد وقفت على الجمل فأكرمني بالبيان والتفصيل قال: قد فعلت وألهمت (بسشت) قاضيك جميع ما يحتاج إليه، فعول في المسائل عليه ثم غاب الشخص عن عينيه ورجع الملك إلى مقره وفعل ما أمر به قالوا: فمن وقتئذ تعمل الأصنام... الخ[3].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومثل هذا قد جرى لخلق عظيم في زماننا وقبل زماننا كناس كانوا بـ (تدمر) فرأوا شخصًا عظيمًا طائراً في الهواء وظهر لهم مرات بأنواع من اللباس وقال لهم: أنا المسيح ابن مريم وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح ـ عليه السلام ـ وحضروا إلى عند الناس وبينوا لهم أن ذلك شيطان أراد أن يضلهم.

السابقة للإسلام، ص١٨٢.

(١) انظر أديان الهند الكبرى، سلسلة: مقارنة الأديان أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة التاسعة، ١٩٩٠م، ص٥٢ ـ ٥٤.

(٢) انظر تحقيق ما للهند، ص٧٩ ـ ٨٠.

(٣) تحقيق ما للهند ص٨٠ ـ ٨١.

وآخرون يأتي أحدهم إلى قبر من يعظمه ويحسن به الظن من الصالحين وغيرهم فتارة يرى القبر قد انشق وخرج منه إنسان على صورة ذلك الرجل، وتارة يرى ذلك الإنسان قد دخل في القبر وتارة يراه إما راكبًا وإما ماشيًا داخلاً إلى مكان ذلك الميت كالقبة المبينة على القبر وتارة يراه خارجًا من ذلك المكان ويظن أن ذلك هو ذلك الرجل الصالح وقد يظن أن قومًا استغاثوا به فذهب إليهم ويكون ذلك شيطانًا تصور بصورته وهذا جرى لغير واحد ممن أعرفهم، وتارة يستغيث أقوام بشخص يحسنون به الظن إما ميت وإما غائب فيرونه بعيونهم قد جاء وقد يكلمهم وقد يقضي بعض حاجاتهم فيظنونه ذلك الشخص الميت وإنما هو شيطان زعم أنه هو وليس هو إياه، وكثيراً ما يأتي الشخص بعد الموت في صورة الميت فيحدثهم ويقضي ديونًا ويرد ودائعًا ويخبرهم عن الموتى ويظنون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم وإنما هو شيطان تصور بصورته.

وهذا كثير جدًا لا سيما في بلاد الشرك كبلاد الهند ونحوها»[1]، وقال بعض حكماء الهندوس: أن «الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى وأنها حية ناطقة وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله وأن كل ما يحدث في هذا العالم فإنما هو على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم فمكثوا على ذلك دهرًا فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار وفي بعض أوقات الليل.. أمرهم بعض من كان من حكمائهم أن يجعلوا لها أصنامًا وتماثيل على صورها وأشكالها فجعلوا لها أصنامًا وتماثيل.. وبنوا لكل صنم بيتًا وهيكلاً مفردًا وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب... ثم إن الهند لم تزل على ذلك حتى طال العهد فعبد الهنود الأصنام على أنها تقربهم إلى الله»[2].

وسرت في البراهمة عبادة الأصنام التي ترمز إلى الآلهة أو إلى الملائكة أو إلى الكواكب أو القديسين وتفننوا في صنعها ووضعوا لنحتها قواعد ومقاييس مضبوطة تختلف باختلاف ما ترمز إليه وأعطوا لكل منها اسمًا خاصًا وتقربوا إليها بالصدقات

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/٣١٨-٣١٩.

(٢) انظر منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، هادي حسين حمود، الناشر دار القادسي للطباعة طبع في مطبعة عصام، بغداد، الطبعة الأولى حزيران، سنة ١٩٨٤، ص١٢٣-١٢٤.

والقرابين[1].

والجهل أساس الضلال فإن: «هؤلاء الجهال إذا وجدوا نجاحًا بالإتفاق أو العزيمة وانضاف إلى ذلك شيء من مخاريق السدنة بالمواطأة قويت غياياتهم لابصائرهم وتهافتوا على تلك الصور يفسدون عندها صورهم بإراقة دمائهم والمثلة بأنفسهم بين أيديها»[2].

قال أحد زعماء الهند[3]: «إن قدامى الهنود قد علقوا أهمية كبيرة على الزراعة ومن ثم عظموا كل شيء من شأنه أن ينهض بها، فرأوا الأنهار الكبرى يتوقف على مائها نمو النبات، فنظروا إليها نظرة إكبار، ورأوا ما يقدم إليهم البقر من مساعدة جليلة في شئون الحرث والزراعة على العموم فعظم شأنه لديهم ومع تقادم العهد نسي الناس السبب في تعظيم قدمائهم للأنهار والبقر وأخذت صفة القداسة تسري إليها فاعتبروها بمثابة الآلهة وعبدوها»[4].

«وقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس فقد كان عدد الآلهة في (ويد) ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليون وقد أصبح كل شيء رائع وكل شيء جذاب وكل مرفق من مرافق الحياة إلهًا يعبد، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصر وأربت على العد فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله - على زعمهم الباطل - في عهود وحوادث معروفة، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس (مهاديو) الإله ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة، والأجرام الفلكية وغير ذلك وأصبحت الديانة نسيجًا من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان.

وقد ارتفعت صناعة نحت التماثيل... وبلغت أوجها في القرن السادس

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص١٨٦، وانظر أديان الهند الكبرى ص٥٥.

(٢) تحقيق ما للهند، ص٨٦.

(٣) هو جواهر لال نهرو أحد رؤساء الوزارة بالهند.

(٤) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص١٨٦.

والسابع حتى فاق هذا العصر في ذلك العصور الماضية وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام»[1] .

فعدم القناعة إلا بالمحسوس جعلهم يجسدون المعبود وإن لم يقدموا العبادة لذلك الجسد المنحوت أو المرسوم سواء كان تمثالاً أو صورة ومع تقادم العهد وتعظيم الآثار والمشاهد تحولت العبادة إلى ذات التماثيل والصور فإن رسم ونحت صور وتماثيل العظماء والزعماء وما يتوهم أن له قدرة في مجريات الكون كالكواكب والملائكة ثم إبراز تلك الصور والتماثيل على اعتبار أن المراد بها التذكير بأصحابها وبمالهم من الهيبة والقداسة والمكانة قد أدى إلى عبادتها .

لأن القلب يتصاغر أمامهم ويشعر أن لتلك الصور والتماثيل قيمة ومكانة عالية تستحق الانكسار أمامها مما يعني بداية الخضوع لها وتقديس أقوالها وإعطائها قدراً أكبر مما تستحقه .

ثم يتدرج الخضوع والانكسار في النفس التي تشاهد هذه الصور والتماثيل ويتدرج التعظيم لها إلى أن يرجى نفعها ويخشى ضرها عندهم ومن ثم يُطلب منها جلب النفع ودفع الضر وهذا محوج إلى تقديم قرابين تسمى في أول أمرها هدايا وسواء كانت هذه الهدايا تقدم إلى الصورة أو التمثال بنفسها أصالة أو إليها وكالة عن من تمثله مع أنه غالبًا ما ينسى أنها نائبة فتعتبر صاحبة حق «وإن العامي ينزع إلى المحسوس ولسكونه إلى المثال عدل كثير من أهل الملل إلى التصوير وهذا هو السبب الباعث على إيجاد الأصنام بأسامي الأشخاص المعظمة من الأنبياء والعلماء والزعماء والفاتحين وغير ذلك من الملائكة والكواكب مُذكِّرة ـ أي هذه الصورة ـ أمرهم عند الغيبة والموت مُبْقِية آثار تعظيمهم في القلوب لدى الفوت إلى أن طال العهد بعامليها ودارت القرون والأحقاب عليها ونُسيت أسبابها ودواعيها وصارت رسمًا وسنة مستعملة ثم داخلهم أصحاب النواميس من بابها إذ كان ذلك أشد انطباعًا فيهم فأوجبوه عليهم»[2] .

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن علي الحسيني الندوي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان الطبعة الثامنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص٤٧ .

(٢) انظر تحقيق ما للهند، ص٧٨ .

المبحث الثاني

تعظيم الآثار والمشاهد عند الفرس

ديانة الفرس غالبًا هي المجوسية .

والزرادشتية علمًا عليها[1] .

والزرادشتيون هم: «أصحاب زرادشت بن يورشب الذي ظهر في زمان كشتاسب بن لهراسب الملك وأبوه من أذربيجان وأمه من الري واسمها دغدوية»[2]، «والراجح أنه ولد سنة ٦٦٠ قبل الميلاد بأذربيجان»[3] .

• **ديانته:**

«وكان دينه عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث .

وقال: النور والظلمة أصلان متضادان، وكذلك يزدان وأهرمن وهما مبدأ موجودات العالم وحصلت التراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور من التراكيب المختلفة والباري تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة[4] . . . لكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ولو لم يمتزجا لما كان

(١) انظر الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبدالغفور عطار، مكة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ جـ١ ص٢٤٠ ـ ٢٤١ .

(٢) الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني ١/١٣٦، وانظر الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص١٤٧ .

(٣) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص١٥٠ .

(٤) وهذا يمثل بداية انحراف بداية الديانة الزرادشتية في توحيد الربوبية حيث يلزم أن يكون خالق غير الله للظلمة .

وجود العالم، وهما يتقاومان ويتغالبان إلىٰ أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ثم يتخلص الخير إلىٰ عالمه والشر ينحط إلىٰ عالمه وذلك هو سبب الخلاص، والباري تعالىٰ هو الذي مزجهما وخلطهما لحكمة رآها في التركيب ـ هذا قولهم ـ وربما جعل النور أصلاً وقال: وجوده وجود حقيقي وأما الظلمة فتبع كالظل بالنسبة إلىٰ الشخص فإنه يرىٰ أنه موجود وليس بموجود حقيقة فأبدع النور وحصل الظلام تبعاً لأن من ضرورة الوجود التضاد»[١] والزرادشتية يقسمون القوىٰ إلىٰ قسمين متضادين متصارعين يرمي كل منهما إلىٰ السيطرة علىٰ العالم أحدهما: «قوىٰ الخير والنور والحق والحياة ويمثلها أهورامزدا ويعمل علىٰ تحقيق أغراضها سبعة ملائكة قدسيون يمثلون الفضائل السبع العليا وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والإخلاص والأمانة والكرم، والأخرىٰ قوىٰ الشر والظلام والموت والخداع ومرجع هذه القوىٰ إهريمان ويقوم علىٰ تحقيق مقاصدها الآثمة سبعة شياطين خبيثة تمثل الرذائل الإنسانية الرئيسة وهي النفاق والخديعة والخيانة والجبن والبخل والظلم وإزهاق الأرواح»[٢]، وهذه النظرية دخلها التحريف حتىٰ أصبحت الديانة ثنوية تعتقد بوجود خالقين وإلهين إحداهما أهورامزدا وتجعله خالقًا للخير وإلهًا للخير والآخر إهريمان وتجعله خالقًا للشر وإلهًا للشر[٣].

- **كتاب زرادشت.**

«وله كتاب قد صنفه وقيل أنزل عليه وهو زنداوستا يقسم العالم إلىٰ قسمين: مينة، وكيتي، يعني الروحاني والجسماني أو الروح والشخص، وقسم الخلق إلىٰ عالمين يقول: إن ما في العالم ينقسم إلىٰ قسمين: بخشش، وكنش يريد به التقدير والفعل، وكل واحد مقدر علىٰ الثاني.

ثم يتكلم في موارد التكليف وهي حركات الإنسان فيقسمها ثلاثة أقسام منش،

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام بتصرف، ص١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣) انظر المصدر السابق ص١٦٤.

وكويش وكنش، يعني بذلك: الاعتقاد، والقول، والعمل وبالثلاثة يتم التكليف فإذا قصر الإنسان فيها خرج عن الدين والطاعة وإذا جرىٰ في هذه الحركات علىٰ مقتضىٰ الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر»[١]، ويطلق علىٰ الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية اسم «الأبستاق» وهو تعريب لكلمة «الأفستا» ومعناها الأساس أو الأصل أو المتن أو السند»[٢].

«وكان الأبستاق يشتمل علىٰ واحد وعشرين سفراً وكان مجموع الفصول التي تشتمل عليها هذه الأسفار ألف فصل ويحوي تفصيلاً لعقائد الديانة الزرادشتية وعباداتها وشرائعها وتاريخها وما اجتازته من مراحل وتاريخ نبيها زرادشت من قبل رسالته ومن بعدها»[٣].

«وقد فقد جميع نسخ الأبستاق بعد غزو الاسكندر لفارس سنة ٣٣٠ قبل الميلاد وفقدت معها تفاسيره والمؤلفات التي كانت تشتمل علىٰ شيء من أجزائه»[٤]، وقد جاء زرادشت بتقديس الشمس والنار بحجة أن «ذات أهورامزدا روحانية خالصة مجردة من شوائب المادة لا تدركها الأبصار ولا تحيط بكنهها العقول، ولما كان كثير من الناس لا يستطيعون تصويرها فقد رمزت الديانة الزرادشتية إلىٰ الذات العلية برمزين ماديين مشاهدين تقوىٰ عقول الجماهير علىٰ أدراكها ويشتمل كلاهما علىٰ بعض مظاهر من صفات الخالق ـ حسب زعمهم وافترائهم ـ فيستطيع الناس بالتأمل في صفاتها تصور شيء من صفات أهورامزدا علىٰ وجه التقريب والتمثيل وهذان

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٣٨.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص١٥٦.

(٣) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص١٥٦.

(٤) المرجع السابق، ونفس الصفحة، وانظر الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن حزم الظاهري، ت ٤٥٦هـ، المطبعة الأدبية بمصر، الطبعة الأولىٰ سنة ١٣٦٧هـ، ص٢١٥.

الرمزان أحدهما سماوي وهو الشمس والآخر أرضي وهو النار»[1] فهما رمز للإله[2].

ومن هذا المنطلق اهتم زرادشت والزرادشتية ببيوت النار وجعلوها قبلة لهم في صلواتهم فتكون بينهم وبين الشمس عند السجود، وزرادشت عندما قتل كان في بيت من بيوت النار فقتل وهو راكع أمام النار[3]، علمًا أن الفرس كانوا يعظمون النار قبل زرادشت[4].

وقد جدد زرادشت عدة بيوت للنار مثل بيت نار بنيسابور وآخر بنسا، وأمر كشتاسب[5] أن يطلب نارًا كان يعظمها «جم» فوجدها بمدينة خوارزم فنقلها إلى دار «بجرد» وتسمى آذرخره والمجوس يعظمونها أكثر من غيرها»[6]، وهذا التعظيم راجع إلى قدمها.

ثم بدل الأتباع وغيروا فبعد أن كانت الشمس والنار تعظمان أصبحتا تعبدان ويسجد لهما وأصبح للنار من القداسة أكثر مما كان، فهذه النار التي يسمونها آذرخرة قديمة جدًا وكيخسروا لما خرج إلى غزو أفراسياب عظمها وسجد لها[7].

وقد حرصت «الزرادشتية على أن يوقد في كل هيكل من هياكلها شعلة من النار وأن تظل هذه الشعلة متوهجة مضيئة يتعهدها الموابذة[8] والهرابذة[9]... فيقدمون

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص١٦٥.

(٢) المصدر السابق ص١٦٥.

(٣) قصة الديانات، ص٣١١.

(٤) انظر الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٥٤.

(٥) ملك من ملوك الفرس في عهد زرادشت، انظر الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٣٧.

(٦) الملل والنحل، للشهرستاني، ١/ ٢٥٤.

(٧) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٨) هم كبار رجال الدين، انظر الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص١٦٥.

(٩) هم صغار رجال الدين، انظر المصدر السابق، نفس الصفحة.

لها خمس مرات في اليوم وقودًا من خشب الصندل وما إليه من الأعشاب والمواد العطرية... وترتل حولها الأدعية وتقام الصلوات.

وكان من عادة الزرادشتيين إذا أقاموا هيكلاً جديدًا للنار أن يحملوا إليه من كافة النواحي شعلات موقدة وأن يبالغوا في تطهير هذه الشعلات فيقتبسوا من الشعلة الأولى شعلة ثانية ومن الثانية ثالثة وهكذا حتى يصلوا إلى التاسعة فيعتقدون أنها وصلت إلى أرقى درجات الطهارة فيوقدون بها نار الهيكل الجديد»[1].

ومن مبالغتهم في تقديس النار أنهم «أوجبوا على رجل الدين أن يتلثم عند اقترابه من النار خشية أن يصل زفيره إليها فيلوثها»[2]، وحيث «أن كهنة إيران وشعبها كانوا من عبدة الأوثان وإن كانوا قد قبلوا تعاليم زرادشت إلا أن عقولهم كانت لا تزال عقول عبدة أوثان»[3]، فكان أن «حرف خلف زرادشت دينه فعبدوا الأوثان القديمة بعد أن غيروا أسماءها بأسماء جديدة»[4]، فكان من ذلك أن «صنع الفرس التماثيل لآلهتهم من ذلك تمثال على شكل قرص مجنح يبرز منه رأس وكتفي الإله أهورامزدا»[5].

فتقديس الفرس للنار التقديس الذي يجعلهم يتلثمون عند القرب منها حتى لا يلوثوها وتصورهم تطهير النار بإشعال بعضها من بعض حتى البطن التاسع من الشعل وكون النار القديمة ذات شأن وقداسة أعلى من غيرها مما ليست في قدمها بل إنهم عند الإشعال يحاولون أن يكون مصدر الشعلة من أقدم ما يكون من النار وهذا اهتمام بالآثار وبما خلفه الآباء وهو عين الاهتمام بالتماثيل وكلاهما ابتدأ بأن رمز

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص١٦٥ ـ ١٦٦، بتصرف.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٦.

(٣) قصة الديانات، ص٣١٦.

(٤) المرجع السابق ص٣١٧.

(٥) انظر معالم حضارات الشرق الأولى القديمة، د. محمد أبو المحاسن عصفور، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٩م، ص٢٧٩.

عن المعبود وكلاهما أوصلا بتعظيم الآثار إلى نتيجة واحدة ألا وهي عبادتها واتخاذها آلهة من دون الله أو مع الله .

والنار سواء عبدت إما لأنها ترمز للإله أو لأنه الإله فإن نتيجة ذلك كله وثنية وشرك .

*****

الفصل الرابع

تعظيم الآثار والمشاهد عند فرق تنتسب للإسلام «الشيعة والصوفية»

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: عند الشيعة.

المبحث الثاني: عند الصوفية.

*****

المبحث الأول

تعظيم الآثار والمشاهد عند الشيعة

الشيعة لغة: القوم الذين يجتمعون على الأمر وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، والشيعة أتباع الرجل وأنصاره وجمعها شيع، وأشياع جمع الجمع، وأصل الشيعة الفرقة من الناس ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد، وأصل ذلك من المشايعة وهي المتابعة والمُطَاوَعَة ومعنى شيعت: اتبعت، وشيعه على رأيه وتابعه كلاهما تابعه وقواه، ويقال: فلان يشيعه على ذلك أي يقويه ومنه تشييع النار بإلقاء الحطب عليها يقويها، والمشيعة من الغنم: هي التي لا تزال تتبع الغنم عجفًا أي لا تلحقها فهي أبدًا تشيعها أي تمشي وراءها هذا إن كسرت الياء وإن فتحتها فهي التي تحتاج إلى من يشيعها أي يسوقها لتأخرها عن الغنم حتى تتبعها لأنها لا تقدر على ذلك[1].

- **الشيعة في الاصطلاح:**

أجمع تعريف للشيعة اطلعت عليه هو: «الشيعة هم الذين شايعوا عليًا رضي الله عنه على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية إما جليًا وإما خفيًا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده»[2].

- **بداية التشيع:**

أشبه ما تكون لفظة شيعة باللفظ المشترك الذي له عدة معاني لكن وقوعها على هذه المعاني لم يكن دفعة واحدة بل على فترات فأول ما وقعت كانت مقيدة وتدل على أتباع علي وأتباع معاوية رضي الله عنهما بعد مقتل عثمان رضي الله عنه فكان يقال:

(١) لسان العرب، مادة شيع، ٨/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٢) الملل والنحل، ١/ ١٤٦.

شيعة علي، وشيعة معاوية لكنه في شيعة علي أظهر علمًا لأن صف علي في ذلك الوقت كان يضم مئات الصحابة والتابعين، وأغلبهم رضوان الله عليهم ممن يكفرهم الشيعة المتأخرون، وكانت كلمة الشيعة أيضًا تعني الموالاة والنصرة، ثم لما آل الأمر إلى معاوية رضي الله عنه وبدأ الغلو يزداد بدأ يجري خلاف في أفضلية علي على عثمان صار المعنى للشيعة منصرفًا إلى أتباع علي مقابلاً لمن يفضلون عثمان عليه رضي الله عنهما ثم استمر الحال لهذا المعني واقفًا على أنصار علي رضي الله عنه واندثر عمن يفضلون عثمان رضي الله عنه ثم صار مقابلاً للنواصب وهم الذين يسبون عليًا وخاصة من أهل الشام ثم بعد أن تسلسل الحكم في بني أمية بعد معاوية رضي الله عنه ظهر التشيع لآل محمد ومعناه بنو علي وبنو العباس، فلما تولى الخلافة بنو العباس استقر لفظ التشيع في علي وذريته ثم أنه كان يستبد به الغلو في تلك الفترات بالتدريج وأصبح مقابلاً لأهل السنة عمومًا، وأصبح الحال أن الشيعة يقدمون عليًا على جميع الخلفاء قبله مع سبهم للخلفاء الثلاثة السابقين عليه واعتبارهم معتدين على علي في الإمامة[1].

ويعتبر مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ثم ما جرى من بعده من ثارات ثم خلاف الشيعة ورفضهم زيد بن علي بن الحسين تدرج لنمو فرقة الشيعة.

وبذرة الغلو عند الشيعة بدأت عندما لبس ثوب الإسلام رجل يهودي اسمه عبدالله بن سبأ أراد أن يفعل بالإسلام ما فعل بولس بالنصرانية من الانحراف بها من الداخل[2]، وقد فعل لكن انحرافه أفسد جزءاً من المسلمين وكان له اليد الطولى في

(١) انظر منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبدالحليم، تحقيق/ د. محمد رشاد سالم، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة بمصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص١١ ـ ١٤ وفي أماكن أخرى منتشرة في الكتاب: وانظر: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين «الشيعة والخوارج» أحمد محمد أحمد جلي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط٢، سنة ١٤٠٨هـ ص١٥٨ ـ ١٦٣ ـ وانظر: مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، د. ناصر بن عبدالله بن علي القفاري، دار طيبة للنشر، الرياض، ط٢، سنة ١٤١٣هـ ١/ ١٢٦ ـ ١٣٠، ١٤٠، ١٤٢.
وانظر: شرح صحيح مسلم، محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي، ٦٣١ ـ ٦٧٦هـ راجعه خليل الميس دار القلم بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ٦/ ٢٧١.

(٢) فتاوى ابن تيمية، ٤/ ٥١٨.

فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ثم كان من ضمن الصف الموالي لعلي رضي الله عنه، فكان أول من بدأ الغلو في علي رضي الله عنه وقال له: أنت أنت بمعنى أنت الله، فنفاه علي رضي الله عنه إلى المدائن بعد أن ثني عن قتله، ولما بلغه مقتل علي رضي الله عنه قال للمخبر «كذبت يا عدو الله ولو جئتنا بدماغه في سبعين صرة وأقمت على قتله سبعين عدلاً ما صدقناك ولعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل وأنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ويملك الأرض»[١] «وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة علي رضي الله عنه ومنه انشعبت أصناف الغلاة»[٢]، وكان أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم وقال إن عليًا عليه السلام أمره بذلك»[٣] افتراءًا عليه وكذبًا، والفرقة المنتسبة إليه تعتبر من غلالة الشيعة[٤]، وتطور الغلو من جهة أخرى عند عموم الشيعة وهو أنه بُدء بتفضيل علي على عثمان ثم ازداد وأصبح علي يُفضَّل على أبي بكر وعمر وقد حدث ذلك في أواخر عهده رضي الله عنه حتى إنه قال: «لا أُوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري»[٥].

وقد كانت الشيعة متفقة على تقديم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما «قيل لشريك بن عبدالله القاضي أنت من شيعة علي وأنت تفضل أبا بكر وعمر فقال: كل شيعة علي على هذا، هو يقول على أعواد هذا المنبر: خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر أفكنا نكذبه؟! والله ما كان كذابًا»[٦]، ثم ازداد الغلو حتى وصل القول بإمامة علي وعصمته والأئمة من بعده والعلم اللدني للأئمة إلى غير ذلك من الأوصاف.

(١) فرق الشيعة، للحسن بن موسى النوبختي وسعد بن عبدالله القمي تحقيق د. عبدالمنعم الحفني دارالرشاد، القاهرة مصر، ط١، سنة ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص٣٣.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٧٤.

(٣) فرقة الشيعة، ص٣٢.

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥) كتاب النبوات، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، ت ٧٢٨، دار الفكر، ص١٣٢.

(٦) كتاب النبوات ص١٣٢.

● فرق الشيعة:

أوصل كتّاب الفرق من الشيعة فرق الشيعة إلى مئة وثلاث وتسعين فرقة[١] وفي الملل والنحل خمسة فرق كبار وتتفرع من هذه الخمسة الكبار فروع كثيرة، أما الفرق الكبار فهي الكيسانية والزيدية والغلاة والإسماعيلية والإمامية الاثنا عشرية[٢]، وأغلب الفرق ليس لها أتباع اليوم إلا النزر اليسير لكن الإمامية الاثنى عشرية هي المنتشرة والأكثر أتباعًا وقوة وهي التي تحاول في هذا العصر أن تمثل الإسلام على حد زعمها وتتكلم باسمه علمًا أنه لا يكاد يوجد شيعة ليسو بغلاة لأن من ادعى العصمة للإمام والعلم اللدني والفضل على الخلق ونحو ذلك مما تقول به الشيعة فقد توسد الغلو.

● الإمامية الاثنا عشرية:

ويسمون الجعفرية والإمامية ويسمون الرافضة ويرى بعض الباحثين أن مصطلح (الشيعة) إذا أطلق فلا ينصرف إلا إليهم، وغيرهم إما إسماعيلية أو زيدية «وتسميتهم بالرافضة لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما خرج بالكوفة أيام هشام بن عبدالملك بن مروان»[٣] [٤].

ويسمون بالإمامية لأنهم قالوا بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان وبالجعفرية نسبة إلى جعفر الصادق - إمامهم السادس كما يقولون وهو من باب تسمية العام باسم الخاص.

ويسمون بالإثني عشرية لأنهم يقولون بأن الأئمة بعد النبي ﷺ اثنا عشر إمامًا وهم مرتبون تاريخيًا كالآتي:

١ - علي بن أبي طالب   ٢٣ ق. هـ - ٤٠هـ.

(١) انظر كتاب فرق الشيعة.

(٢) انظر كتاب الملل والنحل ١/ ١٤٧.

(٣) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، ١/ ١٧١.

(٤) انظر، فتاوى ابن تيمية ١٣/ ١٣٥-١٣٦.

٢ ـ الحسن بن علي ٣هـ ـ ٥٠هـ.

٣ ـ الحسين بن علي ٤هـ ـ ٦١هـ.

٤ ـ علي زين العابدين بن الحسين ٣٨هـ ـ ٩٥هـ.

٥ ـ محمد الباقر بن علي ٥٧هـ ـ ١١٤هـ.

٦ ـ جعفر الصادق بن محمد ٨٣ ـ ١٤٨هـ.

٧ ـ موسى الكاظم بن جعفر ١٢٨ ـ ١٨٣هـ.

٨ ـ علي الرضا بن موسى ١٤٨ ـ ٢٠٣هـ.

٩ ـ محمد الجواد بن علي ١٩٥ ـ ٢٢٠هـ.

١٠ ـ علي الهادي بن محمد ٢١٢ ـ ٢٥٤هـ.

١١ ـ الحسن العسكري بن علي ٢٣٢ ـ ٢٦٠هـ.

١٢ ـ محمد المهدي بن الحسن ٢٥٦ . . .[1].

ومن مظاهر الغلو المركزة عند الشيعة غلوهم في أئمتهم واعتبار الإمامة ركن الدين الأعظم، فهم يعتبرون «الإمامة منصبًا إلهيًا كالنبوة فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ويؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه . . فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه وأن ينصبه إمامًا للناس من بعده»[2].

ويصف كثير من الشيعة أئمتهم بصفات إلهية أحيانًا وبصفات النبوة أحيانًا أخرى.

واتفق الشيعة على أن رسول الله ﷺ نص على إمامة علي بن أبي طالب رضي

(١) انظر مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، ١/ ١٧١ ـ ١٧٢، ودراسة عن الفرق، ص١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) أصل الشيعة وأصولها، محمد حسين آل كاشف الغطا، ص٥٨ نقلته من كتاب: مسألة التقريب، ١/ ٢٨٨.

الله عنه من بعده[1]، وهكذا علي نص على من بعده ثم الحسن ثم الحسين رضي الله عنهما ثم علي بن الحسين واختلفوا بعد ذلك في ذرية الحسين ولو أن هناك من رأى إمامة محمد بن علي بن أبي طالب إلا أنه قليل لكن المعروف أن الحسين زوجته ابنة كسرى والشيعة غالبهم من الفرس والموالي وهذا يفسر تسلسل الأئمة من ذرية الحسين على اختلاف في التسلسل إلا أنه يقف عند محمد بن الحسن العسكري الذي دخل السرداب، على حد زعم الشيعة ـ سنة ٢٦٠هـ وهو طفل إن صح أن لوالده عقب أو صح أنه لم يمت عقبه ـ وأنه سيظهر آخر الزمان إذا فسد الناس وأنه سيفعل ويفعل من الترهات وأنه الآن في السرداب غائب الغيبة الكبرى أما غيبته الصغرى فقد انتهت سنة ٣٢٩هـ[2] على حسب افتراء الشيعة.

وهذه خطوات تقديس الأئمة والغلو فيهم:

١ ـ عصمة الأئمة.

هناك خلاف بين الشيعة حول عصمة الرسول فمنهم من أجاز وقوع المعصية من الرسول لكنهم أجمعوا على عصمة أئمتهم وعللوا جواز وقوع المعصية من الرسول بأن الرسول إذا عصى يأتيه الوحي من الله فيصحح عمله أما أئمتهم فمنعوا وقوع المعصية منهم بحجة أنهم لا يوحى إليهم فلو لم يكونوا معصومين لوقعت منهم معاصي وأخطاء ونحن مأمورون باتباعهم فيكون اتباعنا لهم على الخطأ وهذا لا يمكن.

وهذه نماذج من ادعائهم العصمة لأئمتهم:

«اعلم أن إجماع علماء الإمامية قد انعقد على أن الإمام معصوم من جميع الذنوب صغيرة كانت أم كبيرة من أول العمر إلى آخره فلا يقع منهم ذنب أصلاً لا عمدًا ولا نسيانًا ولا سهوًا ولا غير ذلك»[3].

(١) الملل والنحل، ١/ ١٤٦.

(٢) انظر دراسة عن الفرق، ص١٧ ـ ١٨٠، وانظر منهاج السنة النبوية، ١/ ١٠٢.

(٣) حياة القلوب لمحمد باقر المجلسي، توفي سنة ١١١٠هـ أحد علماء الشيعة ٧/ ٢٧، نقلته من: دراسة عن الفرق أحمد جلي ص٢٠٣ ونقله أحمد جلي عن عقيدة الشيعة لدونلد سن، ص٣١٧، وعن

«لابد أن يكون الإمام معصومًا من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمدًا وسهوًا كما يجب أن يكون معصومًا من السهوم والخطأ والنسيان لأن الأئمة حفظة للشرع قوامون عليه»[1].

ونراهم يجعلون سبب العصمة إنما هو حفظًا للشرع، والحق أن سبب العصمة يكسب نواب الأئمة قداسة مثل قداسة الأئمة عندهم وبعدًا عن الخطأ لكنهم بطريق غير مباشرة ثم إن هذه العصمة تمتد وتعم طائفة الشيعة الإمامية كلها[2].

أما من ناحية وقوع الخطأ فإن الأئمة من بني آدم وقد قال ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[3].

وأين العصمة من الخطأ عند الأئمة وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإني لست آمن من أن أخطئ»[4]، وكره الحسين بن علي صلح أخيه الحسن مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم فيكون أحدهما من هذه الحادثة غير معصوم.

ومن آثار دعوى العصمة «اعتبارهم أن ما يصدر عن أئمتهم الاثنى عشر هو كقول الله ورسوله ﷺ ولذلك فإن مصادرهم في الحديث تنتهي معظم أسانيدها إلى

ظهر الإسلام لأحمد أمين **للمزيد انظر كتاب:** الشيعة وأهل البيت، إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان القرآن، لاهور باكستان، ط٣، سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص١٣٧، هامش ٣٤٢.

(١) توحيد الألوهية والفرق الضالة فيه (الشيعة، الصوفية، الباطنية)، سارة بنت فراج بن علي العقلا، كلية التربية للبنات - مكة المكرمة - رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ١/١٦٦.

(٢) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ١/٣٢٨.

(٣) سنن الحافظ محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة (٢٠٩-٢٧٣)هـ تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، شركة الطباعة العربية، السعودية، الرياض، ط١، سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م ٢/٤٣٨، عن أنس رضي الله عنه.

(٤) شرح نهج البلاغة، عبدالحميد بن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثاني/ ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م، ١١/١٠٢.

أحد الأئمة ولا تصل إلى رسول الله ﷺ»[1].

وقد تنبه الشيعة لوجود تعارض بين ادعاء العصمة للأئمة وبين ما يوجد من أخبار تنقض العصمة كالسهو والخطأ عن الأئمة لذا قالوا: «المسألة في غاية الإشكال لدلالة كثير من الأخبار والآيات على صدور السهو عنهم وإطباق الأصحاب إلا من شذ منهم على عدم الجواز»[2].

وعن علم أئمتهم وغلوهم في ذلك:

روى الكليني عن أبي محمد قال دخلت على أبي عبدالله «ع» فقلت له: جعلت فداك إني أسألك عن مسألة، ههنا أحد يسمع كلامي؟ قال: فرفع أبو عبدالله «ع» سترًا بينه وبين بيت آخر فاطلع فيه ثم قال: سل عما بدا لك فقلت: جعلت فداك إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله علم عليًا عليه السلام بابًا يفتح له منه ألف باب؟ قال: يا أبا محمد علّم رسول الله ﷺ وآله عليًا عليه السلام ألف باب يفتح من كل باب ألف باب قال: قلت هذا والله العلم: قال فنكت ساعة في الأرض ثم قال إنه لعلم وما هو بذاك.

قال: ثم قال: يا أبا محمد وإن عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة قال: قلت: جعلت فداك وما الجامعة قال: صحيفة طولها سبعون ذراعًا بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله وإملائه من فلق فيه وخط علي بيمينه فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الإرش في الخدش وضرب بيده إلي فقال: تأذن لي يا أبا محمد قال: قلت جعلت فداك إنما أنا لك فاصنع ما شئت قال: فغمزني بيده وقال: حتى أرش هذا كأنه مغضب قال: قلت: هذا والله العلم قال إنه لعلم وليس بذاك.

ثم سكت ساعة ثم قال: وإن عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر؟ قال: قلت: وما الجفر؟ قال وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين وعلم علماء الذين مضوا من بني إسرائيل قال: قلت إن هذا هو العلم قال: إنه لعلم وليس بذاك.

ثم سكت ساعة ثم قال: وإن عندنا لمصحف فاطمة «ع» وما يدريهم ما مصحف

(١) مسألة التقريب ١/ ٣٢٤.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٣٢٩-٣٣٠، وانظر دراسة عن الفرق ٢٠٦-٢٠٧.

فاطمة «ع» قال: قلت: وما مصحف فاطمة «ع» قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد قال: قلت: هذا والله العلم قال إنه لعلم وما هو بذاك.

ثم سكت ساعة ثم قال: إن عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة قال: قلت جعلت فداك هذا والله هو العلم قال إنه لعلم وليس بذاك.

قال: قلت جعلت فداك فأي شيء العلم؟ قال: ما يحدث بالليل والنهار الأمر من بعد الأمر والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة»[1].

وما هذه العلوم التي يدعون إلا وهمًا وافتراءً فالله سبحانه وتعالى أكمل للمسلمين دينهم قال تعالى: ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا...﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ...﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾[4]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[5].

وعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: «قلت لعلي هل عندكم كتاب قال: لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة قال: قلت وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر»[6].

(١) الكافي للكليني ١/٢٣٨ـ ٢٤٠، نقلاً عن مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ١/٢٥٨ـ ٢٥٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣.

(٣) سورة النحل، آية: ٨٩.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٦) رواه البخاري ١/٢٤٦، كتاب العلم باب كتابة العلم.

ولقد اعتقد الشيعة أن لأئمتهم علمًا أكثر من علم الملائكة والرسل فقد روى الكليني: «عن أبي عبدالله أنه قال: إن لله تبارك وتعالى علمين، علمًا أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه، وعلمًا استأثر به فإذا بدا لله في شيء منه أعلمنا ذلك وعرض على الأئمة الذين كانوا قبلنا»[1].

وما أشبه هذا الكلام بكلام واضعي التلمود من أحبار اليهود؟!.

«وإذا كان الأئمة على هذه الدرجة من العلم فمن نافلة القول أنهم يعلمون جميع الصنائع وسائر اللغات»[2] وأين هذا الادعاء من قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ...﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾[4].

وقوله ﷺ: **«إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع منه فمن قضيتُ له بشيء من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»**[5].

ويرى الشيعة «أن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون»[6]، وأين هذا من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا

(١) توحيد الألوهية والفرق الضالة فيه ١/ ٢٧٣ نقلاً عن الأصول من الكافي للكليني كتاب الحجة ١/ ٢٥٥.

(٢) توحيد الألوهية والفرق الضالة فيه ١/ ٢٧٣ نقلاً عن المفيد: أوائل المقالات ص٣٧.

(٣) سورة النمل، آية ٦٥.

(٤) سورة الجن، الآيات ٢٦ـ ٢٧.

(٥) رواه البخاري: ١٣/ ١٦٨، كتاب الأحكام باب موعظة الإمام للخصوم، حديث رقم ٧١٦٩، ورواه مسلم شرح صحيح مسلم ١٤/ ٢٤٥، كتاب الأقضية باب الحكم بالظاهر واللحن [الحجة] حديث رقم ١٧١٣، عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٦) توحيد الألوهية والفرق الضالة، ص١/ ٣٧٩، نقلاً عن الحكومة الإسلامية للخميني، ص٥٢.

في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴿٤٩﴾[1] وقوله وتعالى: ﴿...ألا له الخلق والأمر...﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ①﴾[3]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ①﴾[4].

ولا شك أن ادعاء الشيعة العصمةَ والعلم وعلوّ المقام لأئمتهم يحيطهم بالإجلال والإعظام ويرفع مكانتهم ويجعل الناس يقدسونهم وحيث أن آخر الأئمة مختفي في الغيبة الكبرى الآن ولا يعلم متى يخرج فلا بد من أحد ينوب عنه ويقوم مقامه وهو المجتهد من الشيعة وهذا المجتهد امتص كثيراً من خصائص الأئمة لذلك يقولون: «عقيدتنا في المجتهد أنه نائب للإمام عليه السلام في حال غيبته وهو الحاكم والرئيس المطلق...

والراد عليه راد على الإمام والراد على الإمام راد على الله تعالى وهو على حد الشرك بالله»[5] وهذا على حد زعمهم.

وورد عنهم أيضاً: «وعقيدتنا في المجتهد أنه نائب للإمام عليه السلام في حال غيبته، له ما للإمام والراد عليه راد على الإمام والراد على الإمام راد على الله تعالى وهو على حد الشرك بالله تعالى»[6].

ويقولون: «إن معظم فقهائنا في هذا العصر تتوفر فيهم الخصائص التي تؤهلهم للنيابة عن الإمام المعصوم»[7].

(١) سورة النحل، آية ٤٩.

(٢) سورة الأعراف، آية ٥٤.

(٣) سورة الحشر، آية: ١.

(٤) سورة الجمعة، آية: ١.

(٥) مسألة التقريب ١/ ٣٠٧، ونقله عن عقائد الإمامية محمد رضا المظفر ص٣٤.

(٦) وجاء دور المجوس، عبدالله محمد الغريب، ط٦، سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ١/ ١٩٤. نقلاً عن: تحرير الوسيلة للخميني ص٣٦٥.

(٧) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ١/ ٣٠٧، نقلاً من الحكومة الإسلامية، ص١١٣.

وقالوا أيضاً «والفقيه هو وصي النبي وفي عصر الغيبة يكون إماماً للمسلمين وقائدهم»[1].

ثم ربطوا باقي الشيعة بهذه السلسلة حتى يحكموا التلاعب بهم حسب أهوائهم فقالوا: «أن من لم يصل رتبة الاجتهاد يجب عليه أن يقلد مجتهداً معيناً وإلا فجميع عباداته باطلة لا تقبل منه وإن صلى وصام وتعبد طول عمره إلا إذا وافق عمله رأى من يقلده بعد ذلك»[2]، وحتى يتضح لعبهم بعوامهم «أنه عندما مرض مجتهد في النجف استمر صيام مقلديه على الرغم من إفطار الآخرين من الشيعة من أجل أن مرض ذلك المجتهد حال دون سماع شهادة شهود الرؤية»[3] أي لم يسمع شهادة شهود رؤية هلال شوال، وهذا من المخزيات المضحكات.

وبهذا الانقياد للعالم المعصوم ـ على زعمهم ـ ساقوا العوام واستغلوهم ونهبوا أموالهم بما فرضوه عليهم من الخمس وبما يجبونه منهم عند القبور من النذور فقد سنوا فيهم سنة الشرك والوثنية ونطق هؤلاء الدعيون بالأجر العظيم والفوز بالنعيم وشفاء السقيم لمن زار الأضرحة والتمس منها الصحة والمغفرة وأقاموا صروح الشرك ووضعوا الأحاديث والكتب في فضلها وشعائر الزيارة فمن ذلك ما قاله آيتهم وحجتهم عبدالله الممقاني في كتابه مرآة الرشاد: «وعليك بني بالتوسل بالنبي وآله صلى الله عليهم أجمعين فإني قد استقصيت الأخبار فوجدت أنه ما تاب الله على نبي من أنبيائه من الزلة: إلا بالتوسل بهم وقد ورد ـ أي من طرقهم ـ أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام نقل أشباح محمد وآله المعصومين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين من ذروة العرش إلى ظهره وكان أمره للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام إذ كان دعاء تلك الأشباح.. وأنه قال لآدم عليه السلام لما سأله عنهم: أن هؤلاء خيار خليقتي وكرام بريتي بهم آخذ وبهم أعطي وبهم أعاقب وبهم أثيب فتوسل بهم يا آدم وإذا دهتك داهية فاجعلهم لي شفعاءك فإني آليت على نفسي قسماً حقاً أن لا أخيب بهم آملاً ولا أرد بهم سائلاً... وعليك بني بزيارته ـ يعني الحسين ـ في كل

(١) المصدر السابق ١/ ٣٠٩، نقلاً من الحكومة الإسلامية، ص٦٧.

(٢) مسألة التقريب ١/ ٣٠٩ نقلاً عن العقائد الإمامية ص٥٥.

(٣) المصدر السابق، ١/ ٣٠٩، حاشية رقم ٣.

يوم من البعد مرة والمضي إليه في كل شهر مرة ولا أقل من زيارته في الوقفات السبع[1] وإن كنت في بلدة بعيدة ففي السنة مرة»[2].

وهذا توجيه لعوامهم وخاصتهم بالتوسل بالمقبورين.

وأين هذا من قوله سبحانه قال تعالى: ﴿ ... مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ... ﴾[3].

ويقول آيتهم محمد الشيرازي في كتابه: مقالة الشيعة: «ونعتقد أن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين أحياء عند ربهم يرزقون ولذا فإننا نزور قبورهم ونتبرك بآثارهم ونقبل أضرحتهم كما نقبل الحجر الأسود وكما نقبل جلد القرآن»[4]، وهذا تبرك بآثار المقبورين أي أن البركة ترجى من القبور والنفع ودفع الضر يطلب منها عندهم.

ويقول د. عبدالجواد آل طعمة في كتاب له يسمى: تاريخ كربلاء وهو موثق ـ على طرقهم الكاذبة ـ من عدد من آياتهم وحججهم: «أعطيت كربلاء حسب النصوص الواردة ـ عن طريقهم ـ بأكثر مما أعطي لأي أرض أو بقعة أخرى من المزية والشرف في الإسلام فكانت أرض الله المختارة وأرض الله المقدسة المباركة وحرمًا آمنًا مباركًا وحرمًا من حرم الله وحرم رسوله وقبة الإسلام ومن المواضع التي يحب الله أن يعبد ويدعى فيها وأرض الله التي في تربتها الشفا فإن هذه المزايا وأمثالها التي اجتمعت لكربلاء لم تجتمع لأي بقعة من بقاع الأرض حتى الكعبة»[5]، ويؤكد ذلك

---

(١) الوقفات السبعة عندهم:
١ ـ زيارة ليلة عاشوراء ويومها. ٢ ـ زيارة الأربعين. ٣ ـ زيارة أول يوم من رجب.
٤ ـ زيارة النصف من رجب. ٥ ـ زيارة النصف من شعبان. ٦ ـ زيارة ليلة عيد الفطر.
٧ ـ زيارة يوم عرفة، عن مسألة التقريب ٢/ ٧٧، حاشية ١.

(٢) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ٢/ ٧٧ وإلى مثل هذا وأبعد ذهبت غلاة الصوفية وسيأتي الحديث عن ذلك عند الصوفية.

(٣) سورة البقرة، آية الكرسي: ٢٥٥.

(٤) مسألة التقريب ٢/ ٧٦.

(٥) مسألة التقريب ٢/ ٧٦.

قول آيتهم مرزا حسين الحائري في كتابه أحكام الشريعة: «كربلاء تلك التربة الطيبة الطاهرة والأرض المقدسة التي قال في حقها رب السموات والأرضين مخاطبًا للكعبة حينما افتخرت على سائر البقاع: قري واستقري لولا أرض كربلاء وما ضمنته لما خلقتك، ثم يقول هذا الرافضي: وكذلك أصبحت هذه البقعة المباركة بعدما صارت مدفنًا للإمام «ع» مزارًا للمسلمين وكعبة للموحدين ومطافًا للملوك والسلاطين فمسجدًا للمصلين»[1].

وقد روى الشيعة فيما يروون بأسانيدهم من الكذب والبهتان في فضل زيارة قبور الأئمة سواء من الأجر العظيم والثواب الجزيل أو ما فيها من الشفاء أو المعجزات الباهرات الشيء الكثير ومن ذلك قول صاحب الكافي فيما نقله صاحب الوافي عنه جـ٨ ص٢١٩: «أتى رجل أبا عبدالله فقال له: إني قد حججت تسع عشرة حجة فادع الله أن يرزقني تمام العشرين قال هل زرت قبر الحسين «ع» قال: لا قال: لزيارته خير من عشرين حجة»[2].

وعن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبدالله يقول: «والله لو أني حدثتكم بفضل زيارته وبفضل قبره لتركتم الحج رأسًا وما حج منكم أحد، ويحك أما علمت أن الله اتخذ كربلاء حرمًا آمنًا مباركًا قبل أن يتخذ مكة حرمًا، قال: ابن أبي يعفور فقلت له: قد فرض الله على الناس حج البيت ولم يذكر زيارة قبر الحسين «ع» فقال: إن كان كذلك فإن هذا شيء جعله الله هكذا»[3] ذكره المجلسي في البحار، جـ١٠١، ص٣٣.

وعن أبي عبدالله: «إن الله يبدأ بالنظر إلى زوار قبر الحسين بن علي «ع» عشية عرفه قبل نظره إلى أهل الموقف قال الراوي: وكيف ذلك؟ قال أبو عبدالله ـ كما يزعمون ـ لأن في أولئك أولاد زنا وليس في هؤلاء أولاد زنا»[4].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) مسألة التقريب ١/ ٣٠٢.

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٤) مسألة التقريب، ١/ ٣٠٣، نقلاً عن الفيض الكاشاني في كتابه الوافي، المجلد الثاني جـ٨، ص٢٢٢.

«وكذبا على رسول الله ﷺ أنه قال: «من زار الحسين بعد موته فله الجنة»[١].

ورووا «عن باقر بن زين العابدين أنه قال: لا يخرج قطرة ماء بكاءً على الحسين إلا ويغفر الله ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» «ووجبت له الجنة»[٢].

وينقلون عن «موسى بن جعفر ـ الإمام السابع عندهم ـ أنه قال: من زار قبر ولدي علي كان له عند الله سبعون حجة مبرورة قلت ـ أي الراوي ـ سبعون حجة؟ قال: نعم وسبعون ألف حجة ثم قال: رب حجة لا تقبل، ومن زاره أو بات عنده كان كمن زار الله تعالى في عرشه ـ استغفر الله عن نقل هذه الخرافة ـ قلت كمن زار الله في عرشه؟ قال نعم»[٣].

وعن الصادق «من زار قبر الحسين يوم عرفة كتب الله له ألف ألف حجة مع القائم «ع» وألف ألف عمرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وعتق ألف ألف نسمة وحمل ألف ألف فرس في سبيل الله وسماه الله عز وجل عبدي الصديق آمن بوعدي وقالت الملائكة فلان الصديق وزكاه الله من فوق عرشه..»[٤].

«ونقلوا عن علي الرضا أنه قال: سيأتي عليكم يوم تزورون فيه تربتي بطوس ألا فمن زارني وهو على غسل خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[٥].

«هذا ومن زار أخته فاطمة بنت موسى فله الجنة»[٦].

وقالوا عنها أيضًا وعن الحرم كذبًا رواية عن جعفر الصادق: «إن لله حرمًا هو مكة ولرسوله حرمًا وهو المدينة ولأمير المؤمنين حرمًا وهو الكوفة ولنا حرمًا وهو قم ستدفن فيه امرأة من ولدي تسمى فاطمة من زارها وجبت له الجنة»[٧]، هذا عن شد

(١) الشيعة وأهل البيت، ص٢٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٩.

(٣) الشيعة وأهل البيت، ص٢٤٠.

(٤) مسألة التقريب، ١/ ٣٠٣ـ٣٠٤.

(٥) الشيعة وأهل البيت، ص٢٤٠.

(٦) الشيعة وأهل البيت، ص٢٤١.

(٧) مسألة التقريب ١/ ٣٠١ـ٣٠٢.

الرحال إلى هذه القبور وعن جعل تربتها حرمًا آمنًا افتراء على الله وعلى رسوله ﷺ وعلى الصادقين من أهل البيت.

أما عن الصلاة عند القبور فإنهم يروون:

«الصلاة في حرم الحسين لك بكل ركعة تركعها عنده كثواب من حج ألف حجة واعتمر ألف عمرة وأعتق ألف رقبة وكأنما وقف في سبيل الله ألف مرة مع نبي مرسل»[١].

أما عن المعجزات والشفاء فقد ورد: «أن رجلاً سأل جعفر الصادق: يأخذ الإنسان من طين قبر الحسين فينتفع به ويأخذه غيره ولا ينتفع به؟ فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو ما يأخذه أحد وهو يرى أن الله ينفعه به إلا نفعه به»[٢].

و«عن جعفر أنه قال: إن عند رأس الحسين لتربة حمراء فيها شفاء من كل داء إلا السام»[٣].

و«عن أبي عبدالله أنه قال: إذا فرغت من الدعاء عند قبر النبي ﷺ فأت المنبر فامسحه بيدك وخذ برمانتيه وهما السفلاوان وامسح عينيك ووجهك به فإنه يقال: إنه شفاء العين وقم عنده فاحمد الله»[٤].

بقي أن يعلم أن الشيعة تجاوزوا في الغلو من الخطوط الحمراء والدركات السفلى في مجاهيل الشرك والوثنية الشيء الكثير فقد رووا فيما يروون من كذبهم: «أن قبر أمير المؤمنين يزوره الله مع الملائكة ويزوره الأنبياء ويزوره المؤمنون»[٥].

وإن شئت أن تضحك فإن الشيعة كذبوا على رسول الله ﷺ وقالوا إنه قال: «إن

(١) مسألة التقريب ١/ ٣٠٤.

(٢) توحيد الألوهية والفرق الضالة فيه ١/ ٢٩٧، نقلاً عن الفروع من الكافي للكليني كتاب الحجج، ٤/ ٥٨٨.

(٣) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٤) توحيد الألوهية والفرق الضالة فيه ١/ ٢٩٧ـ٢٩٨، نقلاً عن الفروع من الكافي للكليني، كتاب الحجج ٤/ ٥٥٣.

(٥) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ١/ ٣٠٤، ونقله عن المجلسي «البحار»، ١٠٠/ ٢٥٨.

حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب فإذا دقت الحلقة على الصفيحة طنت وقالت: يا علي»[١].

وافتروا على نبي الله أنه قال لعلي: «إن الله حملني ذنوب شيعتك ثم غفرها لي»[٢].

• **مشاهد للشيعة:**

ومن منكراتهم ما هو رايج منهم من عبادة القبب فقد شادوا على قبر كل واحد من أئمتهم في خراسان أو في الحجاز[٣] قبة من الذهب والفضة.

ووصل الحال بالشيعة في مشاهدهم وقبورهم أن نفعها مثلما يصل للأحياء والزوار فإنه يصل أيضًا إلى الأموات فذكروا أن هناك أمورًا يجوز عندها نبش القبور «منها: أن يكون ذلك لإيصاله إلى محل يرجى فوزه بالثواب ونجاته من العذاب كالنقل إلى المشاهد المشرفة أو مقابر مطلق الأولياء والشهداء والصلحاء والعلماء...»[٤]، وقد أصل الشيعة للشرك في القبور وألبسوا الباطل ثوب الحق وزخرفوه بالإغراءات المتنوعة فمن لم ينفع به باب التدين والأجر نفع به باب الحاجة إلى الشفاء والعكس صحيح، وألفوا وجمعوا الشيء الكثير في كتبهم: ففي كتاب «البحار» للمجلسي كتاب المزار وقد استغرق ثلاث مجلدات من كتاب البحار[٥].

وفي «وسائل الشيعة» للحر العاملي أبواب المزار وبلغت مائة وستة أبواب.

وفي «الوافي» أبواب المزارات والمشاهد وعددها ثلاثة وثلاثون بابًا.

وفي كتاب «تهذيب الأحكام» أبواب كثيرة تتعلق بتعظيم المشاهد والقبور ومناجاة الأئمة بأدعية تتضمن تأليههم، وألفوا كتبًا مستقلة للزيارات منها كتاب

(١) الشيعة وأهل البيت ص٢٥٣.

(٢) المصدر السابق ص٢٥٤.

(٣) في وقت الكسروي ت ١٣٢٤هـ، والآن ولله الحمد ليس لهم ذلك في الحجاز.

(٤) توصية الألوهية والفرق الضالة فيه ١/ ٢٩٩.

(٥) توحيد الألوهية والفرق الضالة فيه ١/ ٣٠٠.

مناسك الزيارات للمفيد وكتاب المزار لمحمد بن علي الفضل، وكتاب المزار لمحمد بن المستهدي، وكتاب المزار لمحمد بن همام، وكتاب المزار لمحمد بن أحمد بن داود[١]، وكتاب مناسك حج المشاهد للمفيد[٢]، وكتاب مفاتيح الجنان وهو كتاب يحتوي على مئات من الزيارات للأئمة وأولادهم ويجمع بين طياته مدحًا للأئمة والثناء عليهم والتنديد بأعدائهم ثم قليل من الدعاء، وقلما يوجد بيت للشيعة لايتوفر فيه هذا الكتاب[٣].

ما سبق من النقول يعتبر من باب التقعيد والتشريع والترغيب للشركيات والوثنيات ويبقى عامل آخر لهذا الانحراف وهو ضعف السلطة الحاكمة والخلافة فإن الشيعة لم يبنوا مشاهدًا على قبور أئمتهم في العصور المفضلة وإنما «كان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس وذلك في أواخر المئة الثالثة»[٤].

ونتج عن هذا أن الشيعة انحرفوا بأتباعهم إلى الوثنية وصاروا يطلبون من الأموات مالا يقدر عليه إلا الله يقول الكسروي: «ومما يوجب الخجل أنهم يجعلون لتلك القبب معجزات من شفاء المرضى وإبراء الأكمه والأعرج وغير ذلك، وغير مرة سمعنا وقوع المعجزة الفلانية في المشهد أو في كربلاء وادعى كثيرون مشاهدتها بأعينهم أو العلم بها من قريب والحقيقة أنهم لكونهم يحسبون أئمتهم أحياء لم يموتوا ويحسبونهم قادرين على كل شيء يرجون من قبورهم المعجزات بل ينتظرونهم ويحملهم هذا الانتظار على جعل المعجزات لها، وهذا الجعل لاقباحة له عندهم بل يستحسنونه لأنهم يحسبونه سبب استحكام إيمان العامة من الناس»[٥]، وقال: «وآخر من منكراتهم ما هو رائج فيهم من عبادة القبب فقد شادوا على قبر

(١) انظر مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١، وحاشية رقم ٤، ص٣٠١ من نفس الكتاب.

(٢) انظر الفتاوى، ٢٧/ ١٦٢.

(٣) انظر: الشيعة والتصحيح: الصراع بين الشيعة والتشيع، د. موسى الموسوي، الطبعة عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص٩١.

(٤) انظر فتاوى ابن تيمية ٢٧/ ١٦٧، ٤٦٦.

(٥) توحيد الألوهية والفرق الضالة فيه ١/ ٢٩٨.

كل واحد من أئمتهم قبة من الذهب أو الفضة وبنوا مباني ونصبوا خدامًا فيقصدها الزائرون من كل فج عميق فيقفون أمام الباب متواضعين ويستأذنون متضرعين ثم يدخلون فيقبلون القبر ويطوفون حوله ويبكون ويبتهلون ويسألون حاجات لهم فهل هذا إلا العبادة؟!»[١] .

ويقول مختصر التحفة الاثنى عشرية شاه عبدالعزيز غلام حكيم الدهلوي: «وأما مشابهتهم للمشركين فلأنهم يعظمون قبور الأئمة ويطوفون حولها بل ويصلون إليها مستدبرين القبلة إلىٰ غير ذلك من الأمور التي يستقل لذيها فعل المشركين مع أصنامهم وإن حصل لك ريب من ذلك فاذهب يوم السبت إلىٰ مرقدي موسىٰ الكاظم ومحمد الجواد. . فانظر ماذا ترىٰ ومع ذلك فهذا معشار ما يصنعون عند قبر الأمير ـ أي علي بن أبي طالب ـ ومرقد الحسين رضي الله تعالىٰ عنه مما لا يشك ذو عقل في إشراكهم والعياذ بالله تعالىٰ»[٢] .

وقد اتخذوا صورًا للأئمة يعظمونها ويسجدون لها ولقبورهم «والنصارىٰ يصورون صورة عيسىٰ ومريم ويضعون ذلك في كنائسهم ويعظمونها ويسجدون لها فكذلك الرافضة فإنهم يصورون صور الأئمة ويعظمونها بل ويسجدون لها ولقبورهم وما جرىٰ مجرىٰ ذلك»[٣] .

فهذا عمل المشاهد والآثار ونتاجها تبدأ خفيفة ومعقولة إلىٰ حد ما ثم تكون أشبه ما تكون بكرة الثلج المنحدرة من علو جبل مكسو بالثلج لابد لها من التدحرج وكلما تدحرجت زادت ضخامة أو مثل كرة الطين.

فتعظيم الآثار والمشاهد عند الشيعة أثمر الشرك والوثنية بينهم كما اتضح من النقولات السابقة علمًا أن ما أوردته إنما هو غيض من فيض. .

****

(١) مسألة التقريب بين أهل السنة والجماعة، نقلاً عن الشيعة والتشيع، أحمد مير قاسم بن مير أحمد الكسروي، وكان شيعيًا ثم ترك التشيع وكان استاذًا في جامعة طهران وتولىٰ مناصب قضائية ورأس بعض المحاكم في إيران، انظر مسألة التقريب ١/ ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٢) مختصر التحفة الاثنى عشرية، ص٣٠٠ وانظر مسألة التقريب ١/ ٣٠٥.

(٣) مختصر التحفة الاثنى عشرية، ص٢٩٩، وانظر الشيعة والتصحيح، ص٨٥.

المبحث الثاني

تعظيم الآثار والمشاهد عند الصوفية

• معنى الصوفية:

الصوفية في اللغة لها عدة تعاريف حيث أنه لم يتفق علىٰ أصل اشتقاقها تقريبًا حتىٰ عند الصوفية.

منها:

١ ـ نسبة إلىٰ أهل الصفة وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صُفي.

٢ ـ وقيل نسبة إلىٰ الصف المقدم بين يدي الله، وهو أيضًا غلط فإنه لو كان كذلك لقيل صَفي.

٣ ـ وقيل نسبة إلىٰ الصفوة من خلق الله وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صفوي.

٤ ـ وقيل نسبة إلىٰ صوفة بن بشر بن أدين طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ينسب إليهم النساك[١]، وهذا وإن كان موافقًا للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضًا لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلىٰ هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولىٰ ولأن غالب من تكلم باسم «الصوفي» لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضىٰ أن يكون مضافًا إلىٰ قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام.

٥ ـ وقيل ـ وهو المعروف ـ أنه نسبة إلىٰ لبس الصوف وأن له ارتباطًا وتشبهًا بالنصارىٰ فعن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قومًا يفضلون لباس الصوف فقال: إن قومًا يتخيرون الصوف يقولون: أنهم متشبهون بالمسيح بن مريم وهدي نبينا أحب إلينا[٢] .

(١) المقصود بالنساك أي الصوفية.

(٢) انظر فيما سبق فتاوىٰ ابن تيمية ١١/ ٦ ـ ٧.

وهذا مناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقال تصوف إذا لبس الصوف ولأن لبس الصوف كان غالبًا على أوائل المنسوبين إلى التصوف[(١)] .

٦ ـ وقيل منسوب إلى الصفاء وهو غلط لأن النسبة إليه : صفائي وإلى سوفيا بمعنى الحكماء وهو غلط لأن النسبة إليه : سوفيائي أو الحكمة وإلى صوفي ـ لفظة يهودية بمعنى المرشد في حلقات العارف السرية أو بمعنى المسلّك ـ وإلى صوفة القفا أو إلى الصفوة من الخلق .

وقيل إنها علم على هذه الطائفة من غير اشتقاق ولا قياس .

● **أما في الاصطلاح:**

«هي رياضات يقوم بها السالك حتى يصل إلى الجذبة حيث يرى بتأثير إيحاءات شيخه المُؤَلَّه ـ رؤى يتوهم في بعضها أنها تَحقُّقٌ بالألوهية وبالتالي استشعار لوحدة الوجود»[(٢)] .

تعريف آخر «التصوف مجموعة من الأفكار الإسلامية والنصرانية واليهودية أو هو الخلاصة الروحية من تلك الديانات الثلاث»[(٣)] . ويقول عبدالرحمن الوكيل : «للصوفية مدد من كل نحلة ودين إلا دين الإسلام»[(٤)] .

تعريف آخر: «طريقة زهدية في التربية النفسية تعتمد على جملة من العقائد الغيبية (الميتا فيزيكيه) مما لم يقم على صحتها دليل في الشرع ولا في العقل»[(٥)] .

---

(١) انظر التعرف لمذهب التصوف، أبي بكر محمد بن اسحاق الكلاباذي، ت ٣٨٠هـ وتعليق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، ص١٠، هامش٣.

(٢) الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، محمود عبدالرؤوف القاسم، توزيع دار الصحابة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٧٣٦.

(٣) التصوف بين الحق والخلق، محمد فهر شقفة، الدار السلفية الكويت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، ص٧، نقله من التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ١/ ١٦٠ .

(٤) هذه هي الصوفية، عبدالرحمن الوكيل، مكتبة أسامة الرياض، ص١٩ .

(٥) التصوف بين الحق والخلق، ص٧ ـ وللتوسع في معرفة الصوفية وأقسامها، انظر رسالة : (الصوفية والفقراء) لشيخ الإسلام ابن تيمية .

● **سبب نشأة التصوف:**

اختلف في سبب التصوف إلى عدة آراء :

١ ـ نظرًا للرخاء والبذخ الذي ساد في العالم الإسلامي وحياة الترف التي بدأ يعيشها كثير من المسلمين فإن لبس الصوف والزهد في الدنيا كان رد فعل لهذه الحالة[(١)] .

لكن هذا لا يصلح أن يكون سببًا للتصوف وإنما يصلح هذا أن يكون رد فعله هو الانطواء والزهد ومحبة الفقر والانقطاع عن الدنيا .

٢ ـ أن التصوف كالتشيع رد فعل الفرس المقهورين منهم بتسلّم الإسلام زمام الأمور في بلادهم وهزيمتهم أمامه بدليل : أن أغلب رجالات الصوفية ومنظريها الكبار من الفرس وخاصة في أوج قوتها في القرن الرابع[(٢)] .

لكن والله أعلم: أن التصوف رد فعل لعلم الكلام.

فالأعمال قسمان:

أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح .

ففي حال التوازن يكون هناك علاقة اتصال واستمرارية بين عمل القلب وعمل الجوارح وكل منهما مستلزم للآخر .

فالقلب لا يكتفي بإيمانه بالله وخشيته من الله وذله وخضوعه وعبوديته لله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الجبار المتكبر الملك القدوس المؤمن المهيمن الخالق الباريء المصور العليم الخبير الفعال لما يريد ورجائه ومحبته له الرحمن السلام الرؤوف اللطيف بل إنه يحتاج إلى عمل الجوارح وأن تكون مستجيبة لطلب خالقها سواء طلب الفعل أو طلب الترك مؤلهة اللهَ وحده مثل القلب تمامًا .

وكذلك الجوارح التي تستجيب لأوامر الله والتي تنتهي عما نهى الله عنه تحتاج

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص٣٤١ .

(٢) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبدالرحمن عبدالخالق، مكتبة ابن تيمية الكويت الطبعة الثانية، ص٤٢٢ ، وانظر التصوف بين الحق والخلق، ص٣٤ .

في تقوية عملها وتحسينه والتلذذ به والسعادة بأدائه والعيش عيشة راضية إلى قلب يخشى الله ويحب الله ويرجو الله ومستند على الله ومتوكل على الله ومستعين بالله سبحانه وتعالى ومتذلل لله راج لله.

لكن عند الذين أثبتوا توحيد الربوبية بمقدمات منطقية واستدلالات عقلية هم أنفسهم يوردون شبهًا يقفون عندها تقطع عليهم يقينهم الذي ينشدون ويدّعون.

وهم يثبتون الرب ويسمونه في اصطلاحهم «واجب الوجود» لكنه لا يحدث في القلب تأثير الخشية والخوف ولا تأثير الرجاء والمحبة وتعظيم الله ولا ينادي القلب لأعمال الخير وينهاه عن أعمال الشر، فلا يذكر واجب الوجود وتقشعر له الجلود، ولا بذكره عندهم تطمئن القلوب ولا تخشاه القلوب في الغيب ولا تحبه القلوب حتى تطيعه وتتبع رسوله ولا تألهه القلوب بالذل والخضوع والمحبة والخوف والرجاء لأن الاستدلالات جافة وعقيمة والقلوب عندما بحثت فيها دخلت في منطقة محظورة عليها وتركت صفة من أخص صفات المؤمنين ألا وهي صفة الإيمان بالغيب قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾[3]، والله سبحانه وتعالى قد فطر المولود على الإسلام لله وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، والناس على اختلافهم في الأديان حتى الملحدين منهم عند الأزمات والشدائد ترتفع أكف الضراعة منهم وتعلو أبصارهم وتهفو قلوبهم تجاه ربهم وخالقهم وهم مستيقنون أنه لا ينفع إلا هو ولا مخلص إلا هو فيدعونه رغبًا في الخلاص ورهبًا من الهلاك يسألونه النجاة والفكاك.

---

(١) سورة البقرة، الآيات ١ ـ ٥.

(٢) سورة الأنفال، آية ٢.

(٣) سورة الرعد، آية ٢٨.

فلما كثر وطغى علم الكلام وزاد عن حده وبلغ قمة الخلافة العباسية واستهان الناس بأعمال الجوارح وجفت القلوب من خشية الله جاراه رد فعل معاكس له في الاتجاه مساوٍ له في القوة ألا وهو الاتجاه جهة التصوف والروحانيات وربط القلب بالله ربطًا مبنيًا على جهل، مما أنتج أعمالاً ضالة سواء في الجوارح أو القلوب ثم زاد التصوف وانتشر ودخل في مجاهيل العشق والهيام والفناء وشهود الحق والاتحاد ووحدة الوجود مما هو متوافر عند أصحاب الوثنيات كالهندية والنصرانية، وتعددت الطرق الصوفية فيما يسمونه الوصول إلى الله، لكنها انتشرت بين المسلمين لأنها سهلة المنال ثياب بالية وعصابة وتقلل من متاع الدنيا فكثرت الصوفية لأن كثيراً من المسلمين عوام أو أشباه عوام.

والأدهى من ذلك أن كثيراً من أصحاب علم الكلام يشعرون بجفاف علومهم ويتضجرون من ذلك وهم يشربون من قدح التصوف غالبًا لكنهم يشربون من القدح حتى الحثالة، فالذي يرفض الأحاديث الصحيحة بحجة أنها أخبار آحاد أويؤولها إذا كانت متواترة هو في الجانب الصوفي يتشبث ويعض بالنواجذ على أحاديث ضعيفة بل وموضوعة أحيانًا وقصص خرافية ومنامات وأضغاث أحلام ويقبل بها عقله ولا يناقض فيها أصلاً فأين هذه من تلك؟

ثم إن هذه الصوفية دخلها مغرضون وحملها مفسدون ونادى بها مستغلون فهي أولاً على ضلال، ثم نشرها ودعا لها متمردون فاجتمع فيها نوع من الضالين ونوع من المغضوب عليهم.

● نشأة التصوف:

يرى الصوفية أن أصحاب الصفة في عهد رسول الله ﷺ هم سلفهم والخلفاء الراشدين وكثير من التابعين وتابعيهم هم سلسلة أوائلهم ويترجمون لهم في طبقاتهم.

والسبب في ذلك أنهم يريدون أن يكسروا حاجز النفرة عنهم ويعطوا لأنفسهم سندًا وظهراً وسلفًا مقبولاً عند المسلمين وجواز سفر يمرون به بينهم، وهذا التأصيل منهم لم ينفردوا به بل أغلب الفرق تدعي أن أساس فرقتهم وقولهم موجود عند فلان

من الصحابة أو يزعمون أن الرسول ﷺ بذر بذرته ولابد أنهم في ذلك جميعًا إما يؤولون كلامهم أو ينتحلون عليهم أو يستندون إلى آثار ضعيفة.

والصوفية استغلوا نقطة مشتركة بينهم ظاهراً وبين أولئك السلف ألا وهي نقطة الزهد في الدنيا والإعراض عن ملذاتها وعدم الانشغال بها والرغبة في نعيم الآخرة.

والحقيقة أن الزهد يختلف عن التصوف إذ أن «الزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا، والزهادة في الأشياء كلها ضد الرغبة»[1] والمتصوفة لبسوا ثوب الزهد وتظاهروا به وبين الزهد والتصوف قدر مشترك إلى حد وهو التنازل عن كثير من ملاذ الحياة الدنيا إلا أنه في الزهد لئلا ينشغل الزاهد عن العبادة ولابتغاء الأجر بالتصدق بما يقع في اليد من مال أو متاع وهو على السنة.

أما عند الصوفية فالزهد على اعتبار أنه ترويض للنفس على الجوع والفقر لتصفيتها وزجها في بداية طريق الوصول إلى الغيب على اعتقادهم.

وأوائل الصوفية ومنظروها ـ الذين دخلوا في متاهات الغيبة والفناء والسكر ـ كلهم تقريبًا من غير العرب ومعنى هذا أن أهل الكشف المؤدي إلى الإلحاد والاتحاد ووحدة الوجود إنما هم أصحاب أفكار استغلوا ذاك القدر المشترك الذي بين أول درجاتهم وبين الزهد وأدخلوا منه بعد ذلك في الإسلام كل ما يؤمنون به من خرافات وأساطير ثم اعتذروا عن ترهاتهم بأن «جميع من شطح عن ظاهر الشريعة إنما هو دخيل فيهم أو غلب عليه حال أو كان مبتدئًا في الطريق»[2] فهم كالشيعة لبسوا حب آل البيت وأدخلوا عن طريقه معتقداتهم من حلول ورجعة وعصمة وركبوا دابة التقية.

ثم إن دائرة التصوف كانت واسعة في أول أمرها تضم العديد من الزهاد في العالم الإسلامي وكانوا يسمون النساك والعباد ولما دخلها أولئك الذين سلكوا بها مسلك الإلحاد سموها الصوفية وكانوا يخفون أمرهم ولا يظهرون إلا الزهد.

(١) لسان العرب مادة زهد ٣/١٩٦.

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، عبدالوهاب الشعراني، دار الفكر ٢/ ٩٣.

وقد كان يطلق عليهم المتصوفة وأحيانًا الزنادقة[1]، فهؤلاء الزنادقة شملوا أنفسهم مع من فيه تزهد بهذا الإسم حتى يتمكنوا من البقاء ثم بعد ذلك انصرف معنى الصوفية وانحصر في أولئك الذين سلكوا به مسلك الإلحاد ووحدة الوجود واستخدموا الكشف والسكر والفناء في ادعاء الوصول والاتحاد بالربوبية والألوهية.

ثم عمم هذا المعنى الباطل منهم على جميع أصحاب الدائرة الأولى التي تضم الصوفية والزهاد.

ولذلك صح أن يقال: أن الصوفية وجه آخر للتشيع إلا أن سير التشيع مسافته أطول وأعسر بعكس التصوف فإنه يجد قبولاً أكثر حيث يلبس ثوب الزهد وكثير من المسلمين فقراء.

ولا شك أن من الصوفية غلاة ومنهم دون ذلك ومنهم منظرون ورؤوس ومنهم عوام.

● معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الصوفية:

الشهادتان لا إله إلا الله محمد رسول الله هما كلمة التوحيد وعليهما مدار الإسلام فلا إله إلا الله للإخلاص ومحمد رسول الله للاتباع:

فمعنى: لا إله إلا الله: «لا يعبد بحق إلا الله أو إخلاص عبودية العبد لله أو توحيد الله بأفعال العباد قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ...﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ...﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

(١) الفكر الصوفي ص٣٣.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣.

(٣) سورة غافر، آية: ١٤.

(٤) سورة البينة، آية: ٥.

فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ... ﴾[2] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا... ﴾[3] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[4] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[5] . وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾[6] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ... ﴾[7] . وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾[8] .

وقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا... ﴾[9] . وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ

(١) سورة الأنبياء، آية: ٢٥ .

(٢) سورة النحل، آية: ٣٦ .

(٣) سورة النساء، آية: ٣٦ .

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦ .

(٥) سورة البقرة الآيات ٢١ ـ ٢٢ .

(٦) سورة الزمر الآيات ١١ ـ ١٥ .

(٧) سورة النساء، آية: ٤٨، ١١٦ .

(٨) سورة الكافرون .

(٩) سورة النساء، آية: ٣٦ .

مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[1] .

وعن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: **«سألت ـ أو سئل ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب عند الله أكبر؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك قال ونزلت هذه الآية تصديقًا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم** ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ... ﴾[2][3] .

قوله: ندًا: بكسر النون أي «نظيرًا» أي مماثل ومشارك.

وعن أبي مالك عن أبيه سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»**[4] وعن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار»**[5] . فلابد من إفراد الله بالعبادة وتخصيصها له وحده والكفر بما سواه مما يعبد من دون الله.

• والإله بمعنى المعبود:

«وجميع العلماء من المفسرين وشراح الحديث والفقه وغيرهم يفسرون الإله بأنه المعبود وإنما غلط في ذلك بعض أئمة المتكلمين فظن أن الإله هو القادر على الاختراع وهذه زلة عظيمة وغلط فاحش إذا تصوره العامي العاقل تبين له بطلانه وكأن هذا القائل لم يستحضر ما حكاه الله عن المشركين في مواضع من كتابه ولم يعلم أن مشركي العرب وغيرهم يقرون بأن الله هو القادر على الاختراع وهم مع ذلك مشركون إلى أن قال: قال أبو العباس[6] رحمه الله تعالى: وليس المراد بالإله هو القادر على الاختراع كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين حيث ظن أن الألوهية

(١) سورة المؤمنون، آية: ١١٧ .

(٢) سورة الفرقان، آية ٦٨ .

(٣) رواه البخاري ٨/ ٣٥٠ ـ ٣٥١، ورواه مسلم ٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤١ بنحوه.

(٤) رواه مسلم: ١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٥) رواه البخاري ٣/ ١٣٣ كتاب الجنائز، الباب الأول.

(٦) هو ابن تيمية رحمه الله تعالى.

هي القدرة على الاختراع وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا الله فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾(١).

إلى أن قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره!

وهذا التوحيد من التوحيد الواجب لكن لا يحصل به الواجب ولا يخلص بمجرده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر الذي لايغفره الله، بل لابد أن يخلص لله الدين فلا يعبد إلا إياه فيكون دينه لله والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب فهو إله بمعنى مألوه»(٢).

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ أي: «أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره، وقد بين ﷺ ما نعبد الله به ونهانا عن محدثات الأمور وأخبر أنها ضلالة...

وكما أننا مأمورون أن لا نخاف إلا الله ولا نتوكل إلى على الله ولا نرغب إلا إلى الله ولا نستعين إلا بالله وأن لا تكون عبادتنا إلا لله فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ـ ﷺ ـ ونطيعه ونتأسى به.

فالحلال ما حلله ﷺ والحرام ما حرمه والدين ما شرعه قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)﴾(٣) فجعل الإيتاء لله وللرسول وقدم له الفضل على رسوله وعلى المؤمنين، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ ولم يقل ورسوله وقال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فجعل الرغبة إلى الله وحده.

(١) سورة لقمان، آية: ٢٥.

(٢) مجموعة التوحيد، تحقيق: بشير محمد عيون، مراجعة عبد القادر الأرناؤوط، الناشر مكتبة دار البيان، دمشق، سوريا، التوزيع مكتبة المؤيد الطائف، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ١/ ١٦٩ ـ ١٧٠، من معنى العبادة والإخلاص للشيخ عبدالله بن عبد الرحمن المعروف بأبي بطين.

(٣) سورة التوبة، آية: ٦٠.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...﴾(١)، وجعل العبادة والخشية والتقوى لله وجعل الطاعة لله ولرسوله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾(٢)(٣).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾(٥).

فأمر سبحانه وتعالى باتباع نبيه ﷺ فيما يحل وفيما يحرم وأمرنا الله بطاعة نبيه ﷺ فيما يأمر نبيه ﷺ وفيما ينهى «فإن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بما يحب الله ولاينهى إلا عما يبغضه الله ولا يفعل إلا ما يحبه الله ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به فمن كان محبًا لله لزم أن يتبع الرسول ﷺ فيصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر وفيما نهى ويتأسى به فيما فعل ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله.

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول والجهاد في سبيله وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح وفي دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) سورة النور، آية: ٥٢.

(٣) مجموعة التوحيد ٢/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤ بتصرف.

(٤) سورة آل عمران، الآيات: ٣١ ـ ٣٢.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...﴾[1] فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله بهذا الوعيد الشديد»[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)﴾[4]، فلا يسع المؤمن ولا المؤمنة أمام أمره ونهيه وخبره إلا التسليم والتصديق والطاعة والاتباع.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فوالذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**»[5].

وفي الصحيح «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر**»[6]، «فحب الإنسان نفسه طبع وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب وعلى هذا كان جواب عمر رضي الله عنه.

أولاً كان بحسب الطبع ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى فأخبر بما اقتضاه الاختيار ولذلك حصل الجواب بقوله «الآن يا عمر» أي الآن عرفت فنطقت بما

(١) سورة التوبة، آية: ٢٤.

(٢) مجموعة التوحيد ٢/ ٤٩٢ - ٤٩٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٥) رواه البخاري: ١/ ٧٤ - ٧٥ كتاب الإيمان باب حب رسول الله ﷺ من الإيمان، ورواه مسلم بنحوه: ٢/ ٣٧٤ - ٣٧٥ كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ.

(٦) رواه البخاري: ١١/ ٥٣٢، كتاب الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ.

يجب»[1].

وهذان الأمران المأخوذان من الشهادتين وهما الإخلاص لله ومتابعة الرسول هما الشرطان الرئيسان لقبول الله لعمل ابن آدم قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾[2].

«فالعمل الصالح: هو الإحسان وهو فعل الحسنات، والحسنات: هي ما أحبه الله ورسوله وهو ما أمر به أمر إيجاب واستحباب»[3]، وكذلك مما أمر الله ورسوله به ترك السيئات والمعاصي والمحرمات عموماً.

أما قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ فهو إخلاص الدين لله وحده وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحًا واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾[4].

فتفسير قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنه أخلصه وأصوبه بمعنى أن العمل لابد أن يكون خالصاً لله لا شريك له لا وثن ولا قبر ولا ولي ولا نبي ولا ملك، لله فقط، ولابد أن يجتمع مع هذا الشرط في العمل شرط آخر وهو أن يكون هذا العمل صواباً أي أن يكون عملاً مؤدى عن اتباع وله دليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ فالخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة النبوية[5].

ومعلوم أن الدين قد أكمله الله للناس قال تعالى: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾[6].

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١١/ ٥٣٦ بتصرف.

(٢) سورة النساء، آية: ١٢٥.

(٣) مجموعة التوحيد ٢/ ٤٥٧.

(٤) سورة الملك، الآيتان: ١ - ٢.

(٥) انظر مجموعة التوحيد ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٦) سورة المائدة، آية: ٣.

وبما أنه قد عُلم تمام الإسلام وكماله وأن الله ارتضاه للمسلمين فإن الله قد ضمن بقاءه وحفظه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾[1] وعلى هذا فالدين تام وكامل ومحفوظ.

إذن إنما تكون الزيادة عليه ليست منه إنما هي غيره وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[2] والزيادة المردودة تشمل السابقة كالوثنيات وديانات أهل الكتاب السابقة، واللاحق من البدع والخرافات والنحل المستحدثة، وعن عائشة رضي الله عنها ـ قالت قال رسول الله ﷺ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**. وفي رواية أخرى: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**[3].

ومعنى فهو رد: أي مردود وباطل وغير معتد به وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»**. قالوا: يا رسول الله: ومن يأبى؟ قال: **«من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»**[5].

لكن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ لهما معنى مختلف عند الصوفية.

فإن تفسير لا إله إلا الله عندهم: «يعني الإلهية والمعبود ليست إلا أنا فأنا الظاهر في تلك الأوثان والأفلاك والطبائع وفي كل ما يعبده أهل كل ملة ونحلة فما تلك الآلهة كلها إلا أنا، ولهذا أثبت لهم لفظ الآلهة وتسميته لهم بهذا اللفظ من جهة ما

(١) سورة الحجر، آية: ٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٨٥.

(٣) الحديثان رواهما مسلم: كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ٢/ ٢٥٧ـ ٢٥٨.

(٤) انظر شرح صحيح مسلم ١٢/ ٢٥٧.

(٥) رواه البخاري ٦/ ٦٥٥ رقم ٦٨٥١.

هم عليه في الحقيقة تسمية حقيقية لا مجازية... إن أراد أن يبين لهم أن تلك الآلهة مظاهر وأن حكم الألوهية فيهم حقيقة وأنهم ما عبدوا في جميع ذلك إلا هو فقال: لا إله إلا أنا أي ما ثم من يطلق عليه اسم الإله إلا وهو أنا.. لاإله إلا أنا أي ما ثم إلا أنا وكل ما أطلقوا عليه اسم الإله فهو أنا»[1] تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ويفهم من هذا التفسير في النص السابق أن الأديان كلها واحدة فأي ملة انتحلها منتحل فلا فرق ولا خلاف، وكذلك أي عبادة لأي معبود إنما هي متساوية وليس هناك عبادة صحيحة وعبادة فاسدة وبمعنى أدق فليس هناك معبود باطل في الوجود بل كل ما عبد ومن عبد فعبادته على صواب لأنه إنما هو الله يتجلى في تلك المعبودات ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ويقول آخر زيادة في التعريف: «والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه ولذلك سموه كلهم إلهًا مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك»[2] وتعديده هذا يشير إلى توحيد الأديان والملل أو وحدة وجود مصغرة وعلى نطاق ضيق.

لكن التفسير الأوسع هو أن معناها عندهم أنه: لا موجود إلا الله على أساس أن «جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله فكل شيء هو الله»[3] «وأن العالم ليس إلا تجليه في صور أعيانهم الثابتة التي يستحيل وجودها بدونه وأنه يتنوع ويتصور بحسب حقائق هذه الأعيان وأحوالها وهذا بعد العلم به منا أنه إله لنا»[4].

وشرح ذلك هو: «إنما الموجود حقيقة هو ذات الحق تعالى وتقدس وليس لتلك الأعيان والماهيات الظاهرة وجود حقيقي ذاتي لها وإنما المشاهد فيها انصباغها بنور الوجود الحق على نحو من أنحاء الظهور وطور من أطوار التجلي الخفي فهو الظاهر

(١) هذه هي الصوفية، ص٩٦، وانظر شرح فصوص الحكم من كلام محيي الدين ابن عربي تحقيق محمود محمود الغراب، مطبعة زيد بن ثابت، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص٨٤، ٢٣٧، ٣٤٩.

(٢) هذه هي الصوفية، ص٣٨.

(٣) التصوف بين الحق والخلق، ص٦٤.

(٤) شرح فصوص الحكم، تحقيق: محمود الغراب ص٨٤.

في جميع المظاهر المشهودة في كل التعينات بحسب استعداداتها وتعدد شؤونه بتكثر حيثياتها . . »[1] .

قال أحد المتصوفة عن شيخه: «ذكر شيخ شيوخنا سيدي علي في كتابه أن طائفة من المريدين خدموا شيخنا ثلاثين سنة ثم قالوا له: يا سيدنا أردنا أن تعرفنا بربنا فقال لهم: نعم غداً إئتوني لداري فلما أتوه أخرج لهم صبيًا صغيراً فوجهه إليهم ثم دخل فانظر هذه الإشارة ما ألطفها وأخفها»[2] يعني أنه يقول: إن هذا الطفل ربهم فتعالى الله وتقدس سبحانه عما يقولون علواً كبيراً وأشهد أن لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

«وقال بعض شيوخهم لمريده: من قال لك إن في هذا الكون سوى الله فقد كذب فقال له مريده: فمن هو الذي يكذب»[3] .

فالمريد يقول لشيخه إذا كان ليس في الكون سوى الله فإن الناس أيضًا هم الله والذي يقول بخلاف كلام الشيخ منهم يكون كاذبًا وهو إله على حد زعم الشيخ فبهت شيخه.

فعلى هذا المعنى الذي يذهب إليه الصوفية لكلمة التوحيد لا إله إلا الله يفقد الإسلام معناه ويصبح اسمًا على غير مسمى صحيح ويُقضى به على معالم الإسلام وعلى أبرز ما فيه وهو التوحيد[4] .

أما معنى شهادة أن محمداً رسول الله عندهم: فهو ما يسمونه بالحقيقة المحمدية «حكمة فردية لانفراده ﷺ بمقام الجمعية الإلهية الذي ما فوقه إلا مرتبة الذات الأحدية لأنه ﷺ مظهر الاسم الله الأعظم الجامع للأسماء كلها ولأن أول ما أفاض

(١) التصوف بين الحق والخلق، ص٦٤، وانظر شرح فصوص الحكم، تحقيق الغراب ص٨٤.

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، مراجعة، محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص٤٠٧.

(٣) فقه التصوف لابن تيمية، تهذيب وتعليق، زهير شفيق الكبي دار الفكر العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٣م، ص١٤٢.

(٤) انظر أبو حامد الغزالي والتصوف عبدالرحمن دمشقية، دار الرياض الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ، ص٣٤١.

بالفيض الأقدس من الأعيان عينه الذاتية وأول ما وجد بالفيض الأقدس من الأكوان روحه الشريفة فحصل بالذات الأحدية والمرتبة الإلهية وعينه الثابتة الفردية الأولى واعلم أن أول الأفراد الثلاثة وما زاد عليها فهو صادر منها وهذه الثلاثة المشار إليها في الموجودات هي «الذات الأحدية والمرتبة الإلهية والحقيقة المحمدية المسماة بالعقل الأول»[1] .

ويقول شارح آخر للفصول: «فص حكمة فردية في كلمة محمدية وفي بعض النسخ إنما كانت حكمة فردية لانفراده بمقام الجمعية الإلهية الذي ما فوقه إلا مرتبة الذات الأحدية لأنه مظهر الاسم: الله وهو الاسم الجامع للأسماء والنعوت كلها . . . لأنه لا جامع لجميع الكليات والجزئيات للأسماء إلاّ وذلك تحت كماله، ولا مظهر إلا وهو ظاهر بكلمته، وأيضًا أول ما حصل به الفردية إنما هو بعينه الثابتة لأن أول ما فاض بالفيض الأقدس من الأعيان هو عينه الثابتة وأول ما وجد بالفيض المقدس في الخارج من الأكوان روحه المقدس كما قال: أول خلق الله نوري فحصل بالذات الأحدية والمرتبة الإلهية وعينه الثابتة الفردية . . . ويفهم هذا السر من يفهم سر الختمية فلنكشف بالتعريض عن التصريح والله هو الولي الحميد. م ـ أي متن ـ وأول الفراد الثلاثة وما زاد على هذه الأولية، ش ـ أي شرح ـ أي على هذه الفردية الأولية هي الذات الأحدية والمرتبة الإلهية والحقيقة الروحانية المحمدية المسماة بالعقل الأول وما زاد عليها فهو صادر منها كما تقرر أيضًا عند أصحاب النظر أن أول ما وجد هو العقل الأول»[2] .

ويظهر من هذا النص صلة التصوف بالعقائد الوثنية اليونانية وصلة التصوف بالتثليث سواء الموجود في النصرانية أم في الوثنيات قبلها.

أما تأثير الحقيقة المحمدية عندهم «فكان الحكم له باطنًا أولاً في جميع ماظهر من الشرائع على أيدي الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين فكان روح محمد

(١) شرح فصوص الحكم لابن عربي، محمود غراب، فص حكمة محمدية ص٤٢٣.

(٢) شرح فصوص الحكم، داود محمد القيصري، ويسمى الكتاب أيضًا مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم، تولى طبعه ميرزا محمد ملك، الكتاب شيرازي ١٣٠٠هـ بومبي ص٢٩٢ ـ ٢٩٣.

ﷺ هو الممد لجميع الأنبياء والرسل والأقطاب من حين النشئ الإنساني إلى يوم القيامة»[١] .

وقال آخر: «إعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين ثم له تنوع في ملابس ويظهر في كنائس فيسمى به باعتبار لباس ولا يسمى به باعتبار لباس آخر فاسمه الأصلي الذي هو له محمد وكنيته أبو القاسم ووصفه عبدالله ولقبه شمس الدين . . . واعلم أن الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه فيقابل الحقائق العلوية بلطافته ويقابل الحقائق السفلية بكثافته . . . ثم اعلم أن الإنسان الكامل هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي فإنه المعبر عنه حقيقة بتلك العبارات والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات ليس لها مستند في الوجود إلا الإنسان الكامل»[٢] ، ويقول آخر: «حقيقة الحقائق هي المرتبة الإنسانية الكمالية الإلهية الجامعة لسائر المراتب كلها وهي المسماة بحضرة الجمع وبأحدية الجمع وبها تتم الدائرة وهي أول مرتبة تعينت في غيب الذات وهي الحقيقة المحمدية»[٣] .

وقال آخر: «لما خلق النور المحمدي جمع في هذا النور المحمدي جميع أرواح الأنبياء والأولياء جميعًا جمعًا أحديًا قبل التفصيل في الوجود العيني وذلك في مرتبة العقل الأول»[٤] .

وفي كتاب الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة لعبدالرحمن عبدالخالق من ص١٠٨ وما بعدها من الحقيقة المحمدية كلام خرافي وكأنما هي جداول كذب من أودية شتى مجمعها نهر كبير يطلقون عليه اسم الحقيقة المحمدية منها خلقت

(١) شرح فصوص الحكم لابن عربي، تحقيق الغراب ص٤٢٥ .

(٢) الكشف عن الصوفية لأول مرة في التاريخ، ص٢٦٦ . وانظر شرح فصوص الحكم تحقيق الغراب ص٢٥ .

(٣) الفكر الصوفي، ص١٠٨ .

(٤) هذه هي الصوفية، ص٨٧ .

السموات والأرضون وأخذ من تعديد المخلوقات وخلاصة القول «أن الله ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ويقولون علوًا كبيرًا ـ عندما أراد أن يجعل قسمًا من ذاته متعينًا بشكل مخلوقات كان أول شيء فعله هو أن قبض قبضة من نور وجهه وقال لها كوني محمدًا فكان محمد هو أول التعينات وهذه القبضة من النور هي التي يطلقون عليها اسم «الذات المحمدية» ومن هذه الذات المحمدية انبثقت السماوات والأرض والدنيا والآخرة التي يسمونها فيما يسمونها «تعينات» فهي كلها تصدر عن الذات المحمدية ثم تعود إليها وهذا ما يسمونه «الحقيقة المحمدية»[١] .

لكننا نجد في كتاب ربنا سبحانه وتعالى قوله الكريم: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا . . . ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾[٣] .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ . . . ﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ . . . ﴾[٥] .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أُطري عيسى ابن مريم وقولوا عبدالله ورسوله»[٦] .

(١) الكشف عن الصوفية أول مرة، ص٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٢) سورة الإسراء، آية: ١ .

(٣) سورة الإسراء، الآيات: ٨٩ ـ ٩٣ .

(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠ .

(٥) سورة فصلت، آية: ٦ .

(٦) رواه البخاري: ١٢/١٤٨ .

فقد وصف الله نبيه محمداً ﷺ بأنه عبدالله وبأنه بشر وأنه في بشريته مثل البشر إلا أنه متميز عليهم بالوحي والرسالة، وأمر ﷺ أن تقول عنه بأنه عبد الله ورسوله فقد اختار لنفسه ما اختاره له الله من العبودية لله ووصف الرسالة ولم يرِد عن الله ولا عن رسوله ﷺ خلاف ذلك وما ورد خلاف ذلك فمردود على أصحابه.

*** غلو الصوفية في أوليائهم ومشايخهم وأنه يؤدي إلى عبادة قبورهم.**

أضفى كبار الصوفية والواصلين منهم - بزعمهم - على أنفسهم هالة عظيمة من القداسة والتبجيل وادعوا لأنفسهم مقامًا عند الله وزعموا أنهم يملكون كشف الضر وإجابة المضطر وصرفوا لأنفسهم بعض خصائص الربوبية والألوهية فزعموا علم الغيب وادعوا العلم اللدني وزعموا أنهم يتلقون عن الله منامًا أو مكاشفة ويأخذون من رسول الله مدداً ولم يكن ذلك حال الحياة فقط بل امتد ذلك لهم حتى بعد أن يدفنوا فصنع لهم مريدوهم القباب وقصدهم أناس شتى من جهات شتى طلبًا للشفاء أو غيره من المقاصد الدينية أو الدنيوية كطلب الولد والزوج وسؤال النجاح والتوفيق وطلب الزلفى وإفاضة البركة ورجاء الرحمة عند أضرحتهم.

فمما زعموه لأنفسهم أن لهم كرامات و «أن الكرامات أنواع: منها إحياء الموتى وكلامهم وانفلاق البحر وجفافه والمشي على الماء وانقلاب الأعيان وانزواء الأرض وإبراء العليل وكلام الحيوانات وطاعتها وطي الزمان ونشره واستجابة الدعاء وإمساك اللسان عن الكلام وإطلاقه وجذب القلوب، والإخبار بالمغيبات ومقام التصريف - كما حكي عن بعضهم أنه يتبعه المطر - والقدرة على تناول الكثير من الغذاء، والحفظ عن أكل الحرام، ورؤية البعيد من وراء الحجب، والهيبة بحيث مات من يشاهده - وكفاية شر من يريد بأحد شراً، والاطلاع على ذخائر الأرض، وتسهيل التصانيف في زمن يسير والتطور بأطوار مختلفة»[١].

وحتى يتبين دجلهم فهذه نماذج من تراجمهم وطبقاتهم وما يتمتعون به من امتيازات وكرامات حسب ادعائهم الكاذب وبهتانهم الشاحب فهذه بعض تراجمهم

(١) جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني، تحقيق إبراهيم عطوه عوض، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ٢/ ٢٥٧.

تبين ذلك:

«ومنهم أبو محمد عبدالرحيم المغربي القناوي... هو من أجلاء مشايخ مصر المشهورين وعظماء العارفين صاحب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة.. حكي أنه نزل يومًا في حلقة الشيخ شبح من الجو لا يدري الحاضرون ما هو فأطرق الشيخ ساعة ثم ارتفع الشبح إلى السماء فسألوه عنه فقال: هذا ملك وقعت منه هفوة فسقط علينا يستشفع بنا فقبل الله شفاعتنا فيه فارتفع... توفي... بقنا بصعيد مصر وقبره بها مشور يزار»[١].

وهذا افتراء آخر: «ومنهم الشيخ محمد الشربيني... شيخ طائفة الفقراء كان من أرباب الأحوال والمكاشفات... ولما ضعف ولده أحمد وأشرف على الموت وحضر عزرائيل لقبض روحه قال له الشيخ: ارجع إلى ربك فراجعه فإن الأمر نسخ[٢] فرجع عزرائيل وشفي أحمد من تلك الضعفة وعاش بعدها ثلاثين عامًا وكان... يقول للعصا التي كانت معه كوني إنسانًا لتكون إنسانا ويرسلها تقضي الحوائج ثم تعود كما كانت.. وكان يقبض من الهواء كل شيء يحتاجون إليه للبيت وغيره ويعطيه لهم»[٣].

وأقول لا داعي لإرسال العصا إذا كان يقبض من الهواء كل شيء يحتاجون إليه.

وهذا افتراء آخر: «ومنهم بركات الخياط.. إذا قدموا له لحم الضاني واشتهى لحم حمام ينقلب في الحال إلى حمام وله وقائع مشهورة»[٤].

وهذا افتراء آخر: «ومنهم أمين الدين... كان من الراسخين في العلم وانتهت إليه الرياسة في علم السند بالكتب الستة وغيرها.. ومما وقع لي معه أنني كنت أقابل

(١) الطبقات الكبرى المسماة لواقح الأنوار في طبقات الأخبار، عبدالوهاب بن أحمد المعروف بالشعراني، دار العلم للجميع ١/ ١٥٦-١٥٧.

(٢) وهنا يشتركون مع الشيعة في القول على الله عز وجل بالبداء - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(٣) الطبقات الكبرى ٢/ ١٣٥-١٣٦.

(٤) المصدر السابق ٢/ ١٤٤.

معه في شرح البخاري في جزاء الصيد فذكر جزاء التيتل فقلت : ماهو التيتل فقال : هذا الوقت تنظره فخرج التيتل من المحراب فوقف على كتفي فرأيته دون الحمار وفوق تيس المعز وله لحية صغيرة فقال : ها هو ثم دخل الحائط فقبلت رجله فقال : اكتم حتى أموت»[١] .

ومنهم «صدر الدين البكري . . . ولما حج وزار النبي ﷺ سمع رد السلام من رسول الله ﷺ»[٢] وأعوذ بالله من الكذب على رسول الله ﷺ .

وفي ترجمة . . . قال : منهم «علي الخواص البرلسي . . كان . . . أميًا لايكتب ولا يقرأ وكان يتكلم على معاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلامًا نفيسًا تحير فيه العلماء وكان محل كشفه اللوح المحفوظ عن المحو والإثبات ، فكان إذا قال قولاً لابد أن يقع على الصفة التي قال ، وكنت أرسل له الناس يشاورونه عن أحوالهم فما كان قط يحوجهم إلى كلام بل كان يخبر الشخص بواقعته التي أتى لأجلها قبل أن يتكلم فيقول : طلق مثلاً أو شارك أو فارق أو اصبر أو سافر أو لاتسافر فيتحير الشخص ويقول : من علم هذا بأمري ، وكان له طب غريب يداوي به أهل الاستسقاء والجذام والفالج والأمراض المزمنة فكل شيء أشار باستعماله يكون الشفاء فيه . . . وأعطي التصريف في ثلاثة أرباع مصر وقراها . . .

وكان يقال : إن خدمة النيل كانت عليه وأمر طلوع النيل ونزوله وري البلاد وختام الزرع كل ذلك كان بتوجهه فيه إلى الله تعالى . . . ، وكان يملأ أوعية الكلاب دائمًا في حاراته وغيرها وكان لا يراه أحد قط يصلي الظهر في جماعة ولاغيرها بل كان يرد باب حانوته وقت الأذان فيغيب ساعة ثم يخرج فصادفوه في الجامع الأبيض برملة لد ـ في فلسطين ـ صلاة الظهر وأخبر الخادم أنه دائمًا يصلي الظهر عندهم . . »[٣] .

وقول أحمد التيجاني : «ليس لأحد من الأولياء أن يدخل كافة أصحابه الجنة

(١) الطبقات الكبرى ٢/ ١٤٥ ـ ١٤٦ .
(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ١٤٧ .
(٣) الطبقات الكبرى ٢/ ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

بغير حساب ولا عقاب إلا أنا وحدي ولو بلغوا ما بلغوا من الذنوب وعملوا ماعملوا من المعاصي وأما سائر سادتنا الأولياء فيدخلون الجنة أصحابهم بعد الحساب والمناقشة»[١] .

ودجال آخر قريب منه : «الشيخ عثمان السالم أبادي . . يصعد كل يوم عند غروب الشمس إلى ديوان الربوبية ـ كذب أخزاه الله ـ وينظر ديوان ذريته فما يجد من سيئة يمحها ويكتب عوضها بلا معارضة»[٢] .

ويقول أبو العباس أحمد بن أبي الخير الصياد : «والله إني لأعرف الجنة قصرًا قصرًا وأعرف النار حانوتًا حانوتًا وأعرف أصحابها في الدنيا واحدًا واحدًا»[٣] .

ويقول عبيد أحد أصحاب الشيخ حسين أبي علي : «كان له خوارق مدهشة ومن كراماته أنه كان يأمر السحاب أن يمطر فيمطر لوقته وكل من تعرض له بسوء قتله بالحال في الحال ؛ دخل مرة الجعفرية فتبعه نحو خمسين طفلاً يضحكون عليه فقال يا عزرائيل إن لم تقبض أرواحهم لأعزلنك من ديوان الملائكة فأصبحوا موتى أجمعين ، وقال له بعض القضاة : اسكت قال له : اسكت أنت ، فخرس وعمي ، وصم ، وسافر في سفينة فوحلت[٤] ولم يمكن تعويمها فقال : اربطوها بخيط في بيضي ففعلوا فجرها حتى خلصها من الوحل»[٥] .

وهذا مثبط عن طلب العلم وداعية كسل ومفسد للأخلاق يقول : «إذا طلب الرجل الحديث أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا»[٦] .

وبعض الكذب لا شك أكبر من بعض وقد ذكر في ترجمة إبراهيم الدسوقي أنه كان «يقول : أعرف تلامذتي من يوم ﴿ألست بربكم﴾ وأعرف من كان في ذلك

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية : ٥٣١ .
(٢) المصدر السابق ، ص٥٠٩ .
(٣) الكشف عن حقيقة الصوفية ، ص٤٧٤ .
(٤) أي أن السفينة في ماء ضحل قليل فتكون متكئة على قاع ماء البحر أوالنهر فلا تسير فوق الماء .
(٥) الكشف عن حقيقة الصوفية ٤٦٧ ـ ٤٦٨ .
(٦) المصدر السابق ٦١ ـ ٦٢ .

الموقف عن يميني ومن كان عن شمالي ولم أزل من ذلك اليوم أربي تلامذتي وهم في الأصلاب لم يحجبوا عني إلىٰ وقتي هذا . . . .

ويقول : أشهدني الله تعالىٰ ما في العلىٰ وأنا ابن ست سنين ونظرت في اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنين وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين ورأيت في السبع المثاني حرفًا معجمًا حار فيه الجن والإنس ففهمته وحمدت الله تعالىٰ علىٰ معرفته وحركت ما سكن وسكنت ما تحرك بإذن الله تعالىٰ وأنا ابن أربع عشرة سنة»[١] .

وزيادة في الافتراء «وأجرىٰ الله علىٰ يدي سيدي إسماعيل الكرامات وكلمته البهائم وكان يخبر أنه يرىٰ اللوح المحفوظ ويقول : يقع كذا وكذا لفلان فيجيء الأمر كما قال»[٢] .

وآخر يزعم لنفسه ويدعو لتقديسه : «قال : والله لو علمت علماء العراق والشام ما تحت هذه الشعرات وأمسك علىٰ لحيته ـ لأتوها ولو حبوًا علىٰ وجوههم . . . ويقول : إذا كمل الرجل نطق بجميع اللغات وعرف جميع الألسن إلهامًا من الله عز وجل . . وكان يفتري ويقول : من لم يصلح للدنيا ولاللآخرة يصلح لله . . وكأن إذا سمع أحدًا يقول : هذه ليلة القدر يقول : نحن بحمد الله أوقاتنا كلها ليلة قدر»[٣] .

وهناك افتراء أعظم مما سبق فقد نسب الصوفية هذا الكذب «وأُعطيتُ حرف «كن» وأنا سائح في البرية فكنت أجد الموائد المنصوبة فآكل منها ما أشتهي وأقطع من الجبل الحلوىٰ وآكل وكنت أشرب من الرمل السكر فأضع الرمل وأصب عليه من البحر الملح وأشربه حلوًا ثم تركت ذلك أدبًا مع الله تعالىٰ»[٤] ، وحرف كن ادعاه غير هذا « . . . وفوقها ـ أي المقامات التي ذكرها عنه قبل هذا الكلام ـ ما لا يصلح رسمه

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ١/ ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق ١/ ١٨٥ .

(٣) انظر الطبقات الكبرىٰ ٢/ ١٣ ـ ١٦ .

(٤) جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٢/ ٢٢٠ ـ ٢٠٣ .

في كتاب من مكاشفات الصديقين ومشاهدات العارفين منها أنه أعطاهم «كن» باطلاعه إياهم علىٰ الاسم ، فزهدوا في كون «كن» لأجل «كان» توكلاً عليه وحياء أن يعارضوه في قدرته ويرغبوا عن تقديره أو يضاهوه في تكوينه»[١] .

ومن شعرهم الكفري :

وقلدني تصريف دنياه كلها ... فصرت على الأكوان في الأرض ناظرًا

وأمري بأمر الله إن قلت كن يكن ... ووعدي بإذن الله ما شئت حاضرًا[٢]

و تجلى لي المحبوب في كل وجهة ... فشاهدته في كل معنى وصورة

وخاطبني مني بكشف سرائري ... فقال أتدري من أنا قلت منيتي

فأنت مناي بل أنا أنت دائمًا ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتي

فقال كذاك الأمر لكنه إذا ... تعينت الأشياء كنت كنسختي

فأوصلت ذاتي باتحادي بذاته ... بغير حلول بل بتحقيق نسبتي

فصرت فناء في بقاء مؤبد ... لذات بديمومة سر مدية

ثم يقول :

وما شهدت عيني سوى عين ذاتها ... وإن سواها لا يلم بفكرتي

بذاتي تقوم الذات في كل ذروة ... أجدد فيها حلة بعد حلة

فليلي وهند والرباب وزينب ... وعلوى وسلمى بعدها وبثينة

عبارات أسماء بغير حقيقة ... وما لوّحوا بالقصد إلا لصورتي[٣] .

أما خطيبهم :

«ومنهم إبراهيم العريان كان يطلع المنبر ويخطب عريانًا فيقول : «السلطان ودمياط باب اللوق بين القصرين وجامع طيلون الحمد لله رب العالمين ، فيحصل

---

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية ، ص٥٣٤ .

(٢) توحيد الألوهية والفرق الضالة فيه ، ٢/ ٥٤١ .

(٣) الطبقات الكبرىٰ ١/ ١٨٢ .

للناس بسط عظيم... وكان يخرج الريح بحضرة الأكابر ثم يقول: هذه ضرطة فلان ويحلف على ذلك فيخجل ذلك الكبير منه»[1].

أما صاحب التراجم عبدالوهاب بن أحمد الشعراني فيروي أكاذيب دجلاً عن نفسه مع أحمد البدوي يقول: «إن شيخه محمد الشناوي قد كان أخذ علي العهد في القبة تجاه أحمد - أي البدوي - وسلمني إليه بيده فخرجت اليد الشريفة من الضريح وقبضت على يدي، وقال - أي الشناوي - يكون خاطرك عليه واجعله تحت نظرك فسمعت أحمد من القبر يقول نعم.. ولما دخلت بزوجتي وهي بكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها فجاءني - أي أحمد البدوي - وأخذني وهي معي وفرش لي فرشًا فوق ركن القبة التي على يسار الداخل وطبخ لي حلوى ودعا الأحياء والأموات إليه وقال: أزل بكارتها هنا فكان الأمر تلك الليلة.

وتخلفت عن ميعاد حضوري للمولد سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وكان هناك بعض الأولياء فأخبرني أن أحمد كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول: أبطأ عبدالوهاب ما جاء.

وأردت التخلف سنة من السنين فرأيت أحمد ومعه جريدة خضراء وهو يدعو الناس من سائر الأقطار والناس خلفه ويمينه وشماله أمم وخلائق لا يحصون فمر علي وأنا بمصر فقال أما تذهب فقلت بي وجع فقال الوجع لا يمنع المحب ثم أراني خلقًا من الأولياء وغيرهم الأحياء والأموات من الشيوخ والزمنى بأكفانهم يمشون ويزحفون معه يحضرون المولد»[2].

هذا النقولات وأمثالها غيض من فيض وتعتبر من الأشياء القليلة وإلا فهناك طوام وخزعبلات وأنواع من الدجل وصنوف من الافتراء وألوان من الاعتداء على الله وعلى رسله وعلى ملائكته مما تطفح به كتبهم وتراجمهم، فأين هم وقوله تعالى: ﴿...أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ...﴾[3].

(١) الطبقات الكبرى ٢/ ١٤٢.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٨٦ بتصرف.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٥٤.

وقوله تعالى: ﴿...وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ...﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ...﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ...﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿...وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣)﴾[4].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾[5].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ...﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾[7].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿...وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ...﴾[8].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ...﴾[9].

وقال سبحانه: ﴿...وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ...﴾[10].

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٨.

(٤) سورة فاطر، آية: ١٣.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ١٩.

(٦) سورة يونس، آية: ١٠٧.

(٧) سورة الأحقاف، آية: ٥.

(٨) سورة آل عمران، آية: ١٧٩.

(٩) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

(١٠) سورة الأعراف، آية: ١٨٨.

وقال وتعالىٰ: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ...﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾[2].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾[3].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿...وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾[4].

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له من النار فلا يأخذها**»[5].

فالرسول ﷺ لايعلم مافي الصدور ولا الغيب إلا ما أعلمه الله إياه من ذلك فغيره من البشر من باب أولىٰ.

وعن عبدالله رضي الله عنه قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث ـ وهو متكيء علىٰ عسيب ـ إذ مرّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح فقال ما رابكم إليه ـ وقال بعضهم لا يستقبلكم بشيء تكرهونه ـ فقال: سلوه، فسألوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا فعلمت أنه يوحىٰ إليه فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾[6] [7]

---

(١) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٢) سورة فاطر، آية: ٣٨.

(٣) سورة الجن الآيات ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) سورة الطلاق، آية: ١٢.

(٥) رواه البخاري: ٥/ ٣٤٠ كتاب الشهادات باب من أقام البينة بعد اليمين، رواه مسلم: ١٢/ ٢٤٥ بنحوه كتاب الأقضية باب الحكم بالظاهر واللحن [الحجة].

(٦) سورة الإسراء، آية: ٨٥.

(٧) رواه البخاري: ٨/ ٢٥٣، كتاب التفسير باب ويسألونك عن الروح.

فالرسول ﷺ لم يجبهم بل انتظر الجواب من الوحي فلما جاءه أجابهم به وقد خاطب الله عبده ورسوله ﷺ بقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾[1].

* **غلاة الصوفية يدعون إلى تعظيم القبور والمشاهد.**

إن من يقرأ تراجم الصوفية سيجد في آخر بعض المترجم لهم عبارة «وقبره ظاهر يزار» أو تربته أو قبره ترياق مجرب» أو نحو ذلك.

وقد اهتم الصوفية بالقبور وبنوا عليها الأضرحة والقباب وعمروا كثيراً من المشاهد علىٰ القبور وبنوا كثيراً من المساجد علىٰ قبور تكون أحيانًا في قبلة المسجد وأحيانًا في وسط المسجد بل إن بعض الصوفية له مشهدان بل إن كثيراً من القبور ليس فيها أحد يسمىٰ القبر الذكري.

ومن المعلوم المشهور أن للحسين بن علي رضي الله عنه ثلاثة قبور أو أكثر بعضها لجسده وبعضها لرأسه، وكما قال أحد الدعاة: أجمع أهل السنة والجاعة أن الحسين ليس له إلا رأس واحد، وأحاطوا القبور بهالة من القداسة والقيمة النفعية سواء المادية منها أو المعنوية وسواء الدنيوية منها أو الأخروية فمن ذلك قول أحدهم: «إذا صدق المريد مع شيخه ونادىٰ شيخه من مسيرة ألف عام أجابه حيًا كان الشيخ أو ميتًا فليتوجه الصادق بقلبه إلىٰ شيخه في كل أمر دهمه في دار الدنيا فإنه يسمع صوت شيخه ويغيثه مما هو فيه، ومهما ورد عليه من مشكلات يطبق عينيه ويفتح عين قلبه فإنه يرىٰ شيخه جهاراً فإذا رآه فليسأله عما شاء وأراد»[2].

وقال الشعراني: «قال سيد محمد الحنفي: من كان له حاجة فليأت إلىٰ قبري ويطلب حاجته أقضها له، فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب وكل رجل يحجبه

---

(١) سورة الشورىٰ، الآيات: ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، عبدالوهاب الشعراني، تحقيق: طه عبدالباقي سرور، محمد عبدالشافي، مكتبة المعارف، بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م. ص١٨٩.

عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل»[١] .

وهذا محمد بن أحمد الفرغل يقول : «أنا من المتصرفين في قبورهم فمن كانت له حاجة فليأت إلي قبالة وجهي ويذكرها لي اقضها له . . . وقبره بها ـ أي بالصعيد ـ ملجأ لأهل تلك البلاد ولزيارته آثار لا ينكرها إلا محروم»[٢] .

ومثله ما ذُكر عن أبي الحسن علي بن عمر أن «تربته من الترب المشهورة بالبركة واستجابة الدعاء . . . . ومن أعجب بركتها . . . أنه كان علىٰ قبره شجرة سدر يأخذ أصحاب الحميات من ورقها يطلون به رؤوسهم فيبرأون من الحمىٰ واستفاض ذلك حتىٰ كان يؤتىٰ لها من الأماكن البعيدة»[٣] .

ومن الكذب الفاضح والدجل قول النبهاني عن يوسف بن عبدالله بن عمر العجمي : «وجاء رجل إلىٰ زيارة قبره فأوقف حمارته بباب الزاوية ودخل فزار وخرج فلم يجدها فعاد إليه وقال : جئتك للزيارة فتضيع علي الحمارة ، فانشق القبر وخرج منه إلىٰ البرية وعاد ومعه الحمارة وقال : إذا جئتنا بعد اليوم فقيد حمارتك ولا تتعبنا وإلا فلا تأتنا»[٤] .

لكن الله سبحانه وتعالىٰ قال : ﴿ . . .وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾[٥] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾[٦] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ

(١) جامع كرامات الأولياء ١/ ٢٧٠ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٧٤ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٢٨ .

(٤) جامع كرامات الأولياء ٢/ ٥٣٦ .

(٥) سورة فاطر، آية : ٣ .

(٦) سورة الأنعام، آية : ١٧ .

الْقِيَامَةِ . . . ﴾[١] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ . . .قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[٣] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[٤] . ففاقد الشيء لا يعطيه فهم لا يستطيعون النفع والضر لأحد .

وفي الصحيح أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾[٥] **قال: يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا عباس بن عبدالمطلب لاأغني عنك من الله شيئًا ويا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شيئًا ويا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا»**[٦] .

فقوله ﷺ للأبعد والأقرب من عشيرته : **«لا أغني عنك من الله شيئًا»** حتىٰ قال : **«يا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم»** فإنه صرح ﷺ وهو سيد ولد آدم أجمعين وسيد المرسلين أنه لا يغني عن سيدة نساء العالمين ابنته فاطمة وقرابته وعشيرته فكيف بمن عداهم من الناس فلن يغني عنهم من الله شيئًا ويستثنىٰ من ذلك ما ورد من أحاديث الشفاعة ، هذا من ناحية .

(١) سورة الأحقاف، آية : ٥ .

(٢) سورة الإسراء، آية : ٥٦ .

(٣) سورة الزمر، آية : ٣٨ .

(٤) سورة الرعد، آية : ١٦ .

(٥) سورة الشعراء، آية : ٢١٤ .

(٦) رواه البخاري : ٨/ ٣٦٠ كتاب التفسير باب وأنذر عشيرتك الأقربين .

ومن ناحية أخرى فإنه إذا كان وهو سيد البشر لن يغني عن أحد شيئًا فمن باب أولى لن يغني غيره من الخلق شيئًا عن أحد إلا لمن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

نتيجة دعاوى المتصوفة في مشائخهم وأوليائهم وقبورهم:

بعد أن ذكر المتصوفة عن أنفسهم وأشياخهم الأحياء منهم والأموات من النفع والضر والتدبير، وطلب التقديس لهم والتعظيم، وطلب العون منهم والإمداد والإغاثة وسنوا بهم الاستغاثة والاستعانة وطلب البركة فكان من نتيجة ذلك أن عظم الأتباع والمريدون والسذج من الناس تلك الرفات وأقاموا عليها القباب وعمروا المشاهد وعظموها فأعادوا الوثنية جذعة في بلاد المسلمين ونشروها بينهم وكثرت المشاهد المعظمة والآثار حتى أن بعض المقبورين توضع بعض حاجاتهم من ملابس وأواني في ناحية من الضريح ولها من القيمة وفيها من البركة على زعمهم ما فيها، وأصبحت ترى الناس يرتادونها ويطوفون عليها كما يطاف على الكعبة ويطلبون منها المال والولد والزوج ويقدمون لها النذور ويقفون لها الأوقاف ويسألونها أو يسألون رممها الحاجات وشفاء المرضى ورد الضائعات: «ضاعت ناقة بدوي فبحث عنها ولم يجدها، فلجأ إلى قبر معروف في البادية وأخذ يبكي ويصرخ ويصيح ثلاثة أيام متوالية من الصباح حتى المساء وهو يردد قائلاً: يا سعد يا سعد هات لي ناقتي وهكذا كان يطلب المدد من سعد وكان هناك شخص عربي في عشيرة عربية تقيم بالقرب من هذا القبر يتألم لما وصلت إليه حالة هذا البدوي الذي يندب حظه ويطلب من الميت في القبر أن يوجد له ضالته.

وفي اليوم الثالث جاء هذا الشخص ـ وهو محمد بن عبدالوهاب ـ وسأل البدوي قائلاً: ما هي مشكلتك؟ فقال له البدوي: لقد فقدت ناقتي فجئت إلى قبر شيخي وأن الشيخ سعد لابد وأن يجدها لي، فسأله محمد بن عبدالوهاب قائلاً: ومن هو شيخك فقال البدوي: هذا الذي يرقد في هذا القبر. قال له محمد بن عبدالوهاب: يا شيخ إنك أنت وأنت حي تعجز أن تجد ناقتك فما بالك بشيخك وهو ميت؟ كيف يستطيع الخروج من قبره ليجد لك ما تعجز أنت في العثور عليه دعك من هذا الميت واطلب العون والمدد من الله بدلاً من أن تطلب المدد من هذا المدفون تحت الحجارة وقد أصبح مجموعة عظام، لا تطلب ناقتك من سعد بل اطلبها من

رب سعد لا تقل: يا سعد، بل قل: يا رب سعد، فإن القادر على أن يجد لك ناقتك ليس سعداً وإنما رب سعد، ذلك لأن الله عز وجل هو القادر على كل شيء»[١].

وقد رأيت شيئًا من ذلك من الطلبات المقدمة من الناس إلى تلك الأضرحة ورأيت من التمسح بسياجاتها وإمرار اليد على الجسم عند بعض الأضرحة، وقد سجل ذلك بعض المستشرقين فهذا جولد زيهر مبينًا تقديس العامة للأضرحة والأولياء يقول: «وأضرحة الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى هي موضع عبادتهم التي يرتبط بها أحيانًا ما يظهره العامة من تقديس وثني غليظ لبعض الآثار والمخلفات بل إن العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة»[٢].

ويقول أيضًا: بقي كثير من عناصر الديانات السابقة للإسلام واستأنفت حياتها في المظاهر العديدة الخاصة بتقديس الأولياء، وفي الحق ليس من شيء أشد خروجًا على السنة القديمة من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الإسلام والماسخ لحقيقته، وإن السني الصادق الحريص على اتباع السنة لابد أن يعده من قبيل الشرك الذي يستثير كراهيته واشمئزازه»[٣].

*****

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، دار القلم دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص١٧٣.

(٢) هذه هي الصوفية، ص١٠١ ـ ١٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٠١.

الباب الثاني

تعظيم الآثار والمشاهد في القرآن والسنة وتطبيقاتها عند السلف الصالح

وهو مشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول : في القرآن الكريم ويتضمن نماذج من المشاهد والآثار التي وردت فيه.

الفصل الثاني : في السنة المطهرة ويتضمن أيضًا نماذج من المشاهد والآثار التي وردت في السنة المطهرة.

الفصل الثالث : موقف السلف وتطبيقاتهم للأحكام الشرعية على الآثار والمشاهد التي في عصرهم.

*****

الفصل الأول

نماذج من الآثار والمشاهد في القرآن الكريم

- الآثار والمشاهد التي وردت في القرآن والسنة تحمل معنىٰ مجمع الناس فتدخل فيه أماكن العبادة والأضرحة وغيرها.

● **الآثار والمشاهد وردت في القرآن الكريم على أنواع:**

الأول: نوع طلب من المسلمين تعظيمه إما علىٰ وجه الاستحباب أو علىٰ وجه الإلزام والوجوب.

الثاني: نوع نهىٰ المسلمون عن تعظيمه إما علىٰ سبيل التحريم أو علىٰ سبيل الكراهية.

الثالث: نوع ورد ذكره في سياق ذكر حوادث.

الرابع: نوع طلب من غير المسلمين النظر فيها وأخذ العبرة.

وتفصيل ذلك:

أولاً: ما طلب من المسلمين تعظيمه ومن ذلك:

١ - المسجد الحرام وما يحويه:

قال تعالىٰ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[1] وذلك في الصلاة والدعاء[2].

وقال تعالىٰ: ﴿...إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ...﴾[3].

أ - الكعبة قال تعالىٰ: ﴿...وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٤.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٣ وزاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي تحقيق د. محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله، تخريج السعيد بن بسيوني زغلول، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ١/ ١٤٠-١٤١.

(٣) سورة التوبة، آية: ٢٨.

وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ ...وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ... ﴾[٣]. بوأنا: دللناه عليه[٤] وهيأناه له فبناه على تقوى وأسسه على طاعة الله[٥].

البيت: الكعبة[٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ... ﴾[٧].

مثابة: يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه فهم لا يقضون منه وطراً يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، أو يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه[٨].

وأمنا: أي موضع آمن لا يجوز أن يخاف فيه أحد فيكون أمنًا للناس من العدو وأن يحمل فيه السلاح[٩] أي يأمن الناس من أن يحمل العدو السلاح.

وقال تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ... ﴾[١٠].

أي صير الله الكعبة البيت الحرام قوامًا للناس الذين لا قوام لهم من رئيس يحجز قويهم عن ضعيفهم ومسيئهم عن محسنهم وظالمهم عن مظلومهم[١١] أو يرفع عنهم -

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٥.
(٢) سورة الحج، آية: ٢٩.
(٣) سورة الحج، آية: ٢٦.
(٤) زاد المسير ٥/ ٢٩٠.
(٥) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) ٥/ ٢٨٨.
(٦) تفسير الطبري ٩/ ١٣٣.
(٧) سورة البقرة، آية: ١٢٥.
(٨) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٦٨.
(٩) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.
(١٠) سورة المائدة، آية: ٩٧.
(١١) تفسير الطبري ٥/ ٧٧.

أي الناس - بسبب تعظيمها - أي الكعبة - السوء[١] أو أنه إذا هدمت الكعبة فلن تقوم للناس قائمة والله أعلم.

ب - مقام إبراهيم: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ... وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... ﴾[٢] يصلى خلفه بعد الطواف وهو الذي كان يقف عليه إبراهيم أثناء بناء الكعبة، ومكان المقام سابقًا ملاصق لجدار الكعبة على يمين الداخل لها ثم نقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكانه الذي هو فيه الآن[٣]، وهناك معنى آخر وهو أنه «يحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافًا فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج فهي المشاعر كلها من الطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار والنحر.. فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾ أي معبدا، أي اقتدوا به في شعائر الحج»[٤].

جـ - الصفا والمروة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ... ﴾[٥].

«الصفا» علم لجبل من جبال مكة معروف وكذلك «المروة»[٦].

«من شعائر الله «أي» هذان الموضعان من شعائر الله أي أعلام متعبداته.

وواحد الشعائر: شعيرة، والشعائر كل ما كان من موقف أومسعى أو ذبح يقصد من شعائر الحج، والشعائر من شعرت بالشيء إذا علمت به فسميت الأعلام التي هي متعبدات الله: شعائر»[٧]، والشعائر: المقالة التي ندب الله إليها وأمر بالقيام

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٦٨.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٢٥.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ١/ ١٧١.
(٤) تفسير السعدي ١/ ١٣٧.
(٥) سورة البقرة، آية: ١٥٨.
(٦) زبدة التفاسير من فتح القدير، محمد سليمان عبدالله الأشقر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. ص٣٠.
(٧) زاد المسير ١/ ١٤٧.

عليها، والشعائر: أعمال الحج وكل ما جعل علمًا لطاعة الله[١]، وإذا كان من شعائر الله فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[٢] فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب والمقصود «تقوى القلوب لله وهو عبادتها له وحده دون ما سواه بغاية العبودية له»[٣]، «والتقوى واجبة على كل مكلف وذلك يدل على أن السعي بهما ـ أي الصفا والمروة ـ فرض لازم للحج والعمرة»[٤] و «هذا دَفْع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن الطواف بينهما لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام» «ولو كان لا حرج في ترك الطواف بالصفا والمروة لكانت الآية: «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما»[٥].

٢ ـ مشاعر الحج.

أ ـ عرفات، قال تعالى: ﴿... فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ...﴾[٦].

ويقف فيها الحاج بعد الزوال إلى ما بعد غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة، والوقوف فيها أحد أركان الحج.

«وعرفة موضع الوقوف في الحج وهي عمدة أفعال الحج»[٧].

ب ـ المزدلفة، قال تعالى: ﴿...فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ...﴾[٨]، المشعر الحرام: المزدلفة كلها[٩].

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري ٣/ ٥٨٢.

(٢) سورة الحج، آية: ٣٢.

(٣) فتاوى ابن تيمية ١٧/ ٤٨٥.

(٤) تفسير السعدي ١/ ١٨٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٨، فتح الباري، شرح صحيح البخاري ٣/ ٧١٩، كتاب العمرة، باب يفعل بالعمرة ما يفعل بالحج.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٩٨.

(٧) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٤٠.

(٨) سورة البقرة، آية: ١٩٨.

جـ ـ منى، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ...﴾[٢]، المراد بذلك أيام التشريق من أشهر ذي الحجة[٣].

بقي أن يعلم أن هذه المقامات والمشاعر يرتبط بها أمران مهمان:

الأول: أنه لا يعبد الله عندها إلا بما شرع من حيث أصل العبادة ومن حيث صفتها فمثلاً مقام إبراهيم عليه السلام الذي بجوار الكعبة يصلي عنده ركعتين بعد الطواف يقرأ في الركعة الأولى بالفاتحة وقل يا أيها الكافرون وفي الثانية بالفاتحة وقل هو الله أحد، فأصل التعبد صلاة ركعتين فلا يمسح المقام ولا يقبله ولا يتبرك به بمعنى أنه لا يتعبد الله عنده بنوع من العبادات غيرما ورد هذا من ناحية أصل التعبد.

أما من ناحية وصف العبادة فالذي ورد أنها ركعتان بعد الطواف ويستحب أن يقرأ في الأولى بالفاتحة وقل يا أيها الكافرون وفي الثانية بالفاتحة وقل هو الله أحد[٤] فلو صلى بغير هذه الصفة كأن يصلي أربع ركعات أو ثلاث مثلاً وقصد أنهما للطواف لكان مخالفًا للوصف الوارد.

فلابد من التقيد بالأصل والوصف الواردين لكل شعيرة وهذا هو الركن الثاني من أركان حسن العمل وقبوله فالأول الإخلاص لله والثاني الاتباع للشرع وعدم الابتداع[٥].

ومن أدلة الركن الأول قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ...﴾[٦].

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٤٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٤٥ـ٢٤٦.

(٤) انظر فتاوى ابن تيمية ٢٦/ ١٢٧.

(٥) انظر مجموعة التوحيد ٢/ ٤٧٦.

(٦) سورة الزمر، آية: ٣.

وقوله تعالى: ﴿...فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢)﴾[1].

ومن أدلة الركن الثاني قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿...فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾[4].

وقوله ﷺ: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**[5].

ومن أدلة الركنين معًا قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾[7].

الأمر الثاني: «أن هذا الحكم خاص بمقام إبراهيم الذي بمكة سواء أريد به المقام الذي عند الكعبة موضع قيام إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيصلّى خلفه ركعتي الطواف ـ أو أريد به المشاعر عرفة ومزدلفة ومنى ـ فتؤدى فيها العبادات كما وردت شرعاً ـ فلا نزاع بين المسلمين أن المشاعر خصت من العبادات بما لا يشركها فيها سائر البقاع كما خص البيت بالطواف، فما خصت به تلك البقاع لا يقاس به غيرها وما لم يشرع فيها

(١) سورة الزمر، آية: ٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٣) سورة البقرة، آية: ٣٨.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٣.

(٥) الحديث رواه مسلم: كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ٢/ ٢٥٧ـ٢٥٨.

(٦) سورة البقرة، آية: ١١٢.

(٧) سورة النساء، آية: ١٢٥.

فأولى أن لا يشرع في غيرها»[1] «وليس لأحد أن يشرع ما لم يشرعه الله كما لو قال قائل: أنا استحب الطواف بالصخرة سبعًا كما يطاف بالكعبة أو استحب أن أتخذ من مقام موسى وعيسى مصلى كما أمر الله أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى ونحو ذلك لم يكن له ذلك لأن الله يختص ما يختصه من الأعيان والأفعال بأحكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه إما لمعنى يختص به لا يوجد بغيره على قول أكثر أهل العلم. وإما لمحض تخصيص المشيئة على قول بعضهم كما خص الكعبة بأن يحج إليها ويطاف بها وكما خص عرفات بالوقوف بها وكما خص منى برمي الجمار بها وكما خص الأشهر الحرم بتحريمها وكما خص شهر رمضان بصيامه وقيامه إلى أمثال ذلك»[2] والرسول ﷺ لما حج «وحج معه جماهير المسلمين لم يتخلف عن الحج معه إلا من شاء الله وهو في ذلك كله لا هو ولا أحد من أصحابه يأتي غار حراء ولا يزوره ولا شيئًا من البقاع التي حول مكة، ولم يكن هناك عبادة إلا بالمسجد الحرام وبين الصفا والمروة وبمنى والمزدلفة وعرفات وصلى الظهر والعصر ببطن عرنة وضربت له القبة يوم عرفة بنمرة المجاورة لعرفة ثم بعده خلفاؤه الراشدون وغيرهم من السابقين الأولين لم يكونوا يسيرون إلى غار حراء ونحوه للصلاة فيه والدعاء.

وكذلك الغار المذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿...ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ...﴾[3] وهو غار بجبل ثور يمان مكة لم يشرع لأمته ﷺ السفر إليه وزيارته والصلاة فيه والدعاء ولا بنى رسول الله ﷺ بمكة مسجداً غير الحرام بل تلك المساجد كلها محدثة، مسجد المولد وغيره ولا شرع لأمته زيارة موضع المولد ولا زيارة موضع بيعة العقبة الذي خلف منى...

ومعلوم أنه لو كان هذا مشروعًا مستحبًا يثيب الله عليه لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك ولكان يعلم أصحابه ذلك، وكان أصحابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم، فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك علم أنه من البدع المحدثة التي لم يكونوا يعدونها عبادة وقربة وطاعة فمن جعلها عبادة وقربة وطاعة فقد اتبع غير

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨٠٩ـ٨١٠.

(٢) فتاوى ابن تيمية ٤/ ٤٨٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ٤٠.

سبيلهم[١] وشرع من الدين مالم يأذن به الله[٢] وإذا كان حكم مقام نبينا ﷺ في مثل غار حراء الذي ابتديء فيه بالإنباء والإرسال وأنزل عليه فيه القرآن مع أنه كان قبل الإسلام يتعبد فيه وفي مثل الغار المذكور في القرآن الذي أنزل الله فيه سكينته عليه كما علمت فمن المعلوم أن مقامات غيره من الأنبياء[٣] أو غيرهم من الأولياء والصالحين أبعد أن يشرع قصدها والسفر إليها لصلاة أو دعاء أو نحو ذلك إذا كانت صحيحة ثابتة فكيف إذا علم أنها كذب أو لم يعلم صحتها»[٤] بل وكيف تشد الرحال ويمكث الأيام والليالي الطوال عند مقامات وأماكن إقامات الجبابرة والطغاة والكفرة ورؤوس الطواغيت وأماكن تعبدات الوثنيين بل ومعبوداتهم من الأصنام والتماثيل ونحو ذلك فهذا أشد جرمًا وإثما وهو ما يفعله كثير من الآثاريين مع ما يجدونه ويبحثون عنه من آثار الأمم المهلكة والمعذبة.

٣ ـ مسجد قباء:

وهو المعني بقوله تعالى: ﴿...لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ...﴾[٥] على أحد قولي العلماء في تفسير الآية[٦].

وهذا المسجد كان رسول الله ﷺ يصلي فيه كل سبت تقريبًا ركعتين[٧].

٤ ـ المساجد عمومًا قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا

(١) قال تعالى في ذلك: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾ سورة النساء، آية: ١١٥.

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ...﴾ سورة الشورى، آية: ٢١.

(٣) ويتضح مما سبق مما نقلته عنه ـ أي ابن تيمية ـ أنه لا يقصد المستثني كمقام ابراهيم عليه السلام.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨٠٦ـ ٨٠٨.

(٥) سورة التوبة، آية: ١٠٨.

(٦) انظر تفسير زاد المسير ٣/ ٣٤٠ وانظر أيضًا تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٨٩ـ ٣٩٠.

(٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قباء راكبًا وماشيًا فيصلي ركعتين» رواه مسلم: مسلم ٩/ ١٧٩.

اسْمُهُ...﴾[١] وقال سبحانه وتعالى: ﴿...وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾[٢] وقال سبحانه وتعالى: ﴿...يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾[٣] وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾[٤].

ثانيًا: آثار ومشاهد وردت في القرآن الكريم ونهى المسلمون عن تعظيمها إما على سبيل التحريم أو على سبيل الكراهية ومن ذلك:

١ ـ مسجد الضرار قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا...﴾[٥].

وهذا النهي واضح جدًا أنه للتحريم والمنع المؤبد.

قصة مسجد الضرار:

«أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فارًا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل وكانت العاقبة للمتقين وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى

(١) سورة النور، آية: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٩.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٣١.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٨.

(٥) سورة التوبة، الآيات: ١٠٧ـ ١٠٨.

وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصرته وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتب ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعًا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة»[1].

ويلحق بمسجد الضرار المشاهد والآثار عمومًا التي تبنى أو قد بنيت ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله ﷺ[2] ويشبهه كثير من مراكز الدول الكافرة في كثير من الدول الإسلامية.

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨ وانظر زاد المسير ٣/ ٣٣٩.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٥٦.

٢ ـ مساكن الظلمة والظالمين:

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾[1].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي نزلتم في أماكنهم وقراهم كالحجر ومدين والقرى التي عذب أهلها.

ومعنى ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾: ضروها بالكفر والمعصية[2].

ومن الواضح أن غالب أبحاث وتنقيبات أكثر الآثاريين إنما هي مساكن الذين ظلموا أنفسهم بقصد إحياء تاريخهم والفخر بمجدهم وإظهار معبوداتهم ونشر عاداتهم وإيضاح معتقداتهم وتتبع وثنياتهم وسيتبين ذلك لاحقًا.

٣ ـ قبور الكفار والمشركين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)﴾[3] وهذا واضح أن النهي فيه للتحريم.

وحدث ولا حرج عن نبش مقابر الوثنيين والإقامة عندها واستخراج كنوزها ومحتوياتها من التماثيل والأواني وغيرها مما يوجد في مقابر القدماء مما يكشفه علم الآثار مع وجود الأدلة على وثنية المقبورين كوجود التماثيل والمعبودات بجوارهم في قبورهم.

٤ ـ الأصنام والمعبودات من دون الله:

وهذه ورد ذكرها في كتاب الله على أحوال متنوعة منها أنها في صف أعداء الله وأعداء رسله فإن رسل الله عليهم الصلاة والسلام قد نادوا البشرية بتوحيد الله في

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) زاد المسير في علم التفسير ٤/ ٢٧٣.

(٣) سورة التوبة، آية: ٨٤.

العبادة واجتناب ما سواه من معبودات قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ... ﴾[1].

ووردت السخرية منها وأن الله دمرها وحرم أهلها منها ثم إن عابديها يوم القيامة ينكرونها وهم في الدنيا يحتجون لها بأنها معبودات آبائهم وأنهم وجدوهم لها عابدين فهم على آثارهم عابدون لها ونهى المسلمين عن عبادتها كل ذلك وغيره مما سيأتي بعضه في كتاب الله عز وجل فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى عن ضلال الكفار عن معبوداتهم وأصنامهم وإنكارهم لها يوم القيامة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾[4].

ومعبودات الكفار من الأصنام والأوثان والتماثيل والصور أمرنا الله بالتبرؤ منها وأمرنا بحربها وبتحطيمها وذلك اقتداء برسل الله واهتداء بهداهم قال سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا

(١) سورة النحل، آية: ٣٦.

(٢) سورة الكافرون كاملة.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٦٩ ـ ٧٨.

(٤) سورة غافر، الآيات: ٦٩ ـ ٧٤.

عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾[1].

فالتماثيل: جمع تمثال.

والتمثال: الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى من مثلت بالشيء إذا شبهته به.

أ ـ قيل كانت على صور رجال يعتقدون فيهم وقد انقرضوا.

ب ـ وقيل كانت صور الكواكب صنعوها حسبما تخيلوا وهي على كلا الحالين إنما هي أصنام.

(عاكفون) العكوف هو:

أ ـ الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له.

ب ـ وقيل اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض.

فهو ـ عليه السلام ـ يقول لهم: أي شيء هذه الصور التي أنتم عليها مقيمون[2] فقد استنكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام على قومه عكوفهم على هذه التماثيل التي هي تحاكي خلقًا من خلق الله سواء عن علم ومشاهدة كتمثال الإنسان والحيوان وصورته، أو عن تخيل وتوهم وتصور كالتي تجعل للكواكب[3].

وعليه فإن مثل هذا العكوف من الملازمة والإقبال حاصل وواقع من كثير من الآثاريين عند معبودات الوثنيين وخاصة الصور والتماثيل بل إنهم يحرسونها ويحافظون عليها ويهتمون بها بذاتها وبمعناها على حد سواء ويتطور الأمر فيجعلون لها مزارات وسدنة يجمعون بها النذور لكنهم جعلوا لها أسماء مقبولة فسموا

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥١ ـ ٥٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ٩/ ٣٦.

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٧٧٩.

المزارات متاحف وأماكن سياحية وسموا النذور رسوم سياحية .

ثم إن إبراهيم عليه السلام أخبر قومه أنهم والحالة هذه - أي عكوفهم على أصنامهم وعبادتهم لها - هم وآباؤهم الذين اقتدوا بهم في ذلك إنما هم في ضلال مبين وذمهم على تقليدهم الآباء على غير الحق وأخبرهم أن ربهم هو رب السموات والأرض فليصرفوا العبادة له وحده لا شريك له، ثم أقسم أن يضر أصنامهم ويدبر تكسيرها فلما فعل خاصموه وناقشوه على ذلك فأرجع الأمر إلى أصنامهم وطلب من قومه سؤالها فلما خاطب عقولهم بأنها لا تنفع ولا تدفع وسلموا له بذلك استنكر منهم عبادتهم لها، ولما كانوا مصرين على ضلالهم قال مهجنًا لأفعالها مستقذرًا لها: ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ فمعبوداتهم بذاتها لم تذنب شيئًا لكنها لما كانت أداة مستعملة في الشرك استحقت هذا الاحتقار والازدراء وأصبح مكانها في صف أعداء الله وأعداء رسله تبرأ منها إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي...﴾[1] «فقد تبرأ من أصنامهم أي أنه يقول: أنا بريء من هذه الأصنام لا أعبدها ولا أدعوها ولا أتخذها آلهة بل أكفر بها وأعاديها»[2] .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ وقومه بأن يقتدوا ويتأسوا بإبراهيم عليه السلام ومن معه في ذلك فقال عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾[3] ، وأمر رسوله ﷺ أن يقتدي بهدي الرسل قال تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[4] وقد نفذ رسول الله ﷺ تلك الأوامر وتبرأ من أصنام المشركين وحطمها وحاربها فحطم الأصنام والتماثيل التي كانت عند الكعبة وفي جوفها في المسجد الحرام ومحا الصور الموجودة فيها وبعث من يحطم الأصنام المتفرقة عند قبائل العرب على ما سيأتي بيانه في الفصل القادم إن شاء الله .

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٢٦ - ٢٧ .

(٢) انظر زبدة التفاسير ٦٤٩ .

(٣) سورة الممتحنة، آية: ٤ .

(٤) سورة الأنعام، آية: ٩٠ .

وعليه فإن على المسلمين أن يمتثلوا أمر الله وأن يقتدوا بنبيهم ويتأسوا به ويتبعونه في تحطيم التماثيل والصور والمعبودات التي يحافظ عليها كثير من الآثاريين وعليهم أن يعادوها ويعتبروها من أعداء الله ومن أعداء رسله ومن ثم فهي من أعداء المسلمين فكيف والحال الآن الاحتفاء والاهتمام بها من قبل المسلمين باسم الآثار ذلك الاهتمام الذي يسر أعداء المسلمين من الملاحدة والصليبيين .

ثالثًا: وردت آثار ومشاهد في سياق ذكر حوادث ولم يرد شرعًا ما يدعو إلى تعظيمها أو أداء شعيرة من الشعائر عندها . من ذلك :

١ - غار ثور بمكة قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ...﴾[1] .

٢ - شجرة بيعة الرضوان بالحديبية غرب مكة المكرمة قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)﴾[2] .

وسيأتي الكلام عن الشجرة في الفصل بعد القادم إن شاء الله حيث عمل الصحابة رضوان الله عليهم وتعاملهم مع الآثار والمشاهد .

٣ - موقع غزوة بدر قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ...﴾[3] وقال تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ...﴾[4] وفي العصر الحديث عظم الناس أماكن النصر ومواقع الحروب وغلوا في ذلك غلوًا شديدًا في كثير من ديار المسلمين وبلاد التوحيد وهيأوا السبل لتكون مشهدًا للناس ومزارًا واصطبغت بقداسة وتعظيم ما أنزل الله بهما من سلطان لكن موقع غزوة بدر وهي الغزوة الفاصلة في تاريخ السيرة النبوية لم يجعل الله له ولم يجعل له رسول الله ﷺ

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠ .

(٢) سورة الفتح، آية: ١٨ .

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٣ .

(٤) سورة الأنفال، آية: ٤٢ .

أي شيء من قداسة أو أدنى درجة من تعظيم.

والنماذج الثلاثة السابقة وغيرها مما يماثلها أو يشبهها قد تولاها السذج وقليلو العلم والبصيرة بالحضور والزيارة وسنوا لها الشعائر وهذا ما أنزل الله به من سلطان ولا سنة من رسول الله ﷺ بل إن ذلك مما أحدثه المبتدعة في أمره ﷺ ودينه وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1].

رابعًا: مشاهد وآثار طلب من الكفار المكذبين بالرسالة أن ينظرو فيها ويعتبروا منها، فمن ذلك:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩)﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى (١٢٨)﴾[4].

«فقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ يعني المشركين المنكرين لنبوتك

(١) رواه مسلم: ١٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨، كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور حديث ١٨.

(٢) سورة يوسف، آية: ١٠٩.

(٣) سورة النحل، الآيات: ٣٣ ـ ٣٦.

(٤) سورة طه، الآيات: ١٢٧ ـ ١٢٨.

﴿فينظروا﴾ إلى مصارع الأمم المعذبة فيعتبروا بذلك»[1].

﴿فسيروا في الأرض﴾ أي معتبرين بآثار الأمم المكذبة»[2].

﴿أفلم يهد لهم﴾ أي أفلم يتبين الحق للكفار إذا نظروا آثار من أهلكنا من الأمم[3].

ولمزيد من الإيضاح والبيان لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى (١٢٨)﴾[4] فهذا نقل آخر: «أي أفلم يتبين لهؤلاء المكذبين أهل مكة بما جئتهم به يا محمد إهلاكنا كثيراً من الأمم الماضية المكذبين بالرسل قبلهم فبادوا ولم يبق لهم أثر كعاد وثمود وأصحاب الحجر وقرى قوم لوط الذين يتقلبون في ديارهم أو يمشون في مساكنهم ويشاهدون آثارهم المدمرة فإن في ذلك لعبراً وعظات توجب الاعتبار لذوي العقول الصحيحة التي تنهى أصحابها عن القبيح وتدرك احتمال أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾[5].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾[6].

وبهذا... يعظ الله تعالى الكفار بأن يعتبروا بأحوال الأمم الماضية الذين أهلكهم لتكذيبهم الرسل فلربما حل بهم من العذاب مثلما حل بالكفار قبلهم»[7].

(١) زاد المسير في علم التفسير ٤/ ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٣٥.

(٣) انظر زاد المسير ٥/ ٢٢٩.

(٤) سورة طه، آية: ١٢٨.

(٥) سورة الحج، آية: ٤٦.

(٦) سورة السجدة، آية: ٢٦.

(٧) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، دار الفكر دمشق سوريا، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، جـ١٦، ص٣٠٤، والمقطع الأخير ٣٠٨.

وقال سبحانه وتعالى مقررًا توحيد الربوبية بأنواع من الأدلة وموضحًا اضطراب الكفار في الإيمان بالبعث موجهًا أنظارهم إلى أنه سبحانه وتعالى هو الذي يخلق وهو الذي يعيد وجعل مصارع المجرمين عبرة للمعتبرين فأمر المنكرين أن يسيروا في الأرض فيعتبروا قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾[1].

في هذه الآيات جملة من المشاهد في الكون والنفس وعدة مناقشات للكفار لتقرير توحيد الألوهية عن طريق تقرير توحيد الربوبية وأسئلة متلاحقة:

من خلق السموات والأرض؟

من أنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة؟

من جعل الأرض قرارًا؟

ومن جعل خلالها أنهارًا؟

ومن جعل لها رواسي؟

ومن جعل بين البحرين العذب والمالح حاجزًا؟

ومن يجيب دعوة المضطر؟

(١) سورة النمل، الآيات: ٥٩ـ٦٩.

ومن يكشف السوء؟

ومن جعلكم خلفاء أمة بعد أمة في الأرض؟

ومن الذي يرشدكم في ظلمات البر والبحر؟

ومن هو الذي يرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته؟

ومن يبدأ الخلق ثم يعيده؟ ومن الذي يرزقكم من السماء والأرض؟ وفي كل مرة يطرق مسامعهم ويستثير فطرتهم بقوله: أإله مع الله؟

فلا يملكون أن يقولوا في هذا كله أن إلها يفعل ذلك أو شيئًا منه غير الله.

ثم يستعرض تكذيبهم للآخرة وتخبطهم في أمرها وبعد ذلك يوجههم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون، وإن فعلتم فعلهم من الإنكار والجحود فانتظروا مصيرهم لأنكم مجرمون مثلهم[1].

فيكون طلب السير موجه للكافرين ويكون القصد من السير ومن النظر في بقايا الأمم السابقة وآثارهم إنما هو للتفكر والاعتبار بمصارعهم وهلاكهم لا للاطلاع على كنوزهم وصناعاتهم وعمل المزارات لبقاياهم وأن ذلك الهلاك الذي أصابهم كان عذابًا بسبب كفرهم وجحودهم وتعنتهم وتكذيبهم لرسل الله عز وجل فعلى الكفار الاتعاظ وأخذ العبرة ممن سبق فإن العاقل من وعظ بغيره، وعلى أصحاب الحضارات الكافرة في كل زمان ومكان أن يعلموا أنهم إن استمروا على طغيانهم وضلالهم أن الذي أفنى ودمر الكافرين السابقين وأنهى وجودهم وحضاراتهم على ما فيها من قوة وعظمة بسبب إنكارهم وكفرهم بالله له سنة لا تتبدل ولا تتحول فمن كفر مثلهم استحق العقوبة مثلهم وعذاب الله يقع حسب إرادة الله فيكون فيه الإمهال ويكون فيه الأخذ بغتة ويكون فيه بدايات عذاب منذرة كزلزال أو اضطراب ويكون فيه قوة في الإهلاك وأن العاقبة وخيمة ولا تشجع أحدًا على سلوك طريق الإنكار والجحود والكفران.

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ٥/ ٢٦٥٤ ـ ٢٦٥٥، وانظر أيضًا تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) ٥/ ٥٨٩ ـ ٥٩٦.

لكن الرسول ﷺ وأصحابه لم يفعلوا شيئًا من السير والنظر فيما أعلم في مصارع وآثار الأمم السابقة بل الثابت أن رسول الله ﷺ لما مر بمقر حضارة ثمود أمر جيشه: بأن قال عليه الصلاة والسلام **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ـ إلا أن تكونوا باكين ـ أن يصيبكم مثل ما أصابهم»**[1] فكيف بنبش آثار الأمم المهلكة فهذا من باب قياس الأولى يمنع سواء للاعتبار أو لغيره.

بقي أن أورد آية متعلقة بهذا الفصل حيث فيها طلب السير في الأرض عمومًا لكنها متوجهة إلى منكري البعث وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾[2].

وحتى يتضح تفسير ذلك يستحسن قراءة الآيات قبلها حيث أن لها صلة بها قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١)﴾[3].

وإليك نقولات من كتب المفسرين توضح ذلك:

١ ـ «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ يقول تعالى ذكره: أو لم يروا كيف يستأنف الله خلق الأشياء طفلاً صغيرًا ثم غلامًا يافعًا ثم رجلاً مجتمعًا ثم كهلاً... وقوله ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يقول ثم هو يعيده من بعد

(١) رواه البخاري: ٦/٤٣٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) سورة العنكبوت، الآيات: ١٦ ـ ٢١.

فنائه وبلاه كما بدأه أول مرة خلقًا جديدًا لا يتعذر عليه ذلك ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل كما كان يسيرًا عليه إبداؤه.. وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ: قل يا محمد للمنكرين للبعث بعد الممات الجاحدين الثواب والعقاب: سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الأشياء وكيف أنشأها وأحدثها وكما أوجدها وأحدثها ابتداء فلم يتعذر عليه إحداثها مبدئًا فكذلك لا يتعذر عليه إنشاؤها معيدًا.

﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ يقول: ثم الله يبدىء تلك البدأة الآخرة بعد الفناء»[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨)﴾، في الآية الأولى بيان الأصل الأول وهو التوحيد وإخلاص الدين لله وفي الآية الثانية إشارة إلى الأصل الثاني وهو الرسالة ومتابعة الرسل وفي الآيتين الآتيتين الأصل الثالث وهو البعث والحشر فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

فالآية الأولى منهما إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾.

أما الآية الثانية ففيها: إن لم يحصل لكم هذا العلم ـ وهذا يتوجه لمن لم يؤمن إذ أن من آمن فإيمانه لا يتم إلا عن علم ـ فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري وهذا لأن الإنسان له مراتب في الإدراك، بعضهم يدرك شيئًا من غير تعليم وإقامة برهان له، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة وبعضهم لا يفهمه أصلاً فقال: إن كنتم

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن (تفسير الطبري) محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠، دار الفكر، بيروت ٢٠/١٣٨ ـ ١٣٩.

لست من القبيل الأول فسيروا في الأرض أي سيروا فكركم وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق[١].

ثم عقب ذلك بما يجري بعد الإعادة وهو الحساب والجزاء فقال سبحانه وتعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١)﴾.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ... الآية﴾

«... ثم أمر سبحانه إبراهيم أن يأمر قومه بالمسيرة في الأرض ليتفكروا ويعتبروا فقال:

﴿قل﴾ لمنكري البعث ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم واختلاف ألوانهم وطبائعهم وألسنتهم وانظروا إلى مساكن القرون الماضية والأمم الخالية وآثارهم لتعلموا بذلك كمال قدرة الله فإن من قدر على إنشائها بدئًا يقدر على إعادتها. وقيل: إن المعنى: قل لهم يا محمد سيروا ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ إن الله الذي بدأ النشأة الأولى وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث، أي فكما لم يتعذر عليه إحداثهم مبدئا كذلك لا يتعذر عليه إنشاؤهم معيدًا بعد الموت ثانيًا»[٢].

٤ ـ ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء الذين تقيدوا بما تقلدوا من مذاهب آبائهم من غير شبهة على صحته أصلاً: قد ثبت أن هذا كلام الله لما ثبت من عجزكم عن معارضته فثبت أن هذا الدليل كلام أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأنتم مصرحون بتقليد الآباء غير متحاشين من معرته ولا أب لكم أعظم من إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإذا قلدتم من لا يقاربه في عبادة ما لا يضر ولا ينفع من غير شبهة أصلاً فقلدوا أباكم الأعظم في عبادة الله وحده لكونه أباكم. ولما أقام على ذلك من الأدلة التي لا مراء

(١) انظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، المجلد الثالث عشر الجزء الخامس والعشرون، ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، ت ١٣٠٧هـ الناشر، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، مصر ٧/١٩٨ ـ ١٩٩.

فيها قال: أو (سيرو) إن لم تقتدوا بأبيكم إبراهيم عليه السلام وتأملوا ما أقام من الدليل القاطع والبرهان الساطع (في الأرض) إن لم يكفكم النظر في أحوال بلادكم. ولما كان السياق لإثبات الإلهية التي تجب المبادرة إلى تفريغ الفكر وتوجيه كل الذهن إلى الاستدلال عليها عبر بالفاء المعقبة فقال: (فانظروا) أي نظر اعتبار (كيف بدأ) أي ربكم..»[١].

٥ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)﴾ «أرشد إبراهيم خليل الرحمن قومه إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ثم إعطائهم السمع والبصر والأفئدة وتصرفهم في الحياة إلى حين، ثم موتهم بعد ذلك، والذي بدأ هذا قادر على أن يعيده بل هو أهون عليه كما قال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...﴾[٢].

وخلاصة هذا: أنتم قد علمتم ذلك فكيف تنكرون الإعادة وهي أهون عليه؟.

وبعد أن ساق هذا الدليل المشاهد في الأنفس أرشد إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ أي سيروا في الأرض وشاهدوا السموات وما فيها من الكواكب النيرة ثوابتها وسياراتها والأرض وما فيها من جبال ومهاد وبراري وقفار وأشجار وثمار وأنهار وبحار فكل ذلك شاهد على حدوثها في أنفسها وعلى وجود صانعها الذي يقول للشيء كن فيكون، أو ليس من فعل هذا بقادر على أن ينشئه نشأة أخرى ويوجده مرة ثانية وهو القادر على كل شيء.

وشبيه بالآية قوله في الآية الأخرى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾[٣].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ت ٨٨٥هـ، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ـ مصر الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م، ١٤/٤١٦ ـ ٤١٧.

(٢) سورة الروم، آية: ٢٧.

(٣) سورة فصلت، آية: ٥٣.

ولما أقام الدليل على الإعادة رتب عليها ما سيكون بعدها فقال ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ »[1] .

ويعتبر السير في الأرض والنظر كيف بدأ الله الخلق مجملاً وتفصيله ماذكر من الآيات الدالة على الخلق مثل الآيات التي سبقت في سورة النمل ومثل قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) ﴾[2] .

وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾[3] وكقوله تعالى: ﴿ الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾[4] .

(١) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م . المجلد السابع ص١٢٧ .

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٥٧ ـ ٧٣ .

(٣) سورة الغاشية، الآيات : ١٧ ـ ٢٠ .

(٤) سورة الرعد، الآيات: ١ ـ ٤ .

وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ

(١) سورة النحل، الآيات من ٣ ـ ١٧ .

(٢) سورة النحل، الآيات من ٤٨ ـ ٥٥ .

كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾[3] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ

(١) سورة النحل، الآيات: ٦٥ ـ ٧٣.

(٢) سورة النحل، الآيات: ٧٧ ـ ٨٣.

(٣) سورة الحج، الآية: ٥، ٦.

السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣) قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) ﴾[2] . وغيرها في كتاب الله كثير .

بقي: أنه ورد في كتاب الله لفظ الآثار تحمل معنى آخر زيادة على ما سبق والآية هي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾[3] .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال .

﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ من الخير والشر وهو: أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم .

﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ وهي: آثار الخير، وآثار الشر التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٧ ـ ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ٧٨ ـ ٩٠.

(٣) سورة يس، آية: ١٢.

وأحوالهم .

فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد وتعليمه أو نصحه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو علم أودعه عند المتعلمين أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته أو عمل خيراً من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان فاقتدىٰ به غيره أو عمل مسجداً أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس وما أشبه ذلك[(١)] فإنها من آثاره التي تكتب له وكذلك عمل الشر .

ولهذا قال ـ ﷺ ـ **«من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها لا ينتقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»**[(٢)] .

وهذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلىٰ الله والهداية إلىٰ سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلىٰ ذلك .

ونزول درجة الداعي إلىٰ الشر . . . وأنه أسفل الخليقة وأشدهم جرمًا وأعظمهم إثمًا .

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأعمال والنيات وغيرها .

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي : كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة وهو اللوح المحفوظ[(٣)] .

---

(١) مثل تسبيل الماء للمسلمين وتبريده ودوراة المياة ونحو ذلك .

(٢) عن جرير بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال : جاء ناس من الأعراب إلىٰ رسول الله ﷺ عليهم الصرف فرأىٰ سوء حالهم قد أصابتهم حاجة فحث الناس علىٰ الصدقة فأبطؤوا عنه حتىٰ رئي ذلك في وجهه قال ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بصرة من ورق ثم جاء آخر ثم تتابعوا حتىٰ عرف السرور في وجهه فقال رسول الله ﷺ : «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها لا ينتقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم : ١٦/ ٤٦٧ ، كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة حديث رقم ١٠١٧ ـ ١٥ .

(٣) تفسير السعدي ٦/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ، وانظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦ ، وانظر زاد المسير ٦/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

الفصل الثاني

الآثـــار والمشاهد في السنة المطهرة

* * * * *

الآثار والمشاهد التي وردت في السنة

وهي على أنواع:

الأول: ما كان مختصًا بعبادة.

الثاني: ما كان مذمومًا منهيًا عنه وأتلفه النبي ﷺ أو طلب إتلافه.

الثالث: ما كان تحذيراً من تعظيم الآثار والمشاهد.

وتفصيل ذلك.

أولاً: ما كان مختصًا بعبادة ومن ذلك:

المسجد الحرام، والمسجد النبوي بالمدينة، والمسجد الأقصى بالقدس ولا تشد الرحال لمسجد سوى هذه المساجد الثلاثة، ومسجد قباء، وعموم المساجد دون شد رحال والكعبة، والصفا والمروة، ومقام إبراهيم عليه السلام، ومشاعر الحج: عرفات ومزدلفة ومنى والجمرات، وحرم مكة وحرم المدينة، ونحو ذلك مما ثبت صحته عن رسول الله ﷺ وسأذكر أحاديث لشيء من ذلك مع ملاحظة شرط الإتباع لرسول الله ﷺ في التعبد وشرط القصد فيها.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أتى الحجر فاستلمه ثم مشى على يمينه فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا»[1].

وعن جعفر بن محمد[2] عن أبيه[3] قال: دخلنا على جابر بن عبدالله فسأل عن القوم حتى انتهى إلي فقلت أنا محمد بن علي بن حسين فأهوى بيده إلى رأسي فنزع زري الأعلى ثم نزع زري الأسفل ثم وضع كفه بين ثديي وأنا يومئذ غلام شاب فقال: مرحبًا بك يابن أخي سل عما شئت فسألته وهو أعمى، وحضر وقت الصلاة

(١) رواه مسلم: شرح صحيح مسلم ٨/ ٤٤٤ كتاب الحج باب ما جاء أن عرفة كلها موقف.

(٢) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولد سنة ٨٠هـ ورأى بعض الصحابة مات سنة ١٤٨هـ انظر سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٥٥ـ ٢٦٩.

(٣) هو محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب زين العابدين أبو جعفر ولد سنة ٥٦هـ ومات سنة ١١٤هـ بالمدينة انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩.

فقام في نساجة ملتحفًا بها كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ورداؤه إلى جنبه على المشجب فصلى بنا فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ فقال بيده فعقد تسعًا فقال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله فخرجنا.. حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿...وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى...﴾[1]، فجعل المقام بينه وبين البيت.. ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا منه قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾[2] أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبَّره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم دعا بين ذلك قال مثل ذلك ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا... فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا **ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع**... ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق القصواء الزمام حتى إن

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٨.

رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى: أيها الناس: السكينة السكينة. كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئًا ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده ـ سبحانه وتعالى ـ فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًا فدفع قبل أن تطلع الشمس... حتى أتى محسر فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادي ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثًا وستين بيده ثم أعطى عليًا فنحر ما غبر[1] وأشركه في هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر فأتى بني عبدالمطلب يسقون على زمزم فقال: انزعوا بني عبدالمطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه»[2].

وعن جابر في حديثه ذلك أن رسول الله ﷺ قال: **«نحرت ههنا ومنى كلها منحر فانحروا في رحالكم ووقفت ههنا وعرفة كلها موقف ووقفت ههنا وجمع كلها موقف»**[3].

عن عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال: **«إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك»**[4].

وفي الصحيح أن ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعًا وصلى خلف المقام ركعتين ثم خرج إلى الصفا وقد قال الله

(١) أي: ما بقي، شرح صحيح مسلم ٨/ ٤٤٥.

(٢) رواه مسلم: ٨/ ٤٢٠ كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ.

(٣) رواه مسلم: ٨/ ٤٤٢، كتاب الحج باب ما جاء أن عرفة كلها موقف.

(٤) رواه البخاري: ٣/ ٥٤٠ كتاب الحج باب ذكر في الحجر الأسود.

تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾[1]»[2]، فاستلام الحجر الأسود وتقبيله والصلاة خلف مقام إبراهيم عليه السلام والطواف حول البيت وبين الصفا والمروة والوقوف في مشاعر الحج وقت الحج قد فعله رسول الله ﷺ.

والرسول ﷺ في ذلك منفذ لأوامر الله عز وجل وقد صح عنه[3] ﷺ أنه عند انتقاله إلى مقام إبراهيم كان يتلو قوله تعالى: ﴿...وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى...﴾[4] فهذا تنفيذ منه ﷺ لهذا الأمر والمسلمون له بالأثر إذ هو قدوتهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾[5].

أما الطواف بالبيت فهو ركن من أركان الحج وكذلك ركن من أركان العمرة[6] فلا يتم نسك منهما إلا به ولا ينجبر عند تركه بدم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى»**[7].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: **«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»**[8].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قباء

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) رواه البخاري: ٣/ ٥٧٠ كتاب الحج باب من صلى ركعتي الطواف خلف المقام.

(٣) رواه مسلم: ٨/ ٤٢٠ كتاب الحج باب حجة النبي.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٢٥.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٦) المغني والشرح الكبير على متن المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل للإمامين: موفق الدين وشمس الدين ابني قدامة، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م. ٣/ ٤٧٣.

(٧) رواه البخاري: ٣/ ٧٦ كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

(٨) رواه مسلم: ٩/ ١٧٢ كتاب الحج باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة.

راكبًا وماشيًا فيصلي فيه ركعتين[1].

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة**»[2].

«لا تشد الرحال» المراد النهي عن السفر إلى غيرها وهو أبلغ من صريح النهي كأنه قال: لا يستقيم أن يقصد بالزيارة إلا هذه البقاع لاختصاصها بما اختصت به.

وفي الحديث الأول فضيلة هذه المساجد ومزيتها على غيرها لكونها مساجد الأنبياء ولأن الأول قبلة الناس وإليه حجهم، والثاني كان قبلة لأمم سالفة والثالث أسس على التقوى والمقصود التعبد لا مطلق السفر وإلا لا نقفل شد الرحال إلى صلة الأرحام ولطلب العلم[3].

ويدخل تحت المنع شد الرحال إلى قبور الأولياء والصالحين وقبور أصحاب البدع والمشركين عمومًا ويتفاوت الحكم على السفر من كونه معصية إلى كونه كفرًا بحسب قصد المسافر ما بين زيارة القبر للسلام عليه أو لدعائه وطلبه، ومن ذلك ما يفعله المتصوفة والشيعة في قبور من يعظمونهم سواء من أهل الصلاح أو ممن هم غير ذلك[4].

أما الحديث الثاني فكأنه سبب للحديث الأول وهو أفضلية العمل ومضاعفة أجره فيما ذكر من المساجد عن غيرها.

فالحديث الأول منع السفر على وجه التعبد إلا إلى المساجد الثلاثة وفي الحديث الثاني أن المذكور من المساجد للصلاة فيه أجر مضاعف عن الصلاة في غيره «قال العلماء: وهذا فيما يرجع إلى الثواب فثواب صلاة فيه يزيد على ثواب ألف

(١) رواه البخاري: ٣/ ٨٣ كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة باب من أتى مسجد قباء كل سبت ورواه مسلم: ٩/ ١٧٩ كتاب الحج باب فضل مسجد قباء.

(٢) رواه ابن ماجة: سنن ابن ماجه ١/ ٢٥٨ أبواب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء.

(٣) انظر فتح الباري ٩/ ٧٧ـ ٨٧، ٨٠.

(٤) انظر كتاب الجواب الباهر في زوار المقابر تاليف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى.

فيما سواه ولا يتعدى ذلك إلى الإجْزَاء عن الفوائت حتى لو كان عليه صلاتان فصلى في مسجد المدينة صلاة ـ مثلاً ـ لم تجزئه عنهما وهذا لا خلاف فيه والله أعلم»[1].

أما الحديث الثالث وهو حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي قباء راكبًا وماشيًا فيصلي فيه ركعتين**» فهو لمن في المدينة إذ لا تشد الرحال إلى مسجد غير الثلاثة المساجد لحصر النص في الحديث السابق.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «قال بعض العلماء: قوله: من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء تنبيه على أنه لا يشرع قصده بشد الرحال بل إنما يأتيه الرجل من بيته الذي يصلح أن يتطهر فيه ثم يأتيه فيقصده كما يقصد الرجل مسجد مصره دون المساجد التي يسافر إليها»[2].

وقال أيضًا: «وليس بالمدينة مسجد يشرع إتيانه إلا مسجد قباء[3] وأما سائر المساجد فلها حكم المساجد ولم يخصها النبي ﷺ بإتيان ولهذا كان الفقهاء من أهل المدينة لا يقصدون شيئًا من تلك الأماكن إلا قباء خاصة»[4].

والمساجد عمومًا حيث صلاة الجماعة:

فمن ذلك حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: «من سره أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة ولقد رأيتنا وما

(١) شرح صحيح مسلم ٩/ ١٧٤.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨١٤.

(٣) بمعنى أن مسجد الرسول ﷺ خارج عن العموم بأنه يشد الرحل إليه ليس مجرد مشروعية إتيانه كمسجد قباء.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨١٥.

يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتىٰ به يهادىٰ بين الرجلين حتىٰ يقام في الصف»[١]. والمساجد دائمًا ينادىٰ فيهن بالآذان للصلاة فيتجه إليها ويعبد الله فيها.

ثانيًا: ما كان مذمومًا منهيًا عنه وأتلفه صلى الله عليه وسلم أو طلب إتلافه ومن ذلك:

عن أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة»**[٢].

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا تماثيل»**[٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه تماثيل أو تصاوير»**[٤].

عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: **«وعد جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فراث عليه حتى اشتد على النبي صلى الله عليه وسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فلقيه فشكا إليه ما وجد فقال له: إنا لا ندخل بيتًا فيه صورة ولا كلب»**[٥].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا متسترة بقرام فيه صورة فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه ثم قال: **«إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله»**[٦].

وفي الصحيح أنه: جاء رجل إلىٰ ابن عباس فقال إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها، فقال له: أدن مني، فدنا منه ثم قال: أدن مني، فدنا حتىٰ وضع يده

(١) رواه مسلم: ٥/ ١٦٢.

(٢) رواه مسلم: ١٤/ ٣٢٩ كتاب اللباس والزينة باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة، ورواه البخاري ١٠/ ٣٩٤ بلفظ تصاوير بدل «صورة».

(٣) رواه مسلم ١٤/ ٣٣٠ كتاب اللباس والزينة باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

(٤) رواه مسلم ١٤/ ٣٤٠ كتاب اللباس والزينة باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

(٥) رواه البخاري: ١٠/ ٤٠٥ كتاب اللباس والزينة باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة.

(٦) رواه مسلم: ١٤/ ٣٣٤ كتاب اللباس والزينة باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

علىٰ رأسه، قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ يقول: **«كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه في جهنم»**، وقال إن كنت فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له[١].

وفي الصحيح أيضًا أن أبا جحيفة اشترىٰ غلامًا حجامًا فقال: إن النبي ﷺ نهىٰ عن ثمن الدم وثمن الكلب وكسب البغي ولعن آكل الربا وموكله والواشمة والمستوشمة والمصور»[٢].

في هذه الأحاديث ورد ذكر الصور والتماثيل وفيها عدة أمور:

أ ـ أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة أو تمثال «قال العلماء سبب امتناعهم من بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة وفيها مضاهاة لخلق الله تعالىٰ وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله تعالىٰ»[٣].

«فعوقب متخذها بحرمانه دخول الملائكة بيته وصلاتها فيه واستغفارها له وتبريكها عليه وفي بيته، ودفعها أذىٰ الشيطان.

وأما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتًا فيه كلب أو صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار.

وأما الحفظة فيدخلون في كل بيت ولا يفارقون بني آدم في كل حال لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها»[٤].

ب ـ أن التصوير والنحت لذوات الأرواح حرام وكبيرة من الكبائر وشديد التحريم وينزل في دركات التحريم ليصل إلىٰ الكفر في بعض حالاته و «قال العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد وسواء صنعه لما يمتهن أم لغيره فصنعه حرام بكل حال وسواء كان في

(١) رواه مسلم: ١٤/ ٣٣٨. كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

(٢) رواه البخاري ١٠/ ٤٠٧ كتاب اللباس باب من لعن المصور

(٣) شرح صحيح مسلم ١٤/ ٣٣١.

(٤) المصدر السابق ١٤/ ٣٣١ ـ ٣٣٢.

ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها، فأما تصوير ما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام»[١].

«والتصوير إن كان لعبادة الصور فهو صناعة للأصنام فهذا كفر.

وإن كان مضاهاة لخلق الله فهو كفر أيضًا.

وإن لم يقصد به عبادتها ولا مضاهاة لخلق الله فهو فسق وذنب كبير»[٢].

والوعيد ورد في هذه الأحاديث بصيغ منها اللعن للمصور ومنها أنه من أشد الناس عذابًا و «الوعيد بهذه الصيغة إن ورد في حق كافر فلا إشكال فيه لأنه يكون مشتركًا في ذلك مع آل فرعون[٣] ويكون فيه دلالة على عظيم كفر المذكور.

وإن ورد في حق عاص فيكون أشد عذابًا من غيره من العصاة ويكون ذلك دالاً على عظم المعصية المذكورة»[٤].

وسبب عظم عقوبة المصور أن الصور «كانت تعبد من دون الله ولأن النظر إليها يفتن وبعض النفوس إليها تميل»[٥].

بقي أن يعلم أن قطاعًا كبيرًا من الآثار التي تحظى بأكبر الاهتمام في نفوس الآثاريين والمتفرجين على الآثار والمبهورين بها والباحثين عنها إنما هي صور وتماثيل.

وأن غالبية هذا النوع من الآثار إنما هي معبودات أقوام وأمم من دون الله وقد أهلكهم الله.

وكثير من الآثاريين يحرصون على هذا النوع ويفتخرون بها ويعددون مآثرها وخصالها فيصفون بعضها بأنه إله النصر والآخر إله الحب وغيره إله المطر وهكذا إلى

(١) فتح الباري ١٠/ ٣٩٧.

(٢) انظر المصدر السابق ١٠/ ٣٩٧_٣٩٨، وانظر شرح صحيح مسلم ١٤/ ٣٣٩.

(٣) هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿...أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ سورة غافر، آية: ٤٦.

(٤) فتح الباري ١٠/ ٣٩٧.

(٥) المصدر السابق ١٠/ ٣٩٧.

آخر القائمة فيسمونها آلهة كما سماها المشركون وهم يدعون الناس إليها وإلى تمجيدها والفخر بها وصرف الولاء لها والدفاع عنها والمباهاة بها ونشر أفكارها وعاداتها وطقوسها حسب ما يتاح لهم من الفرص.

ومن عمل عملاً سيئًا فإن عليه إثمه وعليه إثم من يقتدي به ويعمل بعمله إلى يوم القيامة دون أن ينقص من آثامهم الخاصة بهم شيئًا إلا أن البادئ والقدوة عليه آثام من بعده وقد ورد عن رسول الله ﷺ: **«من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»**[١].

وهذا الوعيد والتهديد الوارد في الأحاديث أحد مقاصده القضاء على الوثنية حيث القضاء على نواتها، لكن في حال وجودها فإن الحل هو إتلافها وقد مر فيما سبق من الأحاديث إشارة إلى ذلك عند قول عائشة رضي الله عنها: «وأنا متسترة بقرام فيه صورة فتلون وجهه ـ ﷺ ـ ثم تناول الستر فهتكه».

ومعنى هتكه: «هو بمعنى قطعه وأتلف الصورة التي فيه»[٢].

وإتلاف الصور والتماثيل ليس شيئًا نادرًا أو طارئًا بل هو الأصل والجوهر والديدن في هذه الرسالة الخاتمة وفي الرسالات السابقة قبلها.

فقد أرسل رسول الله جريرًا رضي الله عنه لتحطيم الصنم ذا الخلصة[٣]، وأرسل ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه للقضاء على الصنم العزى.

وأرسل ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه للقضاء على الصنم مناة.

وأرسل ﷺ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه للقضاء على الصنم اللات فهدمها وحرقها[٤].

(١) رواه مسلم ١٦/ ٤٦٧ كتاب العلم باب من سن سنة.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤/ ٣٣٣_٣٣٤.

(٣) سيأتي بيانه.

(٤) انظر التعليق المفيد في تحقيق فتح المجيد شرح كتاب التوحيد تأليف عبدالرحمن حسن آل الشيخ ت ١٢٨٥، تحقيق وتعليق أشرف بن عبدالمقصود، مؤسسة قرطبة، القاهرة ـ مصر الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١/ ١٦٥_١٦٦ باب من تبرك بشجر أو حجر.

وأيضًا فعله ﷺ بالأصنام التي بمكة عام الفتح.

عن جرير قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألا تريحني من ذي الخلصة؟ فقلت: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل وكنت لا أثبت على الخيل فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري وقال: اللهم ثبته واجعله هاديًا مهديًا. قال: فما وقعت عن فرس بعد. قال: وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخثعم وبجيلة، فيه نصب تعبد يقال له الكعبة قال: فأتاها فحرقها بالنار وكسرها. قال: ولما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له: إن رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ههنا فإن قدر عليك ضرب عنقك. قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنها ولتشهدن أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك. قال: فكسرها وشهد. ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يكنى أبا أرطأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبشره بذلك فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب قال: فبرك النبي صلى الله عليه وسلم على خيل أحمس ورجالها خمس مرات»**[1].

ذو الخلصة: الخلصة نبات له حب أحمر كخرز العقيق، وذو الخلصة: اسم للبيت الذي كان فيه الصنم وقيل اسم البيت الخلصة واسم الصنم ذو الخلصة.

قوله ﷺ: «ألا تريحني». طلب يتضمن الأمر وخص جريراً بذلك لأنها كانت في بلاد قومه وكان هو من أشرافهم.

والمراد بالراحة: راحة القلب وما كان شيء أتعب لقلب النبي ﷺ من بقاء ما يشرك به من دون الله تعالى.

فكسرها وحرقها: أي هدم بناءها ورمى النار فيما فيها من الخشب.

كأنه جمل أجرب: كناية عن نزع زينتها وإذهاب بهجتها فأصبحت مثل الجمل المطلي بالقطران من جربه إشارة إلى أنها صارت سوداء لما وقع فيها من التحريق.

(١) رواه البخاري، ٧/ ٦٦٩، كتاب المغازي باب غزوة ذي الخلصة، وشرح السنة للإمام الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٦ ـ ٥١٦) تحقيق وتعليق، شعيب الأرناؤوط ١١/ ٥٦ كتاب السير والجهاد، باب حريق أموال أهل الشرك.

وفي هذا الحديث: مشروعية إزالة ما يفتن به الناس من بناء وغيره سواء كان إنسانًا أو حيوانًا أو جمادًا[1].

وهذا هو حال المصطفى ﷺ مع المشاهد والآثار وبيوت العبادة الوثنية إزالة ما يفتتن به الناس بل وحث الأمة على قطع أصل الشر بالتحذير من اتخاذ القبور مساجد وبالأمر بتسوية ما ارتفع منها وبطمس التماثيل وهتك الصور وإتلافها حماية للتوحيد وسدًا لذرائع ووسائل وأسباب الشرك فعن عبدالله رضي الله عنه قال: **«دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ستون وثلثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول:** ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[2]، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾[3]»[4].

فقوله: نُصْب: بضم النون والمهملة وقد تسكن بعدها موحدة: هي واحدة الأنصاب وهو ما ينصب للعبادة من دون الله تعالى[5] وفعل النبي ﷺ ذلك لإذلال الأصنام وعابديها ولإظهار أنها لا تنفع ولا تدفع عن نفسها شيئًا.

كان غالب كفر الأمم من جهة الصور[6].

وإذا كان الرسول ﷺ يذل الأصنام ويحطمها ويتلفها فكيف بالآثاريين الذين يخرجون الأصنام من معابد الوثنيين السابقين وينفضون عنها الأتربة ويضعونها في المتاحف ويهتمون بها ويكرمونها وتكون في موضع إعزازهم وتقديرهم فهم بذلك يخالفون هدي رسول الله ﷺ ويشاقونه ويتبعون غير سبيل المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ

(١) انظر فتح الباري ٧/ ٦٦٩ ـ ٧٧٣.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨١.

(٣) سورة سبأ، آية: ٤٩.

(٤) رواه البخاري: ٧/ ٦٠٩ كتاب المغازي باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، ورواه مسلم: ١٢/ ٣٧٥ كتاب الجهاد والسير باب إزالة الأصنام من حول الكعبة وهذه رواية البخاري.

(٥) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٦١٠.

(٦) انظر المصدر السابق ٧/ ٦١٠.

جهنم وساءت مصيرا (١١٥)﴾[1].

علمًا أن باب التوبة مفتوح والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ويؤخذ من تلاوة الرسول ﷺ للآيتين أثناء تحطيمه للأصنام وإزالة جميع التماثيل أن هذه التماثيل والصور تقف في قمة العداء لله سبحانه وتعالى وأنها رمز الباطل والكفر.

وما غزوات المصطفى التي وقعت بينه وبين المشركين إلا لأن المشركين يريدون بقاء أوثانهم ومعبوداتهم فهم يبذلون أنفسهم فداءً لها، والرسول ﷺ يريد استئصالها واجتثاث الوثنية من أساسها بتدميرها وإتلافها وطمسها.

وهذا أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه، قبل أن يسلم قال بعد غزوة أحد أعل هبل. وهبل هذا أحد أصنام قريش.

فأجابه المسلمون بأمر رسول الله ﷺ: الله أعلى وأجل.

ولم تكن تلك الإزالة والهدم للأصنام خاصة بمحمد ﷺ بل إن هذا جرى من غيره ﷺ من الرسل قبله ﷺ.

فقد حطم إبراهيم عليه السلام أصنام قومه[2].

وحرق موسى عليه السلام العجل الذي عبد في بني إسرائيل وقت غياب موسى عن قومه[3].

فالتماثيل والصور من ألد أعداء الإسلام إذ هما نواة الوثنية والشرك وبذرتها وبينهما وبين التوحيد ضد وتضاد، مع العلم أن الصور والتماثيل عليهما مدار جزء كبير من الآثار فتكون حماية الآثار من هذا الجانب حماية الأساس الباطل وتمكينًا ونشرًا للشرك والوثنية في بلدان المسلمين ومعاقل التوحيد فتكبر قاعدة الشرك ونواته وتثمر أنواع من الشرك والوثنية.

(١) سورة النساء، آية: ١١٥.

(٢) ارجع إلى سورة الأنبياء الآيات ٥٢ ـ ٥٨.

(٣) ارجع إلى سورة طه الآيات ٨٣ ـ ٩٧، وانظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٦٤. وزاد المسير ٥/ ٢٢٠.

وإن المتفرج الآن في المتاحف على الآثار لا يشد نظره ويسلب تفكيره من تلك الدوارس القديمة شيء مثلما تفعله التماثيل والصور في نفس المتفرج وخياله مع ما يصاحب ذلك أحيانًا من الإجلال والإعظام لها.

ونبينا وحبيبا وقدوتنا ﷺ أرشدنا إلى إزالة الصور والتماثيل بفعله وبأمره فمن فعله ما سبق بيانه.

ومن أمره ما سبق أيضًا وما سيأتي:

فعني أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه **«ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»**[1].

الطمس: استئصال أثر الشيء.

وتأويل طمس الشيء: ذهابه عن صورته[2].

وهذا الطمس للتماثيل والتسوية للقبور المشرفة عام بدليل تنكير لفظتي تمثال وقبر مع حصر العمل بإلا، بمعنى أن لا يعمل بالتمثال إلا الطمس وأن لا يعمل بالقبر المشرف إلا التسوية.

ثالثًا: ما كان تحذيرًا من تعظيم الآثار والمشاهد وذلك قطعًا وسدًا لذريعة الشرك:

لقد حذر رسول الله ﷺ أمته من الشرك وبداياته سواء ما كان بالقبور والأضرحة أو ما كان بالأصنام والصور.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اشتكى النبي ﷺ ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال: **«أولئك إذا مات منهم**

(١) رواه مسلم: ٧/ ٤٠، كتاب الجنائز باب الأمر بتسوية القبر.

(٢) لسان العرب مادة طمس ٦/ ١٢٦.

الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله»[١] .

وعن جندب بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: **«إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك»**[٢] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[٣] .

عن عائشة وعبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهم ـ قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها فقال وهو كذلك **«لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** يحذر ما صنعوا[٤] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**، قالت: فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً[٥] .

وعن أبي مرثد الغنوي ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: **«لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»**[٦] .

---

(١) رواه البخاري: ٣/ ٢٤٧، كتاب الجنائز باب بناء المساجد على القبر، ورواه مسلم بنحوه: ٥/ ١٤، كتب المساجد ومواضع الصلاة باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

(٢) رواه مسلم: ٥/ ١٧، كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

(٣) رواه البخاري: ١/ ٦٣٤ كتاب الصلاة.

(٤) رواه البخاري: ١/ ٦٣٣ كتاب الصلاة، ورواه مسلم ٥/ ١٥، كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

(٥) رواه مسلم: ٧/ ٤٣ كتاب الجنائز باب النهي عن الجلوس على القبر.

(٦) رواه مسلم: ٥/ ١٥ كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[١] .

ففي أحد هذه الأحاديث دعا رسول الله ﷺ ربه بأن لا يجعل قبره وثناً يعبد بمعنى أن لا يكون قبره مثل مشاهد وأضرحة أهل البدع من الشيعة والصوفية الذين كتب بعضهم مناسك في حج مشاهد معظميهم[٢]، وفي بعضها أن غضب الله اشتد على من اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد بمعنى أماكن للعبادة دعا على اليهود والنصارى بالقتل واللعن لفعلهم ذلك بقبور أنبيائهم وصالحيهم وجمع مع ذلك نهيه ﷺ لأمته بأن لا يفعلوا كما فعل أولئك بقبور أنبيائهم وصالحيهم وتحذيره عن ذلك.

فيكون اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد من أعظم المحرمات وتكون الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من أعظم أسباب الشرك وكذلك الدعاء عندها.

أما دعاؤها أو الطواف حولها فهذا هو الشرك بعينه.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»**[٣] .

والعيد لغة: كل يوم فيه جمع واشتقاقه من عاد ويعود كأنهم عادوا إليه وقيل: اشتقاقه من العادة لأنهم اعتادوه[٤] .

والعيد يشمل الزمان والمكان والعمل والاجتماع لذلك سواء في الزمان أو المكان وللعيد حرم قبله وبعده وهو التمهيد له والعيد إذا جعل اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد الاجتماع فيه وإتيانه للعبادة عنده أو لغير العبادة كما أن المسجد

---

(١) رواه أحمد في المسند ٢/ ٢٤٦.

(٢) انظر ذلك في مبحث الشيعة مثلاً ص٦٠ من هذا الكتاب.

(٣) سنن أبي داود، للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، ضبط وتحقيق عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م. كتاب المناسك (الحج) ١٠٠ باب، باب زيارة القبور حديث رقم ٢٠٢٦، ٦/ ٣١.

(٤) لسان العرب مادة عود ٣/ ٣١٩.

الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة جعلها الله عيداً مثابة للناس يجتمعون عندها وينتابونها للدعاء والذكر والنسك وكان للمشركين أمكنة ينتابونها للاجتماع عندها فلما جاء الإسلام محى الله ذلك كله[1].

قوله: لا تجعلوا بيوتكم قبوراً: بترك الصلاة والعبادة فيها كالقبور لا يتعبد عندها.

وقوله: لا تجعلوا قبري عيداً: يعني بمعاودة المجيء إليه بما يفضي إلى عبادته، ثم إنه ﷺ أعقب النهي عن اتخاذه عيداً بقوله: **«صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»** يشير بذلك ﷺ إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم منه فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً»[2] خاصة وأن اتخاذ القبر عيداً يؤدي إلى اتخاذه وثناً يعبد.

وإذا كان معلوم أن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر فإن هذه خصيصة لكن لاتقتضي أن يتخذ قبره ﷺ عيداً[3].

وإذا كان «قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض وقد نهى ﷺ عن اتخاذه عيداً فقبر غيره أولى بالنهي كائناً من كان»[4].

فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ لايجوز بحال من الأحوال أن تتخذ قبورهم مكاناً للتجمع والاعتياد وإحياء الذكرى ولا مشهداً للعبادة بنهيه ﷺ وزجره عن فعل شيء من ذلك عند قبره ولعنه لمن سبق وعمل ذلك في قبور من سبق من الأنبياء والصالحين.

وأماكنهم التي أقاموا فيها أو عبروا منها ولم يبقوا فيها مثل قبورهم أولى بأن لاتتخذ أماكن للعبادة أو التجمع أو تعظم وتقدس إلا ما جاء فيه تشريع بوحي الله عز وجل مثل مقام إبراهيم عليه السلام.

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٤٢.
(٢) انظر المصدر السابق ٢/ ٦٥٩ ـ ٦٦٣.
(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٥٩.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٦٢.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن غير الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من عظماء المسلمين وأئمتهم وصالحيهم وقادتهم سواء السابقين منهم أو من المعاصرين كالزعماء السياسيين والقادة العسكريين المعلوم منهم والمجهول لا يفعل بآثارهم ولا صورهم ولا قبورهم ولاأماكن تنقلاتهم وحروبهم ولا أعلامهم شيء من التعظيم أو الإجلال أو التجمع للعبادة أو لغيرها من الأعياد والذكريات وذلك من باب أولى.
ومن باب أولى أيضاً وهو أقوى في هذا القياس أن لا يفعل شيء من التعظيم والتقديس والإجلال والمحافظة والقصد لقبور المشركين والكافرين والوثنيين والمعذبين من الأمم السابقة وآثارهم وتماثيلهم ومعبوداتهم وكذلك من على شاكلتهم ممن بعدهم.

وأن من فعل شيئاً من التقديس والتعظيم خلاف ما شرع الله أو شرع رسوله ﷺ سواء للبقع أو للأشخاص سواء بقصد التعبد أم لا فهو متعرض للعن واقف في جانب شرار الخلق ومتبوىء أول دركات الشرك وسالك لأول الطريق الموصلة إليه.

فيجب هدم المساجد التي بنيت على القبور وهدم القباب التي على القبور إذ هي أضر من مسجد الضرار لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ وفيها من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين والإرصاد لأهل النفاق والبدع المحادين لله ولرسوله ﷺ ما يقوي شبهها بمسجد الضرار مما يجعل هدمها وإزالتها متحتماً شرعاً وقد أمر ﷺ بهدم القبور المشرفة[1].

والنهي عن الصلاة عند القبور «إنما هو لئلا تتخذ ذريعة إلى الشرك بالعكوف عليها وتعلق القلوب بها رغبة ورهبة.

ثم إن قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة بالدعاء هناك رجاءً أكثر منه بالدعاء في غيرها أمر لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ ولا ذكره أحد من العلماء ولا الصالحين المتقدمين.

والصحابة الكرام رضوان الله عليهم قد أجدبوا مرات وحصل لهم مجاعة

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨١٣. وانظر أحكام الجنائز وبدعها، محمد ناصر الدين للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ص٢٧٩.

ودهمتهم نوائب وشدائد ولم يستسقوا ولم يستغيثوا عند قبر النبي ﷺ فضلاً عن أن يستسقوا أو يستغيثوا به ﷺ فلم يحدث شيء من ذلك البتة»[١].

ثم إن «إشادة المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وآثارهم مما جاءت الشريعة الإسلامية الكاملة بالمنع منه والتحذير عنه ولعن من فعله لكونه من وسائل الشرك والغلو في الأنبياء والصالحين، والواقع شاهد بصحة ما جاءت به الشريعة ودليل على أنها من عند الله عز وجل وبرهان ساطع وحجة قاطعة على صدق رسول الله ﷺ فيما جاء به عن الله وبلغه الأمة.

وكل من تأمل أحوال العالم الإسلامي وما حصل فيه من الشرك والغلو بسبب إشادة المساجد على الأضرحة وتعظيمها وفرشها وتجميلها واتخاذ السدنة لها علم يقينًا أنها من وسائل الشرك، وأن من محاسن الشريعة الإسلامية المنع منها والتحذير من إشادتها»[٢].

ولا شك أن العلة من منع اتخاذ القبور مساجد وتحذير الرسول ﷺ أمته من اتخاذ قبره مسجداً إنما هي مظنة اتخاذ القبور أوثانًا تعبد من دون الله[٣].

والدعاء الصحيح عند القبور إنما هو دعاء الله للمقبورين بأن يغفر الله لهم وأن يرحمهم وأن يثبتهم والسلام عليهم[٤].

- **سد الذريعة وحماية التوحيد:**

بتدبر الشريعة تجد أنها أتت بسد الذرائع إلى المحرمات وبتحريم ما يوصل إليها من الذرائع وإن لم يقصد بها المحرم لإفضائها إليه فكيف إذا قصد بها المحرم نفسه.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٨٤.

(٢) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن بن باز طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الإدارة العامة للطبع - الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ١/ ٤٣٨.

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٧٨.

(٤) انظر المصدر السابق ٢/ ٧٧٠.

اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾[١].

«تلك المذكورات وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام وتحريم الفطر على غير المعذور وتحريم الوطء على المعتكف ونحو ذلك من المحرمات (حدود الله) التي حدها لعباده ونهاهم عنها فقال: ﴿فلا تقربوها﴾ أبلغ من قوله: (فلا تفعلوها) لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه والنهي عن وسائله الموصلة إليه والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد عنها غاية ما يمكن وترك كل سبب يدعو إليه.

وأما الأوامر فيقول الله فيها ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ فنهى عن مجاوزتها»[٢].

وقد نهى سبحانه وتعالى عن سب آلهة المشركين لكونه ذريعة إلى أن يسبوا الله سبحانه وتعالى عدواً وكفراً على وجه المقابلة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٣] ونهى رسول الله ﷺ عن التشبه بأهل الكتاب وغيرهم من الكفار لأن المشابهة الظاهرة ذريعة إلى الموافقة الباطنة فإنه إذا أشبه الهديُ الهديَ أشبه القلبَ القلبَ وقد قال رسول الله ﷺ **«من تشبه بقوم فهو منهم»**[٤].

والشريعة المطهرة تمنع العبادة التي لم تقيد بمكان والتي يقصد بها وجه الله إذا كانت ستؤدي في نفس المكان الذي فيه عبادة المشركين حتى لو زال الشرك وأهله من ذلك المكان وخاصة العبادة التي تشبه عبادة المشركين كالذبح.

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٢٢٧.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٠٨.

(٤) رواه أبو داود سنن أبي داود ٤/ ٣١٤ حديث رقم ٤٠٣١ كتاب اللباس، باب لبس الشهرة.

فعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه ـ قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة فسأل النبي ﷺ فقال ـ أي النبي ﷺ ـ: **«هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»** قالوا: لا. قال: **«فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟»** قالوا: لا. فقال ﷺ: **«أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم»**[1].

فمن قوله ﷺ: **«فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد»** يؤخذ المنع من الوفاء بالنذر ـ وهو لله ـ إذا كان في المكان وثن أو صنم يعبد ولو بعد زواله.

ومن قوله ﷺ: **«فهل كان فيها عيد من أعيادهم»** يؤخذ المنع من الوفاء بالنذر ـ وهو أيضًا لله ـ بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله[2].

فوجه الدلالة: أن هذا الناذر كان قد نذر أن يذبح ـ إبلاً بمكان سماه فسأله النبي ﷺ: **«هل كان بها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»** قال: لا قال: **«فهل كان بها عيد من أعيادهم؟»** قال: لا فقال: **«أوف بنذرك»** ثم قال: **«لا وفاء لنذر في معصية الله»**.

وهذا يدل على أن الذبح بمكان عيدهم ومحل أوثانهم معصية لله فقوله ﷺ: **«فأوف بنذرك»** بعد تأكده أنه ليس في ذلك المكان وثن وأنه ليس مكان عيد من أعياد الجاهلية يعني حيث ليس هناك ما يوجب تحريم الذبح هناك فكان جوابه ﷺ فيه أمرًا بالوفاء عند الخلو من هذه الموانع.

وقوله ﷺ: **«هل بها عيد من أعيادهم؟»** يريد هل بها اجتماعًا معتادًا من اجتماعاتهم التي كانت عيدًا فلما قال: لا قال له: **«أوف بنذرك»** وهذا يقتضي أن كون البقعة مكانًا لعيدهم مانع من الذبح بها وإن نذر، كما أن كونها موضع أوثانهم مانع كذلك بدليل قوله ﷺ قبل ذلك: **«هل كان بها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»**.

علمًا أن هذه الواقعة كانت في حجة الوداع وحينئذ لم يكن قد بقي عيد للمشركين لذلك كانت الأسئلة منه ﷺ بهل كان يعني فيما مضى فإذا كان المصطفى ﷺ قد نهى أن تؤدى عبادة النذر في مكان كان الكفار يعملون فيه عيدًا أو لهم فيه وثنًا وإن كان قد انمحى ذلك وكان أولئك الكفار قد أسلموا وتركوا ذلك العيد

(١) رواه أبو داود سنن أبي داود ٣/ ٦٠٧ حديث رقم ٣٣١٣ طبعة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

(٢) انظر التعليق المفيد في تحقيق فتح المجيد ١/ ١٨٩ ـ ١٩٤.

والسائل لا يريد أن يتخذ المكان عيدًا بل يذبح نذره فيه فقط لا غير فقد ظهر أن ذلك سدًا لذريعة إحياء شيء من أعيادهم، فالخشية أن يكون الذبح هناك سببًا لإحياء أمر تلك البقعة وذريعة إلى اتخاذها عيدًا مع أن العيد إنما كان ـ والله أعلم ـ سوقًا يتبايعون فيه ويلعبون فإن أعياد الجاهلية لم تكن عبادة لهم ولهذا فرق ﷺ بين كونها مكان وثن ـ وهو مكان العبادة لهم ـ وكونها مكان عيد في سؤاله للناذر.

وقد دل هذا الحديث على أنه كان للناس في الجاهلية أعياد يجتمعون فيها ومعلوم أنه بمبعث رسول الله ﷺ محى الله ذلك عنه فلم يبق شيء منها.

ومعلوم أنه لولا نهيه ومنعه ﷺ لما ترك الناس تلك الأعياد لأن المقتضي لها قائم من جهة طبيعة النفس التي تحب ما يصنع في الأعياد خصوصًا أعياد الباطل من اللعب واللذات ومن جهة العادة التي ألفت ما يعود من العيد فيكون المقتضى قويًا فلولا المانع القوي لما درست تلك الأعياد وهذا يوجب العلم اليقيني بأن إمام المتقين ﷺ كان يمنع أمته منعًا قويًا من أعياد الكفار ويسعى في دروسها وطمسها بكل سبيل بل قد بالغ ﷺ في أمر أمته بمخالفة غير المسلمين في كثير من المباحات وصفات الطاعات لئلا يكون ذلك ذريعة إلى موافقتهم في غير ذلك من أمورهم ولتكون المخالفة في ذلك حاجزًا ومانعًا عن سائر أمورهم فإنه كلما كثرت المخالفة بينك وبين أصحاب الجحيم كان أبعد عن أعمال أهل الجحيم.

فليس بعد حرصه ﷺ على أمته ونصحه لهم غاية بأبي هو وأمي وكل ذلك من فضل الله عليه وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1].

فإحياء تلك الأعياء أو إنشاء أعياد مشابهة وإن قرئ فيها القرآن هو واقع تحت نهيه ﷺ، وفعله معصية لله ولرسوله ﷺ فإنه إذا كان رسول الله ﷺ يمنع التعبد في مكان فيه وثن أو عيد من أعياد الجاهلية فكيف بإحياء ذلك العيد أو مايشبهه وكيف بإحياء ذلك الوثن.

وعمل كثير من الآثاريين يغلب عليه إحياء الأوثان نفسها بأنواعها من صور وتماثيل بل وتبجيلها وإسباغ اسم إله عليها فيقال هذا إله كذا وهذا إله كذا ونحو ذلك

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٤١ ـ ٤٤٦.

يعنون ما يجدون من تماثيل ومعبودات طواها التاريخ لكنهم يحيونها ويعددون مزاياها ويذكرون أمجادها ويعتزون بها ولم يقف الأمر على هذا الحال بل تعدى إلى إحياء أماكن أعيادهم بل إلى إقامة الاحتفالات فيها مثل أوبرا عايدة[1] ونحو ذلك.

وإذا كانت التماثيل يجب طمسها وتكسيرها وإزالتها وإحراقها كما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فإنه ورد في السنة أيضًا تحريم بيعها.

فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول وهو بمكة عام الفتح: **«إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»** فقيل يا رسول الله: أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: **«لا، هو حرام»** ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: **«قاتل الله اليهود، إن الله عز وجل لما حرم عليهم شحومها جملوه[2] ثم باعوه فأكلوا ثمنه»**[3].

والعلة في تحريم بيع الأصنام هو أن منفعتها غير مباحة بل إن منفعتها محرمة وإن نحت الأصنام وصناعتها محرم شرعًا[4].

«وأما تحريم بيع الأصنام فيستفاد منه تحريم بيع كل آلة متخذة للشرك على أي وجه كانت ومن أي نوع كانت صنمًا أو وثنًا أو صليبًا وكذلك الكتب المشتملة على الشرك وعبادة غير الله فهذه كلها يجب إزالتها وإعدامها.

وبيعها ذريعة إلى اقتنائها واتخاذها فهو أولى بتحريم البيع . . .

وتحريم بيع الأصنام وهو أعظم تحريمًا وإثما وأشد منافاة للإسلام من بيع الخمر والميتة والخنزير»[5].

---

(١) سياتي بيان ذلك لاحقًا.

(٢) جملوه: جمل الشحم وجمله أي اذابه، شرح صحيح مسلم ١١/ ١٠/ وانظر لسان العرب مادة جمل ١١/ ١٢٧.

(٣) رواه البخاري: ٤/ ٤٩٥ كتاب البيوع باب الميتة والأصنام، وراه مسلم: ١١/ ٨ ـ ٩ كتاب المساقاة باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام.

(٤) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤/ ٤٩٧ وانظر شرح صحيح مسلم ١١/ ١٠.

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ) تحقيق

ويلحق بتحريم البيع تحريم الإيجار والرسوم إذ المقصود منع المنفعة وكثير من المتاحف الآثارية تحوي نماذج من التماثيل وأشكال متعددة منها ويستفاد منها جباية أموال باسم رسوم سياحية وتبرعات للحفاظ عليها وقد تحوي أماكن لجمع النذور كالأضرحة تمامًا وقد رأيت هذا بنفسي وكذلك بعض الأضرحة عليها رسوم سياحة وبعض الأضرحة تقدم له رسوم اختيارية يدفعها بعض الناس باسم نذور وصدقات لها أو مساعدة في ترميمها.

ولما كان كثير من عمل الآثاريين هو نبش القبور واستخراج الأصنام التي هي تماثيل وصور ورسوم فهي وإن كانت تتعارض مع ما سبق من الأحاديث والآيات التي تأمر بإتلافها وتمنع بيعها واقتنائها فإنها أيضًا تتعارض في الغالب ابتداء مع طريقة الوصول إليها إذ أنها تحتاج إلى نبش القبور والمقابر لاستخراجها.

وقد ورد عن عمرة بنت عبدالرحمن أنها تقول: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المختفي والمختفية يعني نباش القبور»[1].

ولا يخفى أن كثيرًا من الآثار والتماثيل والصور والأصنام ليس ثمت طريق إليها إلا بنبش القبور واقتراف هذا الأمر المحرم والدخول تحت اللعن من رسول الله ﷺ بهذا العمل أضف إلى ذلك أن غالب ما يوجد من الآثار في المقابر إنما تكون في مقابر أقوام كافرين غالبًا.

ورسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى قد أنار لنا الطريق وأوضح لنا السبيل مع الآثار عمومًا.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين»** ثم قنع رأسه

شعيب الارنؤوط وعبد القادر الارنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ومكتبة المنار الإسلامية الكويت الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ٥/ ٧٦١ ـ ٧٦٢.

(١) رواه الإمام مالك: موطأ الإمام مالك بن أنس، رواية يحيى بن يحيى الليثي شرح وتعليق أحمد راتب عرموش، دار النفائس بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ ١٩٧١م، ص١٥٨ حديث رقم ٥٦٢. كتاب الجنائز باب ما جاء في الاختفاء.

وأسرع السير حتى أجاز الوادي)[١].

وورد في رواية أخرى «فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئارها وأن يعلفوا الإبل العجين»[٢]، وفي رواية أخرى «أن النبي ﷺ أمر بإلقاء الطعام»[٣].

وفي رواية: فقال لنا رسول الله ﷺ: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم»** ثم زجر فأسرع حتى خلفها[٤].

الحجر: هي منازل ثمود كما فسره في سند الحديث الثاني وهي ما تسمى اليوم مدائن صالح وأرض ثمود.

لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا: هذا يتناول مساكن ثمود وغيرهم ممن هو كصفتهم فكيف بمن هو أشد منهم كفرعون وآله.

وهذان الحديثان فيهما البيان والإيضاح لما يجب فعله اقتداء برسول الله ﷺ عند مساكن الكفرة الغابرين مع ما ورد من قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾[٥]. ونحوها من الآيات التي فيها توجيه للاعتبار بمصارع الأمم الكافرة مع تحطيمه ﷺ للأصنام والتماثيل وبعثه البعوث لتحطيم الأصنام والتماثيل المتفرقة فيما قدر عليه مما يؤكد أن طلب السير في مصارع الكافرين موجه لمنكري الرسالة ليتعظوا.

وعليه فإن المسلم إذا مر بأحد منازل الأمم الكافرة المهلكة في طريقه فإنه يتجاوزها

(١) رواه البخاري: فتح الباري ٧/ ٧٣١ كتاب المغازي باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر.

(٢) رواه البخاري: فتح الباري ٦/ ٤٣٦ كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى وإلى ثمود أخاهم صالح.

(٣) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٤) رواه مسلم: شرح صحيح مسلم ١٨/ ٣٢٢ كتاب الزهد والرقائق باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين.

(٥) سورة النمل، آية: ٦٩.

مسرعًا ولا يدخلها فكيف بحال كثير من الآثاريين الذين يمكثون الليالي الطوال والأيام بل الشهور أحيانًا في مساكن الكفرة المهلكين وينبشون قبورهم ويخالفون هدي رسول الله ﷺ ويتجاوزون تحذيره ويتعدون حدود الله تعالى.

وفعله ﷺ من زجره لدابته وإسراعه في تجاوز مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتقنيعه رأسه ونهيه لأصحابه بأن لا يدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا باكين وحالهم أنهم لا يمكثون بل يسرعون خشية أن يصيبهم من العذاب ما أصاب أولئك المعذبين الأول وقد أمر ﷺ بإراقة الماء وإلقاء الطعام وإعلاف الطعام للإبل حينما استقى الصحابة رضي الله عنهم من بئر قوم صالح في غزوة تبوك في الرواية الأخرى فهو يدل على أن ترك الماء وما داخله من طعام وما عجن به وهو المباح أصلاً في كل وقت، والطعام الذي كانوا بأمس الحاجة إليه حيث كانت غزوة تبوك غزوة عرف أن الطعام كان فيها قليلاً وشحيحًا ومع ذلك أمر ﷺ بإلقائه وبإعلافه للإبل مع مسيس الحاجة إليه فكيف بما يؤخذ من مخلفات الأمم المعذبة من الآثار والأثريات وهي أقل شأنًا وحاجة من طعام أولئك الصحابة رضي الله عنهم لطعامهم بل إن كثيرًا من تلك الآثار محرمة في ذاتها كالتماثيل والصور سواء ما عبد منها أو لم يعبد ففعل الرسول ﷺ وأمره عند مروره بالحجر هو التطبيق الصحيح لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾[١] بالنسبة للمسلمين.

ومما يثبت أن المخاطبين هم غير المسلمين بل إن الخطاب في الآية للكفار إذ لو كان موجهًا للمسلمين لما أمرهم الرسول ﷺ بالسرعة في تجاوز المساكن ولما أسرع هو وقنع رأسه حتى جاز الوادي وخلف تلك المساكن وراء ظهره.

بقي أن يعلم أنه ورد:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امريء بغير حق ليهريق دمه»**[٢].

ففي هذا الحديث يبين الرسول الكريم ﷺ أوصاف ثلاثة أشخاص هم أبغض الناس إلى الله عز وجل وكفى بهذا ذمًا لهم ولعملهم الذي من أجله طالهم البغض الشديد من الله عز وجل فمقامهم مقام أبغض الخلق إلى الله والمقصود من هذا

(١) سورة النمل، آية: ٦٩.

(٢) رواه البخاري: ١٢/ ٢١٩ كتاب الديات باب من طلب دم امريء بغير حق.

الحديث في هذا البحث أن من هؤلاء الثلاثة من ابتغى في الإسلام سنة الجاهلية «. . . فكل من أراد في الإسلام أن يعمل بشيء من سنن الجاهلية دخل في هذا الحديث وصار من أبغض الناس إلى الله»[١] .

«والسنة الجاهلية: كل عادة كانوا عليها ـ أي الجاهليون ـ فإن السنة هي العادة وهي الطريق التي تتكرر لنوع الناس مما يعدونه عبادة أولا يعدونه عبادة»[٢] .

ومبتغ في الإسلام سنة جاهلية يندرج فيه كل جاهلية مطلقة أو مقيدة يهودية أو نصرانية أو مجوسية أو صابئة أو فرعونية أو كلدانية أو أشورية أو فينيقية أو إغريقية أو بابلية أو وثنية أو مزدكية، من ذلك أو بعضه أو منتزعة من بعض هذه الملل الجاهلية فإنها جميعاً: مبتدعها ومنسوخها صارت جاهلية بمبعث محمد ﷺ[٣] .

وعليه فإن آثار الأمم من معبودات وصور وتماثيل ومشاهد وأخلاق وعبادات لم يقرها الإسلام إنما هي سنن الجاهلية وأن نباش الآثار الجاهلية في بلاد المسلمين إنما هو مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية وأنه من أبغض الخلق إلى الله.

وأن نشر الآثار وإخراجها وتجليتها وإحياءها وتعظيمها والافتخار بها وبأمجادها وتحبيبها إلى الناس ومحاكاتها في أخلاقها وأعرافها وتمثيل أدوارها والتغني بها كل ذلك وأمثاله وإن لم يقصد بشيء من ذلك عبادتها إنما هو ابتغاء وطلب وإحياء سنة الجاهلية في الإسلام وهو في نفس الوقت غرس لشجرة الشرك والوثنية في أرض الإسلام فالواجب إتلافها وإزالة الموجود منها وطمسها.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»**[٤] .

فقوله: لا يلدغ المؤمن: «هذا لفظ خبر ومعناه أمر، أي ليكن المؤمن حازماً

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٢٢٦ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٢٢٦ .

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٢٣١ .

(٤) رواه البخاري: ١٠/ ٥٤٦ كتاب الادب باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ورواه مسلم: ١٨/ ٣٣٥ كتاب الزهد والرقائق باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

حذراً لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد أخرى»[١] .

فيحذر من السبب الذي أوقعه في الذنب كحذر من أدخل يده في جحر فلدغته حية فإنه بعد ذلك لا يكاد يدخل يده في ذلك الجحر لما أصابه فيه أول مرة، وفيه حث على الحزم والكيْس في جميع الأمور ومن لوازم ذلك:

تعرف الأسباب النافعة ليقوم بها والأسباب الضارة ليتجنبها ويدل على أن الذرائع معتبرة وقد حذر الله المؤمنين من العود إلى ما زينه الشيطان من الوقوع في المعاصي فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧)﴾[٢][٣] .

فلابد «لمن ناله الضرر من جهة أن يتجنبها لئلا يقع فيها ثانية»[٤]، وهو إشارة إلى استعمال الفطنة فإن المؤمن كيس فطن[٥] .

ولا يخفى أن عرب الجزيرة كانوا على التوحيد على ملة إبراهيم عليه السلام حتى أحيا فيهم عمرو بن لحي الخزاعي[٦] **سنة جاهلية وابتغاها فيهم فجاء بالأصنام إلى مكة من الشام ونصبها حول الحرم فهو أول من نصب الأنصاب حول البيت** وهو الذي ورد فيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه حيث يقول: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار»**[٧] .

(١) فتح الباري ١٠/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .

(٢) سورة النور، آية: ١٧ .

(٣) انظر بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، عبدالرحمن بن ناصر السعدي ١٣٠٧ ـ ١٣٧٦هـ نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة سنة ١٤٠٥، ص١٢٨ .

(٤) شرح صحيح مسلم ١٨/ ٣٣٦ .

(٥) انظر فتح الباري ١٠/ ٥٤٧ .

(٦) هو: عمرو بن لحي أبو خزاعة روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة». وورد أيضاً أن النبي ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار لأنه أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وسيب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامي» انظر فتح الباري: شرح صحيح البخاري ٦/ ٦٣٢، ٦٣٤ .

(٧) رواه مسلم: ١٧/ ١٩٥ كتاب الجنة باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

فتشبه عمرو بمن رآه في الشام واستحسن بعقله ما كانوا عليه فكان ما فعله بهذه السنة الجاهلية إنما هو أصل الشرك في العرب أهل دين إبراهيم وإنما فعله متشبهًا فيه بغيره من أهل الأرض فلم يزل الأمر يتزايد ويتفاقم حتى غلب على أفضل الأرض الشرك بالله عز وجل وتغيير دين الله إلى أن بعث الله رسوله ﷺ فأحيا ملة إبراهيم عليه السلام وأقام التوحيد[1].

ثم إنه عليه الصلاة والسلام قال في خطبة حجة الوداع في حديث جابر رضي الله عنه: **«ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع»**[2] وأولى الأشياء بالوضع من أمور الجاهلية ولا شك هي أصنامها وتماثيلها وما له صلة بها من أعياد ومعبودات وما يجر إلى أخلاقها وأعرافها، والآثار وما يتعلق بها إنما ترفع أمور الجاهلية التي وضعها رسول الله ﷺ تحت قدميه إهانة لها وإذلالاً، بل إن الآثار وعلومها الآن تدعو إلى رفع أمور الجاهلية فوق الرؤوس وتحامي عنها وتدافع، وتجعلها محور ارتكاز أبناء البلاد الواحدة فالولاء لها والمعاداة من أجلها وبالذات التماثيل التي أول ما بدأت دعوة رسول الله ﷺ بمحاربتها ومعاداتها ثم حطمتها وطمستها.

ومعلوم بداهة أن عرب الجزيرة لم يعبدوا تلك الأصنام المنصوبة رأسًا بل كان هناك تدرج، ومعلوم أن قوم نوح عندما صوروا صور صالحيهم لم يكن قصدهم عبادتها بل مجرد الذكرى والإعزاز والمحبة والحث على الاقتداء بهم في الصلاح لكن مع مرور الوقت واختلاف الأجيال ووسوسة الشيطان تغير الحال فآل الأمر بها فعبدت تلك التماثيل من دون الله.

فلماذا يعيدها المسلمون جذعة في بلادهم وينبشوا قبور الأمم الوثنية والمشركة وينشروا معبوداتها في ميادينهم وأماكن تجمعاتهم ويحاكونها في رسم مثلها ونحته ويجعلون لها المتاحف والسدنة ولم يسن الآثاريون ويرفعون في الإسلام من سنن الجاهلية وليست سنة واحد مع ما يصاحب ذلك من أن الجهل بدين الله متفشي في المسلمين والنفوس ضعيفة والمريض والمحتاج يتعلق بأدنى شيء من الخرافات والأوهام فيظن النفع والضر في تلك الأوثان خاصة وأن كثيراً من الأوثان يعرف بأنه مثلاً: إله الحب لجلب المحبة بين الزوجين والآخر إله الخصب للإنجاب وآخر كما يفترون فيها جميعًا بأنه للنصر وغيره للزرع وهكذا.

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣١٤.

(٢) رواه مسلم: من حديث جابر عن حجة الوداع ٨/ ٤٣١.

الفصل الثالث

موقف السلف وتطبيقاتهم للأحكام الشرعية

على الآثار التي في عصرهم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: موقفهم من آثار النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: موقفهم من آثار ومشاهد الأنبياء والصالحين.

المبحث الثالث: موقفهم من آثار ومشاهد الأمم البائدة والمعذبة.

* * * * *

المبحث الأول

موقف السلف من آثار النبي صلى الله عليه وسلم

تعظيم الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله ﷺ على الوجه الشرعي الذي يتأصل بكونه سنة سواء قولية أو فعلية أو إقرارًا منه ﷺ لذلك التعظيم يكون دينًا يتقرب به إلى الله عز وجل وينبغي أن يكون خالصًا لله عز وجل وأن يكون اتباعًا للهدي الشرعي في هذه المسألة وسيتضح هذا الكلام من النقولات التالية :

١ ـ عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة فقال سهل للقوم : أتدرون ما البردة؟ فقال القوم هي شملة ، فقال سهل : هي شملة منسوجة فيها حاشيتها فقالت : يا رسول الله أكسوك هذه ، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال : يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها ، فقال : «نعم» فلما قام النبي ﷺ لأمَهُ أصحابه فقالوا : ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئًا فيمنعه ، فقال : رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلّي أكفن فيها[1] .

٢ ـ ومن حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه : «فكان يصنع للنبي ﷺ طعامًا فإذا جيء به إليه[2] سأل عن موضع أصابعه فيتتبع موضع أصابعه»[3] .

٣ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله عنه : **«أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بشراب فشرب منه ـ وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ ـ فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟» فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحدًا قال: فتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده»**[4] .

(١) رواه البخاري : ١٠/ ٤٧٠ كتاب الأدب باب حسن الخلق والسخاء .

(٢) أي بالطعام بعد أن يأكل منه ﷺ ويؤتى به إلى أبي أيوب رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم : ١٤/ ٢٥٤ كتاب الأشربة باب إباحة أكل الثوم .

(٤) رواه البخاري : ١٠/ ٨٩ كتاب الأشربة باب هل يستأذن الرجل من عن يمينه .

تله : بفتح المثناة وتشديد اللام : أي وضعه[1] .

٤ ـ ومن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : قال : «كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال فأتى النبي ﷺ أعرابي فقال : ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال : له «أبشر» . فقال قد أكثرت على من [أبشر] . فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال : رد البشرى فاقبلا أنتما . قالا : قبلنا ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه ومج فيه ثم قال : **«اشربا وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا»** فأخذا القدح ففعلا فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما فأفضلا لها منه طائفة[2] .

٥ ـ وفي حديث جابر رضي الله عنه : جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب علي من وضوئه فعقلت فقلت : يا رسول الله لمن الميراث إنما يرثني كلالك؟ فنزلت آية الفرائض[3] .

٦ ـ عن عثمان بن عبدالله بن موهب[4] قال : «أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء وقبض إسرائيل ثلاث أصابع من قصة فيها شعر من شعر النبي ﷺ وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة . . . »[5] .

«والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه وتعيده فيشربه صاحب الإناء أويغتسل به استشفاء بها»[6] .

(١) فتح الباري : ١٠/ ٩٠ .

(٢) رواه البخاري : ٧/ ٦٤٢ كتاب المغازي باب غزوة الطائف ، ورواه مسلم : ١٦/ ٢٩١ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين .

(٣) رواه البخاري : ١/ ٣٦٠ ، كتاب الوضوء باب صب النبي ﷺ وضوءه على مغمى .

(٤) هو : عثمان بن عبدالله بن الواهب التيمي المدني أبو عبدالله سكن العراق توفي بعد سنة ١٢٠هـ ٥/ ١٨٧ انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ١٨٧ .

(٥) رواه البخاري : ١٠/ ٣٦٤ كتاب اللباس باب مايذكره في الشيب .

(٦) فتح الباري ١٠/ ٣٦٥ .

٧ ـ عن عبدالله[1] مولى أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ـ «. . . فقالت هذه جبة رسول الله ﷺ فأخرجت إلي جبة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج ـ فقالت: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت فلما قبضت قبضتها وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها»[2].

فهذه الأحاديث وأمثالها فيها أن الصحابة رضوان الله عليهم يتبركون بآثار رسول الله ﷺ وتبركهم هذا مشعر بنوع تعظيم ولو كان قليلاً لآثاره ﷺ لكن هذا التصرف لم يتجاوزوا به الحد المسموح به وهو وفق الوحي والله سبحانه وتعالى يجعل لنبيه وخليله من المعجزات ما شاء بما شاء فجعل لبعض آثاره ما مر ذكره في تلكم الأحاديث مما أقره أو أمر به ﷺ فلا يتجاوز به الحد فلم يكن الاستشفاء مثلاً والتبرك بمنبره ﷺ أو بعض أنيته فإنه لا إذن في ذلك ولو كان ثم إذن لبدر إليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

لكن ومع هذا هل بقي من تلك الآثار المنسوبة للنبي ﷺ شيء الآن؟

«لا يخفى أن بعض هذه الآثار محتمل الصحة غير أنا لم نر أحداً من الثقات ذكرها بإثبات أو نفي فالله أعلم بها.

وبعضها لا يسعنا أن نكتم ما يخامر النفس فيها من الريب ويتنازعها من الشكوك»[3] وقد ثبت فقدان كثير من آثار الرسول ﷺ خلال عشرات السنين بأسباب مختلفة منها الضياع والإحراق في الحروق والفتن[4].

(١) هو: عبدالله بن كيسان التيمي مولى أسماء بنت أبي بكر الصديق، انظر: تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الناشر: المكتبة العلمية، المدينة، السعودية، ١/ ٤٤٣ ترجمة رقم ٥٦٨.

(٢) رواه مسلم: ١٤/ ٢٨٨ كتاب اللباس والزينة باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء.

(٣) الآثار النبوية، أحمد بن اسماعيل بن محمد تيمور ت ١٣٤٨، ص٧٨.

(٤) انظر التبرك وأنواعه وأحكامه، ناصر بن عبدالرحمن بن محمد الجديع، مكتبة الرشد، الرياض الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٣، ص٢٥٧.

و «ما يدعى الآن عند بعض الأشخاص أو في بعض المواضع من وجود بعض الآثار النبوية كالشعرات أو النعال وغيرها ـ موضع شك فيحتاج في إثبات صحة نسبته إلى الرسول ﷺ إلى برهان قاطع يزيل الشك الوارد. . . (ونحن نعلم أن آثاره ﷺ من ثياب أو شعر . . . قد فقدت وليس بإمكان أحد إثبات وجود شيء منها على وجه القطع واليقين) لا سيما مع مرور أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان على وجود تلك الآثار النبوية ومع إمكان الكذب في ادعاء نسبتها إلى الرسول ﷺ للحصول على بعض الأغراض كما وضعت الأحاديث ونسبت إلى الرسول ﷺ كذباً وزوراً»[1].

أما قبر الرسول ﷺ فإن الصحابة رضوان الله عليهم قد انزجروا بزجره ﷺ أن يتخذ قبره عيداً وانتهوا بنهيه عن ذلك وهي أحاديث مرت في الفصل السابق.

أما مشاهده ﷺ ومقاماته فما كان منها بعد البعثة وقد قصده بالعبادة عنده كتقبيل الحجر الأسود واتخاذ مقام إبراهيم مصلى ووقوفه بعرفة وصلاته في مسجد قباء فإن الصحابة رضوان الله عليهم قد عملوا مثل عمله عند تلك المقامات والآثار بقصد التعبد لله والاتباع لرسول الله ﷺ من ذلك:

عن محمد بن عبدالرحمن بن نوفل القرشي[2] أنه سأل عروة بن الزبير فقال: قد حج النبي ﷺ، فأخبرتني عائشة رضي الله عنها أنه أول شيء بدأ به حين قدم أنه توضأ ثم طاف بالبيت، ثم لم تكن عمرة. ثم حج أبو بكر رضي الله عنه فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت، ثم لم تكن عمرة. ثم عمر رضي الله عنه مثل ذلك. ثم حج عثمان رضي الله عنه، فرأيته أول شيء بدأ به الطواف بالبيت، ثم لم تكن عمرة. ثم معاوية وعبدالله بن عمر. ثم حججت مع أبي ـ الزبير بن العوام ـ فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم تكن عمرة. ثم رأيت المهاجرين والأنصار يفعلون ذلك، ثم لم تكن عمرة. ثم آخر من رأيت فعل ذلك ابن عمر ثم لم ينقضها

(١) التبرك، ص٢٦٠.

(٢) هو: محمد بن عبدالرحمن بن نوفل بن الأسود من بني عبدالعزى بن قصي، أبو الأسود القرشي عداده في صغار التابعين مات سنة بضع وثلاثين ومئة هجرية، انظر سير أعلام النبلاء ٦/ ١٥٠.

عمرة. وهذا ابن عمر عندهم فلا يسألونه ولا أحد ممن مضى ما كانوا يبدأون بشيء حتى يضعوا أقدامهم من الطواف بالبيت ثم لا يحلون. وقد رأيت أمي وخالتي حين تقدمان لا تبتدئان بشيء أول من البيت تطوفان به ثم لا تحلان»[١].

وفي حديث آخر: «فلما مسحوا الركن حلوا»[٢].

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما تركت استلام هذين الركنين في شدة ولا رخاء منذ رأيت النبي ﷺ يستلمها[٣].

وعمر رضي الله عنه: أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك[٤].

وحديث يزيد بن أبي عبيد[٥] قال: كنت آتي مع سلمة بن الأكوع فيصلي عند الأسطوانة التي عند المصحف فقلت: يا أبا مسلم أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة، قال: فإني رأيت النبي ﷺ يتحرى الصلاة عندها[٦].

والأسطوانة هي السارية أو العامود ويقال إنها السارية المتوسط في الروضة في مسجد رسول الله ﷺ[٧].

وأما ما كان من آثاره ﷺ ومقاماته التي لم يكن يقصدها أي لم يكن نفس قصده العبادة في ذلك الموضع كصلاته في أسفاره في أماكن لم يقصد تعيينها وإنما وافق

(١) رواه البخاري: ٣/ ٥٨٠ كتاب الحج باب الطواف على وضوء.

(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) رواه البخاري: ٣/ ٥٥٠ كتاب الحج باب الرمل في الحج والعمرة.

(٤) رواه البخاري ٣/ ٥٤٠ كتاب الحج باب ما ذكر في الحجر الأسود.

(٥) هو يزيد بن أبي عبيد المدني من بقايا التابعين الثقات توفي سنة ١٤٧هـ (سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٠٦).

(٦) رواه البخاري ١/ ٦٨٧ كتاب الصلاة باب الصلاة إلى الأسطوانة.

(٧) فتح الباري ١/ ٦٨٨.

صلاته في هذا المكان لنزوله فيه لسبب غير قصد العبادة، أو مكثه في مكان ما فإن من وافقه من غير قصد ووافق وقت عبادته من نفس النوع فإنه لا بأس بذلك لكن تتبع ذلك منهي عنه، فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه رأى الناس يذهبون مذاهب فقال: أين يذهب هؤلاء فقيل: يا أمير المؤمنين مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها[١].

وقد ورد أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كان يتتبع مواضع سير النبي ﷺ حتى رؤي أنه يصب في موضعٍ ماء فسئل عن ذلك فقال: رأيت النبي ﷺ يصب ههنا ماء لكن فعل ابن عمر هذا لم يكن عن هوى بل هو زيادة في تكليف نفسه رضي الله عنه في الاتباع فهو متبع للرسول ﷺ في كل شؤونه الواجب والمستحب والمباح هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن فعل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قد انفرد به عن جماهير الصحابة ولم ينقل عن غير ابن عمر من الصحابة بل كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار يذهبون من المدينة إلى مكة حجاجًا وعماراً أو مسافرين ولم ينقل عن أحد منهم أنه تحرى الصلاة في مصليات النبي ﷺ ومعلوم أن هذا لو كان عندهم مستحبًا لكانوا إليه أسبق فإنهم أعلم بسنته وأتبع لها من غيرهم... ولم يوافقه عليه - أي عبد الله بن عمر - أحد من الصحابة فلم ينقل عن الخلفاء الراشدين ولا غيرهم من المهاجرين والأنصار أنه كان يتحرى قصد الأمكنة التي نزلها النبي ﷺ.

والصواب مع جمهور الصحابة لأن متابعة النبي ﷺ تكون بطاعة أمره وتكون في فعله بأن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعله فإذا قصد العبادة في مكان كان قصد العبادة فيه متابعة له كقصد المشاعر والمساجد.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٧٥٢.

وأما إذا نزل في مكان بحكم الإتفاق لكونه صادف وقت النزول أو غير ذلك مما يعلم أنه لم يتحر ذلك المكان فإذا تحرينا ذلك المكان لم نكن متبعين له فإن الأعمال بالنيات.

فأما الأمكنة التي كان النبي ﷺ يقصد الصلاة أو الدعاء عندها فقصد الصلاة فيها أو الدعاء سنة اقتداء برسول الله ﷺ واتباعًا له كما إذا تحرىٰ الصلاة أو الدعاء في وقت من الأوقات فإن قصد الصلاة أو الدعاء في ذلك الوقت سنة كسائر عباداته وسائر الأفعال التي فعلها علىٰ وجه التقرب[1].

ومن ذلك حديث يزيد بن أبي عبيد[2] قال: كنت آتي مع سلمة بن الأكوع فيصلي عند الأسطوانة التي عند المصحف فقلت: يا أبا مسلم أراك تتحرىٰ الصلاة عند هذه الأسطوانة قال: فإني رأيت النبي ﷺ يتحرىٰ الصلاة عندها[3].

والكلام هنا في ثلاث مسائل:

احداها: أن التأسي به ﷺ في صورة الفعل الذي فعله من غير أن يعلم قصده فيه أو مع عدم معرفة السبب الذي فعله من أجله فهذا فيه نزاع مشهور وابن عمر مع طائفة يقولون بأحد القولين، وغيرهم يخالفهم في ذلك، والغالب والمعروف عن المهاجرين والأنصار أنهم لم يكونوا يفعلون كفعل ابن عمر رضي الله عنهم.

ومن هذا الباب أنه لو تحرىٰ رجل في سفره أن يصلي في مكان نزل فيه النبي ﷺ وصلىٰ فيه إذا جاء وقت الصلاة فهذا من هذا القبيل.

المسألة الثانية: أن يتحرىٰ تلك البقعة للصلاة عندها من غير أن يكون ذلك وقتًا للصلاة بل أراد أن ينشيء الصلاة والدعاء لأجل البقعة فهذا لم ينقل عن ابن عمر ولا غيره وإن ادعىٰ بعض الناس أن ابن عمر فعله فقد ثبت عن أبيه عمر أنه نهىٰ عن

(١) انظر المصدر السابق، ٢/ ٧٥٣، ٧٥٥.

(٢) يزيد بن أبي عبيد أبو خالد الأسلمي مولىٰ سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ ثقة مات سنة ست أوسبع وأربعين ومئة روىٰ له الجماعة، انظر: تهذيب الكمال ٢٠/ ٣٥٤.

(٣) رواه البخاري: ١/ ٦٨٧.

ذلك وتواتر عن المهاجرين والأنصار: أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك فيمتنع أن يكون فعل ابن عمر ـ لو فعل ذلك ـ حجة علىٰ أبيه وعلىٰ المهاجرين والأنصار.

والمسألة الثالثة: أن لا تكون البقعة في طريقه بل يعدل عن طريقه إليها أو يسافر إليها سفرًا قصيرًا أو طويلاً مثل من يذهب إلىٰ حراء ليصلي فيه ويدعو...

فهذا مما يعلم كل من كان عالمًا بحال رسول الله ﷺ وحال أصحابه من بعده أنهم لم يكونوا يقصدون شيئًا من هذه الأمكنة[1].

أما الأماكن والمقامات والمشاهد قبل مبعثه ﷺ فإن ما كان منها قد قصده بعد مبعثه ﷺ فهذه يقتدىٰ به فيها كتقبيله ﷺ الحجر وكطوافه بالبيت.

وأما ما كان منها أنه قد تركه كغار حراء ونحوه فإن يترك بل أن التعبد عنده أو قصده وطلب القربة في ذلك يكون ابتداعًا وافتياتًا عليه ﷺ فالرسول ﷺ في حجة الوداع ثم بعده خلفاؤه الراشدين وغيرهم من السابقين الأولين لم يكونوا يسيرون إلىٰ غار حراء ونحوه للصلاة فيه والدعاء، ولا شرع ﷺ لأمته زيارة موضع المولد، ومعلوم أنه لو كان هذا مشروعًا مستحبًا يثيب الله عليه لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك، ولكان يعلم أصحابه ذلك، وكان أصحابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم، فلما هم لم يكونوا يتلفتون إلىٰ شيء من ذلك علم أنه من البدع المحدثة التي لم يكونوا يعدونها عبادة وقربة وطاعة، فمن جعلها عبادة وقربة وطاعة فقد اتبع غير سبيلهم وشرع من الدين ما لم يأذن الله[2].

أما قبره عليه الصلاة والسلام فإنه قد حذر أمته أن يتخذوا قبره عيدًا خشية أن يؤدي هذا إلىٰ الشرك وقد مرت كثير من الأحاديث في ذلك في الفصل السابق، وزيارة قبره ﷺ مشروعة لكن لا يجوز شد الرحال لها فمن كان بالمدينة ساكنًا أو زار المسجد النبوي فإن زيارته لقبره عليه الصلاة والسلام سنة كزيارة قبور المسلمين تمامًا

(١) اقتضاء المستقيم ٢/ ٨٠٣ـ ٨٠٥.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٠٧.

وليست واجبة كما يتوهم بعض الناس[١].

والمقصود بزيارة القبر إنما هو تذكر الآخرة أو للسلام على من في القبر والدعاء له[٢].

«ولم يكن أحد من السلف يأتي إلى قبر نبي أو غير نبي لأجل الدعاء عنده، ولا كان الصحابة يقصدون الدعاء عند قبر النبي ﷺ، ولا عند قبر غيره من الأنبياء، وإنما كانوا يصلون ويسلمون على النبي ﷺ وعلى صاحبيه، واتفق الأئمة على أنه إذا دعا بمسجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يستقبل قبره... ليس في أئمة المسلمين من استحب للمرء أن يستقبل قبر النبي ﷺ ويدعو عنده»[٣].

* * * * *

---

(١) لزيادة المعرفة في ذلك يرجع إلى رسالة: كشف الستر عما ورد في السفر إلى القبر لحماد الأنصاري والرد على الاخنائي لابن تيمية والصارم المنكي في الرد على السبكي لمحمد بن أحمد بن عبدالهادي.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٧٠.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٧٦٢، ٧٦٣.

المبحث الثاني

موقف السلف من آثار ومشاهد الأنبياء والصالحين

وهي نوعان:

أ - نوع جاء الشرع بالتعبد عنده مثل مقام إبراهيم عليه السلام ولكن لا يقاس عليها غيرها وهو ما مر من الأماكن التي ورد فيها الدليل إما من القرآن أو ما ثبت من سنته ﷺ فالسلف رضوان الله عليهم له بالأثر كما تبين.

ب - نوع لم يأت الشرع بتعظيم شيء منها وهي لا تقاس على النوع الأول بحكم أنها كلها مقامات أنبياء «فإن قيل فقد أمر الله أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى فيقاس عليه غيره قيل له: هذا الحكم خاص بمقام إبراهيم الذي بمكة سواء أريد به المقام عند الكعبة موضع قيام إبراهيم أو أريد به المشاعر: عرفة ومزدلفة ومنى، فلا نزاع بين المسلمين أن المشاعر خصت من العبادات بما لا يشركها فيه سائر البقاع كما خص البيت بالطواف، فما خصت به تلك البقاع لا يقاس به غيرها وما لم يشرع فيها فأولى أن لا يشرع في غيرها»[١].

ومن تلك الآثار والمشاهد:

١ - الصخرة التي في بيت المقدس: وهي قبلة اليهود وكانت قبلة للمسلمين ثم نسخت فلم يبق في شريعتنا ما يوجب تخصيصها بحكم[٢].

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دخل بيت المقدس قال لكعب الأحبار[٣]:

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨٠٩ - ٨١٠.

(٢) انظر المصدر السابق ٢/ ٨٢٠.

(٣) هو: كعب بن مانع الحميري اليماني كان يهوديًا فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ وقدم المدينة أيام عمر رضي الله عنه، توفي بحمص ذاهبًا للغزو في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه انظر: سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٨٩ - ٤٩١.

أين ترىٰ أن أبني مصلىٰ المسلمين فقال: ابنه خلف الصخرة قال: يا ابن اليهودية خالطتك يهودية ـ أو كما قال ـ بل أبنيه في صدر المسجد فإن لنا صدور المساجد فبنىٰ مصلىٰ المسلمين في قبلي المسجد وقد وجد عمر بن الخطاب علىٰ الصخرة زبالة عظيمة جداً كانت النصارىٰ قد ألقتها عليها معاندة لليهود الذين يعظمون الصخرة ويصلون إليها فأخذ عمر في ثوبه منها واتبعه المسلمون في ذلك[1].

وربما نظف عمر رضي الله عنه تلك الزبالة التي علىٰ الصخرة لأن الزبالة ممتدة وهو يريد بناء المسجد فأزال الزبالة عن موضع المسجد وعن ما حوله فشمل الصخرة وقد لا يمكن تنظيف مكان المسجد إلا بإزال ما علىٰ الصخرة من زبالة.

ولم يصل عمر ولا المسلمون عند الصخرة ولا تمسحوا بها ولا قبّلوها.

وقد ثبت أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كان إذا أتىٰ بيت المقدس دخل إليه وصلىٰ فيه ولا يقرب الصخرة ولا يأتيها ولا يقرب شيئًا من تلك البقاع وكذلك نقل عن غير واحد من السلف المعتبرين كعمر بن عبدالعزيز[2] والأوزاعي[3] وسفيان الثوري[4] وغيرهم.

وكانت الصخرة مكشوفة ولم يكن أحد من الصحابة لا ولاتهم ولا علماؤهم يخصها بعبادة وكانت مكشوفة في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما مع حكمهما علىٰ الشام.

ثم كذلك في إمارة معاوية وابنه وابن ابنه فلما كان في زمن عبدالملك بن

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨١٧.

(٢) هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم من بني أمية أمير المؤمنين أشج بني أمية من التابعين أمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ولد سنة ٦٣هـ وكان إماماً عدلاً رحمه الله مات سنة ١٠١هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤ـ ١٤٨.

(٣) هو: عبدالرحمن بن عمرو بن يحمد عالم أهل الشام أبو عمر الأوزاعي مولده في حياة الصحابة ولد سنة ٨٨هـ كان كثير العلم والحديث والفقه حجة توفي سنة ١٥٧هـ.
انظر سير أعلام النبلاء ٧/ ١٠٧ـ ١٠٩.

(٤) هو سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب من بني ثور من بني مضر بن نزار بن معد بن عدنان = =إمام حافظ ولد سنة ٩٧هـ وهو من صغار التابعين سمي أمير المؤمنين في الحديث مات سنة ١٢٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩ـ ٢٣٦.

مروان[1] وجرىٰ بينه وبين ابن الزبير[2] من الفتنة ما جرىٰ كان هو الذي بنىٰ القبة علىٰ الصخرة وقد قيل: إن الناس كانوا يقصدون الحج فيجتمعون بابن الزبير أو يقصدونه بحجة الحج، فعظم عبدالملك شأن الصخرة بما بناه عليها من القبة وجعل عليها من الكسوة في الشتاء والصيف ليكثر قصد الناس لبيت المقدس فيشتغلوا بذلك عن قصد ابن الزبير والناس علىٰ دين الملك وظهر في ذلك الوقت من تعظيم الصخرة وبيت المقدس ما لم يكن المسلمون يعرفونه بمثل هذا.

وجاء له بعض الناس ينقل الإسرائيليات في تعظيمها حتىٰ روىٰ بعضهم عن كعب الأحبار عند عبدالملك بن مروان وعروة بن الزبير[3] حاضر: (إن الله قال للصخرة أنت عرشي الأدنىٰ) فقال عروة (يقول الله تعالىٰ: ﴿...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ...﴾[4] وأنت تقول: أن الصخرة عرشه.

ولا ريب أن الخلفاء الراشدين لم يبنوا هذه القبة ولا كان الصحابة يعظمون الصخرة ولم يكونوا يتحرون الصلاة عندها حتىٰ ابن عمر رضي الله عنهما مع كونه كان يأتي من الحجاز إلىٰ المسجد الأقصىٰ كان لا يأتي الصخرة.

وقد قدم المسلمون إلىٰ الشام غير مرة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستوطن الشام خلائق من الصحابة وليس فيهم من فعل شيئًا من هذا...

ومعلوم أن أصحاب رسول الله ﷺ من السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان قد فتحوا البلاد بعد موت النبي ﷺ وسكنوا بالشام والعراق ومصر وغير هذه الأمصار وهم كانوا أعلم بالدين وأتبع له ممن بعدهم فليس لأحد أن يخالفهم فيما كانوا عليه.

(١) هو عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الخليفة الأموي ولد سنة ٢٦هـ تملك بعد أبيه توفي في شوال سنة ٨٦هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٤٦ـ ٢٤٩.

(٢) هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن أسد بن عبدالعزىٰ بن قصي بن كلاب، أول مولود للمهاجرين بالمدينة ولد سنة ٢هـ وقيل سنة ١هـ وله صحبة عدادة في صغار الصحابة، وحكم الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان وبعض الشام، قتل في جمادىٰ الآخرة سنة ٧٣هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٣ـ ٣٧٩.

(٣) هو عروة بن الزبير بن العوام قيل ولد سنة ٢٣هـ وقيل بعد ذلك أحد الفقهاء السبعة قيل انه توفي سنة ٩٣هـ وقيل ٩٤هـ وقيل غير ذلك، انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.

فما كان من هذه البقاع لم يعظموه أو لم يقصدوا تخصيصه بصلاة أو دعاء أو نحو ذلك لم يكن لنا أن نخالفهم في ذلك، وإن كان بعض من جاء بعدهم من أهل الفضل والدين فعل خلاف ذلك فنحن نتبع الذين هم على الحق في الإخلاص في القصد لله وفي الإخلاص في متابعة الرسول ﷺ لأن اتباع سبيلهم حينئذ أولى من اتباع سبيل من خالف سبيلهم.

وبيت لحم كنيسة من كنائس النصارى ليس في إتيانها فضيلة عند المسلمين سواء كان مولد عيسى أو لم يكن، بل قبر إبراهيم الخليل: لم يكن في الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان من يأتيه للصلاة عنده ولا الدعاء ولا كانوا يقصدونه للزيارة ولا يعرف على وجه الصحة قبر نبي إلا قبر رسول الله ﷺ.
وأصل دين المسلمين أنه لا تختص بقعة بقصد العبادة فيها إلا المساجد خاصة والمشاعر.

وما عليه المشركون من تعظيم بقاع للعبادة غير المساجد كما كانوا في الجاهلية يعظمون جبل حراء ـ بمكة ـ ونحوه من البقاع ـ فهو مما جاء الإسلام بمحوه وإزالته ونسخه . . . وأما العكوف والمجاورة عند شجرة أو حجر تمثال أو غير تمثال أو العكوف والمجاورة عند قبر نبي أو غير نبي أو مقام نبي أو غير نبي فليس هذا من دين المسلمين بل هو من جنس دين المشركين الذين أخبر الله عنهم بما ذكره في كتابه حيث قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾[1]. الآيات[2].
وأيضًا الزبير بن العوام رضي الله عنه رأى قومًا يمسحون المقام فقال: لم تؤمروا بهذا إنما أمرتم بالصلاة عنده[3] فحتى آثار الأنبياء التي ورد في الشرع التعبد عندها إنما هي على صفة مخصوصة فلا يزاد عليها.

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥١ـ٥٨.
(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨١٨ـ٨٢٧.
(٣) مجموعة التوحيد ١/ ٤٤٣.

٢ ـ الطور:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: خرجت إلى الطور . . الحديث وفيه: قال أبو هريرة فلقيت بصرة بن أبي بصرة الغفاري فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من الطور، فقال لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إلياء أو بيت المقدس يشك»**[1].

«فقد فهم الصحابي ـ رضي الله عنه ـ الذي روى الحديث أن الطور وأمثاله من مقامات الأنبياء مندرجة في العموم[2] وأنه لا يجوز السفر إليها كما لا يجوز السفر إلى مسجد غير المساجد الثلاثة.

وأيضًا فإذا كان السفر إلى بيت من بيوت الله ـ غير الثلاثة ـ لا يجوز مع أن قصده لأهل مصره يجب تارة ويستحب أخرى وقد جاء في قصد المساجد من الفضل ما لا يحصى ـ فالسفر إلى بيوت عبادة أولى أن لا يجوز»[3].

٣ ـ قبر دانيال.

عن أبي خلدة خالد بن دينار[4] حدثنا أبو العالية[5] قال: لما فتحنا تستر[6].

(١) رواه مالك موطأ الإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثي إعداد: أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الساعة التي في يوم الجمعة ص٨٢.
(٢) أي عموم النهي عن شد الرحال في الحديث.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٧١.
(٤) هو: خالد بن دينار التميمي السعدي أبو خلدة، انظر: تقريب التهذيب ١/ ٢١٣ ترجمة رقم ٢٦.
(٥) هو: رفيع بن مهران أبو العالية الرياحي البصري أحد الأعلام كان مولى لامرأة من بني رياح بن يربوع ثم من بني تميم، أسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ودخل عليه، مات في شوال سنة ٩٠هـ وقال آخرون ٩٣هـ انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٧ـ٢١٣.
(٦) بلدة بإقليم خوزستان. معجم البلدان، ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦)، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى / ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ٢/ ٣٤.

وجدنا في بيت مال الهرمزان[1] سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف له فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر رضي الله عنه فدعا كعبًا فنسخه بالعربية فأنا أول رجل من العرب قرأه قراءة مثل ما أقرأ القرآن هذا فقلت لأبي العالية ما كان فيه؟ قال: «سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد قلت فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه» فقلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلثمائة سنة قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع[2].

فقد أخفى سلفنا قبر ذلك النبي عليه السلام حتى لا يعرف قبره فيقصده الناس مما يؤدي بهم إلى الشرك.

****

(١) الهرمزان أحد قادة الفرس الكبار الذين واجهوا جيوش الفتح الإسلامي الأول أسره المسلمون عند فتح تستر وأرسلوه إلى المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه وأعلن إسلامه أمامه. انظر: البداية والنهاية لابن كثير مكتبة المعارف بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م ٧/ ٨٥ ـ ٨٨.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٢٨٦.

المبحث الثالث

موقف السلف من آثار ومشاهد الأمم البائدة

المعروف أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم وكذلك التابعين لهم بإحسان يمتثلون أوامر الله وينزجرون بزواجره.

وأنهم يصدقون رسول الله ﷺ ويتبعونه ويقتدون به ولا يفتاتون عليه فهم لأمره مطيعون وعند الذي نهاهم عنه منتهون وقد ورد أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر[1]: **«لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»**[2] فلم يكونوا رضي الله عنهم ليخالفوا أمره بل قد ورد عنهم ما يثبت تمسكهم بذلك التوجيه في ذلك الأمر وأمثاله فقد ورد أنه لما قدم عمر الشام صنع له رجل من النصارى طعامًا وكان من عظمائهم وقال: أحب أن تجيئني وتكرمني فقال له عمر: إنا لا ندخل كنائسكم من أجل الصور التي فيها. يعني التماثيل[3].

وعن أبي سعيد الخدري قال: «رأيت رجلاً جاء بخاتم وجده بالحجر في بيوت المعذبين فأعرض عنه النبي ﷺ واستتر بيده أن ينظر إليه وقال: ألقه فألقاه»[4].

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد قال لأبي الهياج الأسدي ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: **«أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»**[5]. فحصر العمل بالنسبة للتمثال الطمس وبالنسبة للقبر: التسوية، أي تمثال وأي قبر، وهو رضي الله عنه يبلغ من بعده بذلك وهو الذي يجب علينا فعله.

فأي تمثال حقه منا الطمس وأي قبر مشرف حقه التسوية وهل المشاهد والأضرحة إلا قبور مشرفة وكذلك الأهرامات ما هي إلا قبور مشرفة وهل جزء كبير من الآثار إلا تماثيل إما لآدميين أو لحيوانات أو لطيور.

(١) أي «في شأنهم» شرح صحيح مسلم ١٨/ ٣٢١.

(٢) رواه مسلم: ١٨/ ٣٢١، ورواه البخاري بنحوه ١/ ٦٣١.

(٣) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/ ٦٣٣.

(٤) فتح الباري ١/ ٦٣٢ وإسناده ضعيف، أورده ابن حجر.

(٥) رواه مسلم: شرح صحيح مسلم ٧/ ٤٠.

وعن عبدالله بن أبي المحل[١] قال: كنا مع علي - رضي الله عنه - فمررنا على الخسف الذي ببابل فلم يُصلِّ حتى أجازه.

ومن طريق أخرىٰ عن علي قال: «ما كنت لأصلي في أرض خسف الله بها، ثلاث مرار» أي كرر الكلام ثلاث مرات لا أنه خسف بها ثلاث مرات[٢].

وهذا النقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بتصرفه بخسف بابل ما هو إلا تطبيق متكامل لأمر الرسول ﷺ في أرض تعتبر أثرية فهو الخروج منها وعدم المكث فيها بل وعدم الدخول ما أمكن إلا أن تكون طريقًا له فيمر مسرعًا كما فعل عليه الصلاة والسلام وقد ورد في فصل سابق.

«فأما أماكن الكفر والمعاصي التي لم يكن فيها عذاب إذا جعلت مكانًا للإيمان أو الطاعة فهذا حسن كما أمر النبي ﷺ أهل الطائف أن يجعلوا المسجد مكان طواغيتهم.

وأمر أهل اليمامة: أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم وقد ورد ذكر ذلك في سنن النسائي حيث قال: عن طلق بن علي قال: «خرجنا وفداً إلى نبي الله ﷺ فبايعناه وصلينا معه وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا واستوهبناه فضل طهوره فدعا بماء فتوضأ وتمضمض ثم صبه لنا في إداوة وأمرنا قال: «اخرجوا فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوها مسجداً» فقلنا له: إن البلد بعيد والحر شديد والماء ينشف. قال: **«مدوه من الماء فإنه لا يزيده إلا طيبًا... الحديث»**[٣]. وكان مسجده ﷺ مقبرة فجعله مسجداً بعد نبش القبور»[٤]

(١) هو: عبدالله بن أبي المحل العامري روىٰ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه تابعي ثقة، انظر تهذيب التهذيب، أحمد بن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

(٢) أورده ابن حجر في فتح الباري ١/ ٦٣١ والروايتان لهذين الأثرين رواهما ابن أبي شيبة في مصنفه: المصنف في الأحاديث والآثار، عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ٢/ ٢٧٠- ٢٧١ كتاب الصلاة، في الصلاة في الموضع الذي خسف به.

(٣) سنن النسائي (المجتبىٰ)، لأحمد بن شعيب بن علي النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، كتاب المساجد باب اتخاذ البيع مساجد ٢/ ٣٨.

(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٢٣٧-٢٣٨.

الباب الثالث

الدعوة إلى تعظيم الآثار والمشاهد في العصر الحاضر وأثرها على الأمة الإسلامية

ويتكون من فصلين:

الفصل الأول: الدعوة إلى ذلك التعظيم.

الفصل الثاني: أثر تلك الدعوة على الأمة الإسلامية.

* * * *

الفصل الأول

الدعوة إلى تعظيم الآثار والمشاهد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : نشأة علم الآثار.

المبحث الثاني: الوسائل المستخدمة لتعظيم الآثار.

* * * * *

المبحث الأول

نشأة علم الآثار

التنقيب عن الكنوز والأشياء الثمينة من الظواهر الشائعة في جميع العصور إذ جرت عادة كثير من الأثرياء أن يدفن ثروته في باطن الأرض أو في الجدار أو في الآبار أو الكهوف ونحو ذلك.

وقد ورد إشارة لذلك[١] في كتاب الله عز وجل فقال تعالى:

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ... ﴾[٢].

وأيضًا يدفن مع بعض الموتى بعض الأموال بسبب بعض الاعتقادات فكان يجري البحث والتنقيب عن الثروات المختفية بعد وفاة أصحابها أو غيابهم[٣].

وقد نشأ علم الآثار نشأة تدريجية بطيئة متنوعة، أول ما نشأ كان مجرد كشوف وتعرف على أحوال العراق وبلدان الشرق العربي والشرق الأدنى عن طريق السياح والرحالة للبلاد الشرقية [وهي بلاد المسلمين] منذ القرن الثاني عشر الميلادي تقريبًا.

ولعل أقدم الرحالة السائح اليهودي بنيامين التطيلي (١١٦٠م). وقد جاء من الأندلس وزار فلسطين وانتهى به المطاف إلى العراق وتكلم عن أحوال اليهود في العراق.

كما وصف ما شاهده من بقايا الأطلال المشهورة في المدن القديمة مثل بابل ووصف الأطلال التي سماها قصر نبوخذ نصر وأكد أنه شاهد برج بابل وهذا مستقي من نتف أخبار متفرقة بعضها ورد في التوراة.

ثم ترجمت رحلته إلى الفرنسية والإنجليزية وأثارت اهتمام الأوربيين وتعاقب بعده رحالة منهم طبيب ألماني (رادولف) في القرن السادس عشر.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٩٨.

(٢) سورة الكهف، آية: ٨٢.

(٣) انظر مدخل إلى الحضارة الإسلامية، حسن الباشا، ص١٠.

ثم في أول القرن السابع عشر السائح الإيطالي بترو ديلافالة ومكث من عام ١٦١٦م إلى ١٦٢٥م ومن بين ما زار بقايا المدن القديمة المشهورة مثل بابل وأور واصطخر العاصمة الفارسية القديمة وأخذ منها نماذج من الكتابات المسمارية كما أخذ معه آجراً مختوماً بهذه الكتابة من بابل وأور[١].

و «بدأت أعمال التنقيب عن الآثار في هذه المنطقة من إيطاليا في موقع المدينة هركولانيوم القديمة عام ١٧٣٨م بناء على أوامر من ملكة نابولي بحثًا عن تماثيل لتزين بها قصرها بعد أن أخبرت بأن التمثال الذي قدم لها من هذا الموقع، فشاعت بذلك المزيد، ونتيجة لهذه الحفائر التي أجريت وقتئذ عثر على نقش يشير إلى أن شخصًا يدعى روفوس أنشأ المسرح القديم لمدينة هركولانيوم، ومن ثم بدأ عهد جديد في أعمال التنقيب المنظم في موقع المدينتين بحثًا عن آثارهما.

وإن كان الاهتمام قد تركز على مدينة بومبي[٢] المجاورة لاتساع رقعتها ولما جاء في كتابة الكتاب القدامى وخاصة بليني العجوز عن حياة البذخ والترف التي عاشتها المدينة قبل أن يغطيها هي وهركولانيوم والمنطقة المجاورة بركان فيزوف بحممه في ثورته في عام ٧٩م. هذا وإن طبقة الحمم التي تغطي هركولانيوم سميكة جداً وصلبة مما يجعل عمليات الحفر والتنقيب فيها باهظة التكاليف ولكن مع ذلك كشف حتى اليوم عن أجزاء كثيرة من المدينتين بما فيهما من شوارع وأسوار ومبان عامة وخاصة ومقابر وغيرها من اللقى الأثرية والأدوات التي كان يستعملها الناس عندما حلت به الكارثة.

ثم يقول: وبفضل الكشف عن هاتين المدينتين بدأ العمل المنتظم في الكشف عن آثار الحضارات الأخرى القديمة في اليونان وإيطاليا ومصر وبلاد ما بين النهرين وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وغيرها من الأقطار»[٣].

(١) انظر: طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، طه باقر و د. عبدالعزيز حميد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ص١٣٩ ـ ١٤١.

(٢) هذه في إيطاليا غير مدينة بومبي التي في الهند.

(٣) الرائد في التنقيب عن الآثار. د. فوزي عبدالرحمن الفخراني منشورات جامعة قار يونس بنغازي، الطبعة الثانية ١٩٩٣م. ص١٢٠.

«ونشطت حركة الرحالة والسياح في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث زاد الطلب والرغبة الأوربية في الوقوف على أخبار الماضي واستكشاف المجهول في الأقاليم»[١].

«واهتمت الأكاديميات والمؤسسات العلمية الأوربية في إرسال البعثات إلى أنحاء الشرق نذكر من أولها وأشهرها البعثة الاستطلاعية التي أرسلها ملك الدانيمرك في عام ١٧٦١ و ١٧٦٧م برئاسة الباحث الرياضي «كارستين نيبور (Karsten nibvhr)» وقد تميزت هذه البعثة بالدقة العلمية في وصف البقايا الأثرية مثل بقايا مدينة «نينوى» وبابل حيث رسمت لهما المخططات واستنسخت نماذج من الخط المسماري ولا سيما من مدينة برسيبوليس ـ اصطخر ـ فوضعت بذلك في أيدي الباحثين الأوربيين مادة أصيلة ومهمة مما مهد للباحثين منذ منتصف القرن التاسع عشر حل رموز الخط المسماري الذي كان مفتاح معرفتنا بحضارة وادي الرافدين، كما صار حل رموز الخط الهيروغليفي مفتاحًا للوقوف على حضارة وادي النيل، وتقدمت مراحل الكشف عن ماضي الحضارات القديمة التي ازدهرت في الوطن العربي ولا سيما العراق خطوات أخرى حينما صار المهتمون بها يقيمون في العراق فترات زمنية أطول مدفوعين في ذلك بالأغراض السياسية والتجارية مثل وكلاء الشركات الأجنبية والمقيمين الممثلين للدول الغربية»[٢].

ونشطت حركة استنساخ الكتابات المسمارية وجمع الآثار.

وقد أجرى بعضهم التنقيبات مثل المبعوث البابوي «بوشام» (Beauchamp) الذي مكث في بغداد من عام ١٧٨٥م ـ ١٧٩٠م ونقّب في بابل وهو الذي أزاح الأنقاض المتراكمة عن أسد بابل الشهير كما كشف عن بعض أجزاء بوابة «عشتار» ونشر نتائج تحرياته في «مجلة العلماء الفرنسيين»[٣].

«على أن كل تلك التحريات التي نوهنا بها في أواخر القرن الثامن عشر وبداية

(١) المصدر السابق بتصرف ص١٤١.

(٢) المقصود بهم القناصلة الدبلوماسيين والملحقين التجاريين ونحو ذلك.

(٣) طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار ص١٤١ ـ ١٤٢.

التاسع عشر لم تكن في واقع الأمر سوى حفر مشوش أو نبش ولم يبدأ الحفر الواسع أو التنقيبات إلا حين قارب القرن التاسع[١] من الانتصاف ولكنها كانت في مراحلها الأولى بعيدة عن الأساليب العلمية المتبعة في علم الآثار في مراحل تطوره التالية فكان همّ المنقبين الأوائل الذين يصح أن نطلق عليهم المنقبين الهواة (١٨٤١٢ ـ ١٨٩٩م) منصبًا على استخراج الآثار الكبيرة كالمنحوتات الحجرية الآشورية ولم يعتنوا بتسجيل ما يعرف في علم الآثار بالطبقات الأثرية التاريخية كما أهملوا الآثار الصغيرة مثل ألواح الطين المسمارية ولم يلتفتوا إلى أخذ مخططات المباني ولم يكونوا على دراية في تتبع الجدران المشيدة من اللبن (الآجر المجفف بالشمس) وتمييزها عن الأنقاض الترابية فأزالوا معالم كثير من الأبنية المهمة كالمعابد والقصور وغيرها كما أن مجموعات من الآثار المهمة فقدت وتلفت بسبب إهمال تغليفها ووسائل النقل.

وخلاصة القول: كان همّ أولئك المنقبين الهواة محصورًا بالدرجة الأولى في استخراج التماثيل والألواح الحجرية الكبيرة المنحوتة ونقلها إلى متاحف أوربه وفي مقدمتها المتحف البريطاني ومتحف اللوفر بباريس»[٢].

«ولما أوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء بدأ ما يصح أن نسميه بطور التنقيبات الأثرية العلمية، كما يصح أن نجعل فاتحة هذا الطور في التنقيبات الألمانية في بابل (١٨٩٩ ـ ١٩١٧م)»[٣].

لكن الواقع أن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت أسبق وهي تضم لجنة علمية كما يسمونها تشمل مهندسين وعلماء آثار وذلك سنة ١٧٩٨م وبدأت أعمالها مباشرة فور دخولها مصر[٤].

---

(١) المقصود التاسع عشر.

(٢) المصدر السابق ص١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) المصدر السابق ص١٤٣.

(٤) انظر: واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ص١٩٨ وما بعدها.

ويمكن إيجاز أهم المميزات التي يتميز بها هذا الطور من التنقيبات الأثرية العلمية بأن التنقيبات في هذا الطور لم يقتصر حالها كما في المراحل السابقة من التنقيبات على مجرد استخراج الآثار المختفية بل شمل تسجيل الآثار في سجلات دقيقة موسمية يرسم فيها الأثر مع رقمه وتاريخ اكتشافه ونوعه ومادته وقياسه والطبقة الأثرية التي عثر عليها منها وازداد تنوع اختصاص أفراد البعثة الأثرية في السنوات القليلة الماضية فصار يشمل الجيولوجي والانثروبولوجي (لدرس الهياكل العظمية) والمختص بدراسة عظام الحيوانات القديمة.

ثم انتظم علم الآثار وأخذ يعتمد على علوم أخرى ويستفيد منها كالكيمياء والفيزياء وعلم الجولوجيا.

ثم تكونت في بلدان العالم الإسلامي مصالح للآثار يتولاها أبناؤها وتستعين تلك المصالح بالأجانب.

ونظمت العلاقة بين مصالح الآثار في العالم الإسلامي وبين البعثات الأجنبية الآثارية وأصبحت الآثار المستخرجة من حق بلدانها لكن الأجنبي غالبًا ما يحصل على حق النشر العلمي للآثار وهذا يعني أن له تفسيرها وتحليلها وقراءة حروفها وترجمتها واستخلاص مدلولاتها ومعانيها التاريخية والعقدية والأخلاقية والتعبدية والاستفادة أولاً من تجاربها العلمية إن وجد شيء من ذلك[١].

وكانت أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار في بداية أمرها قاصرة على إيطاليا واليونان ثم انتشر هذا البحث والتنقيب عن الآثار في مختلف الأقطار[٢].

أسباب الاهتمام بالآثار في العالم الإسلامي:

قبل الكلام عن الأسباب يحسن أن يكون هناك تصور لحال المسلمين الذين وقع عليهم البلاء وحال الأوروبيين أصحاب فكرة الآثار وتنقيبها من وجهة نظر الأوربيين فالكاتب إبراهيم خليل أحمد كان نصرانيًا وقسيسًا وأستاذًا للعقائد واللاهوت والإسلام بكلية اللاهوت بأسيوط بمصر وزميل للمرسلين الأمريكيين

---

(١) انظر: طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار ص١٤٣ ـ ١٤٧.

(٢) الرائد في التنقيب عن الآثار ص٢٥.

والسويسريين والألمانيين والإنجليز . . .

له كتاب ألفه بعد إسلامه اسمه الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية نشر مكتبة الوعي العربي بمصر سنة ١٣٩٣هـ وكتابه يعتبر من واقع خبرة وتجربة ومعرفة وقد ذكر في هذا الكتاب وثيقة تعرف بتقرير «كامبل بانرمان» فيقول: «ففي سنة ١٩٠٧ كان حزب الأحرار هو الحزب الحاكم وكانت الإمبراطورية البريطانية قد بدأ يساورها القلق بشأن مصيرها.

ويبدو أن رئيس الوزراء آنذاك كامبل بانرمان كان ممن يهتمون بالدراسات التاريخية. وكان حريصًا بطبيعة الحال على أن يمد في عمر الامبراطورية فألف لجنة من كبار العلماء وأساتذة الجامعات البريطانيين والفرنسيين في فروع العلم المختلفة وطلب منهم أن يبحثوا الوسائل التي تستطيع أن تبقي الاستعمار البريطاني أو تؤخر نهايته.

وقامت اللجنة بدراسات تاريخية واسعة وانتهت من دراستها إلى تصور عام لمستقبل الاستعمار الأوربي وقد استعرض التقرير المستعمرات الأوربية المختلفة ولم ير في استقلالها في المستقبل عندما يتحقق خطرًا مباشرًا على أوربا ولكن التقرير حدد منابع الخطر في البحر الأبيض المتوسط.

فعلى طول ساحله الجنوبي من الرباط إلى الاسكندرية وعلى الساحل الشرقي بين مرسين واطنه وعلى الجسر البري الضيق الذي يصل آسيا بإفريقيا وتمر فيه قناة السويس شريان حياة أوربا وعلى جانبي البحر الأحمر وعلى طول ساحل المحيط الهادي وبحر العرب حتى خليج البصرة حيث الطريق إلى الهند والإمبراطوريات الاستعمارية في الشرق.

في هذه المنطقة الحساسة يعيش شعب واحد (الشعب العربي) تتوفر له من الوحدة التاريخية والدينية، ووحدة لسانه وآماله كل مقومات التجمع والترابط والاتحاد وتتوفر له في نزعاته التحررية وفي ثرواته الطبيعية ومن كثرة تناسله كل أسباب القوة والتحرر والنهوض. ويبلغ مقداره الآن ٣٥ مليون نسمة (سنة ١٩٠٧) ويمكن أن يرتفع في مدى قرن واحد إلى مائة مليون نسمة.

ثم يتساءل التقرير: ماذا لو دخلت الوسائل الفنية الحديثة ومكتشفات الثورة الصناعية الأوربية إلى هذه المنطقة؟

وماذا لو انتشر التعليم في أوساط هذا الشعب؟

ويجيب التقرير: عند ذلك ستحل الضربة القاضية حتما بالامبراطوريات كما حلت بالإغريق والرومان من قبل. إن الخطر على كيان الإمبراطوريات الاستعمارية كامن في هذه المنطقة في تحررها وفي تثقيف شعبها وتوحيد اتجاهات سكانها.. وفي تجمعها واتحادها حول عقيدة واحدة وهدف واحد»[1].

أما كتاب: وجهة الإسلام الذي أشرف على تحريره المستشرق جب، فيصور العالم الإسلامي كالآتي:

«يشمل الإسلام مزيجًا كاملاً من الثقافات التي نمت حول الأصل الديني أو ارتبطت به في معظم الأحوال مع تعديل قليل أو كثير فهو مزيج ذو خصائص يتميز بها في تكوينه السياسي والاجتماعي والاقتصادي وفي تصوره للقانون وفي نظرته الخلقية ونزعاته العقلية وأساليبه في الفكر والعمل وهو بعد يضم عددًا عظيمًا من الشعوب المختلفة في الجنس واللغة والخلق والاستعدادات الموروثة غير أنها على اختلافها مرتبطة لا بوشيجة العقيدة المشتركة فحسب، ولكنها ترتبط ارتباطًا أشد قوة بتشاركها في ثقافة واحدة وخضوعها لشريعة واحدة واتخاذها تقاليد واحدة.

وأعجب من هذا التوزيع الجغرافي الشاسع للشعوب الإسلامية فهي تمتد بلا انقطاع من الساحل الأطلسي في غرب إفريقية إلى السودان وتسير مع السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط إلى مصر وآسيا الغربية ومن هناك تمتد مع سواحل البحر الأسود وبحر الخزر في قلب سيبيريا وتسير شرقًا في منغوليا وتمتد مع ساحل إفريقية الشرقي إلى خط عرض مدغشقر وتخترق سلاسل جبال الأفغان إلى سهول الهند وهنا ينقطع امتداد الكتلة لأول مرة ولكن بعد أن تتفرع منها جماعات كبيرة

(١) الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية. إبراهيم خليل أحمد. الناشر: مكتبة الوعي العربي، القاهرة، مصر ١٣٩٣هـ، ص٣-٤.
وانظر: أخطار التبشير في ديار المسلمين، محمد عبدالرحمن عوض، دار الأنصار، القاهرة، مصر رقم الإيداع ٢٠٩٢/ ١٩٨٠م، ص٦-٨.

منثورة في البنغال وغيرها من أقاليم الهند تبدأ سلسلة جديدة في شبه جزيرة الملايو وتمتد متصلة في مجموع جزر الهند الشرقية حتى تنتهي في جزيرة الفلبين الجنوبية وتوجد فيما عدا هذه المساحات جماعات صغرى منعزلة على حدود الصين الغربية وفي جنوب إفريقية.

وإذا نظرنا إلى العالم الإسلامي على المصور[1] ألفيناه يشبه هلالين عظيمين يخرج قرنًا كل منهما من مركز مشترك في آسيا الغربية ويكوّن الشمالي منهما نطاقًا يربو عرضه على ألف ميل ويحيط بأوروبا من أقصاها إلى أقصاها تقريبًا ويفصلها جغرافيًا عن البلاد الغاصة بالسكان في جنوب آسيا وشرقيها ويحيط الذرعان الدقيقان من الهلال الجنوبي بالمحيط الهندي إلا في بعض أجزاء الهند وسيلان حيث ينقطع امتدادهما»[2].

ومن النصين السابقين نلاحظ ما يلي:

١ ـ خوف الغرب من انهياره وشيخوخته وبعد أماكن نفوذه عن مكان إقامته.

٢ ـ أن العالم الإسلام وبالذات العربي منه يقع في منتصف الطريق بين الغرب نفسه وبين أماكن نفوذه من شرق آسيا.

٣ ـ أن العالم الإسلامي تجمعه رابطة واحدة تتمثل في الدين ويتبعها اللغة.

٤ ـ أنه يملك مقومات القوة من النزعات التحررية والنهوض ومن وجود الثروات المادية وكثرة العدد وسرعة التناسل.

هذا من النص الأول ومن النص الثاني:

٥ ـ أن العالم الإسلامي مزيج من الشعوب المختلفة لكنها مرتبطة بأصل الإسلام فيشملها تصور واحد في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق

(١) يعني على الخريطة.

(٢) وجهة الإسلام: نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي تأليف: هـ. أ. ر. جب، ماسينون، ج كامبغماير، ك.ك. برج، لفتنانت كولرنل فرار، أشرف على تحريره جب ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده، الطبعة الأولى ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م المطبعة الإسلامية، القاهرة. مصر ص٩ ـ ١٠.

والتشريع والفكر والعمل والثقافة وأنها جميعًا على اختلاف لغاتها تخضع جميعها لشريعة واحدة.

٦ ـ أن العالم الإسلامي يشغل مساحة من الأرض تمتد من غرب إفريقيا حتى شرق آسيا ويشمل شرق إفريقيا وجنوب آسيا وشمال غرب آسيا تقريبًا وجنوب أوروبا وأن أراضي العالم الإسلامي تحيط بأوروبا إحاطة السوار بالمعصم تقريبًا. وكأن أوروبا في العالم الإسلامي شبه جزيرة معزولة عن العالم.

وكاتب النص الثاني تكلم بعد ذلك النص عن انتشار الإسلام وعقّبه بقوله:

«ولقد حدث قبل في حياة محمد (عليه الصلاة والسلام) أن بدأت تتشابك سيوف المسلمين والمسيحيين وظلت كذلك حتى اليوم **ولهذا ظل العالم المسيحي الأوروبي لا المسيحية عدو الإسلام الألد رغم العلاقات الودية التي كانت بين المسلمين والمسيحيين أفرادًا أو بين الجماعات الإسلامية والمسيحية في ناحية ما**»[1].

وأوضح سبب ذلك بقوله: «لأن العالم الخارجي الذي انتشر فيه الإسلام من بلاد العرب كان هو العالم الإغريقي الذي ورث المدنية اليونانية الرومانية، وكانت الفتوحات الإسلامية الأولى كلها تقريبًا داخل العالم الإغريقي»[2] وهذا زعم منه أن الأرض التي انتشر فيها الإسلام خارج جزيرة العرب ملكهم، لكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿... إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...﴾[3] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ... الآية﴾[4].

ومعنى فاء: بمعنى رجع[5] والآية نزلت في أموال بني النضير لما أجلوا.

(١) وجهة الإسلام، جب ص١٧ ـ ١٨.

(٢) المصدر السابق ص١٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٢٨.

(٤) سورة الحشر، آية: ٦ ـ ٧.

(٥) لسان العرب مادة فيأ ١/ ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.

فالله سبحانه وتعالىٰ خلق الإنسان لعبادته وتكفل برزقه إن هو فعل ذلك إعانة له علىٰ طاعته، وقد خصص الله الطيبات من الرزق للذين آمنوا بالله في هذه الحياة الدنيا وإن كان الكفار يشاركونهم وهم غير مستحقين لها، ولذلك تنتزع منهم الملكية وترد علىٰ المؤمنين المستحقين لها لإيمانهم وصلاحهم، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿...قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾[1].

فيكون معنىٰ الآية هو: أن ما عند الكفار من أموال إنما هي في الأصل للمسلمين وحال أخذها منهم في الغنائم تكون رجعت لأصحابها الأصليين وهي تشمل الأموال المنقولة كالذهب والسلاح وتشمل أيضًا الأموال الثابتة كالأرض والشجر والمساكن[2].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾[3].

وروىٰ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم»**[4].

فـ«قوله ﷺ: **«وجعل رزقي تحت ظل رمحي»** إشارة إلىٰ أن الله لم يبعثه بالسعي في طلب الدنيا ولا بجمعها واكتنازها ولا الاجتهاد في السعي في أسبابها وإنما بعثه داعيًا إلىٰ توحيده بالسيف ومن لازم ذلك أن يقتل أعداءه الممتنعين عن قبول دعوة التوحيد ويستبيح أموالهم ويسبي نسائهم وذراريهم فيكون رزقه مما أفاء الله من أموال أعدائه فإن المال إنما خلقه الله لبني آدم ليستعينوا به علىٰ طاعته وعبادته فمن استعان به علىٰ الكفر بالله والشرك به سلط عليه رسوله ﷺ وأتباعه فانتزعوه منه وأعادوه إلىٰ من هو أولىٰ به من أهل عبادة الله وتوحيده وطاعته ولهذا يسمىٰ الفيء فيئًا لرجوعه إلىٰ

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٢.

(٢) انظر زاد المسير في علم التفسير ٣/ ٢٤٣ و٧/ ٣٣٦.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٥.

(٤) المسند للإمام أحمد بن حنبل ١٦٤ ـ ٢٤١هـ دار المعارف، مصر، ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م ٢/ ٥٠.

من كان أحق به ولأجله خلق وكان في القرآن المنسوخ: «إنما أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» فأهل التوحيد والطاعة أحق بالمال من أهل الكفر به والشرك فلذلك سلط الله رسوله ـ ﷺ ـ وأتباعه علىٰ من كفر به وأشرك فانتزع أموالهم وجعل رزق رسوله ﷺ من هذا المال لأنه أحل الأموال كما قال تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾[1]»[2].

ولا شك أن الأرض أنفس وأغلىٰ المال وإذا كان عامة المال يستعان به عند المسلمين علىٰ طاعة الله عز وجل واتباع رسوله ﷺ فإن الأرض هي التي يقام عليها التعبد كله من حكم وصلاة وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك من أنواع العبادات لله سبحانه وتعالىٰ.

كما أن أي كافر من أي جنس أو لغة إذا أسلم فإنه ينتقل بإسلامه من صف الذين لا يستحقون ما بأيديهم من مال إلىٰ الذين هم أهل المال ومستحقيه.

فقول ذلك المستشرق «وكانت الفتوحات الإسلامية الأولىٰ كلها تقريبًا داخل العالم الإغريقي»[3] يوحي للقارئ أن المسلمين غزاة استعمار ونهب وسيطرة لأنهم يرجعون الحقوق لأهلها ويردون الأمور إلىٰ نصابها فالأرض لله، وأهل التوحيد لله أيًا كان جنسهم أو لونهم أو لغتهم إنما هم أحق بها من غيرهم.

والأسباب التي يذكرها الآثاريون لاستخراج الآثار ونبشها واستنطافها كثيرة وهناك أسباب لا يظهرونها ومن جملة الأسباب التي يذكرون ما يأتي:

- **معرفة التاريخ وتصحيحه:**

الآثاريون يرون أن اللقىٰ الأثرية والنقوش المصاحبة من أهم مصادر التاريخ وكلما كان الزمن المؤرخ أبعد كلما كانت الآثار أكثر أهمية هذا من ناحية، ومن ناحية

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٩.

(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة»، للإمام زين العابدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب (٧٣٦ ـ ٧٩٥) تحقيق وتخريج عبدالقادر الأرناؤوط دار المأمون للتراث. دمشق، بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م. ص٢٣ ـ ٢٤.

(٣) وجهة الإسلام، جب، ص١٢.

أخرى يرون أن الآثار تصحح كثيراً من الأخبار وهذه نماذج من زعمهم:

يعتبر علم الآثار واحداً من أهم أفرع التاريخ - إن لم يكن أهمها على الإطلاق - فهو الذي يمد المؤرخ بالمصادر الأساسية التي يعتمد عليها في كتابته التاريخية واللذان يتجهان في النهاية - أي الآثار والتاريخ - نحو استكمال الصورة الحضارية للمجتمع موضع الدراسة وكم من فترات تاريخية أعيدت كتابتها نتيجة لاكتشافات جديدة قام بها علماء الآثار أدت إلى العثور على لقى أثرية ألقت ضوءاً على جوانب قد تكون قد أهملت . . .

وبالإضافة للقيمة المادية للمكتشفات الأثرية فإن هذه المكتشفات تعيد تجسيد صورة الإنسان القديم بكل نشاطاته المختلفة فهي المنبع الذي يمكن عن طريقه استشفاف أفكار هذا الإنسان ومعتقداته وإمكاناته المادية وقدرته على استغلال هذه الإمكانيات وتحدد قيمته وفنونه المختلفة وتلقي الضوء على علاقته بالبيئة المحيطة به وكيفية تطويعه لهذه البيئة ومدى نجاحه أو فشله في هذا المجال[١].

«لو كانت فائدة الآثار قاصرة على رؤية ما كان للأقدمين من براعة في الصناعة ودقة في النحت والنقش لما عني الناس بها إلى هذا الحد.

ولكن فائدتها الكبرى في تكوين التاريخ القديم والجمع بين حلقاته»[٢].

«ومن ناحية موجزة فإننا فعلاً نملك وسيلتين لمعرفة الماضي: علم الآثار وعلم اللغات واحد يهتم بالأشياء والأشكال المادية والآخر بالنصوص»[٣].

«ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن علم الآثار أوثق وسيلة لجمع مصادر التاريخ الأصلية التي لا يمكن أن يتطرق الشك إلى أصالتها والاعتماد عليها»[٤].

---

(١) الرومان - دراسات في تاريخ الحضارات القديمة . د. حسين الشيخ، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، مصر، ١٩٩٠م، ص٢٥.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار الفكر، بيروت، الشركة اللبنانية للموسوعات العالمية، بيروت، لبنان ١/ ٥٩.

(٣) مدخل إلى الحضارة الإسلامية، د. حسن الباشا، ص٧.

(٤) طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار ص١٣٣.

«واستخراجها من باطن الأرض بالأساليب العلمية المتبعة في التنقيبات ودرسها لاستخراج الدلالة التاريخية عن أحوال الماضي وبتعبير آخر يأتي علم الآثار في مقدمة الطرق العلمية في جمع مادة التاريخ الأولى ونعني بذلك المصادر سواء ما كان منها المصادر المدونة بالخطوط القديمة أم البقايا المادية كالأبنية»[١].

ومن قول الآثاريين في هذا الموضوع أيضًا: «ما أكثر ما يؤدي كشف أثري في منطقة أو في أخرى إلى تعديل في تواريخ ظهور الحضارات القديمة قد يصل إلى عدة قرون، أو إلى تسبيق ظهور حضارة على حضارة يؤدي إلى تعديل جذري في ترتيب كان معترفًا به بكل ما يستتبعه هذا من تغيير في الأبعاد الحضارية من حيث التأثر والتأثير والتأصيل والتفصيل في الجوانب المتعددة التي تتشكل من مجموعها ومن تداخلاتها وتفاعلاتها هذه الحضارات»[٢].

ويقول آخر: «إن الصفة المميزة للبحث الأركيولوجي هي طبعًا اعتماده على المعلومات المستمدة من حقائق الإنسان المادية أي من الصوان والفؤوس والأحجار والزجاج والخزف وأمثال ذلك. وهذا الاستعمال للمادة الجديدة فتح ميادين كاملة للتاريخ كانت من قبل كتابًا مختومًا . . . وإذا كانت المصادر الأدبية الإغريقية والرومانية تؤكد على الحوادث السياسية وعلى أثر الرجال العظماء فإن الأدلة الأركيولوجية تعيد التوازن بكشف كيف عاشت تلك الشعوب وماذا أنتجت . . . فالأدلة الأركيولوجية تقدم المصدر الضروري وأحيانًا الوحيد في إعادة بناء الماضي . . والواقع أن الأدلة المفيدة للمؤرخ لم تأت إلا من الأركيولوجيا ومن علم الاجتماع الأنثروبولوجي[٣] . . . إنها تصحح التشويهات التي لابد أن تظهر من السماح لنوع واحد من المصادر وخاصة الأدلة المكتوبة من السيطرة على التفسير التاريخي غير أن مساهمتها الخاصة هي في التوسع الهائل الذي قدمته في رؤية المؤرخ للزمان والمكان . . . فهي للمؤرخ المصدر العام عن الأدلة الواضحة المقبولة حيثما

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) العرب في العصور القديمة، لطفي عبدالوهاب يحيى، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م، ص١٨.

(٣) سيأتي إيضاحه

كانت السجلات المكتوبة مفقودة أو غير كافية وهي لهذا السبب مهمة بصورة خاصة في دراسة تاريخ أسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وما دام المؤرخون ينهضون بواجب تأسيس نظرة عالمية حقه عن التاريخ العالمي ويحاولون إملاء الفراغات والسيطرة على المناطق المهملة وإكمال ما لا يزال صورة مقتضبة جداً فإنهم سيظلون متوجهين بصورة متزايدة إلى الأركيولوجيا والحقائق التي تقدمها»[1] .

«يستطيع التاريخ أن يتقدم إذا شبك يده مع الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا»[2] .

«ومن باب أدعي أن نتناول الكلام على علم الآثار باعتباره متصلاً بالتاريخ اتصالاً وثيقًا ورفدًا من روافده المادية يؤكد ما اتصل به من الحقائق السالفة أو يدحض مسلمات كان الاطمئنان إليها أمراً بديهيًا ويصحح وقائع درج المؤرخون على الأخذ بها أزمانًا طويلة لمجرد انتهائها إليهم بالتواتر»[3] .

وأصحاب هذا الفن يرون أن علم الآثار يعتبر الفرع الأهم للتاريخ فهو الذي يمد المؤرخ بالمصادر الأساسية التي يعتمد عليها في كتابته التاريخية عن الحضارات السابقة وخاصة التي لا يوجد لها كتابات وحتى التي لها كتابات إذ أنه «من الواضح أن علم الآثار يفيد كثيراً في إعادة تشكيل صورة ما للمجتمعات القديمة التي لم تعرف الكتابة عن طريق المكتشفات الأثرية التي توضح جوانب النشاط الحضاري لمثل هذه المجتمعات وحتى في المجتمعات التي عرفت الكتابة فقد تصحح الآثار معلومات المؤرخ في ظروف معينة فقد تكون الوثائق التي يعتمد عليها غير صادقة أو غير دقيقة أو تحمل قدراً من التحيز أو المحاباة أو غير ذلك من الصعوبات الشائعة التي كثيراً ما تواجه المؤرخ»[4] .

---

(١) الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، جفري باركلو ترجمة د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ص١٨٣ ـ ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق ص١٨٠ .

(٣) الآثار الشرقية لحضارات كلديه وآثور وبابل وفارس وسوريه وفينيقية واليهودية وقرطاجة وقبرص، ارنست بايلون ترجمة مارون عيسى الخوري، دار جروس برس وحكمت شريف طرابلس لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ص ج للمترجم .

(٤) الرومان ص٢٦ .

وأيضًا «تصحيح التاريخ والاهتداء إلى التواريخ الصحيحة فيما ليس له تاريخ مثل تغيير كامل المعلومات عن وادي الرافدين القديم»[1] .

«ومما تجدر الإشارة إليه أن الآثار المادية كالقصور والمعابد والتماثيل والزخارف والمنحوتات وغيرها من الآثار تشكل المصدر الأساسي في دراسة عصور ما قبل التاريخ»[2] .

«إذ من الواضح أن هدف علم الاثار هو اكتشاف مجرى الحضارة البشرية وتوضيحه»[3] .

«كما أن هذا العلم قد ساهم مساهمة فعالة في إحياء تواريخ أمم مجهولة وحضارات قديمة وتجارب إنسانية لولاه لما عرف عنها إلا النزر اليسير»[4] .

ويرى الآثاريون أن : «التنقيبات والتحريات الأثرية تدخل ضمن اختصاص علم الآثار (archaelogy) وتأتي في مقدمة الوسائل التي يجمع بواسطتها الباحث التاريخي مصادره عن التاريخ القديم والوسيط سواء كانت تلك المصادر بقايا مادية كبقايا الأبنية والفنون والآلات والأدوات والأسلحة المختلفة والنقود أم المصادر المدونة بالخطوط القديمة كالخط المسماري والهيروغليفي والخطوط اليونانية والرومانية والخطوط العربية وغيرها . وتزودنا التنقيبات الأثرية بمعلومات مهمة عن عصور ما قبل التاريخ قبل أن يهتدي الإنسان إلى إيجاد وسيلة للتدوين بالكتابة وذلك عن طريق دراسة بقاياها المادية»[5] .

وكثير من الأخطاء في التاريخ إنما هي إشكالات «في الأخبار والروايات التي وصلت إلينا فمن مؤرخ دون ما عاين وعايش بصدق وأمانة، إلى آخر زين له ميله

---

(١) العراق القديم، جوجرج رُ، ترجمة حسين علوان حسين، ص٤٢ .

(٢) انظر تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق. م/ . د. عيد مرعي، الأبجدية للنشر مكتبة الأسد، دمشق سوريا، الطبعة الأولى ١٩٩١ ص١٧ .

(٣) أعمال الحفر الأثري، ليونارد وولي، ترجمة د. حسن الباشا، الناشر دار النهضة العربية ص١٧ .

(٤) المصدر السابق من كلام المترجم ص٥ ـ ٦ .

(٥) طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار ص١٣٩ .

هنا وكرهه هناك أن يحرف فينحرف، إلى ثالث اعتمد على السماع دون تثبيت وركبه التخيل فضل وأضل، إلى رابع استمرأ لثم الأقدام فكتب بلسان السلطة فشوه، إلى خامس سجل لأزمان وأهمل حقبات فأحدث فجوات أصبح ردمها أمرًا صعبًا، إلى سادس وسابع وثامن . . . فبهذا كله امتزج في التاريخ الصدق والتشويه والكذب والتخيل والإنقطاع امتزاجًا غريبًا حتى غدا فهم الماضي موضوعًا مبهمًا أو شأنًا مزاجيًا أو أمرًا يسيطر عليه الخيال وتلفه الترهات من كل جانب»[1] .

ومما سبق: فالنصوص الأُوَلْ تذكر ميزة الآثار وأهميتها كمصادر للتاريخ والنص الأخير والذي قبله فيهما بيان للعيوب المحيطة بالتاريخ والمؤرخين بدون الاعتماد على اللقى الأثرية، والواقع أن الإشكال ليس في الحوادث التاريخية إنما الأشكال في المؤرخ نفسه لذلك قيل في الأمثال: آفة الأخبار من رواتها، وكما يكون الكذب وكتمان الحقائق في مؤرخي الحوادث يكون أيضًا في مكتشفي الآثار إذ الجميع بشر وفيهم الصادق والكاذب وسأسرد بعض النصوص التي تبين ذلك عن الآثاريين أنفسهم، والآثار تشبه التشيع من وجه فكل من أراد أن يظهر وينشر مفاسد قومه الكفرة بين المسلمين لبس ثوب التشيع ادعى حب آل البيت وما سيأتي من كلام سيوضح فعل الآثاريين الذين يشتركون به مع قادة التشيع[2] .

فالآثار ومجالها واتخاذها مهنة من أخصب المهن وأكثرها استعدادًا للتلون حيث يقول أحد كبارهم: «أرى لزامًا علي أن أخبرك بهذه المناسبة بأنه ما من مهنة يمكن أن يندس فيها الدجالون أكثر من هذه المهنة وعالم الآثار كما رسمته هو الرجل ذو الصفات المتعددة»[3] .

«وقد حظيت فلسطين بتنقيبات كثيرة أيضًا ربما لأنها ذات اعتبار ديني من قِبَلْ ثلاث من الديانات السماوية ولأغراض استعمارية بالنسبة إلى الإنكليز بسبب تجارتها مع الهند وقام صندوق استكشاف فلسطين بدور كبير في هذا المجال إذا

(١) الآثار الشرقية، أرنست بايلون. للمترجم صفحة/ ب.

(٢) رجال الآثار د. روبرت . ج. بريدو و د/ ترجمة كمال الملاخ، ص١٩١ .

(٣) الآثار الشرقية من مقدمة المترجم صفحة/ م.

تعدت أعماله الغايات الدينية العلمية إلى الغايات العسكرية السياسية الاستعمارية بدليل أن معظم الذين تولوا بعثات هذا الصندوق كانوا من وزارة الحربية البريطانية ومن سلاح الملكية بخاصة»[1] .

«وفي دراسة حضارات ما قبل التاريخ فإننا نعتمد على المكتشفات الآثارية العائدة لتلك العصور والتي نطبق عليها منهاج بحث نطورها باستمرار من أجل تفسير أدق لتلك المكتشفات علمًا بأننا كثيرًا ما نصادف تفسيرات مختلفة للمعطيات الواحدة.

وهذا طبيعي سيما وأن الموقع الفكري والاجتماعي للباحث يلعبان دورًا رئيسيًا في رؤيته للتاريخ وهذا أدى بدوره إلى نشوء مدارس ومناهج تبحث في التاريخ الحضاري للإنسان ولكنها تختلف في منطلقاتها وفي نتائجها أيضًا»[2] .

« . . . لقد تشكلت هنا مناهج وتيارات ومدارس بحوث أثرية عديدة ومتنوعة بعضها علمي وموضوعي المنطلق والهدف يسعى إلى البحث الجاد والنزيه ويعطي الشعوب والمناطق حقها التاريخي ودورها الواقعي ومكانتها الحضارية التي تستحقها كم ظهرت تيارات ومدارس منحرفة تخدم غايات ومصالح سياسية وعرقية لا علاقة لها بالبحث التاريخي النزيه وليست «المدارس التوراتية» إلا واحدة من تلك المدارس المشبوهة التي دأبت على توظيف المكتشفات الأثرية والتاريخية لتخدم حق الصهاينة المزعوم في أرضنا»[3] .

ويتضح ذلك من الآراء حول الآثار في بلاد الشام «فقد أتى إلى بلاد الشام باحثون من جامعات ومراكز بحث ومناطق مختلفة أكثرهم فرنسيون تبعهم إنكليز وأمريكيون نقب هؤلاء عشرات المواقع وجمعوا آلاف القطع الأثرية التي ملأت

(١) المرجع السابق.

(٢) بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ الصيادون الأوائل د. سلطان محيسن، الأبجدية للنشر، دمشق، سوريا مكتبة الأسد الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص٦٥ ـ ٦٦ .

(٣) آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، سيتون لويد، ترجمة محمد طلب، تقديم سلطان محيسن، دار دمشق، مطبعة الشام سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، من كلام المقدم ص٦ .

متاحف دمشق وبيروت وعمان والقدس ورغم كثافة المنشورات التي صدرت فإن الصورة لازال يشوبها كثير من الغموض لأسباب كثيرة لعل من أهمها اختلاف الباحثين واختلاف مناهج عملهم ومصطلحاتهم واستخدام تسميات مختلفة لنفس الظواهر مما خلق إشكالاً في فهمها . . . كما أن ليس كل العاملين كانوا على المستوى المطلوب نفسه فمنهم من لم تكن أعماله منهجية ولا دقيقة»[1] .

و «يمكننا أن نقول: إن معظم الأركيولوجيين ولا سيما من عمل منهم في الآثار الفلسطينية كانوا من المسيحيين الذين امتزجت عندهم الآراء المسيحية بالخلفية التوراتية ـ حتى غدا تخليص المسيحية ـ كعقيدة ـ من سيطرة العهد القديم ـ كأيدولوجية ـ أمرًا صعبًا بل مهمة مستحيلة»[2] .

ولابد من ذكر نماذج من الآثاريين وخاصة الذين أصلوا وقعدوا علم الآثار وأدخلوه بلدان المسلمين يتضح بهم هذا الكلام فمن هؤلاء الآثاريين الأجانب الذين عملوا في بلاد المسلمين أعمالاً آثارية وهم **مختلفي المشارب والمرجعيات:**

١ ـ دي فوجيه (١٨٢٩ ـ ١٩١٦) سياسي .

٢ ـ كلرن مون ـ جانو (١٨٤٦ ـ ١٩٢٣) قنصل .

٣ ـ دي بيلين (١٨٤٩ ـ ١٩١٠) عسكري .

٤ ـ بونيون (١٨٥٣ ـ ١٩٢١) قنصل لفرنسا .

٥ ـ جسيل (١٨٦٤ ـ ١٩٣٢) مدرس بالمعهد الكاثوليكي .

٦ ـ كونتينو (ولد عام ١٨٧٧) طبيب أديب .

٧ ـ الآب دريتون (١٨٨٩ ـ ١٩٦١) مدرس كاثوليكي .

٨ ـ الآب أونجارللي (١٧٧٩ ـ ١٨٤٥) مدير القسم المصري بمتحف الفاتيكان[3] .

(١) بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ الصيادون الأوائل، ص٦٩ ـ ٧٠ .

(٢) الآثار الشرقية، آرنست بابلون من مقدمة المترجم صفحة/ ف .

(٣) المستشرقون لنجيب العقيقي دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة الجزء الزول وهم على

٩ ـ ولستد ملازم انجليزي .

١٠ـ السير آلكسندر كيندي (١٨٤٧ ـ ١٩٢٨) سياسي .

١١ـ السير أوستن لابارد (١٨١٧ ـ ١٩٠٢) سياسي من وظائفه وكيل وزارة الخارجية ووزير مفوض في مدريد في الآستانة[1] .

١٢ ـ السير ألن جاردنر سياسي .

١٣ـ السير روليس بدج سياسي .

١٤ـ الآب لامنس راهب يسوعي .

١٥ـ الآب بواديبار راهب يسوعي .

١٦ـ الآب سباستيان رونزخال راهب يسوعي .[2]

١٧ ـ السير هنري كرزويك رادلينسون (١٨١٠ ـ ١٨٩٥) ضابط ومندوب سياسي وعالم آثار .

١٨ـ جورج راولينسون (١٨١٢ ـ ١٩٠٢) كبير كهنة كانتري بري .

١٩ـ آ. ك . كرزويل عسكري[3] .

٢٠ ـ لورانس المعروف لورنس العرب استخبارات بريطانيا العسكرية[4]

٢١ـ السير ليونارد وولي مكتب المخابرات البريطانية بمصر .[5]

التوالي في الصفحات التالية على ترتيبهم/ ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٦، ٣٩٩، ٤١٨ .

(١) انظر المستشرقون ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٢) المستشرقون جـ ٣ وفي الصفحات على ترتيبهم/ ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٥٠، ٣٥٠، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥١، ٣٥١ .

(٣) المستشرقون ٢/ ١٦٢، ١٦٣، ١٦٨ .

(٤) لورنس العرب على خطى هرتزل ـ تقارير لورنس انسرية، زهدي الفاتح، بيروت لبنان دار النفائس الطبعة الرابعة ١٤١١هـ انظر ص٣٣ ـ ٣٤ .

(٥) مدخل إلى علم الاثار، السير ليونارد وولي، مقدمة المترجم ص٨ .

٢٢- كوندر — وزارة الحربية البريطانية .

٢٣- اللورد بالمر — وزارة الحربية البريطانية .

٢٤ - كتشنر — وزارة الحربية البريطانية[1] .

٢٥- ماسينون، لويس (١٨٨٣ - ١٩٦٢) مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية وخدم بالجيش الفرنسي في الحرب العالمية الأولى[2] .

وهذا غيض من فيض .

إذن لا يكون الإشكال في الحقائق العلمية ولا في الأدلة والشواهد هنا لكن كبر المشكلة في كيفية الاستخدام ونوعه ولا يخفى على الجميع أننا نعيش أحداثًا متنوعة في بلدان شتى ونسمع عن مشاكل وأحداث تقع في المعمورة ومنها ما يكون قريبًا منّا لكن الحقائق فيها تقلب ويصلح الظالم فيها أحق أن يرحم ويصوّر المظلوم في القضية ويوصف بأنه متوحش بربري وخاصة إذا كان من المسلمين .

وبناءً عليه : فالخيانة متأصلة وموجودة عند كثير منهم وخاصة الذين أصلوا هذا العلم وأقاموه فإليك أخباراً منتقاة من مصادر موجودة لمن شاء الرجوع إليها بيسر وسهولة ومع ذلك قلبوا الحقائق وزادوا ونقصوا وهي لبعض المستشرقين ، والآثاريون جزء منهم فعلى سبيل المثال :

جولد تسيهر :

قال : « . . . ويقول : وكيع[3] عن زياد بن عبدالله البكائي[4] : أنه مع شرفه في

(١) الآثار الشرقية أرنست بابلون مقدمة المترجم صفحة/ م .

(٢) انظر المستشرقون والتراث، د. عبدالعظيم الديب، مكتبة ابن تيمية المحرق البحرين، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ص١٨، وانظر المستشرقون ١/ ٢٦٣ .

(٣) هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الإمام الحافظ محدث العراق أبو سفيان الرؤاسي ولد سنة ١٢٩هـ من بحور العلم وأئمة الحفظ في الحديث مات سنة ١٩٧هـ وهو راجع من الحج . انظر سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٠ .

(٤) زيادة بن عبدالله بن الطفيل العامري البكائي راوي السيرة النبوية توفي سنة ١٨٣هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٩/ ٥ .

الحديث كان كذوبًا .

ولكن ابن حجر يقول في التقريب : ولم يثبت أن وكيعًا كذبه» .

يريد جلود تسيهر بهذا أن يقول : أن زيادًا البكائي كان كذوبًا مع علو منزلته في الحديث وذلك بشهادة وكيع أحد أعمدة الجرح والتعديل ، فإذا كان مثل زياد البكائي كذوبًا فأي ثقة بالحديث والسنة؟ .

وأصل النص الذي حرفه جولد تسيهر جاء في التاريخ الكبير للإمام البخاري : وقال عقبة السدوسي[1] عن وكيع : وهو (أي زياد بن عبدالله البكائي) أشرف من أن يكذب فالنص : أشرف من أن يكذب أي أنه أبعد من الكذب بسجيته وفطرته وطبعه وشرفه وعلو همته وسمو نفسه .

ومع وضوح هذا النص يحرفه جولد تسهير إلى : أنه كان مع شرفه في الحديث كذوبًا[2] .

وهذا التحريف نموذج فإذا كان هذا فعل الغرب معنا فيما له مساس في الثقافة والأخلاق والعقيدة والأحداث فيما نعلم أو يمكن أن نرجع إليه في مظانه فكيف بأحداث قد جرى عليها الفناء وأصبح كثير منها في عالم الغيب.

• كيفية تعامل الآثاريين مع الآثار:

الآثار من حيث الاستدلال بها نوعان :

١ - مادية : وتشمل المباني والأواني وأدوات الاستعمال في المنزل والعمل والحرب ، والقبور ، وأماكن العبادات ونحو ذلك .

٢ - نقوش ورقوم وكتابات قديمة بلغات مندثرة كالسومرية والهيروغليفية والمسمارية ونحوها وهذا النوع يدخل من باب الرواية وغالب الكتابات أقل قيمة وأهمية من الآثار المادية والسبب أنها تحكي أنظمة وأوامر وسيرة ملوك في الغالب

(١) هو عقبة بن أوس ويقال : يعقوب بن أوس السدوسي البصري، تابعي ثقة، انظر : تهذيب التهذيب ٤/ ١٥١ .

(٢) انظر المستشرقون والتراث ص٢٨ .

وهي «تنحصر غالبًا في تلك الأحداث التي كان يعتبرها الكتاب في جميع العصور أحق بالتسجيل كالحروب والحوادث السياسية وسيرة الملوك»[١] ويعول على فك رموزها وكتاباتها على علم اللغة.

لكن النوع الأول هو المهم في الآثار ويتعامل الآثاريون معه بعلم الاجتماع وهو ما يسمونه الأنثروبولوجيا (ANTHROPOLOGY) وهو علم الإنسان: وينقسم إلى:

قسم: الأنثروبولوجيا الطبيعية التي تدرس النمو الجسمي للإنسان من الناحية التطورية والخصائص الجسمية على حسب نظرية التطور.

وقسم: الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تدرس النظم الاجتماعية وخاصة نظم المجتمعات البدائية تاريخياً.

وقسم: الأنثروبولوجيا الثقافية التي تدرس عادات الشعوب المتأخرة وتقاليدها دراسة تاريخية.

ومفهوم الأنثروبولوجيا مرده إلى لفظ لاتيني مشتق من لفظين أحدهما: انتروبوس ويعني الإنسان والآخر لوجي بمعنى وصف أو علم[٢].

فالقسم الأول يُعْنى بالتطور الجسماني من منطلق نظرية دارون.

والقسم الثاني عن علاقة الإنسان بالآخرين.

والقسم الثالث عن عاداته وتقاليده وعباداته وخرافاته ونحو ذلك[٣].

وهذا يعني أن التعامل مع الآثار المادية هو تحليلها واستنطاقها وفلسفتها وتعبئة الفراغ بين الأثر وصاحبه بالممكن مما يمكن أن يخطر على البال أو لا يمكن أن يتطرق إليه الخيال لبعده وتوحشه «ذلك أن قانون العليه أو السببية في الأحداث الاجتماعية والتاريخية متناه في التعقيد»[٤].

---

(١) مدخل إلى علم الآثار، ص٢١.

(٢) انظر: معجم المصطلحات الأثرية انجليزي ـ عربي، مادة انثروبولوجيا، ص٣٨.

(٣) المصدر السابق نفس المادة والصفحة.

(٤) طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار ص١٢.

فلا يكون عمل الأثري جمع الآثار والجمود على ذلك «ولكن على الأثري في الواقع بعد جمع تلك الحقائق من مخلفات الحضارات السابقة أن يبث فيها الحياة من جديد ويبرزها في صورتها الإنسانية شأنه في ذلك شأن كل باحث في العلوم الإنسانية ثم عليه أن يعطينا الصورة الواضحة التي في مخيلته المقيدة بكل هذه الحقائق عن هذا الإنسان الذي عاش في ذلك الزمان»[١] فالباحث الأثري ملزم عند الآثاريين أن يُعمل خياله وتصوراته في تفسير ما يجده أمامه من مخلفات ليرسم لنا صورة مقبولة بغض النظر عن ما ينتجه ذلك من أخلاق أو عقائد أيًا كانت سواء وثنية أو خرافية حتى يكون التوليف ما بين تلك الموجودات مقبولاً ضمن خططهم وأهدافهم فهو يوضح الرابطة بين تلك المخلفات مع بعضها من جهة وبينها وبين الإنسان من جهة أخرى ولا يفوت ولا نهمل اختلاف مناهج الأثريين واختلاف أديانهم وأهدافهم وأغراضهم وأخلاقهم مما سيؤثر على استنتاجاتهم.

وهذه نماذج من تحليلاتهم الآثارية المبنية على الآثار المادية:

«وفي قبور الجبانة الملكية وجد أن الرجال يلبسون عمومًا شريطًا فوق رؤوسهم مصنوعًا من سلسلتين من الذهب أو الفضة وخرزات ثقيلة من اللازورد والذهب مثبتة في الخلف بواسطة حبل. والآن لا يمكن أن تكون هذه إلا شكلاً مبكرًا من العقال العربي الحديث أو حبل الرأس الذي يثبت الثوب الملبوس فوق الرأس الخالية تمامًا من الشعر»[٢].

وما أدري هل حدث انقطاع لهذه اللبسة أيام الحكم الإسلامي مثلاً في العصر الأموي والعباسي أم لا؟

وهذا تحليل في استعلاء: «وعلى ذلك فقد كان الرجل الأوربي في العصر الحجري القديم الأعلى ميسور الحال إلى حد كبير لأنه كان يصنع ما يلزمه من الأدوات والأسلحة المتقنة كما كان اللحم متوافراً بكثرة ولا يمنع المرء من الحصول

---

(١) المرجع السابق، ص١٨.

(٢) مدخل إلى علم الآثار ص١٢٤ ـ ١٢٥. والجبانة الملكية مقبرة في أور جنوب بغداد. نفس المرجع السابق ص١٢ هامش ١.

عليه إلا الجبن أو الخور فقد كان هناك مقادير هائلة من الحيوانات الضخمة في أوائل ذلك العصر كما ظهرت الرنة في أواخره وهي كلها من حيوانات السهول والمناطق الخلوية. ولقد كان في جعبته بلا شك كثير من الحيل . . . ولكننا لانعرف شيئًا عن موقفه بالنسبة للخضروات في تلك الأصقاع المتجمدة ولكن ـ وهذا هو المهم ـ يحتمل أنه استغنى عنها إلى حد كبير أو أنه كان يأكل محتويات أحشاء الرنه التي كان يقتنصها»[1] .

فلماذا مثلاً لا يأكلون خضروات مما تأكل منه الرنة خاصة وأن في جعبته كثير من الحيل .

وهل إذا احتاج خضروات ولم يجد حيوان الرنة يكون من حيله أن يأخذ مما تخلفه الرنة من خضروات من أحشائها؟!

«اعتقد الأمريكي روبرت برايدوود (R.j. braidwood) من جامعة شيكاغو أن أولى المجتمعات الزراعية يجب أن تكون قد قامت في شمال بلاد الرافدين على سلسلة جبال زاغروس في المنطقة التي تعرف حاليًا باسم كردستان ـ والسبب ـ حيث كانت تسقط أمطار كافية وينمو القمح والشعير البري وتعيش أنواع عديدة من الحيوانات البرية كالأغنام والماعز والأبقار والخنازير»[2] .

وفات عليه الدجاج والقطط فيما يبدو حيث يكثر تواجدها حتى عند الرّحّل وتجاهل بقية مناطق من العالم تسقط فيها كميات كافية لنمو القمح والشعير ومماثلة في المناخ والتربة .

«لقد كانت الماعز بالنسبة لسكان كهوف الباليوليت القنيص الرئيس وقد تبين أن أغلبية العظام في تلك المستوطنة خلافًا للكهوف التي سموها (زاوي شيمي شانيدار) هي من عظام الأغنام بينما لم تشكل عظام الماعز إلا نسبة واحد من ستة عشر من المجموع العام لتلك العظام وتبين أيضًا أن عمر ثلاثة أخماس الأغنام كان دون العام .

(١) ما وراء التاريخ، وليام هاولز ترجمة د. أحمد أبو زيد. دار النهضة العربية بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٥٢ والمؤلف يحمل دكتوراه الفلسفة وهو استاذ علم الأنثربولوجيا بجامعة هارفارد. انظر: مقدمة المترجم ص٥ـ٦ .

(٢) تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور، ص٢١ .

الأمر الذي يؤكد بشكل قاطع أن تلك الحيوانات كانت تربى في البيوت . ولكي تتوفر لهم أكبر كمية من حليب تلك الحيوانات قاموا بذبح الحملان والجداء التي يقرب عمرها من العام . أما الصيادون فقد كان أغلب قنيصهم من الحيوانات الهرمة»[1] .

١ ـ النقاش في العظام قد يكون عديم الجدوى .

٢ ـ لكن كون عظام الأغنام ٦٠٪ دون العام دليل على أنها كانت تربى في البيوت والدليل أن أهل البيوت يذبحون الحملان والجداء التي يقرب عمرها من العام ليتوفر لهم أكبر كمية من الحليب فهذا فيه نظر .

أ ـ فذبحها لا يعني تربيتها في البيوت فقد يشترونها من المزارعين أو ممن يجلبها من البادية وما أدري ماذا سيكون التعليل لعظام توجد عند مطعم مندي في أحد الطرق حيث تذبح تيوس غالبًا أقل من العام بقليل .

ب ـ إن ذبح الحملان والجداء قريبًا من العام لا يوفر لأصحاب الأغنام حليبًا لأنها غالبًا تفطم عن الرضاعة فيما بين عشرين يوم وثلاثة أشهر على الأكثر فإذا قارب على العام تكون استوفت كل ما يمكنها من الرضاعة ولو كان المذبوح في حدود أسبوع لكان الاستدلال مقبولاً لتوفير الحليب ثم إنه غالبًا لا تذبح الحملان والجداء لأجل حليب أمهاتها .

«ومن الطريف أنه عثر على بقايا طفل مدفونة تحت بلاطة حجرية مما يحملنا على الاعتقاد أن كثيرًا من المعالف والبيوت قد تحول إلى قبور . . . ثم يصف قبرًا آخر فيقول :

فقد تم تمييز قبر يقوم في أساس لبيت دائري (طوله خمسة أمتار وعرضه مترًا واحدًا) وبداخله رفاتان في وضعية الجلوس أحدهما لرجل بالغ يخرج نصفه من الحجارة التي تغطيه وكانت الجمجمة مرفوعة باتجاه قمة جبل حرمون التي كان لها ـ على ما يبدو ـ دور ما في مقدسات ذلك العصر ومن المحتمل أن تكون قد عدت

(١) نشوء الحضارات القديمة، بورهار برينتس، ترجمة جبرائيل يوسف كباس، الأبجدية للنشر، مطابع ألف ياء الأديب، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، ص١٣ .

مقراً للآلهة، أما الجمجمة الثانية فربما كانت جمجمة امرأة غطتها الأصداف»[1].

فهل كون عظام طفل وجدت تحت بلاطة يحمل على الاعتقاد أن كثيراً من المعالف والبيوت قد تحول إلى قبور؟ أم أن معتدياً قتله وأخفاه عن الأعين. ولمفسر آخر أن يقول: إن الجثة التي لرجل يخرج نصفه من الحجارة التي تغطيه قد رجمت لسبب أو لآخر خاصة واحتمال الجثة الأخرى أنها لامرأة مثلاً.

ونشأت قلعة «أريحا التي تم اكتشافها عام ١٩٥٨م... وقد شغلت البيوت المتراصة المبنية من الآجر المشوي مساحة هكتارين ونصف الهكتار وقدر العلماء عدد سكان القلعة بثلاثة آلاف نسمة. ولكن هذا الرقم لم يحظ باعتراف العلماء جميعهم.

وعلى الرغم من أن عدد سكان القلعة يمكن أن يكون أكثر من ذلك فإن أكبر تجمع سكاني في أوربا في ذلك العصر كان لا يزيد فيه عدد السكان عن ١٥٠ ـ ٢٠٠ إنسان لهذا لا يمكن تصور مدينة عدد سكانها يعد بالآلاف وبالتالي أليس منطقياً إسقاط ثلث هذا الرقم؟»[2].

لكن حتى بعد إسقاط ثلث الرقم فإنه لا تناسب بين سكان القلعة وبين أكبر تجمع سكاني في أوربا فما يزال الفارق كبير جداً..

وعدم تصديق الرقم الدال على عدد سكان القلعة لماذا يبنى على تجمعات أوربا فالمسافة كبيرة بين أوربا وأريحا في فلسطين.

وأعجب من ذلك: (كما عثر على جثث لا جماجم لها مما يسمح بالقول: أن انفصال الجماجم عن الجثث دليل على استخدام الرؤوس للتدريب على الصيد)[3].

ثم جاء بنظرية أخرى «يستطيع علماء الأثنوغرافيا متابعة التغيرات التي طرأت

(١) نشوء الحضارات، ص٢٣ ـ ٢٤.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نشوء الحضارات، ص٣٥.

على الأشكال المحلية لعبادة الجماجم استناداً إلى المواد الماليزية»[1].

والجمع بين النظريتين بعيد إلا أن يكون استخدام الرؤوس للتدريب على الصيد أحد التغيرات التي طرأت على عبادة الجماجم. لكن الاهتمام والإبراز لمسألة التقديس والتعظيم وتفسير الآثار وتحليلها من هذه الزاوية حتى ولو كانت المسألة بعيدة ثم إن النظرية الأولى التي سمح لنفسه بقولها ليس لها سند لا من واقع ولا من خبر ولا من عقل.

«لقد عثر على سبعة عشر قبراً في المعابد ضمت رفات أنثوية إلى جانب أربعة قبور لم يحدد نمط بنائها، ومن الملاحظ أن كافة القبور احتوت على المغرة التي يجب أن تضمن القيامة للموتى.

وهكذا نلاحظ أن النساء قد شغلن مكان الصدارة في ميدان العبادة ولكننا لانستطيع حتى الآن أن نحدد ما إذا كن خادمات للآلهه أم تجسيداً لها»[2].

بمعنى أنه لم يصل إلى قرار هل النساء هؤلاء خادمات للآلهة أو هن بأنفسهم آلهة على حد زعمه الباطل وقد حصر الاستنتاج بين هذين الخيارين ولم يستند على شيء في أصل الاستنتاج والتخيير مع إمكان خلاف ذلك كله كأن يكن قتلن نتيجة حرب مثلاً.

«وأدت الحفريات فعلاً إلى اكتشاف حجرة مربعة الزوايا ربما كانت مقدسة»[3] فهذا تخمين يكبر ويتطور ومن ثم يصبح من ضمن الحقائق بأن هذه الحجرة مقدسة ومكان معبد قديم.

إن كثيراً من تحليلات الأصنام وفلسفة تعبدها وما يصاحب ما يسمونها آلهة من طقوس واحتفالات وأعياده وشعائر إنما مرده ومأخذه من الأساطير والقصص

(١) المصدر السابق، ص٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص٤٦.

(٣) امبراطورية إبلا، علي القيم، الأبجدية للنشر، مكتبة الأسد، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص١٥.

الخرافية القديمة[١].

«في هذه الفترة اتسعت المدينة ولا يعرف كم دام ذلك ويبدو أن هذه الفترة من حياة المدينة انتهت بأزمة خطيرة وتعرضت فيها لحريق كبير أو لعمليات نهب وتدمير»[٢].

فالإشكال أن بين الحريق الكبير وبين عمليات النهب والتدمير بون شاسع وفارق كبير مع ملاحظة أنه يمكن تحديد الحريق بسهولة كما يرد عن الآثاريين بأنهم يجدون رماد الحريق في المساكن المحرقة.

«كانت القدس تعتبر المكان الذي قام منه محمد ـ ﷺ ـ بمعراجه إلىٰ السماء ومن الممكن أن الصخرة أُعتبرت المكان الفعلي نظراً لأنها أعلىٰ نقطة في منطقة المعبد»[٣].

فسبب اختياره للصخرة بأنها المكان الفعلي لبداية المعراج هو لأنها أعلىٰ نقطة في منطقة المعبد، لكن الذي سيعرج إلىٰ السماء لن يعجزه فارق الارتفاع بين أعلىٰ نقطة وأدناها من الأرض ولو كانت المسافة أكثر من أرفع جبل.

«وكان كثير من تلك الرموز عبارة عن مواد معروفة. ونتعرف هنا إلىٰ كثير من الأدوات التي تمت صناعتها من مواد هشة مثل: المحراث والعربة والزلاقة والقارب والكوخ المبني من القصب والزلاقة الصغيرة المخصصة لنقل تماثيل الآلهة. لقد عبرت تلك النقوش عن مواد أخرىٰ عبر جزء هام من أجزائها: فالثور يعبر عنه من رأسه والمرأة شكل مثلث أي ما يدل علىٰ فرجها»[٤].

وحدث عن بني إسرائيل ولا حرج!!

«.. وكانت هذه الأساسات ظاهرة للعيان غير أنه لم يكن هناك أي أثر

(١) انظر: نشوء الحضارات، ص١١٧.

(٢) امبراطورية إبلا، ص١٨، والمقصود بالمدينة هنا: إبلا في تل مرديخ بسوريا.

(٣) الآثار الإسلامية الأولى، ك. كريز ويل ترجمة: عبدالهادي عبله، دار قتيبة، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ص٣٤.

(٤) نشوء الحضارات، ص١٠١.

للجدران وكأنما لم يكن لذلك البناء أي جدران أبداً وقد خطر ببالي بادئ الأمر أنه ربما كانت هذه الدائرة من الحجارة والتي تبلغ مساحتها ١٥ X ١٢ قدماً خزاناً لحفظ مياه السيول وخاصة أنني وجدتها مليئة بالرمال والتراب»[١].

وكم يمكن أن يخطر في باله أو بال آخر مثله من الخيالات لهذه الدائرة مما يمكن.

«وتشير جميع الدلائل المتوفرة إلىٰ أن الخراب الذي لحق بها كان من جراء هزة أرضية مع أنه من الممكن أن يتم ذلك نتيجة فيضان غير طبيعي يغمر المنطقة بأسرها حيث أن المعبد قائم في طرف الوادي... ولقد خطر ببالي أن يكون هذا البناء قد استخدم كمقبرة في العصور المتأخرة وذلك بدليل وجود الحجارة الكبيرة التي تسد المنافذ ولعل هذه الحجارة قد وضعت لحماية الجثث من نهش الضباع أو نبش لصوص المقابر»[٢].

فالأمر بعضه من الممكن والآخر خطرات.

وينقل عن فلبي قوله: «وصلنا إلىٰ أحد المرتفعات وكان اسمي هاتين المجموعتين من الصخور قد أوحيا إلي بشكل هيكل عظمي منظره يقبض النفس»[٣].

يبدو أن هذا الإيحاء النفسي هو الذي يملي كثيراً من التخمينات والاستنتاجات عند كثير من الأثاريين.

«وحفروا في سطوح القبور تجاويف علىٰ شكل كأس يبدو أنها كانت تستخدم لتقديم القرابين المقدسة»[٤].

وهذا أمره هين لكن العجب من قوله: «أما عظام الحمار فيدل العثور عليها علىٰ أنه كانت للمستوطنة علاقات مع شمال أفريقيا»[٥] وهو يتكلم عن موقع بين غزة

(١) شمال الحجاز، ص٢٣٦.

(٢) شمال الحجاز، ص٢٣٧.

(٣) المصدر السابق، ص٢٩٢.

(٤) نشوء الحضارات ص٨٧.

(٥) المصدر السابق، ص٩٠.

والبحر الميت في وادي بئر السبع في بئر أبي مطر وبئر الصفدي وإليك نقل آخر :

«إلا أن أكثر اللقى التي عثر عليها إثارة هي حوالي ٨٠٠ صفيحة نحاسية أبعاد الواحدة منها ١١ X ٥ , ٤ سم ويبدو أنها بقايا درع معدنية وقد تكون أقدم الدروع المعروفة لنا قد دفنت هنا منذ الألف الرابعة وفي هذا دليل على اندلاع الحروب وهجرات الشعوب في نهاية الألف الرابعة»[1] أي الألف الرابعة قبل الميلاد .

فقطع المعدن صغيرة مساحة الواحدة منها في حدود إصبعين متوسطين من أصابع اليد تقريبًا واستهل الاستنتاج بلفظ «يبدو» ثم عقبها بـ «قد تكون» وركب عليهما بقوله «وفي هذا دليل» على أي شيء؟ على اندلاع الحروب وهجرات الشعوب في نهاية الألف الرابعة هذا وهو بلح فكيف إذا صلح ! !

«ومهما يكن من أمر فإن زراعة الإنسان للحبوب التي جمعها قرب الحواضر التي سكنها حدث لم يقع قبل الألف العاشرة»[2] أي قبل الألف العاشر للميلاد وهذا خبر قطعي من صورته ، لكن كونه لم يجد ما يدل على أن الإنسان قد زرع قبل ذلك لا يدل على عدم إمكانية وجوده إذ عدم العلم بالوجود ليس علمًا بالعدم لكنه يدل على أن الباحث لم يجد ، أما المبحوث عنه فقد يكون موجودًا لكنه لم يهتد إليه الباحث .

ثم إن النافي يلزمه الدليل كالمثبت ولم يدعم كلامه بدليل .

«ثم ينشر عالم الآثار اكتشافاته بعد ذلك ويخمن كل إنسان معناها فلربما أمكن مقارنة صناعة وتصميم قطعة من الفخارة وجدت في منطقة ما بين النهرين (بالعراق) بأخرى وجدت في الهند وهنا يمكن كشف النقاب عن حقيقة هامة عن الماضي ألا وهي وجود تجارة بين بلاد ما بين النهرين والهند في العهود القديمة»[3] .

ومن الملاحظ أن التخمين عندهم : أنه إذا كانت القطع الأثرية متشابهة في مادتها المصنوعة منه ووجد منها عدة قطع في بلدان مختلفة وربطت بحضارة من الحضارات

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة والكلام في موقع بين تل أبيب وحيفا بفلسطين

(٢) نشوء الحضارات ، ص٢٠ .

(٣) الآثار الغارقة ، روبرت سلفر برج ، ص٨ .

فإنها تدل على علاقة بين البلدان التي وجدت فيها لكن التخمين يختلف حسب استعمال تلك القطع فإن كانت القطع مثلاً جراراً فخارية منسوبة إلى إحدى حضارات العراق ووجد مماثل لها بالهند أو مصر فكما ورد في النص السابق فإن من استنطاقها وأخذ المعلومات منها أن يخمن أن هناك علاقة تجارية بين العراق مثلاً والهند أو مصر . أما إذا كانت القطع الأثرية المعثور عليها قطع سلاح كسيف أو رمح أو درع أو ما أشبه ذلك فإن التخمين ساعتئذ هو قيام حرب بين البلدين مع العلم أنه يمكن أن تكون تلك القطع الدالة على الحرب استوردها أحد البلدين من الآخر أو أهداها أو أن الصناع في هذه البلاد حاكوا صناعة البلد الآخر أو أن الصناع في بلد الصانع الأول تفرقوا في البلاد الأخرى وأنتجوا نفس الصناعة التي أنتجوها في البلد الأول وغير ذلك من التخمينات .

ومثل الاستنتاج السابق قولهم : «ودلّ اكتشاف سيف يحمل رسم الفرعون المصري مير نيبتاخ على أن مصر حاولت في عهد هذا الفرعون أن تعيد أوغاريت[1] إلى حظيرتها فأرسلت إليها حامية مصرية للدفاع عنها ضد شعوب البحر»[2] .

فهذا الأثر وهو السيف الذي عليه رسم الفرعون المصري دليل مادي على أن هذا الفرعون المرسومة صورته حاول إعادة أوغاريت قرب اللاذقية في سوريا الآن إلى سلطته فقد أرسل حامية تدافع عنها وهذا السيف من بقايا الحملة هكذا تخمينهم ! !

لكن ألا يمكن أن يكون هذا السيف جلبه أحد التجارة ليبيعه أو أن مجرمًا من مصر لوحق وطورد فهرب به إلى هذه البلدة أو يكون أُهدي إلى حاكم هذه البلدة أوأحد أعيانها أو تغرب أحد أفراد أوغاريت إلى مصر واشتراه من هناك أو أن أحد الصناع في بلاد الحاكم الفرعوني انتقل إلى أوغاريت وصنعه هناك .

أو أن أحد الصناع في أوغاريت معجب بالفن الفرعوني وصنع مثله يحاكيه كل

(١) بلدة أثرية قديمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط شمال اللاذقية بسوريا موازية لشمال شرق قبرص انظر ثقافة أوغاريت إ ش . شيفمان ، ص٦ .

(٢) ثقافة أوغاريت ، تأليف شيفمان ، ترجمة حسان اسحاق ، الأبجدية للنشر ، مكتبة الأسد ، دمشق ، سوريا ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، ص١١ .

هذا وغيره ممكن.

و «هذا الأخير عبارة عن تمثال بازلتي كبير لم يستطع العلماء حتى الآن أن يحددوا عمره يبلغ طوله ٦٠, ٢م وارتفاعه ٥٩, ١م وقد عثر عليه في نهاية الخمسينات قرب قصر متحف نبوخذ نصر الثاني في مدينة بابل. والتمثال عبارة عن مشهد يمثل أسداً يجثو فوق إنسان وحتى الآن لم يتفق العلماء على ما إذا كان المشهد يمثل عملية افتراس الأسد للإنسان أم أنها عملية جماع بينهما؟ لقد مررنا كثيراً على ذكر حالات الاتصال الجنسي بين الإنسان والحيوانات في الأساطير»[1].

لكن لو قصد صانع التمثال به مشهد الاتصال الجنسي بين الإنسان والحيوان لأبرز ذلك هذا على قبول مناقشة رأي الكاتب.

«والآن أصبح الجمل هو سفينة الصحراء على ما سمعتم بلا ريب كما أصبح هو وسيلة النقل والتجارة وقد وجه العرب البدو حياتهم بحيث أصبحوا يعتمدون من الناحية العملية اعتماداً مطلقًا على الجمل... ولكن الحياة تدور حول الإبل التي تعتبر تربيتها مصدر لذة وفخار للرجل، أما لذاته فيجدها في القتال والإغارة ولا يكره البدوي بحال أن يتعرضوا هم أنفسهم للإغارات بل إنهم يحتفظون بعدد من الجمال البيض لأنها ترى بسهولة وعن بعد أكثر من الجمال العادية الرمادية وبذلك تكون أقدر على جذب انتباه الأعداء وإغرائهم بالإغارة»[2] وهذا التحليل للعرب أثناء العصر الحجري.

والملاحظ: أن الجمال البيض على قوله لا ترى بوضوح كالسوداء مثلاً علماً أن اختيار ألوان الإبل عند أصحابها راجع إلى الذوق والعشق لهذا اللون عن الآخر أو لخصائص توجد في ألوان دون أخرى أو غير ذلك.

وقد تركت تحاليل كثيرة غاية في السخف وأخرى غاية في إثارة الشبه ونشر الوثنية وإشاعة الفاحشة.

(١) نشوء الحضارات ص١٠٣.

(٢) ما وراء التاريخ، وليم هاولز، ص٢٤٠ ـ ٢٤١ وهو يتكلم عن العرب في العصر الحجري.

ومن النوع الثاني وهو النقوش والرقوم والكتابة فإنها تفسر وتترجم غالبًا لكن إيراد نماذج منها يوضح أوجهًا كثيرة من ترجمتها:

«دور سكن من أعصر أيس ـ لارسا:

ما زالت جدرانها قائمة وبينها شوارع ضيقة تلتقي في ساحات صغيرة وقد وجد «وولي»[1] رقيمًا طينيًا في أحد هذه الشوارع ورد فيه اسم: آب ـ رام فسمى الشارع ـ أي الذي وجد فيه الرقيم ـ باسم: إبراهيم وقصد بهذا: أن إبراهيم الخليل الذي يقال عنه أن أصله كان في أور نشأ في هذا الحي من عصر ايسن لارسا ٢٠٠٠ق.م»[2] فسمي الشارع باسم إبراهيم وقصد بذلك إبراهيم الخليل ﷺ أنه قد نشأ في هذا الحي منذ ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

فالأثاري هنا هو الذي سمى الشارع حسب ما أملاه خياله باسم: إبراهيم!!

وهذا تلخيص لما حدث من قراءة كتابة من آثار إبلا في سوريا.

وهذا نموذج آخر: «استناداً إلى تطابق كلمتي «عمود» و «حياة» بمقطع «تي» في فترة حضارة جمدة نصر يمكن أن نفترض أن السومريين هم الذين كتبوا تلك النصوص ففي أحد النصوص نرى اسم «انليل ـ تي» وهذا معناه: (الإله إنليل يحفظ الحياة). وقد تم التعبير عنها بالرمز المعبر عن «العمود». الأمر الذي يعني أن الكاتب كان سومريًا حتمًا لأن كلمتي العمود والحياة تلفظان باللفظة نفسها «تي». أما فيما يتعلق بمرحلة أوروك الرابعة فيمكن أن نفترض أن السومريين هم أصحاب كتاباتها فقد كانت الرموز لا تزال تصويرية مما جعل قراءتها غير ممكنة»[3].

من هذا الكلام نخلص إلى أن هناك سومريين لهم حضارات منها جمدت نصر ومنها أوروك وعند المؤلف افتراضان للنقش عن السومريين في هاتين الحضارتين:

١ ـ إن كان في زمن جمدت نصر فإن مقطع «تي» يعني «يحفظ» واستدل بأن

(١) آثاري كبير وهو ضابط في الاستخبارات البريطانية؛ مدخل إلى علم الآثار السير ليونارد وولي ص٨.

(٢) المعالم الأثرية في البلاد العربية (الجمهورية العراقية ـ الجمهورية اليمنية) جامعة الدول العربية ـ الإدارة الثقافية مطابع مدكور بالقاهرة، ١٩٧١م ص٤٧.

(٣) نشوء الحضارات ص١٠٢.

«انليل» تعني إله على حد زعمه فتكون العبارة الإله يحفظ وأن العمود المرسوم بجوار تي وانليل يرمز إلى الحياة، هذا افتراض على أساس أن النقش حدث في حضارة جمدة نصر.

٢ - والافتراض الثاني: إن كان النقش حدث في حضارة أوروك فبما أن أوروك جزء من السومريين فهو يفترض أن السومريين هم أصحاب النقش وهذا مثل أنا في الفصل فحتمًا أنا في المدرسة.

لكنه خلص بأن هذه الكتابة إذا كانت في أوروك فهي لا يمكن قراءتها.

وهذا نموذج آخر:

«من خلال ما تقدم نلخص المسألة على الشكل التالي:

إن المقطع المسماري Ni له عدة قراءات هي:

ني - لي - ي - بو - أو - آ - يا.

Id - a - u - bu - I - li - ni

وأن السياق هو الذي يحدد القراءة المناسبة وأنه من خلال الأمثلة التي قدمها «بتيناتو»[1] والتي اختار منها قراءة يا (ia) مفضلا إياها على غيرها من القراءات أوصلته إلى باب مغلق في تفسير الكلمات التي ورد فيه المقطع ففسر كلمة (ايش - ما ني) (اسمعني) على أنها كلمتين (ايش - ما) أسمع.

وأما المقطع المتبقي (ني) فقال عنه أنه (يا) وربما يكون اسم الإله.

ومثلها فعل مع كلمة (أي - بي + - ني) إذ اعتبر المقطعين الأولين من جذر (أنبأ) أما المقطع (ني) فاعتبره (يا) وقال بأنه اسم إله فيصبح المعنى (أنبأ - يا) و(اسمع - يا) أي: أنبأ الإله يا، أسمع الإله يا).

وتسللت بعض الأقلام المدسوسة لتشرح وتفسر هذا الإله (يا)؟! وشدوا الحروف ومدوا المقاطع وخرجوا ببدعة غريبة مفادها: (إذا كان (يا) إلها فهو بالتأكيد الإله اليهودي يهوه!!

(١) آثاري يهودي وسيتضح بعد قليل.

ودغدغت هذه القراءة الحلم القديم حلم الحدود الممتدة من الفرات إلى النيل وصار كل صحفي يهودي صهيوني علامة بالآشوريات والكتابات المسمارية وظهر تيار إعلامي خبيث راح ينتشر كالسرطان في بعض الأوساط المتزمته.. ولكن هذا التيار حينما بدأ يصل إلى المعاهد العلمية انبرى له مجموعة من كبار علماء اللغات والمسماريات القديمة أمثال جيلب وروبيرت بيغز وايتنغ وغيرهم وكان لمقالاتهم ودراساتهم دورها الكبير بانتهاء الزوبعة»[1].

على أنه يوجد ألواح مليئة بالكتابات لهذه الحضارة (إبلا) على ألواح مجموعها في حدود أربعة آلاف رقيم[2].

وهذه الكتابة المسمارية تحتمل تأويلات وتقبل الكثير من الهوي ما لم يكن هناك رادع من أمانة.

إن الأستاذ: «روبرت بيغس» أستاذ الأشوريات في المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو والاختصاصي الذي يعمل منذ عام ١٩٦٣م على رُقُم مشابهة لرقم إبلا مكتشفة في (أبو صلابيخ) بالعراق الشقيق يؤكد على صعوبة قراءة وفهم النصوص المسمارية وتعقيد طريقة الكتابة في إبلا فيقول:

«إن فيها استعمالاً كثيرًا للإشارات الرمزية الأمر الذي يعني أن الكلمات المقصودة لايمكن أن نعرفها إلا من مقابلها في اللغة السومرية. ولاندري ما هي اللغة الإبلائية، ثم إن الأدوات التي تربط الكلمات بعضها ببعض لتشكل الجملا قد لاتكون موجودة إطلاقًا وإذا وجدت تكون مكتوبة بالمقاطع وعلى هذا لا يمكن معرفة معناها إلا تخمينًا وبالمقارنة مع ألفاظ مماثلة في لغة «سامية» أخرى ويبدو في الحقيقة عدم وجود نصوص مكتوبة كليًا بالمقاطع الإبلائية وعلى هذا فالنصوص الإبلائية في كثرتها الساحقة لا يمكن فهمها إلا إذا أمكن تفسير الإشارات الرمزية السومرية... إن معظم الإشارات المسمارية لها أكثر من قراءة مقطعية وكذلك واحدة أو أكثر من القراءات الرمزية»[3].

(١) امبراطورية ابلا، ص٣٩.

(٢) انظر المصدر السابق. ص٣٠.

(٣) امبراطورية ابلا، ص٣٥-٣٦.

«لقد قامت الباحثة الألمانية المختصة بالسومريين (شنيدر) بمحاولة تفسير أصل لقب (انسي) عن طريق تحليل المقاطع الأساسية المكونة له ورأت أن المقطع الأول يعني عصا المراقب على مجموعة من العاملين أما المقطع الثاني فيعني التدرج المتكون أثناء بناء المعبد ويعني المقطع الثالث (سي) الفعل «أهال» . نستنتج أن (انسي) كان في البلدان مراقبًا على العاملين في بناء المعبد كما كان كبير كهنة روما باني جسور في وقت ما . . .

أما مقابر (أور) فقد فاقت مقابر كيش . وقد أثار اكتشافها من قبل عالم الآثار (ل. فوللي) دهشة حقيقية على مستوى العالم ففيها ثلاثة قبور لثلاثة ملوك الأمر الذي دلت عليه الكتابات التي وجدت على الأشياء التي تخصهم . وقد ورد اسم (مسكالا مدوغ) و (آكلا موغ) والملكة (بوآبي) (هذه قراءة افتراضية)[١] .

بنصهم أن القراءة مجرد افتراض . . .

ومع هذا كله فإن أراء الأثاريين وأحكامهم تتغير من وقت لآخر:

«لقد ظلت الخرائب الحجرية العظيمة في (زمبابوي) في رودسيا[٢] (مدة طويلة لغزًا من الألغاز، وكانت تحيط بها أغرب الآراء ـ فمن قائل إنها قد بنيت على يد الفينيقيين[٣] ومن قائل إنها كانت (الأوفير) الذي حصل منه سليمان ـ عليه السلام ـ على ذهبه ومن قائل إنها كانت نقطة أمامية لمصر القديمة[٤] ولو أن أية نظرية من هذه النظريات ثبتت صحتها لكان لابد أن نعيد النظر من جديد في جميع آرائنا عن التاريخ القديم[٥] إلا أن قطعة لا قيمة لها من الخزف الصيني عثر عليها في أساس البناء خلال حفائر علمية منظمة بإتقان وعناية أثبتت أن ما كان يسمى معبدًا هو بناء يرجع

(١) نشوء الحضارات، ص١١٨ ـ ١١٩ .

(٢) في جنوبا إفريقيا.

(٣) ومقر حضارتهم في سهل لبنان.

(٤) وهذا بالقياس على إمكانية الوصول والاتصال في العصر الحديث .

(٥) حيث يعني امتداد الممالك السالف ذكرها من مقارها إلى هذه النقطة البعيدة جدًا .

إلى العصور الوسطى[١] ولابد أن يكون من عمل الإفريقيين الوطنيين أنفسهم»[٢] أي المبنى من عمل الإفريقيين في هذه المنطقة لكن لماذا لا تكون القطعة الخزفية قديمة القدم الأول الذي كانوا يظنونه وعلى أي أساس سُمي هذا المبنى معبدًا وعليه فإن كثيرًا من المباني الأثرية تسمى معابد بدون دليل وهذا مشعر بتغير الحكم عندهم .

لكن «قبل عام ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨م كان المؤرخون يعدون شريعة حمورابي أقدم شريعة مدونة في تاريخ العالم ـ أي أقدم حكم وضعي ـ ولكن اكتشاف المؤسسة العامة للآثار العراقية لشريعة مدونة في تل حرمل (شأيم القديمة) في ذلك العام ودرسها ونشرها وتاريخ الطبقة الأثرية التي وجدت فيها غيّر تلك المقولة العامة لأن الشريعة الجديدة التي أطلق عليها شريعة اشنونا (نسبة إلى مملكة اشنونا الكائنة في الأراضي الخصبة ما بين دجلة غربًا وديالى شرقًا وامتدت حدودها إلى ضواحي بغداد الشرقية) .

نقول: إن هذا الاكتشاف الجديد قد مد في تاريخ ظهور الشرائع المدونة في العراق القديم بما لا يقل عن القرن الواحد قبل شريعة حمورابي (١٩٩٣ ـ ١٧٥٠ ق . م) ولم يكن يمضي عام واحد على هذا الاكتشاف حتى وجد الباحثون في الولايات المتحدة الأمريكية من بين الألواح القديمة المخزونة في متحف بنسلفانية (من نفر) لوحًا آخر مدون بشريعة أقدم من شريعة أشنونا وهي شريعة لبث ـ عشتار (الملك الخامس من ملوك سلالة ايس) ثم عقب ذلك اكتشاف قانون مؤسسة سلالة أور الثالثة المسمى «أور ـ نمو» (١٢١٢ ـ ٢١٩٤)[٣] الذي يسبق بدوره شريعة لبث ـ عشتار بما لا يقل عن مائة عام»[٤] .

فقد كان الحكم أولاً: أن ما يسمونها شريعة حمورابي هي أقدم شريعة مدونة في تاريخ العالم .

(١) العصور الوسطى بالنسبة لأوربا .

(٢) مدخل إلى علم الآثار ص٢٠ .

(٣) يبدون أن أرقام التاريخ مقلوبة أو أن فيها خطأ لكنها هكذا في النص .

(٤) طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار ص٦٨ .

ثم نسخ هذا الحكم وأصبح أن أقدم شريعة مدونة هي شريعة أشنونا ثم نسخ هذا الحكم الثاني وأصبح أن أقدم شريعة في العالم شريعة لبث ـ عشتار ثم نسخ هذا الحكم الثالث وأصبح أن أقدم شريعة في العالم هي شريعة مؤسس سلالة أور الثالثة.

والكتاب المنقول عنه هذه النسوخ المتتالية طبع عام ١٤٠٠هـ ولم أجد ما ينسخ الحكم الأخير.

وكل هذه التغيرات ناشئة عن تجدد الاكتشافات الأثرية فالاكتشاف المتأخر قد يلغي حكم معلومة أو خبر أخذ من مكتشف سبقه.

«بعد مرور خمسة أو ستة آلاف عام على قيام الثورة الزراعية في الشرق القديم نلاحظ أن معلوماتنا عن تلك المرحلة التاريخية قد ازدادت في العشرين عامًا الأخيرة بسرعة كما أن آراءنا عنها تتغير بعد كل سبر جديد في آسيا الأمامية وهذا إن دل إنما يدل على خصوصية المواد التي تركها أسلافنا منذ آلاف السنين ويدل أيضًا على خصوصية دراسة آسيا الأمامية من جهة أخرى»[١].

لكن هل الآثار كلها لم يتغير فيها شيء ولم يفسد منها شيء منذ تركها أصحابها وهي الأدلة التاريخية والمصادر الأولية للتاريخ؟

لقد تعرضت مراكز العمران والحضارات القديمة إلى التدمير والتخريب الجزئي والكلي الناشئ من عوامل مختلفة مدمرة كالزلازل والبراكين والحرائق والأعاصير والفياضانات أو من جراء الحروب وما يصاحب ذلك قديمًا وحديثًا من تدمير المدن ومآثرها وبقاياها الفنية[٢] وأيضًا تتعرض كثيرًا من الآثار للإتلاف وللنهب والسرقة والاستيلاء والشراء والإهداء قديمًا وحديثًا ومن ذلك:

«نذكر من أشهر التنقيبات التي أجراها المنقبون الألمان في مدينة بابل الشهيرة طوال عدة سنين (١٨٨٩ ـ ١٩١٧) وشملت معظم أجزاء المدينة في معابد وقصور ودور سكن وبوابات. ولكن التحريات لم تتغلغل إلى الطبقات الأثرية العميقة التي

(١) نشوء الحضارات ص٦.
(٢) انظر طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار ص٦٩.

تمثل الأدوار القديمة من تاريخ بابل ذلك لأن ارتفاع مناسيب المياه الجوفية حال دون ذلك بحيث أن أدوار السكن وبقايا المدينة المهمة من العصر البابلي القديم الذي اشتهرت به بابل... نقول أن بقايا هذا الدور والأدوار والأقدم منه تقع تحت مستوى تلك المياه»[١].

و «شئون الحياة المتنوعة المعقدة لا تسعفنا المصادر والوثائق التي جاءت إلينا للوقوف على أسرارها وتفصيلاتها سوى الملامح العامة وبعض الجوانب من حياة المجتمعات القديمة»[٢].

و «كان في سدوس[٣] شاخص كالمنارة ـ مسلة ـ وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في جدرانها فهدمها أهل سدوس لاختلاف بعض السياح من الإفرنج إليها»[٤].

ومثل ذلك حدث في اليمن ومواضع أخرى من أمكنة الآثار[٥].

ولقد «هدمت قرى ومدن في الجاهلية وفي الإسلام من أجل استعمال أنقاضها في أبنية جديدة... حصن ذي مرمر وهو من المواضع الجاهلية المهمة وكذلك شبام سخيم يسخم وبقيا معروفين زمنًا طويلاً بعده ثم جاء أحد الأتراك واسمه حسن باشا فهدم حصن ذي مرمر لينشئ في أسفله مدينة جديدة أخذ معظم مواد بنائها من شبام سخيم ثم قال:[٦]

إن حكومة اليمن قامت بعد سنة ١٩٤٥ ببناء ثكنة لجنودها في المنطقة الشرقية من اليمن في مأرب على نمط الثكنة التي بناها الأتراك في صنعاء فهدموا أبنية جاهلية

(١) المصدر السابق ص٦٦.
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.
(٣) بلدة قرب الرياض في الشمال الغربي.
(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، مكتبة النهضة، بغداد، العراق، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م، ١/١١٧.
(٥) انظر المصدر السابق بنفس الصفحة.
(٦) أي المؤلف.

كانت لا تزال ظاهرة قائمة واستعملوا الحجارة الضخمة التي كانت مترامية على سطح الأرض وأزالوا بعض الجدر والأسوار وحيطان البيوت عند بناء تلك الثكنات فطمسوا بذلك بعض معالم تاريخ اليمن القديم»[١].

فكم من مباني أثرية أزيلت باستخدام موادها أو تماثيل وفنون نقلت من مقار حضاراتها وحُسبت أنها إنتاج حضارات لاحقة مثلاً.

ويقول آخر «تلك الآفة الخبيثة التي ابتليت بها أمة العرب في كل أمصارها ذات التاريخ المجيد ـ في مصر وسورية والعراق، وفي بلاد العرب نفسها ـ تلك الآفة هي هدم المباني القديمة، واستخدام أنقاضها في مبان جديدة، بل ليت الأمر اقتصر على ذلك، وإنما تعداه إلى تحطيم كثير من الآثار، والعبث بعدد وافر من المقابر بحثًا عن كنوز قد يجدها هؤلاء العابثون هنا وهناك أو سرقة العدد من التحف الأثرية»[٢].

«قد لاحظت أن معظم حجارة المعبد قد نقلها البدو حيث استعملوها في إقامة شواهد لقبورهم.

وعلى بعد قليل إلى الجهة الشمالية وجدت أساسًا لبناء أصغر أُقدّر أنه أحدث عهدًا من المعبد ويجوز أن يكون قد بني من مواد أخذت من المعبد ذاته»[٣].

وقد احترق الجامع الأموي بدمشق يوم السبت ١/ ٤/ ١٣١١هـ مع سوق القباقبية والقوافين وسقط سقف الجامع كله وتهدم وكان سبب الحريق عامل صيانة في سطح المسجد اشتهى دخان (نارجيلة) فأشعل النار فامتدت إلى المسجد كله»[٤].

وقبل هذا وبعده فقديمًا قد «استعمل القادة سياسة حرق المدن والمواقع والمزارع وقتل السكان بالجملة فأدى ذلك إلى اندثار الآثار»[٥].

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/ ١١٧.

(٢) دراسات في تاريخ العرب القديم: د. محمد بيومي مهران ـ المطابع الأهلية للأوفست الرياض ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ص١٠.

(٣) شمال الحجاز ص٢٣٦.

(٤) انظر الجامع الأموي، علي الطنطاوي ـ مطابع دار الفكر دمشق سوريا الطبعة الثانية ١٣٨٠هـ ص٧٢ ـ ٧٥.

(٥) المفصل في تاريخ العرب ١/ ١١٧ ـ ١١٨.

و «توفرت في المناطق الشمالية ـ والكلام عن قارة إفريقيا من حيث صمود الآثار عن التلف من عدمه ـ الجافة أدلة أركيولوجية أحسن مما في المناطق الإستوائية الرطبة والحارة والحق أن هناك مناطق كساحل العاج مثلاً أصاب الأدوات المعدنية فيها الصدأ وأتلفها بمدة أقل من قرن فأصبح من العبث القيام بحفريات أركيولوجية لأي غرض فيها»[١].

«نبذ الملك إخناتون ـ زوج نفرتيتي ـ عبادة آمون (الذي كان أصبح الإله الرئيسي لمصر) وغيره من الآلهة بما فيها أوزيريس وأمر بعبادة آتون وهو مظهر آخر لـ: إله الشمس [رع] ونصب نفسه كبيرًا للكهنة وبذلك أنقص عدد رجال الكهنوت الأقوياء وجردهم من أملاكهم وأمسك هو بزمام الدين في يديه لكي يعلي ويرفع من سلطة النظام الملكي ولم يرض الناس عن ذلك ولذا وجد زوج ابنته وخليفته توت عنخ آمون نفسه مضطرًا «لإصلاح الإصلاح» وإرجاع الآلهة القديمة ولكن حتى بعد هذا التسليم والإذعان فإنه لم يجد مفرًا من أن يدفن اخناتون سرًا بل إنه هو نفسه دفن في مكان سري وقام خليفته بطمس كل ما سجل عنه»[٢].

فكم من الآثار أصابها التلف أو النقل من أماكنها أو التغيير أو الطمس مما يكون له تأثير على استنتاجات الباحثين الأثريين.

«ومن المعروف أن كثيرًا من أحجار القبور القديمة أو لوحات الشواهد كانت تزال من أماكنها لتوضع على قبور جديدة أو تستعمل كشواهد لقبور جديدة بحيث كانت معالم القبور الأصلية تضيع وتنمحي مع الزمن»[٣] ومثل هذه التغييرات للآثار ما المانع أن تحدث حتى في الآثار المدفونة كالنقل والنهب والتغيير وتعدد الاستعمالات.

أما عن النقوش التي على التماثيل فإنه إذا لم يصادف هوى في نفس الآثاري

(١) الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، جفري باراكلو ص١٨٧.

(٢) ما وراء التاريخ. وليام هولز ص٤٦٦.

(٣) أجدادنا في ثرى بيت المقدس: كامل جميل العسلي، مؤسسة آل البيت طبع عمال المطابع التعاونية، عمان، الأردن، ١٤٠٢هـ ص٢٤٥.

فيمكن أن يقول لك: «لقد حمل التمثال نقش الملك الآشوري من القرن الحادي عشر قبل الميلاد ومن الجائز جداً أن تكون الكتابة قد نقشت بعد قيام التماثل بوقت طويل»[١].

وهذا الكلام ينسحب بدوره على عامة الكتابات التي على التماثيل والأعمال التي خلفها أو دونها السابقون مما تعتبر مصادر أولية في التاريخ.

ومع ذلك فإنه لا يهتدى إلى التاريخ أحيانًا:

«ويعتقد بصفة عامة أن أقدم الصور الملونة في الكهفين التاسع والعاشر يرجع تاريخها إلى القرن الأول ق. م. غير أن البعض ناقشوا صحة هذا التاريخ ويعتقدون اعتقاداً جازمًا أنه ليس من بين الصور الملونة بهذين الكهفين ما هو أقدم من أوائل القرن الثاني ب. م»[٢].

فالكتابة أو النقش أو التصوير يمكن أن يصاحب الصنعة أو أن يتخلف عنها بمدد متفاوتة قد يصل التفاوت إلى أكثر من ألف سنة.

ويبقى بعد ذلك ختامًا لصلاحية الآثار واستنتاجات الآثاريين لكتابة التاريخ وتثبيته ورفعه إلى مصاف المواد العلمية[٣] قول مهم وواقع كثيراً في الآثار وهو: «أن الأدلة الأثرية الإيجابية قد تكون مبهمة بينما تكون الأدلة السلبية غير ذات قيمة في الغالب.

فالقبور الفخمة أو القصور قد تكون دليلاً على وجود رؤساء للحكومات - إذ وجدت مثل هذه الحكومات - إلا أن غياب هذه القصور أو القبور لا يعد دليلاً حاسمًا يثبت عدم وجود هؤلاء الرؤساء»[٤].

(١) نشوء الحضارات ص١٠٣.

(٢) معجم المصطلحات الأثرية ص٢٥، و ق. م. تعني قبل الميلاد و ب. م تعني بعد الميلاد.

(٣) انظر عن رفع علم التاريخ لمصاف العلوم التجريبية في كتاب: طرق البحث العلمي في التأريخ والآثار ص٩ وما بعدها.

(٤) الرومان: حسين الشيخ دار المعرفة الجامعية الاسكندرية مصر ص٢٨.
وانظر: مصر القديمة، جان فير كوتير. ترجمة ماهر جويماني - دار الفكر للدراسات القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٩٣م ص٥٥.

ومعنى كلامه أن الأثر الموجود قد يكون مبهم الدلالة ويحتاج إلى تخمين، أما عدم وجود أثر فإنه لا يعني عدم وجود ذات الشيء المبحوث عنه إذ أن عدم وجود الشيء لا يدل على عدم وجود الشيء المبحوث عنه بل يدل على أن الباحث فقط لم يجد الشيء المبحوث عنه، فقد يكون موجوداً لكن لم يتوصل إليه أو يكون قد تلف بطريقة أو بأخرى.

ولنبش الاثار في بلاد المسلمين وتعظيمها أسباب كثيرة تظهر حينًا وتختفي حينًا آخر وهي أحد السهام القاتلة التي أطلقت من الغرب الملحد صوب العالم الإسلامي فقد كان «من المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام الدعوة إلى إحياء الحضارات القديمة وهي سابقة لحضارة الإسلام وقد ظهرت هذه الدعوة بتوجيه من الأوربيين والأمريكيين وارتفعت بها في وقت واحد في كل من تركيا ومصر والشام والعراق وشمال إفريقيا وفارس والهند واندونيسيا وكان مظهرها في كل هذه البلاد واحداً أو كانت أساليبها متشابهة لأن المحرك لها واحد، والدافع إليها متعاون متفاهم ومصمم على إلقاء حاجب كثيف من الأوهام والشكوك والأباطيل، يحاول أن يحجب به نور الحضارة الإسلامية عن الأبصار ويبعدها عن الأنظار ويفتح لهم نوافذ على الحضارات القديمة التي سادت ثم بادت ولكن المستعمر عمل على إحيائها وبعث أخبارها وأمجادها ليشغل بها أفكارنا ويملأ بها أدمغة شبابنا حتى لا تتسع لأخبار حضارتهم - أو تعجب بتاريخ أمجادهم - الإسلامية الذين ملأوا الدنيا نوراً وعلمًا وهدى ورشاداً»[١].

علمًا أن حضارة المسلمين «كانت سبيلاً إلى النور انقشعت به غشاوات الجهل في الشرق والغرب وكانت طريقًا إلى المدنية الأصيلة الواعية التي حملها المسلمون إلى الناس كافة وما حضارة اليوم إلا وليد لتلك الحضارة الضخمة التي أوقد مشاعلها وأحيا مصابيحها رجال الإسلام وحملة القرآن وجنود محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ولولا تلك الحضارة بعد الله تعالى التي ارتفعت بالعلوم والآداب لما

(١) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام محمد محمود الصواف - دار الاعتصام - القاهرة - توزيع دار الإصلاح. الدمام - الطبعة الثالثة ١٣٧٩هـ ص١٣٥ - ١٣٦.

كانت حضارة القرن الرابع عشر الهجري أو القرن العشرين الميلادي»[١].

«ولما دخلت أوربا في مغامرة غزو القارات والاستيلاء على كل مكان (خال) من (حضارة) واكتشف الغربيون آنذاك عوالم جديدة أخذوا يتنافسون على احتلالها ويتسابقون على الاستيطان فيها فتوسعوا في المعمورة كلها التي تحولت إلى مرتع يقسم ويوزع ويستعمر وإن كان ذلك قد تم بمجرد دوافع اقتصادية وعسكرية معروفة فإن الدول الغربية كانت في حاجة إلى عملية تسويغ لهذا الاحتلال الذي لم يكن يساير فلسفة الديموقراطية والحرية ـ التي يدعون الناس لتطبيقها ـ خاصة وأن بعض الأوساط التقدمية كانت تحترز ولم تكن مقتنعة تمامًا بشرعية الحركة التعميرية ولا بضرورة السيطرة الإمبريالية فإن سياسة التوسع العسكري نفسها لم تكن تساير أساسًا المبادئ والمثل العليا التي بنيت عليها فكرة الرقي البشري ومن ثم انبعثت نزعة عميقة الرسوخ في الأذهان منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا تقول بتفاضلية الثقافات والمجتمعات والحضارات والأديان، وآلت في نهاية المطاف إلى نظرية (العقليات) التي ظلت وكأنها القول الفصل إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية فأصبح من المسلم به أن البشرية في تطورها التاريخي وسيرتها الكونية نحو الحضارة أصناف وأقسام متباعدة وأن الحضارة الغربية تمثل خلاصة التطور بيد أن المجموعات الأخرى ما تزال (بدائية) تعيش طور التوحش والهمجية والقبلية وشتى أوجه الانحلال والجهل والفقر والبؤس والتخلف»[٢].

ولسنا بصدد الرد على افتراءاتهم فالموضوع مختلف.

وفي نبش الحضارات السابقة وطمس حضارة الإسلام يحاول الغرب إثبات تطوره ورقيه الحضاري مستندًا إلى جاهلية الرومان والإغريق وأن الفنون والعلوم تغرف من حضارتهم السابقة واللاحقة ويرى الأوربيون بناء على ذلك أنه أصبح لزامًا على «المجتمعات الأوربية المتقدمة أن تكون مسئولة أمام ضميرها وأمام التاريخ

(١) المصدر السابق بتصرف ص١٣٦.

(٢) مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ مجموعة مقالات ـ الجزء الثاني. مقالات بعنوان الحياة الاجتماعية الإسلامية كما صورها بعض المستشرقين. د. عبدالوهاب أبو حديبة ص١٤١.

عن بقية الشعوب المتأخرة فواجب عليها أن تستعمرها حتى تلقنها معاني الحضارة وتسمو بها إلى مستويات الرقي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وهذا ما أسماه رديوارد تبلن: (حمل الرجل الأبيض) أو ما كان يدرسه أساتذة الفلسفة الفرنسية إلى تلاميذ البكالوريا بعنوان (الاستعمار)»[١].

وهذا معناه تهيئة الشعوب الأوربية لقبول مبدأ التدخل في الدول الأخرى المستعمرة بأي صورة من صوره العسكري منها والثقافي وغير ذلك والمقصود من تحضر الشرق وسوقهم إلى الحضارة في نظر الغرب استعباده وإخضاعه لهيمنة الغرب سياسيًا اقتصاديًا وثقافيًا قال «مؤرخ نابليون عن هدف غزوته لمصر وعن مقاصد فرنسا في الشرق: (لقد أراد نابليون أن يقدم نموذجًا أوربيًا للشرق وهو فوق هذا أراد أن تكون حياة الناس أكثر سعادة، وهو أرادهم أيضًا أن يجنوا كل الفوائد التي تهيئها لهم الحضارة [الأوربية] المتكاملة) فإذا تحضرت مصر ـ وهي مفتاح الشرق ـ تحضر الشرق كله فيسهل استعباده»[٢].

ويقولون أيضًا إن «أية دراسة عن الاستعمار كظاهرة تاريخية لن تكون كافية ما دامت تقتصر على الاستعمار الأوربي في العصور الحديثة وتتجاهل الاستعمار التقليدي في العالم القديم»[٣].

«إن ازدياد اهتمام المؤرخين في الغرب بتاريخ آسيا وإفريقيا بما في ذلك المؤرخون في الإتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية تؤثر فيها إلى حد ما الاعتبارات السياسية السائدة أو بعبارة أخرى أنه يعكس إدراك الأهمية المتزايدة «للعالم الثالث» في السياسة المعاصرة وهي من وجهة نظر الحياة اليومية تحقق أهمية عملية لفهم أحسن لتقاليدهم وتطورهم وهذا هو الشاغل الذي يقف وراء الإصرار في الولايات

(١) مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية ص١٤٢.

(٢) الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: قاسم السامرائي ـ دار الرفاعي للنشر ـ الرياض ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ص٥٣.

(٣) الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية ـ جفري باراكلو ص١٧٤.

المتحدة وغيرها على طلب «كورسات توجيهية» عن حضارات آسيا[1] . . . ولكن لاريب في أن أثرها في توسيع أفق نظر المؤرخ يستحق التقدير فهي أولاً : جعلت المؤرخين الأوربيين يزداد إدراكهم لتحديدات نظرتهم التي تنظر إلى أوربا كمركز على العالم وفي رغبتهم ببذل الجهود لتوسيع التحديدات في الزمان والمكان وثانيًا : وهو الأخص أنها أدت إلى موقف مفتوح ونقدي أوسع تجاه قضايا الاستعمار بين القديم والحديث كما أنها أدت إلى أن لا تقتصر الدراسة أثرها على وجهة نظر القوة الاستعمارية وإنما يجب أن تأخذ هذه الدراسة بوجهة نظر الشعوب التي تأثرت من الاستعمار وأن تعالج كل تاريخ التوسع الاستعماري بعملية مواجهة تشارك فيها كافة الأطراف .

يتوجه المؤرخون اليوم بتأثير الحوادث العالمية الحديثة نحو مثل أعلى منطوقة نظرة للتاريخ تكون فيها لكل أمة أو حضارة في أي جزء من العالم مكان وادعاء مساوٍ ما لغيرها من الأمم أو الحضارات»[2] .

الغرب يرى أن «العالم الخارجي الذي انتشر فيه الإسلام من بلاد العرب كان هو العالم الإغريقي الذي ورث المدنية اليونانية ـ الرومانية وكانت الفتوحات الإسلامية الأولى كلها تقريبًا داخل العالم الإغريقي»[3] .

«يقول المستشرق لورنس براون : «لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ولكننا بعد اختبار لم نجد مبررًا لمثل هذه المخاوف .

لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي وبالخطر الأصفر وبالخطر البلشفي . . . إلا أن هذا التخوف كله لم يكن كما تخيلناه إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا وعلى هذا

(١) وضرب المؤلف أمثلة لمؤلفين غربيين :
١ ـ كورس توجيهي عن المدنية الآسيوية .
٢ ـ كم عدد التواريخ التي ينبغي أن ندرسها .
٣ ـ تدريس التاريخ العالمي ـ هامش ٤٢٥ ص١٧١ نفس الكتاب المنقول منه .

(٢) المصدر السابق ص١٧١ ـ ١٧٢ .

(٣) وجهة الإسلام، جب، ص١٢ .

يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ثم رأينا البلاشفة[1] حلفاء أما الشعوب الصفر[2] فهناك دولة ديمقراطية كبرى تقاومها . . .

ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي»[3] .

أما ريلاند فيقول : «إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أمانًا وأشد قوة»[4] .

وأما المستشرق مورو بيرجر فيقول : «إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجًا عن وجود البترول بغزارة عند العرب بل بسبب الإسلام، تجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قوتهم لأن قوة العرب تتصاحب دائمًا مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره»[5] .

أما المستشرق لورنس براون فيقول : «إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة العالم وخطرًا . . . . أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير . . . يجب أن يبقى العرب والمسلمون متفرقين ليبقوا بلا قوة ولا تأثير»[6] .

ويوجين روستو مستشار الرئيس الأمريكي جونسون في الستينات يقول «لاتستطيع أمريكا إلا أن تقف في الصف المعادي للإسلام أي إلى جانب العالم

(١) البلاشفة يعني بهم الشيوعيين .

(٢) الشعوب الصفر يعني بهم الصينيين .

(٣) التبشير والاستعمار في البلاد العربية . مصطفى خالدي وعمرو فروخ ـ المكتبة العصرية ـ بيروت . لبنان ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٣م ص١٨٤ .

(٤) الاستشراق والخليفة الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق، كتاب الأمة، سلسلة فصلية تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، في دولة قطر صفر ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى ص٣٤ .

(٥) أفيقوا أيها المسلمون وانظر ماذا يراد بكم . أحمد الشريف ـ مكتبة الصحابة ـ جدة ـ مكتبة التابعين ـ القاهرة ص٣٥ .

(٦) المصدر السابق ص٣٩ ـ ٤٠ .

الغربي والدولة الصهيونية لأنها إن فعلت غير ذلك تنكرت للغتها وفلسفتها ومؤسساتها. . . .

إن هدف العالم الغربي في الشرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلامية»[1].

ويقول أيضًا: «لقد كان الحوار محتدمًا بين الإسلام والمسيحية على الدوام منذ القرون الوسطى بصورة أو بأخرى ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب أي خضعت الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية والتراث الإسلامي للتراث المسيحي وتركت هذه السيطرة آثارها البعيدة في المجتمع الإسلامي حتى بعد انتهاء أشكالها السياسية بحيث جعلت المواطن العربي يواجه معضلات ومشكلات هائلة وخطيرة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم لا يدري كيف يتفاعل معها في علاقاته الداخلية والخارجية على السواء»[2].

ويقول أيضًا: «يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية»[3].

«أنتم أيها الإسرائيليون لا يجب أن تشعروا بالشفقة حتى تقضوا على عدوكم لا عطف ولا رثاء حتى ننتهي من إبادة ما يسمى بالحضارة الإسلامية التي سنبني على أنقاضها حضارتنا»[4].

والغرب يعرف الإسلام والحضارة الإسلامية حق المعرفة ومن ذلك قولهم: «الحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات، إنه أعظم من ذلك كثيرًا هو مدنية كاملة ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا العالم المسيحي ولم نقل المسيحية

(١) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، محمد الغزالي، دار الصحوة، القاهرة، ط١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م ص٤٢.

(٢) أفيقوا أيها المسلمون ص٤٩ - ٥٠، معركة الإسلام، محمد محمود الصراف، ص١٨٣.

(٣) المصدر السابق ص٥٠.

(٤) لورنس العرب ص٧ من كلام مناحم بيجن - رئيس وزراء اسرائيل السابق.

ولقلنا الصين بدل أن نقول ديانة كونفو شيوس»[1].

«إن التنوع والاختلاف أكثر ملائمة لإسرائيل من التوحيد والانسجام في الشرق الأوسط وعلى هذا فإن تمكنت كل دولة في المنطقة حيث نجد عدد غير العرب مساويًا لعدد العرب من ممارسة شئونها الخاصة بسلام عندئذ لا يقلق أحد من وجودنا، فضمن فسيفساء من الدول فقط نستطيع أن نعيش ونندمج دون أية صعوبة لكننا نشكل شوكة في جسم كتلة متجانسة»[2].

كان من المفترض عند امتداد الإسلام وانتشاره في مناطق متباينة من حيث العادات والموروثات واشتماله على أجناس كثيرة سيحول ذلك حتمًا دون بلوغ وحدة حقيقية في المدنية الإسلامية المترامية الأطراف لكن ذلك تلاشى ولم يحدث أي شيء من ذلك لأن أصول المدنية ونزعات الفكر بقيت واحدة بوجه عام[3] ومما ساعد في ذلك «أن الإسلام لم يتعرض أثناء تشييد مدنيته لثقافات متباينة تتنافس في التأثير فيه»[4] بل هو المؤثر فيها المحتوي لها وكانت «وحدة ثقافته تلك هي قوة الثقافة الإسلامية الفتية على إضعاف ذكرى الثقافات الموروثة بل على محوها في بعض الأحيان من نفوس معتنقيه وإحلال تاريخ الإسلام وتقاليده السالفة محلها. نسي الناس في كل الأقطار تقريبًا ما كان لهم من ماض قبل الإسلام - نسي المصريون فراعنتهم وبطالستهم ونسي الأتراك خواقينهم وهلم جرا ورجعوا إلى بلاد العرب والخلفاء الأولين يتخذون منهم أسلافًا روحيين»[5].

وعند نبش الآثار السابقة للإسلام وتقديم تاريخها وثقافتها لشعوب العالم

(١) وجهة الإسلام، جب، ص٩.

(٢) من كلام أبا إيبان وزير الحزب الاسرائيلي السابق - نقلته من كتاب لورنس العرب على خطي هرتزل - تقارير لورنس السرية - زهدي الفاتح - دار النفائس - بيروت - الطبعة الرابعة ١٤١١هـ - ١٩٩١م ص١٥.

(٣) انظر وجهة الإسلام، جب، ص١٠.

(٤) انظر وجهة الإسلام، جب، ص١١.

(٥) المصدر السابق ص١٣ والسبب أن الوثنيات كلها في صف واحد تقبل أن يأخذ بعضها من بعض أما الإسلام فهو في صف لا يقبل أن يتأثر بها بل هو المؤثر فيها.

الإسلامي يحدث العكس فيتفتت العالم الإسلامي ويتبعض حيث تختلف تلك الثقافات وتتباين فيما بينها وبين الإسلام فهي مختلفة من فرعونية وفينيقية وآشورية وكلدانية وسومرية وثمودية وسبأية وحميرية فتظهر الوثنيات السابقة وغير ذلك كالعادات والتقاليد والموروثات الوضعية مما يؤثر كل منها في جزء من بلاد الإسلام وتكون بمجموعها سببًا رئيسًا للتفرقة وعدم الاجتماع إطلاقًا وتتباين الشخصيات التي تتخذ قدوة بأنواع من الجاهليين[١] فتقطع رابطة الإسلام وتصبح كما كانت قبل الإسلام دولاً متناحرة وأقوام متقاتلة وعقائد متباينة فيما بينها البين ومتفقة على عداوتها للإسلام، وهذا يعني أن الآثار أكبر رافد ومغذ للقوميات الوطنية في بلاد المسلمين ويعني أن الآثار وعلمها أكبر معول هدم وتمزيق وتفتيت وإضعاف للوحدة الإسلامية وللعالم الإسلامي وسبب ذلك أن العاطفة والولاء عند المسلم كلما اتجهت للوطن يضعف بناء المجتمع المسلم وأن ضعف المجتمع المسلم انتصار حاسم لقوى أوربا[٢].

وفكرة الوطنية لابد لها من مثل أعلى تجتمع عليه[٣] والمثل الأعلى يكمن في عظماء البلد وقادة حضارته ولا يكون عند الوطنيين غالبًا إلا من الآثار الجاهلية إذ هو المجد الغابر.

ويتكلم جب عن الشباب الأندونيسي وتفاعله مع نبش الآثار بأن «نتائج البحث العلمي الأوربي وتكوين تاريخ امبراطورية «ماجا باهت» أحيا لهم مجداً قديمًا يفخرون به وإن غلوا أحيانًا في تقدير ذلك المجد، واتخذ الشبان الجاويون مثلاً عاليًا في البطولة من شخصيات التاريخ الغابر العظيمة كالملك «أرلانجا» والملك «أيام وروك» و «جاجا مادا» الوزير الأكبر لامبراطورية «مجا باهت» الذين بعثهم علماء الآثار وعلماء اللغات من ثرى التاريخ بعد أن كادوا يصبحون نسيًا منسيًا، ومن الواضح أن مقارنة مجد العصر الهندوكي الجاوي بمجد العصر الإسلامي هي

(١) انظر وجهة الإسلام، جب، ص١٠ - ١١.

(٢) انظر وجهة الإسلام جب ص٣٩.

(٣) وجهة الإسلام جب ص٦٣.

مقارنة باخسة للطرف الثاني لأنها مؤدية حتمًا لرفع شأن الهندوكية على حساب الإسلام»[١].

ثم يقول: «فلا عجب إذن أن نرى حزب «بودي أوتاما» وهو الجمعية السياسية الأرستوقراطية في جاوة الوسطى تكتب على علمها الحياد إزاء مختلف الأديان «ولا عجب أن نجد مدارس «تامان سسوا «التي أنشأها» كي اجاردبو انتارا «تلقن الطلبة إيثار المدنية الجاوية القديمة أعني المدنية الهندوكية على الإسلام»[٢].

كذلك استخدم الغرب الآثار لتهيئة النفوس المسلمة للذل والاستعمار الغربي: يلحظ هذا مثلاً من بعض النصوص التي مضت ومن مقدمة كتبها إيتين دريوتون لكتاب «في رحاب المعبودات لمؤلفه د. سامي جبره يقول المقدم الغربي: «فالكتاب ممتع وأخاذ في آن معًا.

ولسوف يستطيع القارئ لأول مرة - بما يجد بين دفتيه من صور ورسوم - أن يعرف التراث الذي التقى فيه الذوق المصري بالذوق الاغريقي في اتساق مكن لذلك العمل العظيم في بناء مدينة هرمو بوليس المقدسة»[٣].

إذن هناك أخوة وتعانق بين المصريين والأوربيين قديمة لماذا لا نعيدها ونعود إلى ما كنا عليها، مع ما يلحظ من دعوات ارتفعت لاعتبار دول حوض البحر الأبيض المتوسط من أوربا وبالأخص اعتبار مصر.

إذ أن العلاقة بين الشرق والغرب منذ القدم مبنية على وجود مستوطنات للغرب داخل البلاد الشرقية[٤] ولا تتم العلاقة بعد ذلك إلا بمثل ذلك «ولكي يصل العالم الإسلامي إلى أتم رقي في حياته الثقافية والاقتصادية لا يستطيع أن يستغني

(١) وجهة الإسلام جب ص١٩٢ - ١٩٣.

(٢) وجهة الإسلام، جب ص١٩٣.

(٣) في رحاب المعبودات - د. سامي جبره من مقدمة الكتاب كتبها إيتين دريوتون.

(٤) انظر الحضارة العربية - جاك ريسلر، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى/ ١٩٩٣م. ص٢٦ - ٢٧.

عن التعاون مع المجتمع الأوربي ولكي تصل أوربا أيضًا إلى أتم رقي في حياتها الثقافية ولا سيما في حياتها الروحية لا تستطيع أن تستغني عن القوى والكفايات التي توجد في المجتمع الإسلامي ولن يستطيع أحد الفريقين أن يسترد ويستثمر قواه كاملة إلا بعد أن يستعيدا ذلك التعاون الذي تمتع به الشرق والغرب في ظل الامبراطورية الرومانية»[1] فهو يريد إرجاع ما كان عليه الشرق من تشتت وخضوع وذل للإمبراطورية الرومانية الوثنية إلى ما كان عليه بإرجاع الوثنية إلى ما كانت عليه في ذلك الوقت ولم يكن ثم أسلوب أجدى من ترسيخ مفهوم الآثار الذي بواسطته تستخرج الأصنام والتماثيل وتعظم وتُقدس وتوضع لها المتاحف وبعضها الآخر ينصب في الميادين مما سيكون له الأثر الكبير في بناء العلاقة الآن بين الشرق المسلم والغرب على هذا الأساس من نفوذ الغرب وهيمنته وسيطرته وخضوع الشرق له وذله وتفرقه وهو الحاصل الآن تقريبًا فقد استمرأ الناس أن يخضعوا للغرب بترسيخ الذل القديم وإذكائه في نفوس الشرق المسلم وأنه لا يتم التوازن إلا بذلك. ومما يؤكد ذلك هذا النموذج مما هو راسخ في أذهان جملة من الآثاريين مقولة أنه: «من الجدير بالذكر أن الامبراطورية الرومانية شملت في طياتها كل ما يعرف الآن بعالمنا العربي من حدود إيران شرقًا حتى موريتانيا غربًا ومن آسيا الصغرى شمالاً حتى أسوان جنوبًا»[2].

وأيضاً أحد الآثاريين الغربيين واسمه باولو ماتييه إيطالي الجنسية مكتشف حضارة إبلا في سوريا يتكلم في حوار أجراه مؤلف كتاب إمبراطورية إبلا عن حضارة إبلا على أساس أنها حضارتهم فباولو ماتييه إيطالي الجنسية يقول عن إبلا: «... كل هذا يقدم الدليل الذي يثبت أهمية الموقع الحضارية والتاريخية لذلك قمنا بهذه الأعمال وكما ترى فإنها تهدف إلى توسيع معرفتنا بمملكة إبلا ولا شيء سوى ذلك مع إيماننا الأكيد بأن إبلا ما زالت تحتاج إلى عشرات السنين من المواسم التنقيبية

(١) وجهة الإسلام، جب، ص٢٤٧.

(٢) تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ص٥ وهذا الكتاب وأمثاله يجعل الآثار أحد مصادره الرئيسة.

حتى نتمكن من إعطاء صورة كاملة عن حضارتنا الزاهية النادرة»[1] **فيصف حضارة قديمة في بلد من بلدان المسلمين (سوريا) بأنها حضارتهم وبلدهم كإفرنج وأغفلوا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين.**

والمستعمر بنشره حضارته ومقوماتها وترسيخه بذورها «يقصد بذلك إزالة الحواجز التي تقوم بينه وبين هذه الشعوب وهي حواجز تهدد مصالحه الاقتصادية وتجعل مهمة حراساتها والمحافظة عليها صعبة غير مأمونة العواقب؛ كانت هذه الحواجز الناشئة عن الاختلاف في الدين وفي اللغة وفي التقاليد والعادات سببًا في إحساس الوطنيين بالنفور من الأجنبي المحتل وفي إحساس المستعمر بالغربة بل بالشعور بالخطر الذي يحيط به ويتهدده في بعض الأحيان وكان هذا الإحساس بالغربة وبالخطر أعظم ما يكون حين يتعامل المستعمر الغربي مع المسلمين»[2]. ومادام أن كثيراً من بلدان العالم الإسلامي يوجد بها آثار مرجعها للحضارة الرومانية فإظهارها وترجمتها وترسيخ أخلاقها بين المسلمين يزيل الفوارق وينمي التجانس بين الغرب المسيطر والمسلمين المغلوبين على أمرهم خاصة وأن حضارة الغرب قديمًا وحديثًا التي يسعى دهاقنة الآثار لنشرها بين المسلمين هي حضارة جاهلية متشابهة.

ومن الأسباب التي كثيراً ما يتداولها الآثاريون ويرددونها كغطاء لعملهم حتى يتركون وشأنهم مع أنها وإن كان فيها قليل من الحق إلا أن المراد منها باطل هو: معرفة مجرى الحضارات وتطورها: ويعتمد في ذلك: «على الوثائق التي خلفها الماضي سواء كانت بقايا مادية أم مدونات تاريخية وهذه هي مصادره ومادته الأولى ويهدف من وراء ذلك إلى فهم تطور الإنسان والقوانين التي تتحكم في هذا التطور وبعبارة أخرى معرفة الإنسان ولكن ليس الفرد الإنساني الذي هو موضوع دراسة علوم أخرى كعلم النفس وعلم الإنسان بل الطبيعة البشرية وحدود إمكاناتها وخصائصها والقوانين الاقتصادية التي تسير الإنسان وهو في المجتمع»[3].

(١) امبراطورية إبلا، ص١٦٦.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية ـ د. محمد محمد حسين ـ مؤسسة الرسالة، ص٤٢.

(٣) طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار ص١٢ وانظر ص١٣٤.

«علم الآثار منذ أن ظهر في الحضارة الحديثة في منتصف القرن الماضي قد وضع في متناول أيدي المؤرخين والباحثين في العمران البشري مادة غزيرة تمكنهم من الدرس المقارن ما بين الحضارات الكثيرة التي كشف عن مخلفاتها وبقاياها المادية والنصوص المدونة»[١].

«ويهتم علم آثار ما قبل التاريخ بإعادة تركيب تاريخ الشعوب والثقافات المختلفة مستعينًا في ذلك بالبقايا والمخلفات البشرية والثقافية القديمة كالآلات والأدوات التي كان يستخدمها الإنسان المبكر»[٢].

ومن الأسباب: اكتشاف الحضارات ودراساتها دراسة مقارنة وإحيائها وذلك «نظرًا لأن كل ما تزخر به الحياة الراهنة من منتجات وخبرات وعادات وتقاليد ومظاهر مختلفة أخرى إنما ترجع في أصولها إلى مختلف الجهود البشرية... لذا أخذ الاهتمام بها يتزايد حتى أصبحت دراستها منتشرة في جميع أنحاء العالم المتمدن، وكثيرًا ما تتضافر جهود الباحثين من مختلف الدول والشعوب في دراسة الحضارات القديمة وتشجيعها على اعتبار أنها التراث الإنساني الذي استمدت منه مختلف الأمم أصول حضارتها الحالية ومن ثم يعملون على توفير أسباب هذه الدراسة بموالاة الكشوف الأثرية وترميم الآثار المختلفة ويعكفون على دراسة اللغات القديمة حتى يتمكنوا من وضع صورة حية أو قريبة من الواقع لهذه الحضارات ومظاهرها المختلفة»[٣].

فمعرفة خط سير التطور البشري هدف من أهداف علم الآثار، كذلك مقارنة الحضارات فيما بينها وكون بعضها أخذ من بعض[٤] ومعرفة القواعد المسيرة للتاريخ

(١) طرق البحث العلمي في التاريخ والاثار ص١٣.

(٢) ما وراء التاريخ ـ وليام هاولز ـ ترجمة أحمد أبو زيد ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ لبنان ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ص١٤.

(٣) معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، ص «هـ».

(٤) انظر: الرائد في فن التنقيب عن الآثار ص٧٨.

ومعرفة أسباب سقوط الحضارات وعوامل بقائها[١].

ولابد من الإنتباه إلى قوله: دراسة الحضارات القديمة وتشجيعها على اعتبار أنها التراث الإنساني الذي استمدت منه مختلف الأمم أصول حضارتها.

وهذا وإن انطبق على العالم الغربي فإنه لا ينطبق على الحضارة الإسلامية إذ أنها لم ولن تستمد أصول حضارتها من حضارات الأمم السابقة وإلا لصح أن تكون تجميعًا من الوثنيات واليهودية والنصرانية وهذا ما يسعى إليه الغرب ويدندنون حوله ويحاولون إقناع المسلمين به والمطلع على افتراءات المستشرقين ـ وبعضهم آثاريين ـ يلحظ ذلك الإفتراء.

أما من ناحية المقارنة فإن المقصود هو القيام بـ«محاولة جدية لوضع قائمة بتنوع المجتمعات الإنسانية بهدف تصنيفها ومقارنتها»[٢]... «فعلم الآثار منذ أن ظهر في الحضارة الحديثة في منتصف القرن الماضي قد وضع في متناول أيدي المؤرخين والباحثين في العمران البشري مادة غزيرة تمكنهم من الدرس المقارن ما بين الحضارات الكثيرة التي كشف عن مخلفاتها وبقاياها المادية والنصوص المدونة... بالإضافة إلى مشاركة التاريخ لكثير من العلوم في السعي وراء استخراج القوانين والقواعد العامة المسيرة للتاريخ»[٣] فهم يريدون معرفة الناس عمومًا بشتى نواحي تصرفاتهم وعلاقاتهم المعيشية والتعبدية والكسبية والعمرانية ولذلك «يبحث عالم الآثار ليعرف كيف يبني الناس بيوتهم والأطعمة التي يأكلونها والأسلحة التي يستعملونها وكيف كانوا يلبسون وكيف كانوا يعبدون آلهتهم»[٤].

والمقصود من ذلك كله إحكام السيطرة وتمرير أنكى سياسات الاستغلال

(١) انظر المصدر السابق ص١٣.

(٢) الانثروبولوجيا السياسية، جورج بالانديه ـ ترجمة علي المصري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م ص٢١.

(٣) طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار ص١٣.

(٤) مدخل إلى الآثار الإسلامية ـ المجلد الأول ص٥٩.

«والاختلاف قائم بين البحث العلمي وبين استخدام نتائجه فالحافز وراء البحث العلمي هو فهم العالم، وأما الحافز من وراء الاستخدام فهو غزو العالم»[١] وبهذا يظهر جليًا أحد أهداف علم الآثار فليس القصد منها الاستفادة العلمية من صناعتها ونحو ذلك وهم يصرحون بذلك: «لو كانت فائدة الآثار قاصرة على رؤية ما كان للأقدمين من براعة في الصناعة ودقة النحت والنقش لما عني الناس بها إلى هذا الحد ولكن فائدتها الكبرى في تكوين التاريخ القديم - أي الوثني الجاهلي - والجمع بين حلقاته»[٢] ومعنى مقارنتها إظهار الفوارق بينها ومن ثم التقريب بينها ولا يخسر في ذلك إلا الحضارة الإسلامية إذ التقريب لابد فيه من تنازل من طرفي النزاع ولن تقبل الوثنية بقيادة الإسلام ولو قبل المسلمون بذلك لخسروا دينهم.

* * * * *

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش رئيس جمهورية البوسنة والهرسك، ترجمة محمد يوسف عدس - نشرة مجلة النور الكويتية - الكويت، ومؤسسة فاريا - ألمانيا - طبع وتوزيع مؤسسة العلم الحديث - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ص١٩٢.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الأول ص٥٩.

ربط الحاضر بالماضي والاعتزاز به

ومن طلب دعاة التفكك للإسلام ربط حاضر المسلمين وحالهم بالوثنية الجاهلية القديمة واتخاذها نبراسًا وقدوة ومفخرة، من هذا قولهم: «باكتشاف إبلا الأثرية في أواسط السبعينيات من قرننا الحالي استرجعت سوريه العربية صفحة من أنصع صفحات تاريخها ووقفت على قدم المساواة مع حضارتي وادي النيل وبلاد ما بين النهرين بعد أن كان ينظر إليها كمحطة للحضارة وليست صانعة لها وفاعلة فيها. . .

باكتشافات إبلا تفتحت أمام الباحثين والمؤرخين والآثاريين آفاق لا تنتهي من العمل المتجدد للبحث عن أصول التمدن وبواكير الحضارة. . . أصبح بمقدور العلماء البحث في تفاصيل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتنظيمية والإدارية والسياسية والتجارية والدولية. . .

ومن خلال رؤية حديثة إلى تاريخنا العربي القديم وضمن إطار تاريخي موحد قادر على استيعاب هذا التاريخ بكامله بحيث تستوعب الوثائق الأثرية المستجدة وتدرج في سياقها المعقول خاصة وأن في اكتشافاتنا الآثارية المتلاحقة ما يدعو إلى الاعتزاز بتراثنا الحضاري واستلهام الماضي من أجل الحاضر والمستقبل المشرق»[١]. فهم يعتبرون الوثنية الجاهلية لسوريا أنصع صفحاتها ويجعلونها به تقف على قدم المساواة مع مصر والعراق، وأن سوريا ليست أقل شأناً منهما في هذه النصاعة التاريخية.

ولابد عند الآثاريين من نشر تفاصيل الحياة الوثنية بين المسلمين، وهذا النشر لابد أن يكون له صدى وتأثير وهم يعرضون صورة المسألة من عدة زوايا ويتولى عرضها أجناس من الناس بوسائل شتى «نجد علم المصريات يزدهر مبكراً في عالم الآثار ويبدي اهتمامه بنظم وعادات الماضي»[٢].

«إن عالم الآثار ببحثه عن كل ما هو إنساني يتمتع باكتشاف أشياء نادرة وجميلة

(١) امبراطورية إبلا ص٧.

(٢) موسوعة الفراعنة، باسكال فيرنوس، جامعة يوبرت - ترجمة د. محمود ماهر طه - دار الفكر للدراسات - القاهرة - مصر - الطبعة الأولى ١٩٩١م ص٢٣٣ مادة الآثار.

ولكن زيادة على ذلك فهو يريد معرفة كل شيء عنها»[١] وشرح ذلك من المؤلف نفسه «يبحث عالم الآثار ليعرف كيف يبني الناس بيوتهم والأطعمة التي يأكلونها والأسلحة التي يستعملونها وكيف كانوا يلبسون وكيف كانوا يعبدون آلهتهم»[٢] والأخير هو بيت القصيد أما كيف كانوا يأكلون وأمثالها فهو مثل الطعام الجيد يوضع في الأعلى مع الفاسد ليدرجه في البيع ويغش به الناس وهو كالعسل يحلى به السم الزعاف.

وكذلك محاولة فهم أسباب البقاء وأسباب الانهيار في الحضارات وهذه تستخدم استخدامًا مزدوجًا فالغرب ينظر إلى أسباب الضعف والانهيار في سنن الحياة المادية فيتجنبها ويوقع المسلمين فيها ويتعرف أسباب القوة فيعتمدها ويصرف المسلمين عنها ومن ذلك: «إننا لن نغالي لو قلنا أنه لا يوجد تجربة إنسانية شغلت بال مفكري العالم الحديث بقدر ما شغلهم قيام الإمبراطورية الرومانية وأفولها»[٣] وهذا من منظور الغرب وعلى المسلمين أن ينشغلوا بالتكفير بمقومات الحضارة الإسلامية ويعتمدوا أن ما صلح عليه أول هذه الأمة هو الذي سيصلح الله به آخرها وأن يعرفوا أسباب القوة فيأخذوا بها وهي الوحدة في المنهج الرباني فيأخذوا به وعدم التفرق والاختلاف. فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

وأن يعرفوا أسباب الضعف والتبعية لعدوهم ويجتنبوها أما الغرب فإن انشغالهم بقيام الامبراطورية الرومانية وأفولها فلأنها تشبه الحضارة الغربية المعاصرة وهم يريدون بقاء واستمرار حضارتهم وهيمنتهم على العالم وبالأخص الهيمنة على عدوهم الألد [الإسلام] وذلك أن الحضارتين الوثنيتين الجاهليتين القديمة منها والحديثة بينهما أوجه شبه منها:

١ - أن كلاهما تضم شعوبًا مختلفة الأجناس واللغات والديانات والعادات.

٢ - أن كلاهما ذوات تضاريس مختلفة وأجواء متباينة.

---

(١) الآثار الغارقة - روبرت سلفر برج ص٧.

(٢) الآثار الغارقة، روبرت سلفربرج ص٨-٩.

(٣) تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري د. أحمد علي الناصري، دار النهضة العربية - القاهرة - الطبعة الثانية، ١٩٩١م ص: ٦.

٣ - أن كلاهما مترامية الأطراف.

٤ - أن الحضارة الرومانية امتدت ٧٠٠ عام والحضارة الغربية الحديثة تقترب من ذلك وتعتبر عند مفكري الحضارات في مرحلة الشيخوخة وعلى وشك السقوط فيريدون البقاء أطول فترة ممكنة ومما يؤكد ذلك تساؤل المؤلف الذي طرحه وأجاب عليه «لكن لماذا اخترت الجانب السياسي والحضاري لتاريخ الامبراطورية؟

ما من شك في أن الجانب السياسي هو الهيكل الأساسي لتاريخ الإمبراطورية كما أن الدروس المستفادة هي سياسية في المقام الأول وهناك كثير من المفكرين الذين يرون أن السياسة هي التي تشكل إلى حد كبير جوهر ثقافتنا ومشاكلنا الاجتماعية والأخلاقية بل واقتصادنا»[١] وعليه تتضح أهمية الماضي لمعالجة الحاضر «وما السياسة إلا علم التاريخ الحديث وما التاريخ سوى علم السياسة في الماضي»[٢] لكن المسلمين ليسوا بحاجة إلى كل ذلك لأن بقاءهم واستمرارهم وعزهم مرتبط بنصرهم الله والتمسك بهديه والدخول في صراطه المستقيم ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⑦﴾[٣]، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ㊳﴾[٤]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[٥].

٥ - أن سقوط الحضارة الوثنية الرومانية كان على يد المسلمين الذين كانوا قبل الإسلام أشتاتًا على هامش التاريخ لا يؤبه بهم ثم ركبوا العز والمجد بالإسلام فجأة؛ وحال المسلمين والغربيين الآن يشبه تلك الفترة تمامًا خاصة إذا علمنا أن الإسلام يشكل في نظر الأوربيين الآن الخصم الألد والعدو الأعند وهو الذي يمكن أن يقوم فجأة وبدون مقدمات كحالته الأولى معهم تمامًا فلابد في نظرهم من إبقاء المسلمين على تفرقهم ولا أمثل من تفريقهم بتمجيد حضارات أوطانهم ووثنياتها السالفة وأن يبعثوا تاريخها حيًا حتى يفاخروا به ويجعلوه نبراسًا لهم ومجدًا بدل إسلامهم الذي ضيعوا معالمه ابتداء من الجهاد وانتهاء بإسقاط الحكم بما أنزل الله، ونشر الوثنيات والأصنام بينهم، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ص١٠.

(٢) المصدر السابق ص١٠. (٣) سورة محمد، آية: ٧.

(٤) سورة محمد، آية: ٣٨. (٥) سورة آل عمران، آية: ٣١

اليهود والآثار

يعيش اليهود حالة انعزال عن الناس وعدم اندماج معهم ويضمرون في صدورهم الغل والحقد على الناس عمومًا وبالدرجة الأولى على النصارى ثم يليهم المسلمون في الدرجة الثانية لذلك من كان هذا وضعه فعادة يكون على حال من التربص واستغلال الفرص مهما كانت وهم على كل حال كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ... الآية﴾[١].

وقد استغل اليهود الآثار أيما استغلال وهم يحاولون إثبات حقوق تاريخية لهم في بلاد المسلمين في فلسطين ومصر والعراق وفي جزيرة العرب في شمال غربها وفي جنوبها وهم يلوون أعناق الآثار ويختلقون بعضها ويحرفون بعضًا آخر.

«الآثاري الأمريكي بليس BLISS والإيرلندي مكالستر R.A.MACALSTER أثناء حفائرهما في جنوب فلسطين في مواقع تل الصافي، وتل زكريا وتل جديدة إلا أنهما صنفا مكتشفاتهما تبعًا للعصور التوراتية وظل هذا التقليد متبعًا حتى عام ١٩٠٢م وقد تميزت مرحلة النصف الأول من القرن العشرين بتأسيس مدارس أثرية جديدة للبحث عن الآثار الفلسطينية كما تميزت بتطور أساليب البحث الأثري واتباعها أساليب أكثر علمية إلا أن الهدف الرئيسي بقي في إطار علم اللاهوت THEOLOGY وتشجيع دراسة وتدريس الكتاب المقدس وزيادة المعرفة به وبجغرافية فلسطين وتاريخها وآثارها ولغات أهلها ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٧م أسست حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين دائرة الآثار الفلسطينية ورأسها جون جارستانج وفي سنة ١٩١٩م تأسست في القدس مدرسة الآثار البريطانية بهدف تشجيع البحث في آثار وتاريخ وطبوغرافية فلسطين وشهدت الفترة من (١٩٢٠ - ١٩٣٥م) في أثناء رئاسة وليام أولبريت للمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٢.

القدس نشاطًا واضحًا في الاستكشافات الأثرية بتشجيع من أولبريت واليهود المهتمين بهذا المجال والذين ركزوا على تاريخهم في فلسطين.... هذا وقد ظلت المؤسسات والجمعيات الأجنبية تحتكر البحث والتنقيب ثم أصبح حقل الآثار الفلسطيني مفتوحًا أمام المنظمات الصهيونية وتميزت مرحلة النصف الثاني من القرن العشرين ببروز اتجاه جديد في فهم العلاقة بين آثار فلسطين والتوراة وبخاصة في كتاب ديفو (Devaux) وديفر Daver وهم من رجال الدين المشتغلين بالآثار.

وقد برز الاتجاه واضحًا في نتائج الحفائر التي أجراها كل من كاثلين كينون في أريحا في الفترة من (١٩٥٢ - ١٩٥٨م) وويلر»[١].

ويعتمد تحديد المواقعة الأثرية والاكتشافات الآثارية كثيرًا على التوراة «وكان من نتائج تلك الحفريات اكتشاف مدن ملوك بابل التي ذكرتها التوراة الواحدة تلو الأخرى»[٢] وكثير من الآثاريين يبحث عن آثار لها علاقة باليهود في بلاد المسلمين، «والآثار الموجودة بخيبر هي آثار عربية حتى أن فلبي عند زيارته لخيبر وجد كثيرًا من الآثار العربية البحتة والتي تعود إلى عهد ثمود فقد كان يبحث عن الآثار العبرية ولكنه لم يوفق فيقول: (ومما غاظني بالفعل أنني تلقيت كيسًا مليئًا بالنقوش إلا أنني لم أجد بينها أي نقش عبري يحمل اسم أي يهودي أو يتحدث عن أي نشاط لليهود في خيبر»[٣].

وكتاب ثقافة أوغاريت لمؤلفه إ. ش. شيفمان ترجمة حسان إسحاق، الأبجدية للنشر دمشق ١٩٨٨م اعتمد مؤلفه ٢٤٢ مصدر كلها نقوش ورسائل آثار مختلفة وتشكل نسبة ٥٠,٧٪ تقريبًا من مجموع المصادر، واعتمد ٢٠٩ مصدر يهودي وتشكل نسبة ٤٣,٨٪ تقريبًا من مجموع المصادر، واعتمد ٢٦ مصدر مسيحي

(١) معجم المصطلحات الأثرية ص٢٨٩ - ٢٩٠ مادة فلسطين.

(٢) نشوء الحضارات القديمة يورهارد بريتتيس ص٨.

(٣) شمال الحجاز - الجزء الأول - الآثار ص٢١٦ - ٢١٧.

وتشكل نسبة ٤ , ٥٪ فيكون مجموع المصادر ٤٧٧ كلها نقوش ورسائل آثار[١] .

ومن هنا يتضح تأثير اليهودية في هذا الكتاب، وأمثاله كثير.

ولا ننسىٰ قراءة المقطع المسماري الذي مر الذي فسر بأنه أنبأ الإله يا، اسمع الإله يا ثم فسر «يا» بعد الشد والمد بأنه التأكيد يعني الإله اليهودي «يهوه».

وهم يرومون إلىٰ إثبات الجذور التاريخية في بلدان المسلمين وقد اكتشفت بلدان أثرية ذكرتها التوراة[٢] وبذلك يأخذ اليهود مستندًا تاريخيًا مقبولاً عند الجميع بالحق في احتلال فلسطين وغيرها.

«وفي القرن التاسع عشر كشفت معاول الحفر في كل من بلاد ما بين النهرين ومصر وبوغازي كوي ورأس الشمرة عن وثائق هامة وهذه جميعها أخرجت العهد القديم من جموده وعزلته»[٣] .

وكثيراً ما يرىٰ الآثاريون وعلماء التاريخ القديم بأن العراق وبالذات الجزء الشمالي منه هو موطن الزراعة الأول ومهد البشرية ويزعمون أن سند هذا الكلام إنما هو الاكتشافات الأثرية لكن كما ذكر بعضهم فإن المستند في ذلك مرجعه إلىٰ التوراه[٤] وما الإكتشافات الأثرية المدعىٰ أنها هي السند إلا محاولة لتدعيم تلك الفكرة لإعطاء قيمة أعلىٰ للآثار وأنه فعلاً يمكن أن يستفاد منها في معرفة الحضارات والتاريخ، وعلىٰ التسليم بصحة ومصداقية الاكتشافات الأثرية وصحة الدلالة فإنها تدل علىٰ قضايا غير مسورة لأنها علىٰ الصحيح لا تدل علىٰ الأولية لأن عدم

(١) انظر: ثقافة أوغاريت، إ. ش، شيفمان، ص١١٧.

(٢) انظر نشوء الحضارات القديمة، يورهارد بريتنيس ص٧-٨ وانظر أيضًا تاريخ بلاد الرافدين ص١١-١٢.

(٣) نصوص الشرق الأدنىٰ القديم المتعلقة بالعهد القديم، جيمس بريتشارد - تعريب: عبد المجيد زايد - الناشر هيئة الآثار المصرية ص٣.

(٤) انظر الحضارة العربية جاك ريسلر ص٢١.

الوجود في غيرها لا يدل علىٰ عدم وجود غيرها من الأماكن التي تستحق الأولوية.

«والبعثات العلمية التي عملت في شبه الجزيرة العربية في الفترة الأخيرة نجد في خمس بعثات قامت بتنقيبات في المملكة العربية السعودية هي: بعثة جامعة كورنتو الكندية وجامعة كنتكي الأمريكية برئاسة الفريد وينيت ووليم ريد في ١٩٦٢م و ١٩٦٧م في شمال غربي المملكة، وفي منطقة حائل، وأعمال الاستاذة الألمانية روت شتيل والعالم البرت جامي (١٩٦٣م-١٩٦٨م) في المنطقة الشمالية الغربية.

وأعمال البعثة الدانمركية (١٩٦٨م) في المنطقة الشمالية الغربية وأعمال معهد سمشونيان الأمريكي (١٩٦٨م) في المنطقة الجنوبية الغربية للمملكة ومنطقة نجران. . .»[١] ويشم من اختيار المناطق يهودية تلك البعثات[٢] حيث لا يخفىٰ أن أغلب المناطق المذكورة كانت قد استوطنها يهود.

واستخدم اليهود الآثار دليلاً علىٰ أنه قد «هاجر عشرات الألوف من اليهود الذين كانوا يقيمون في اليمن من عصور ما قبل التاريخ وذهبوا إلىٰ اسرائيل»[٣] .

وإذا أثبت اليهود أنهم من عصور ما قبل التاريخ فتكون دلالة الأثر المزعون هي أن عشرات الألوف من اليهود قد هاجرون من اليمن إلىٰ اسرائيل: قبل الميلاد بأكثر من عشرة آلاف عام. وهذا ما لا يقول به اليهود في توراتهم فهم علىٰ حد قولهم أقرب من ذلك بكثير فلم يوجد يهود في ذلك الوقت[٤].

(١) العرب في العصور القديمة، لطفي عبدالوهاب يحيىٰ - دار النهضة العربية - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٩م ص١٢٧ في الهامش وانظر: مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية، إدارة الآثار والمتاحف، وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، ص١٥-١٦ وهو من مقدمة الكتاب بقلم مدير إدارة الآثار بوزارة المعارف د. عبدالله حسن مصري.

(٢) العرب في العصور القديمة ص١٢٧.

(٣) القافلة، قصة الشرق الأوسط - كارلتون كون - ترجمة برهان دجاني - دار الثقافة - بيروت ص١٥.

(٤) انظر: الإسلام والأديان دراسة مقارنة، ص١٥٤، حيث ذكر أن التوراة فيها أن آدم عليه السلام قبل عيسىٰ عليه السلام بثمانية وثلاثين قرنًا أي ٣٨٠٠ سنة.

• نظرة من نظرات الغرب للآثار:

«إذا استثنينا مظاهر الحياة في بعض المجتمعات الضاربة في القدم على شاطئ الأطلنطي نرى الأمريكيين يعيشون على هدى من معالم ماضيهم الثقافي فإذا كان البيت الذي يعيشون فيه والأدوات التي يستعملونها يربو عمرها على خمسين سنة فإنها تعتبر قديمة بالنسبة لهم، وقد تكون للهنود الحمر[1] اهتمامات رومانتيكية ولكن وسائلهم القديمة ليست جزءاً من التراث الثقافي لغالبية الأمريكيين، ولكون هذه الأساليب لا تمثل شيئًا من ماضيهم الثقافي فإن ماضي الهنود الأمريكيين يعكس عليهم ـ أي الأمريكيين غير الهنود الأصليين ـ نوعًا من قصة غير حقيقية»[2].

ويلحظ في هذا النص:

أن الأمريكيين لا تعنيهم آثار الهنود الحمر وهي في بلدهم أمريكا والسبب أنها لا تمثل شيئًا من ماضيهم الثقافي وبالتالي فإنها تعكس عليهم لو اعتنوا بها قصة غير حقيقية ـ أي من الناحية الثقافية والمرجعية.

لكن الآثار في بلدان المسلمين تعنيهم هم وأمثالهم الأوربيين لأنها تشكل شيئًا من ماضيهم الثقافي فبالتالي يبحثون عنها لأنها في اعتقادهم تعكس عليهم قصة حقيقية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى معول هدم وأداة تفريق في بلاد المسلمين ونواة شرك ووثنية يراد للمسلمين احتضانها وتفريخها بينهم، والمسلمون في الواقع والحقيقة لا تشكل الآثار في بلدانهم ولا تمثل لهم شيئًا من ماضيهم الثقافي وبالتالي فإنها تعكس عليهم قصة غير حقيقية لأنها ثقافة وثنية جاهلية معادية للإسلام دينهم ومعادية لهم بصفتهم مسلمين.

لكن الغرب يسعى جاهداً إلى جعل المسلمين يعتنون بها وهي التي تشكل لهم قصة غير حقيقية حتى يقبلوها على أنها قصة حقيقية.

* * * * *

(١) يعني سكان أمريكا الأصليين وهم قلة.

(٢) رجال الآثار، روبرت ج بريدوود ص٣.

تقسيمات الآثار

أ ـ من ناحية التسلسل النوعي:

إسلامي وغير إسلامي.

ـ أما غير الإسلامي فكثير منها: الفرعونية والأشورية والرومانية والفينيقية ونحو ذلك كالحجري وما قبل التاريخ.

ب ـ من ناحية ذات الآثار أيًا كانت:

فمنها المساكن والمعابد والتماثيل والصور والرسومات والمقابر والأضرحة والقلاع وأدوات الاستعمال كالأواني وعدد العمل وأدوات التعامل كالنقود ويركز غالبًا على المعابد والمقابر.

جـ ـ من حيث سهولة الوصول إليه:

فمنها ما هو على ظهر الأرض أو بينًا وواضحًا وهذا غالب الآثار المكتشفة ومنها المطمور تحت التراب أو في أعماق المياه.

ـ أما الإسلامي فكثير ومنوع:

أ ـ فمنه ما ينسب إلى المسلمين وهو ليس من عملهم مثل تصاوير قصير عمرة وقبلة الصليبية.

ب ـ ومنه ما ينسب فعله إلى المسلمين لكنه مخالف للإسلام كالتصاوير بأنواعها مع أن منها تصاوير للرسل والصحابة ولنسائهم.

جـ ـ منه ما هو شركي ووثني كالأضرحة والقباب والترب وهذه غالبًا ما يركز عليها في التنقيب والدراسة عن الآثار الإسلامية وينسب إلى الآثار الإسلامية وتسمى آثار إسلامية كأضرحة الصوفية والشيعة.

د ـ آثار إسلامية كالقلاع والبيوت والمساجد مع التركيز على مساجد الصوفية والشيعة بالذات كمسجد الحسين ومسجد الأقمر بالقاهرة مثلاً.

الآثـــار الإسلامية

الآثار الإسلاميـة في عرف الآثاريين هي مخلفـات الإنسان في دار الإسلام الممتدة من الشرق إلى الغرب بين اندونسيا وبلاد المغرب ومن الشمال إلى الجنوب بين تركستان ووسط افريقيا منذ الهجرة إلى المدينة إلى نهاية الخلافة الإسلامية[١] وهي تشـمل أنواعـًا من الآثار منهـا المدن والمسـاجـد والأربطة[٢] والتكايا[٣] أو الخلوات[٤] أو الخانقاوات[٥] والأضرحة والترب والقلاع[٦] وأسوار المدن وأبوابها والأسواق والبيمارستانات[٧] والأسبلة والحمامات والقصور والمنازل والفنون

(١) انظر: مدخل إلى الآثار الإسلامية ـ د. حسن الباشا ص١٦.

(٢) **الأربطة:** ومفردها رباط وهو نوع من الأبنية العسكرية كان يرابط فيه ويسكنه المجاهدون الذين يدافعون عن حدود الإسلام بحد السيف، وكانت الأربطة منتشرة في صدر الإسلام على حدود الدولة الإسلامية، ولما زالت عن الأربطة صفاتها الحربية أصبحت بيوتًا للتقشف والبعادة يسكنها الصوفية. انظردراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية، ص٤٤.

(٣) **التكايا:** جمع تكية وهي عبارة عن أمكنة للسكنى أنشئت في عهد العثمانيين لغرض إيواء الدراويش لكنها لم تؤد الغرض المطلوب منها ففنيت. انظر: دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية ص٤٤.

(٤) **الخلوات:** هي الخنقاوات وبيان الخنقاوات في الهامش الآتي. انظر: الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، د. أبو محمد محمود فرغلي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م عند لفظ: الخانقاه ص٣٨.

(٥) **الخنقاوات:** جمع خانقاه كلمة فارسية بمعنى دار للتعبد، وهي التكايا انظر مدخل إلى الآثار الإسلامية، ص١٧٣، وانظر: الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية، ص٣٨.

(٦) **القلاع:** جمع قلعة وهي بناء عسكرية ضخم يبنى بجوار المدن حتى إذا سقطت المدينة في يد عدو تثبت القلعة في وجهه وتصبح ملجأ للسكان ومراكزًا يمكن منه استعادة المدينة وتصلح في الوقت نفسه لتكون ملاذًا ضد سكان المدينة أنفسهم للحاكم في حالة الثورات. انظر دراسات في الفنون والعمارة العربية والإسلامية. ص١٣٩ ـ ١٤٠.

(٧) **البيمارستان:** أماكن إيواء المرضى تشبه دار المعاقين الآن وانظر: دراسات في الفنون والعمارة العربية والإسلامية ص٤٥، وانظر مدخل إلى الآثار الإسلامية ص١٩٩.

بأنواعها من تصوير ورسم ونحت وخطوط[١].

مع ملاحظة التركيز على الأضرحة والقباب[٢] والقصور والفنون ومن الفنون يركز على التصاوير والنحت.

وهذا الشمول في تعريف الآثار الإسلامية من ناحية المكان والإنتاج، حيث شمل ما يمكن أن يكون إسلاميًا وما لا يمكن أن يكون، والنقص من ناحية الزمان، فشموله من ناحية المكان والإنتاج معلوم أن البلاد التي كانت تحت الحكم الإسلامي لم يستمر خضوعها خضوعًا تامًا طوال الفترة المذكورة بل أنه تخلل ذلك فترات من انفلاتها ولو كان انفلاتًا جزئيًا.

ومعلوم أيضًا أن بعض حكام الولايات في زمن الحكم المذكور كانت ضد الإسلام كالباطنية[٣] ونحوها.

ثم إن المحكومين كلهم ليسـوا على دين الإسلام بل كان منهم أهل الذمة باختلاف طوائفهم ناهيك عن ما يوجد من أتباع لفرق مارقة تنتسب إلى الإسلام أو فرق إسلامية لكن لها درجات من الإفراط أو التفريط تخرجها من جوهر الإسلام فناتج هؤلاء في هذا الزمن المذكور في الساحة المذكورة ينسب إلى الإسلام بأنه آثار إسلامية ودخل في ذلك الأضرحة وما يتعلق بها من شعائر شركية.

ومن ناحية المساجد ركز فيها على بعض مساجد كبيرة قديمة مزخرفة ثم نسب كثير مما فيها إلى أنه اقتباس أو سرقة من كنائس أو قصور رومانية أو يونانية أو فارسية ويوجد ذلك أيضًا عند الحديث عن المسجد الحرام وكثير من القلاع والقصور أيضًا.

أما التصاوير فإن جزءًا كبيرًا منها تصاوير حب وغرام وجزء آخر يضاهي ذلك

(١) انظر: مدخل إلى الآثار الإسلامية، ص٥٠٥ ـ ٥٠٩.

(٢) انظر: مدخل إلى الآثار الإسلامية ص٩.

(٣) الباطنية: لقب عام تنطوي تحته طوائف عديدة تلتقي جميعها في تأويل النصوص الظاهرة وإثبات معان باطنة لها، وتلجأ إلى الرموز والإشارات في تفسير النصوص وإخراجها عن معانيها الظاهرة، مستهدفين بذلك هدم الدين وإبطال شعائره وأحكامه العملية ولهم ألقاب منها الإسماعيلية والباطنية والقرامطة. انظر دراسة عن الفرق ص٢٦٥ هامش نجمة وانظر الملل والنحل ١/ ١٩٢.

إنما هي صور يدعى أنها صور النبي ﷺ أو صور لبعض الصحابة أو صور ليوسف عليه السلام وزليخا[١].

أما صور التعليم على ما فيها كصور التشريح والصور التوضيحية للعلوم كالطب ونحوه فخطرها قليل.

أما المنشآت العسكرية كالقلاع والأسوار ونحو ذلك فإنه لا يستفاد منها لأنها تتخذ طابع الوصف وينسب بعض فنها إلى فنون رومانية ونحوها.

وفي الغرب يوجد علم يسمى علم التربية المتحفية يقوم من خلال الغرب بغرس الحضارة اليونانية أو الرومانية في نفوس أطفاله فيخرج الطفل منتميًا لحضارته ولو أن الطفل المسلم شاهد القلعة وأثير في تفكيره مثلاً سؤال عن سبب إقامتها، وأجيب بأن ذلك لمحاربة الكفار والصليبيين وغيرهم بدل أن يشاهد في المتاحف والشوارع آثار الحضارة الفرعونية مثلاً ويقرأ في كتب القراءة: أجدادك الفراعنة صنعوا، أجدادك الفراعنة فعلوا. . . . إلخ.

أما من ناحية العمارة الإسلامية وتخطيط المدن فأهملوا تنظيم الأسواق وتخطيط المساكن التي كانت تهتم بالستر حفاظًا على حرمة البيت وأهله وحفظ حرمة الجيران فتجد المنزل لا يكشفه المار ولا الجار وليس له اطلاع على بيوت الجيران كل ذلك أمثاله مهمل في الآثار الإسلامية مع أن الإسلام والمسلمين لا يحتاجون للآثار أصلاً.

ومن إغفال الآثار الإسلامية «العمل على طمس كل ما من شأنه أن يوحي بما كان للعرب ـ أي المسلمين ـ المستعمَرين المستغَلين[٢] من آيات الحضارة ومن معالم الثقافة فغرسوا في الأذهان صورة مشوهة صار بموجبها العربي ـ أي المسلم ـ عنصر جمود وتخلف لا نصيب له في مجال العلم بل إن عمله الماضي قد اقتصر على

---

(١) انظر المصدر السابق وانظر عن التصوير: كتاب: التصوير الإسلامي: نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه ـ د. أبو الحمد محمود فرغلي، الدار المصرية اللبنانية. وانظر: الفنون الجميلة في العصور الإسلامية ـ عمر رضا كحالة ـ المطبعة التعاونية بدمشق ١٣٩٢هـ ص٦.

(٢) أي الذين وقع عليهم الاستغلال فاللفظة على صيغة المفعول به.

الحفاظ على التراث اليوناني إلى أن قيض الله له أدمغة في أوربا استثمرته الاستثمار اللائق»[١].

وبلغ من جهل المسلمين بتاريخهم أنهم لا يعرفون منه إلا التاريخ السياسي والنزاع بين الولاة وعُمِّيَ عليهم التاريخ الفكري والعلمي والصناعي والطبي والهندسي والمعماري وغير ذلك[٢].

أما هذه الآثار الإسلامية التي يغلب عليها الطابع الوثني كالأضرحة والترب التي عرف معارضتها للتوحيد أعداء الإسلام فضلاً عن أهله إذ يقول أحد المستشرقين: «بقي كثير من عناصر الديانات السابقة للإسلام واستأنفت حياتها في المظاهر العديدة الخاصة بتقديس الأولياء وفي الحق ليس من شيء أشد خروجًا على السنة القديمة من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الإسلام والماسخ لحقيقته وإن السني الصادق الحريص على اتباع السنة لابد أن يعده من قبيل الشرك. . . وأضرحة الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى هي موضع عبادتهم التي يرتبط بها أحيانًا ما يظهره العامة من تقديس وثني غليظ لبعض الآثار والمخلفات، بل إن العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة»[٣] ويقول مستشرق آخر: «بالرغم من التوحيد المصرح به في القرآن فإن الأمم الإسلامية لا زالت تحتفظ بكثير من العادات الوثنية، فإن من أهم الصفحات في الحياة الدينية للعوام في جميع الأمم الإسلامية هو تقديسهم لقبور الصالحين. . . وقد أصبح لكل قوم أئمة محليون يزورون قبورهم وآثارهم فيفرح ذلك الإمام ويشفع لهم. . . .»[٤].

فهذه آثار شركية تنسب عند كثير من الغربيين إلى الإسلام ولم يبين أحد من

---

(١) آراء بعض المستشرقين حول التراث العربي والرد عليها بحث ضمن مجموعة بحوث في كتاب أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ مكتب التربية لدول الخليج العربي ـ الرياض ١٤٠٥ ـ د. محمد السويسي ٢/ ٢١ ـ ٢٢.

(٢) انظر: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص١٩.

(٣) هذه هي الصوفية، عبد الرحمن الوكيل ص١٠١ ـ ١٠٢.

(٤) المصدر السابق ص١٠٢.

الآثاريين المسلمين فيما أعلم شركياتها وفسادها ولم يكشف ضررها ومخالفتها لأصل الإسلام وقد علمها وعرفها بعض المستشرقين.

ومع ما يصاحب ذلك التقديس الوثني لما يسمىٰ بالآثار الإسلامية من نصب التماثيل القديمة أو الحديثة منها في الطرق والميادين ومجامع الناس كأماكن انتظار الناس وما يصاحب ذلك من تحليلات وثنية لم تسلم منه محاريب المساجد كل ذلك له أثر سلبي كبير في صد الناس عن دين الله وخاصة من غير المسلمين إذ أنك تجد الوثنية ضاربة أطنابها بين المسلمين.

أما من ناحية نقص الزمان في التعريف فإنه ترك آثار الإسلام السابقة علىٰ بعثة النبي ﷺ من الرسل قبله، والآثار وإن كانت قليلة جداً إلا أنها تدل علىٰ أن الرسالات بعضها يكمل بعضًا ويتم بعضًا وإن كان الإسلام لا يحتاجها، فجميع شواهد الإسلام السابقة إما طمست أو استخدمت استخداماً مضاداً واستخدمت كدليل علىٰ خرافة الأديان وما ذلك إلا إخفاءً لمعالم التوحيد في الحضارات.

فالإسلام يتميز من لدن آدم عليه السلام حتىٰ محمد ﷺ بأن الدين ليس له أثر محسوس متجسد في العبادة سوىٰ مكان العبادة إلا قليلاً كالمسجد ومشاعر الحج مثلاً، بينما في الوثنيات المتعددة فإنه يغلب وجود آثار تدل علىٰ المعتقدات حيث ترىٰ في بعض الآثار تطلع بعض الصور إلىٰ صور أخرىٰ ودعائها أو وجود كتابات فسرت وترجمت بأنها طلب نصر أو نسل أو زرع أو ما شابه ذلك من تلك التماثيل والصور.

لكن يوجد أشياء آثارية سواء محسوسة أو مكتوبة تدل علىٰ أن هناك بقية من اعتقاد صحيح ورواسب من رسالات لا تخلو منه كثير من تلك الوثنيات، مثال ذلك: ما يدل علىٰ البعث والحياة الأخرىٰ، ومثل ما يدل علىٰ الرسل الذين سيأتون فيما بعد وهو ما يسمىٰ عند أصحاب الديانات بالمخلص.

لكن الآثاريين يخفون ذلك ويقلبون الأدلة ويقولون بأن ذلك دليل الخرافة والأسطورة، وإن هذا من افترائهم.

ثم إن هذه الديانات يأخذ بعضها من بعض ثم يربطون الديانة اليهودية

والنصرانية بأشياء صحيحة وأخرىٰ محرفة ومن ثم يربطون الإسلام بالأمرين الوثني واليهودي مع النصراني وأنها يأخذ اللاحق منها من السابق ومن ثم يلحدون ويجرون الناس إلىٰ الإلحاد مع العلم أن بعض الأحكام قد أنزلها الله في شرائع متعددة كالصيام مثلاً، أما توحيد الله في العبادة والإيمان بالملائكة والرسل والكتب ونحو ذلك ففي كل شرائع الله عز وجل التي جاء بها رسل الله عليهم السلام.

ومن ذلك المستخدم في التحريف الطوفان وتقديم القرابين من ذبائح ونذور مما يكون أصل الخبر فيه صحيحًا لكن وقع التحريف والتغيير والزيادة والنقص حسب قوة الوثنية وضعفها ومن ثم يلحدون ويدعون الناس إلىٰ الإلحاد.

كذلك كشفت الآثار عن علامات الطوفان الذي جرىٰ في عهد نوح عليه السلام والتي «نجدها في نصوص العراق القديم للقصة التي سماها علماء الآثار: أسطورة جلجميش وأبجيدوا التي ترجع إلىٰ آلاف السنين وفيها نقرأ أن أوتنابشتيم قص علىٰ جلجميش قصة الطوفان التي يمكن إجمال خطوطها الرئيسة كما سيأتي: شخص أُهّل لحمل الرسالة يعيش في مدينة علىٰ ضفاف الفرات تلقىٰ الأمر من الله لبناء السفينة وتحميلها من كل أنواع الكائنات الحية لأن الله غير راض عن تصرفات أهل المدينة وشيوخها ثم اكتمل البناء وحمّل الرسول سفينته من كل زوجين اثنين وأرسل الله أوامره إلىٰ السماء فانهمر الماء وإلىٰ الأرض فتفجرت بالعيون ونسفت الجبال وهلك الناس الذين اعترفوا بمعصيتهم ولكن حين لاينفع الندم.

وهدأت العاصفة وتوقف الطوفان الذي استمر سبعة أيام ورست السفينة حيث قُدّر لها أن ترسو.

وحينما تعرف علماء الآثار علىٰ هذه القصة لم يكلفوا أنفسهم ـ قصداً أو بغير قصد ـ ربط هذه القصة بالقرآن ولو أنصفوا لقالوا «ملامح قصة نوح والطوفان» خاصة وأن نتائج الدراسات الأثرية قد أثبتت حدوث فيضان كاسح... في بداية الألف الرابع قبل الميلاد وذلك إثر العثور علىٰ طبقات طينية يتراوح سمكها بين نصف متر وثلاثة أمتار تكون الطبقات السفلىٰ... وكانت الطبقة العليا تحوي قواقع وأعداد كبيرة من السمك.... أما السفلىٰ فكانت تحوي بعض المخلفات البشرية

وهو ما دل على وجود حياة بشرية قبل تكون هذه الطبقة الطمّيّة التي نشأت عن الطوفان الكاسح الذي أهلك الحرث والنسل[1] .

لكن بعض أهل الآثار يوهنون خبر الطوفان ويفسدون معناه من ذلك قولهم عنه :

«وكان الاعتقاد السائد عند أهل العراق الأوائل أن الطوفان منبعث من غضب الآلة بسبب فساد البشر وآثام الإنسان وخطاياه فعزمت الآلهة على محوه من الوجود بإرسال طوفان كبير على الأرض وهذا هو الطوفان الذي نقلت أخباره المدونات السومرية والبابلية القديمة والكتب الدينية . . . .

إن قصة الطوفان السومرية الأصل نقلت بأشكال متعددة فيما بعد العصر السومري ومن هذه النقول الرواية الأكدية البابلية ورواية التوراة . . .

ويشير الدكتور رالف لينتون في كتابه «شجرة الحضارة ترجمة الدكتور أحمد فخري (٢ : ٢١٥)» أن هناك فيضانًا حدث حوالي عام ٣٥٠٠ق . م . وربما كان الأساس الذي قامت عليه أسطورة طوفان نوح وسفينته التي وردت في التوراة . . .

وقد أثبتت المكتشفات الأخيرة أن قصة الطوفان التي وردت في التوراة ترجع إلى العصور السومرية والبابلية ثم تناقلها كتبة التوراة وغيرهم من الأقوام وأصبحت بعدئذ جزءًا من العقيدة المسيحية»[2] .

وقد قلص ذلك الآثاري مدى الطوفان فقال :

«ويبدو أن السومريين كانوا يعتقدون بأن العالم يقتصر على بلادهم فقالوا إن الطوفان غطى الأرض التي هي بلادهم . . . على أن الرأي المبني على الدراسات الآركيولوجية يخالف هذه النظرية إذ يرى الباحثون أن الطوفان كان محليًا مقتصرًا على سهول العراق الجنوبية ذات الراسبات الغرينية وكان سيلاً عرمًا طغى على

(١) علم الآثار د . جمال عبدالهادي و د . وفاء محمد رفعت، دار الشروق جده ص٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) تاريخ حضارة وادي الرافدين الجزء الأول في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية والمصادر التاريخية، أحمد سوسة ص٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦ .

وادي دجلة والفرات وأغرق كل المنطقة المأهولة في تلك الأنحاء وكانت هذه المنطقة بالنسبة لسكانها هي الدنيا بأسرها وتقدر مساحة الأرض التي غمرها الطوفان في هذا الوادي بما يمتد زهاء ٤٠٠ ميل طولاً و ١٠٠ ميل عرضًا أي حوالي ٤٠٠٠٠ ميل مربع وكان هذا كافيًا لغمر الوادي بأسره باستثناء المدن العليا التي كانت بنيت فوق الروابي المرتفعة عن سطح البحر»[1] والآثاري قال هذا القول معتمداً على ما وجده الضابط في الاستخبارات البريطانية الذي اتخذ مهنة الآثار جزء من عمله وهو السير : ليونار وولي : «من آثار ترسبات غرينية في أور من دور العبيد بلغ ثخنها زهاء ١١ قدمًا وقد عثر عليها في موضع قريب من المقبرة الملكية ولكن لم يعثر على بقايا مماثلة من هذا الدور في المواقع الأخرى مثل أريدو القريبة من أور»[2] .

وما دام أنه لم يجد ترسبات أخرى في بلدة قريبة قال بمحدودية الطوفان لكن الترسب الطيني الغريني المصاحب لمياه السيول لا يكون شاملاً لكل ما يغمره من الأرض بل يكون في أماكن دون أخرى واستخدامه دليلاً لنفي شمول الطوفان لكل الأرض لا ينهض للاستدلال وهو عدم توصله إلى الترسب الطيني، وعدم وجودك للشيء لا يعني أنه غير موجود فضلاً أن عدم وجود الطمي لا يكفي دليلاً في حد ذاته إذ أن مياه السيول وإن كانت تحمل ترسبات لكنها لا تكون متساوية في الأرض ولا متماثلة في السمك بل إن بعضها لا يكون فيه ترسبات أصلاً .

ثم إنه هوّن من أمر الطوفان فقال : «وليس بالأمر الغريب أن يحدث مثل الطوفان الذي نحن بصدده في وادي الرافدين الذي كان منذ القديم ولا تزال ظاهرة الفيضان فيه ظاهرة طبيعية مألوفة، فالأحواض التي تمون دجلة والفرات وتوابعهما بالمياه هي من السعة بحيث يمكنها أن تحدث في بعض الحالات الطبيعية فيضانات هائلة تنذر بالويل والثبور خاصة إذا صادف هطول أمطار غزيرة في مناطق الأحواض المذكورة كلها وطغيان كل الأنهر والتوابع في وقت واحد ثم انضمام المياه التي تنحدر من قمم الجبال إليها بعد ذوبان كميات كبيرة من الثلوج .

(١) المصدر السابق ص٢٠٤ .

(٢) تاريخ حضارة وادي الرافدين ص٢٠٩ .

أما قصة السفينة كما روتها النصوص السومرية والأكدية والتوراة فتذكرنا بحوادث مشابهة وقعت في الوادي نفسه في العهد العباسي، فيحدثنا التاريخ عن فيضان كبير حدث في سنة ست وثمانين ومائة للهجرة (٨٠٢م) مما اضطر الخليفة الرشيد أن ينتقل من قصوره في بغداد مع أهله وأمواله إلى السفن حتى هبط مستوى نهر دجلة فعاد إلى البر»[1].

فهو بهذا ينكر أن يكون قوم نوح قد عذبهم الله بالطوفان بسبب تكذيبهم لرسولهم نوح عليه السلام وجحدهم بأحقية الله عز وجل بالعبادة وحده لا شريك له.

ومن بقايا النبوات التي أغفلها الآثاريون ما «ورد في الأدب العراقي القديم الذي يرجع تاريخه إلى آلاف السنين: أن البشر ما خلقوا إلا لعبادة الله.

وفي نصوص الحديث عن قصة خلق الكون: أن السماء والأرض كانتا في بداية أمرهما ملتصقتين... وأن الإنسان قد خلقه الله من طين ثم قال له كن فكان»[2].

كذلك من الملاحظ صمت الآثاريين عن دعوات الأنبياء وقصصهم: بعض الباحثين يرجع خلو الآثار عن الدلالة على دعوات الأنبياء إلى نظرة الآثاريين إلى الأنبياء ودعواتهم وقصصهم بعين الحذر من جهة أو إلى افتراض أنها أساطير من جهة ثانية أو لأنها لا تمثل حدثًا ذا بال.

ويرى بعض الآثاريين أن سبب ذلك يرجع إلى أن احتمال العثور على أسماء الأنبياء والرسل في النصوص الإنسانية جد ضعيف ذلك لأن حقيقة الصراع بين دعوات الأنبياء وسلطان الملوك المؤلهين يدعو إلى عدم سماح الملوك بتسجيل مبادئ الدعوات التوحيدية والصراع بينها وبينهم»[3].

والواقع والله أعلم أن الأنبياء وصحابتهم لا يكون لهم أثار مما يعنيه الأثاريون غالبًا لأنهم لا يهتمون بالدنيا وزينتها.

(١) المصدر السابق ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) علم الآثار ص٢٧ ـ ٢٨.

(٣) انظر: الحضارة المصرية القديمة الجزء الثاني ضمن سلسلة مصر والشرق الأدنى القديم، محمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، الطبعة الرابعة ١٤٠٩ ص٥٧٢ ـ ٥٧٥.

حاجة المسلمين إلى الآثار

يمكن أن يكون هذا العنوان جوابًا لسؤال هو: هل يحتاج المسلمون للآثار؟ لقد مر أن من أهداف علم الآثار المصرح بها كثيراً معرفة التاريخ ومعرفة تطور الإنسان ومعرفة تطور الحضارة وخط سير الحضارات والبناء عليها ومعرفة عقائد الناس وأفكارهم ومعرفة أسباب انهيار الحضارات وأسباب قوتها للاستفادة من ذلك.

والواقع أن هذه المعارف المكتسبة إنما هي في الغالب إستنتاجات وتحليلات وبعضها مدون.

فمن ناحية معرفة التاريخ فالتاريخ مهم في حياة الأمم والذي ليس له ماضي ليس له حاضر.

والأمم كلما أصابها ضعف أو خور أو عقم في المصلحين التفتت إلى الماضي تبحث عن عظمائها ومفكريها وقادتها تتخذهم قدوة ونبراسًا وتترسم خطاهم وتحاول أن تنهض من كبوتها بعد أن تملأ خواءها من تلك الأمجاد.

والتاريخ هو أداة ربط بين السلف والخلف.

وقد أغنى الله المسلمين بتاريخ وسيرة نبيه محمد ﷺ وسيرة خلفائه من بعده وسيرة أولئك القادة والفاتحين والعلماء الأفذاذ والمفكرين في شتى العلوم على فترات تاريخ المسلمين بما تُشحذ به عقول المسلمين اليوم وغداً من سيرهم وأخلاقهم وصبرهم ومثابرتهم وجدهم وحصدهم ثمرة جهودهم والتي لا زال المسلمون اليوم يحصدون شيئًا من ذلك، ولم تعقم عقولهم ولا أصلابهم وأرحام نسائهم من وجود عمالقة بشتى الفنون التي يحتاجها المسلمون للنهوض من تبعية الاستعمار والذل والهوان بدليل وجود عقليات في علوم شتى مهمة في الدول المهيمنة ترجع إلى أصول إسلامية مهاجرة، فالمسلمون ما لهم ولسير الفراعنة ولا لسير الأشوريين والفينيقيين وغيرهم من صناديد الكفر والطغيان والعتاة المستكبرين المفسدين فإن تاريخهم مليء بألوان من الفساد والإفساد ومليء بالسيرة الخبيثة ومليء بالمعتقدات الوثنية والأساطير والخرافات وسوء الأخلاق والمعاملات: وحشية في الحروب

وخبث وخداع في المعاملات ونقض وغدر في الاتفاقيات والمعاهدات، فذلك كله لا يصلح للمسلمين بل هو يفسدهم ويفسد أبناءهم بكل أنواع الفساد الموجود في تواريخ الأمم الوثنية الجاهلية.

أما معرفة تطور الإنسان فإن الله عز وجل هو الخلاق العليم وقد أخبرنا عن خلق الإنسان لا عن تطوره ذلك التطور المبني على نظرية دارون قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠)﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا

(١) سورة السجدة، الآيات: ٧-١١.

(٢) سورة الحج، الآيات: ٥-١٠.

وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)﴾[3] وقال سبحانه وتعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ...﴾[4] وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨)﴾[5] فأخبر سبحانه وتعالى عن خلق الإنسان ومراحله ومصيره وأنه يتوفاه ثم يحييه مرة أخرى يوم الجزاء والحساب.

وأصل فكرة التطور التي يرددها الملاحدة وأتباعهم من جهال الناس نظرية طرحها دارون وهي بعد لم تأخذ التصحيح العلمي بل هي مجرد نظرية باهتة مردود عليها في منبتها إلا أن اليهود تلقفوها ووجدوا فيها مركبًا وسلّمًا يصعدون عليها لإفساد أخلاق الناس وأُسَرهم وأديانهم ولم يتركوا وسيلة إلا اعتمدوها لتثبيت تلك النظرية حتى صدق كثير من الناس ذلك وأصبحت تدرس على أنها حقائق علمية وهي من الصحة بريئة بل إن بينها وبين الصدق من العداوة أشد ما بين اللحم والسكين.

وأخبرنا سبحانه وتعالى أنه لم يخلق الإنسان عبثًا ولا سدى فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾[6].

وأن العبادة في حياة الإنسان تشمل كل وقته حتى نومه وطعامه ومرحه فيقوى

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢-٢٢.

(٢) سورة القيامة، الآيات: ٣٦-٤٠.

(٣) سورة الإنسان، الآيات: ١-٢.

(٤) سورة الإنسان، آية: ٢٨.

(٥) سورة الطارق، الآيات: ٥-٨.

(٦) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

بذلك على طاعة الله ، قال الله عز وجل : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ...﴾[1] .

أما معرفة تطور الحضارة وخط سير الحضارة وهي تدور على معرفة الإنسان وثمرة تلك المعرفة بين الإنسان والآخر وتدور حول زرع الإنسان وصيده وعمارته، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وجعل أحد خصائصه الاستفادة من علوم من سبقه بل الاستفادة والتعلم يحصل منه من غير الإنسان فيتعلم الإنسان من الطير ومن الوحش والنمل ومن كثير من المخلوقات غيره ما عنده من علم بعكس غالبية الحيوانات فإن علمها فطري .

وقد علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها، قال عز وجل : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾[2] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾[3] وقال سبحانه وتعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾[4] .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**يجتمع المومنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء.. الحديث**»[5] .

أما من حيث الحضارات ومعرفتها وبناء الحاضر عليها فإن تلك الحضارات وثنية

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٣١ ـ ٣٣ .

(٣) سورة الرحمن، الآيات: ١ ـ ٤ .

(٤) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥ .

(٥) رواه البخاري: ٨/ ١٠ كتاب التفسير باب قوله الله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ .

لا تصلح أن تكون أساسًا يؤسس عليها المسلمون مع ما قد أغناهم الله به عن ذلك، فمن ناحية الاقتصاد أوالحكم أو الثقافة أو الأخلاق أو العمارة وحتى العلوم البحتة والهندسة والرياضيات كل ذلك جاءت به شريعة الله عز وجل المنزلة على خاتم أنبيائه ورسله نبينا محمد ﷺ صراحة أو إيماءً ووجد النماذج في ذلك الشيء الكثير في عصور المسلمين لكن تلك العلوم قد قطع المسلمون ما بينهم وبينها من صلة وانبهروا بعلوم الغرب التي جعلت من علوم المسلمين السابقين قاعدة لهم ومنطلقًا ثم إن كثيرًا من علماء الغرب إنما هم من العقول الإسلامية المهاجرة .

أما من ناحية معرف أسباب انهيار الحضارات لتجنبها ومعرفة عوامل تماسك الحضارات وقوتها للأخذ بها فإن الله سبحانه وتعالى قص علينا في كتابه سير الظالمين والكفار وكيف أهلكهم الله سبحانه وتعالى بسبب ظلمهم وكفرهم على أنهم اتفقوا في عبادة غير الله أو أشركوا معه في عبادته فكانت الوثنية دينهم مع ما قد يصاحب اشتهارهم بمعصية أخرى كإتيان الذكران في قوم لوط عليه السلام ونقص المكيال والميزان في قوم شعيب عليه السلام مثلاً فكلاً أخذ الله بذنبه ودمرهم وأهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ونجى الذين آمنوا برحمة منه عز وجل ونصرهم على عدوه وعدوهم مع ما في القرآن والسنة من دلائل القوة وأسباب النصر وسنن الله في خلقه التي كثيراً ما تطرق الأسماع لكنها لم تلامس أذن المعتصم وقد أعز الله العرب بالإسلام فإن ابتغوا العزة بغيره أذلهم وخذلهم الله عزوجل ولن يصلح هذه الأمة إلا ما صلح عليه أولها كما أن ما أفسد البشرية من الشرك والوثنية كفيل بإفساد أي أمة تنتشر فيها تلك الوثنية .

فإن كانت إيجابيات الآثار لا تصلح للمسلمين مع ما أغناهم الله عنها من البدائل فإن سلبيات الآثار كافية لنبذها سداً لذريعة الشرك وسداً لذريعة تشتت المسلمين وتفرقهم أو بالأحرى منعاً للشرك ومنعاً لتشتت المسلمين، فكل أهل بلد بما عندهم من وثنية الأقدمين فيها فرحون ولو لم يكن إلا هذان لكفى فالمسلمون مطالبون بالاجتماع لا بالتفرق، قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا...﴾[1] .

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣ .

وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾[1] وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾[2].

وهل أعظم من تفرق المسلمين بحب آثارهم من مصيبة كل يباهي بوثنية في بلده، وقد أمرنا باتباع الرسول ﷺ في كل شأن من شئوننا حتىٰ في تعامله ﷺ مع الآثار عندما مر بمدائن صالح وتجاوز المكان مسرعًا وطلب من أصحابه أن لا يدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن يكونوا باكين ومثله مسرعين لئلا يستحقوا أن يصيبهم ما أصاب أولئك الظالمين ولا شك أن أظلم الظلم الشرك بالله وأكبر علامات الشرك وأوضحها الأصنام والأوثان ومنها التماثيل والصور فهي تدل علىٰ أن تلك الآثار مساكن لأمم ظالمة مشركة بالله.

فلو بحث الآثاريون في مخلفات الحضارة الإسلامية وميزوا فيما بينها فما كان موافقًا لشرع الله أظهروه وبينوه لوجدوا فيه غنية عن غيره ولاستطاعوا أن يقطعوا علىٰ الغرب ما يطمح إليه من إسقاط الحضارة الإسلامية من سلسلة التقدم الحضاري العالمي فالغرب يريد من المسلمين أن يُخرجوا الأوثان والأصنام عدوة الإسلام الأولىٰ وأساس سنة الجاهلية ويوقظوها من سباتها لإرجاع الناس إليها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ يتجاهل الآثاريون آثار الرسالات في بلاد الإسلام ويعدونها من قبيل الأساطير فليس مثبتًا عندهم من الدين إلا الدين الوثني والحمية الجاهلية والأخلاقة الجاهلية.

وكذلك يريد الغرب أن يثبت للعالم أن الحضارة الغربية الحديثة مبنية علىٰ الحضارة اليونانية والإغريقية وأن التقدم العلمي الهائل في العلوم المحايدة كما يسمونها كالرياضيات والفلك والهندسة وعلم الذرة وسائر العلوم والتي هي في واقعها سنن كونية وضعها الله لتسيير هذا الكون فمن تعلمها وتعرفها استطاع أن يطوعها ويستفيد منها، وقد تعلمها الغرب من العالم الإسلامي فالعلم التجريبي

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

الذي هو أساس الحضارة الغربية الحديثة أخذه الغرب من المسلمين ولكن الغرب يزعم أن هذا التقدم أساسه الحضارة اليونانية والإغريقية وأن دور المسلمين هامشي لا وزن له.

فلو أن الآثاريين بينوا كذب ادعاء الغرب في هذه المجالات وأبرزوا حقيقة الناتج الحضاري الإسلامي الصحيح لانتفع بذلك أول من ينتفع المسلمون الذين يشعر كثير منهم أنهم عالة علىٰ غيرهم في شتىٰ الميادين.

ولو أبرز الآثاريون فن العمارة الإسلامية في البيوت وكيف أنها تطبيق لما يريده الإسلام من المحافظة علىٰ حرمة البيوت والحرص علىٰ الستر وأظهروا شخصية المسلم في فن تخطيط العمران لاستغنوا عن الطراز الغربي في البناء.

ولو أن الآثاريين أبرزوا فن العمارة الإسلامية في القلاع وأطلعوا شباب المسلمين عليها وبينوا لهم أن المسلمين الأوائل إنما بنوا تلك القلاع لمحاربة عدو الإسلام وعدو المسلمين وكيف تعب المسلمون في ذلك وكم بذلوا لارتفعت معنويات المسلمين.

ولو أن الآثاريين أبرزوا الآثار الدالة علىٰ التقدم العلمي مثل اختراع الساعة وأدوات التشريح وأدوات المراصد الفلكية والمناظير وآلات الاستدلال علىٰ معرفة الجهات وصناعة السفن وجسور العبور فوق القنوات وقنوات الري وعلم الأصوات ومعرفة طرق رفع الصوت بما يشبه مكبرات الصوت الذي يعتبر بداية للإذاعة والاتصال اللاسلكي وكذلك صناعة الآلات الحربية بما فيها المدافع القديمة لاستثاروا بذلك نفوس المسلمين علىٰ حب الاختراع والمعرفة.

إن هناك علومًا كثيرة مهمة ومتقدمة في سلم الحضارة عند المسلمين لم يعرفها المسلمون حتىٰ الآن والعالم الغربي رصدها واحتواها واستفاد منها وبنىٰ عليها حضارته ونسبها لنفسه، ولا تزال بين الفينة والأخرىٰ تفوح بعض الاعترافات الغربية هنا وهناك بأن مصدر تلك المعرفة مأخوذ من المسلمين، والمسلمون لا يعلمون عن ذلك شيئًا فأين دور الآثاريين المفقود هنا.

ولو أن الآثاريين أثبتوا للمسلمين اليوم أن سيطرة العالم الإسلامي التي امتدت

أكثر من ألف عام إنما تمت لتمكن الإيمان في نفوس المسلمين وتطبيقهم شرائع الإسلام وشعائره جميعًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[1] .

وأن من أفراد شرائع الإسلام وشعائره قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ...﴾[2] وأن تلك القوة لا يمكن أن تبنى من فراغ أو من جهل أو من فقر فلابد لبناء القوة من إعمال الفكر في بناء القوة الاقتصادية وتعلم العلوم النافعة لبناء القوة من صناعة الآلات النافعة في الزراعة والأسلحة والطب والهندسة بفروعها وعلوم المعادن وغيرها والاعتماد في ذلك كله على النفس مما تبرز فيه عقلية المسلمين وقوتهم وحضارتهم من جديد وترك ما يتعلمه كثير منهم من قشور الحضارة الغربية كالتقليد في القصات والملابس والعطور ودراسة الفن ونحو ذلك مما هو تشبه بالغرب أو استهلاك لقوة المسلمين المالية والذهنية مما لا طائل من ورائه، بل إنه يذيب شخصيتهم ويجعلهم تابعين لأذناب الغرب في فسادهم وعريهم وعربدتهم ثم في إلحادهم وتمردهم على الله سبحانه وتعالى.

لو فعل الأثاريون ذلك المطلوب منهم من إظهار الحضارة الإسلامية لأثبتوا للمسلمين أولاً وللعالم ثانيًا أن مكان الأمة الإسلامية ليس في هامش الأمم بل إن مكانها من القلادة أوسطها ومن المجالس صدورها ومن المجد ذروته، ولقطعوا على الغرب ما يرددونه من إسقاط دور المسلمين في الحضارة العالمية.

كذلك لو فرز الآثاريون ما يسميه الغرب بالآثار الإسلامية وبينوا الآثار التي لا تصح نسبتها إلى الإسلام لمنافاتها إياه، وبينوا أن مايوجد من آثار قد تشبه بعض آثار الجاهلية اليونانية إنما هو من فعل أناس تحت الحكم الإسلامي، وقد لايكونوا من المسلمين والله أعلم.

* * * * *

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠٨

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٠

معرفة عمر الآثار

جميع المقاييس التي تحدد بها عمر القطع الأثرية ظنية بل بعضها غير صحيح وهي متفاوتة حتى أن كتب الآثار التي تطرقت لها تبين المطاعن والعيوب التي في أغلبها ومن أهم مقاييس عمر الآثار القياس بواسطة الكربون المشع ١٤ C ويتم ذلك بأخذ قطعة من الآثار ويشترط أن تكون عضوية وينظر نسبة الكربون المتبقي بعد فناء الكائن العضوي المراد معرفة تاريخه إذ أن خروج الكربون ١٤ يكاد يكون بنسبة ثابتة في نصف كمية الكمية الموجودة فيه تستهلك من الوقت قرابة ٥٦٠٠ سنة تبقى بعدها نصف كمية الكربون ١٤ ثم هذا المتبقي يذهب نصفه خلال نفس المدة الأولى ثم بعدها المتبقي يذهب نصفه بنفس المدة وهكذا فمدة القياس الزمني التقريبي لا يتجاوز ٥٠٠٠٠ سنة على أكثر تقدير وهناك أقوال أنه لا يتجاوز ٣٥٠٠٠٠ سنة[1] .

وهذه الطريقة عند الآثاريين لا يتطرق إليها النقص إذ هي عندهم قطعية الثبوت لكنهم يقولون «أمام هذه الطريقة صعوبات لم تحل بعد إذ ربما تتلوث عينة من فحم حجري قديم بامتصاصها مواد تحوي على فحم حجري من عصر أحدث مثل النمو الطفيلي البكتيري التي حتى لو أزيلت من العينة التي يراد تحليلها فربما تزيف عمرها الظاهر وتقلله»[2] . فلابد من التأكد من أن المادة العضوية لم تلوثها أية مواد عضوية أخرى أحدث منها عمرًا وتحتوي على الكربون المشع ١٤[3] ومن ثم من يضمن أن

(١) انظر الكتب التالية: الرائد في فن التنقيب عن الآثار ص٨٨ وبلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ ص٦٠.

وكتاب: خلق لا تطور، مجموعة من علماء الغرب، ترجمة د. إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، لبنان الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ص١١٨.

(٢) الرائد في فن التنقيب عن الآثار ص٩٠.

(٣) انظر: الكربون المشع وغيره من أساليب تأريخ الماضي، لين وجراي بول، ترجمة زكريا البرادعي، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ص٢٦.

هذه العينة المرادة معرفة عمرها لم تلوثها مادة عضوية أخرىٰ أحدث عمراً منها؟ .

وقد حدث بالفعل الكشف عن مثل هذا الاختلال ومن ذلك قولهم: «وبالرغم من أن النتائج كانت مرضية في مرات عديدة إلا أنه كان هناك بعض الاختلافات المحيرة بين التواريخ الراديو كربونية[1] التي تم الحصول عليها حديثًا من مواقع تم التنقيب عنها، وتواريخ أخذت بعد ذلك إما من حفريات قديمة أو نماذج محفوظة في المتاحف، إن احتمالات التلوث في الحالات الأخيرة ربما تكون قد أدت إلىٰ تواريخ حديثة أكثر»[2] .

ومما يجب ألاّ يغيب عن الأذهان أنه «قبل كل شيء يجب أن نعلم بأن طريقة الكربون ١٤ قد قامت علىٰ فرضيات كثيرة وأن المختبرات التي تقيس الأعمار لاتقيس أعمار النماذج بل تقيس إشعاعاتها وأن الصلة بين الإشعاع وبين عمر المادة تقوم علىٰ سلسلة من الفرضيات . . .

فيفترض علىٰ الأخص بأن يكون مستوىٰ الإشعاع الكربوني مستقراً خلال تمام الفترة التي طبقت عليه الطريقة فإذا اختلفت مع الزمن محتوىٰ الجو من الكربون ١٤ كما لاحظ العلماء بأن محتوىٰ الهواء والبحر من كربون ١٤ لم يكن ثابتًا خلال سنوات كما افترضوا من قبل أن يكون فإن النتائج ستختلف وعلىٰ الرغم من أن هذه الطريقة قد استقبلت في بداية الأمر كجواب لمطاليب علماء ما قبل التاريخ فقد أخذوا يومًا بعد يوم ينكرونها بسبب عدم دقتها، لا بل وعدم مطابقتها للمنطق والمعقول بالنسبة إلىٰ التواريخ التي تعطيها إذا تمسكنا بالأرقام التي يدل عليها كربون ١٤ .

فقد أجريت علىٰ مخلفات أثرية بِقريَة جارمو التي يعود وجودها إلىٰ ما قبل

---

(١) هو نفسه التاريخ بواسطة الكربون المشع ١٤ C.

(٢) أقدم الحضارات في الشرق الأدنىٰ جيمس ميلارت ترجمة محمد طلب الناشر دار دمشق، دمشق سوريا، طبعة أولىٰ ١٩٩٠م، ص١٤ .

التاريخ قياسات بواسطة الكربون المشع ١٤ بلغ عددها إحدىٰ عشر حساب لمعرفة عمر هذه القرية دلت كلها أنها كانت مأهولة بالسكان خلال ٦٠٠٠ سنة بينما قد دلت شهادات علم الآثار علىٰ أنها لم تسكن بصورة مستمرة إلا خلال ٥٠٠ سنة .

وإن الأخطاء في معرفة الأعمار بالإشعاع الكربوني يمكن أن تكون بآلاف السنين[1] . أيضًا فعند الرغبة بمعرفة عمر آثار غير عضوية بواسطة الكربون المشع ١٤ فإنه يبحث عن عينة عضوية[2] قريبة لتلك الآثار غير العضوية ويكون عمر العينة العضوية المتوصل إليها هو عمر العينات غير العضوية المجاورة لها[3] لكن قد تكون العينة العضوية أقدم من العينة غير العضوية بكثير أو العكس ولا يعلم متىٰ حصل التجاور بين العينتين العضوية وغير العضوية ولا أيهما أسبق وجوداً في ذلك الموقع .

وهناك وسيلة أخرىٰ مشابهة إلا أنها تقيس الأزمنة البعيدة وهي معرفة عمر الصخور بواسطة قياس ما تحويه من بوتاسيوم ٤٠ وبقياس حاصل انحلال أرغون ٤٠ لا سيما إذا كانت الصخور بركانية وهذا مبني علىٰ اعتبار أن الصخور التي فوق القطعة الأثرية المراد معرفة عمرها قد تشكلت بعد وجود العظم في الأرض وبالتالي فهي بعمر القطعة الأثرية إن لم تكن القطعة أقدم منها، لكن تحديد عمر الصخور البركانية بواسطة بوتاسيوم أرغون تقوم علىٰ فرضية وهمية إذ تفترض بأن النشاط البركاني قد أذاب كل غاز الأرغون الذي يوجد في الصخور ونفاه ولكن بقاء أثر طفيف من هذا الغاز يجعل آل القياس لا تقف علىٰ الصفر في البداية ولذا يكون العمر الذي تشير إليه أكثر بكثير من حقيقته .

وقد تكون تلك الصخور حاوية لغاز الأرغون ساعة تبلورها أو يمكن أن تصاب به عن طريق الجو .

---

(١) انظر خلق لا تطور ص١١٩ ـ ١٢٠ .

(٢) **العينة العضوية**: هي ما كان أصلها جسمًا ناميًا كالإنسان أو الحيوان أو الشجر، أما العينة غير العضوية فهي التي أصلها غير نامي كالحجر والحديد ونحو ذلك .

(٣) الكربون المشع وغيره ص١٤٢ .

وترى جماعة من أساتذة جامعة «جان هو بكنز» أن هذه التواريخ قابلة للجدل هذا وإن الأعمار التي تقدر بواسطة بوتاسيوم أرغون لا تتبع دوما عامل الأمن إذ تقدر عمر طبقة سفلى من الطبقات الأثرية التي فوق بعضها البعض أقل من عمر طبقة أعلى منها والصحيح أن الطبقة السفلى من المخلفات الأثرية أقدم عمراً من الطبقة التي فوقها إذ كلما خلف الإنسان مخلفات ورماها تكون المتأخرة عادة فوق القديمة وهكذا تتراكم إلى أن تكون التي على سطح الأرض هي الأقصر عمراً والأقرب عهداً.

ولابد للحصول على تاريخ مضبوط من هذه الطريقة من أن يكون غاز الأرغون قد زال من الصخرة تماماً بالذوبان حينما يثور البركان لأن وجود أي أثر لهذا الغاز يحدث أخطاء في التاريخ تقدر بكثير من الملايين من السنين ومثال ذلك: إن أثراً ضئيلاً جداً من الأرغون يبقى في الصخرة يكفي لكي يجعل طبقة بركانية عمرها ٥٠٠٠ سنة تظهر نتيجة تحليلها أن عمرها ٧٥٠٠٠٠ أو ٢٥٠٠٠٠٠ سنة وقد كتبت مجلة سانيس وايجست في عددها كانون الأول ديسمبر ١٩٦٢م بشأن عدم دقة طريقة بوتاسيوم أرغون تقول: «لقد حدد عمر الأرض بطريقة بوتاسيوم أرغون بـ ٤٥٠٠ مليون سنة ثم ظهر رقم جديد هو ٦٥٠٠ مليون سنة» فبماذا نفسر فرق هذين المليارين من السنين بين هذين الرقمين[١].

بعد هذا العرض عن الأهمية التاريخية للآثار ووزن مصداقيتها أو بمعنى أدق مصداقية الأخبار المأخوذة منها يبقى أن المكتوب على بعض الآثار يبقى في دائرة مجهول الحال لا يعرف صدقه من كذبه أضف إلى ذلك أنه لا يعرف ضبطه ولا عدالته وأنه في الغالب غير مسلم وأيضاً لا يعرف متى كتب وأن يُعلم أنه قابل للتزييف بشكل أو بآخر كما مرّ.

ومع هذا كله فإن المصادر الأثرية تعتبر عند كثير من الآثاريين والمؤرخين فوق

(١) انظر خلق لا تطور ص١٢١ ـ ١٢٣.

مستوى الشبهات ولا يمكن أن يتطرق إليها الشك وأنها أخبار يقينية تجعل التاريخ المبني على الآثار يرتقي إلى مستوى العلوم البحتية التجريبية أو قريباً من ذلك أي على مستوى علم الجيولوجيا أي علم طبقات الأرض[١].

بل واختص علم آثار ما قبل التاريخ بأنه قطعي الثبوت ونظرياته لا تقبل المراجعة ولا تعارض بأي حقيقة مستمدة من أي علم إلا إذا استثنينا علم طبقات الأرض في بعض الأحيان وهذا قول بعضهم:

«هناك ميدان آخر من العلم البشري يطلق عليه علم آثار ما قبل التاريخ وهو الفرع الوحيد الذي تميزه التعاريف الضيقة لعلم الآثار.

وعلى كل حال فإن علم الآثار مجاله في هذا الميدان أوسع وحريته أكثر أو أن استكشافاته ونظرياته لا يمكن مراجعتها والتأكد من صحتها بواسطة الحقائق المستمدة من العلوم الأخرى اللهم إلا إذا استثنينا علم طبقات الأرض في بعض الأحيان»[٢]. أ. هـ بنصه، بمعنى حتى لو عارض الوحي.

فما أدري هل هناك شبه بين هذا الكلام وبين كلام اليهود عن قداسة كلام حاخاماتهم أنها لا تنقض ولو بأمر الله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبير ـ أم لا.

وكثير من الآثاريين وغيرهم يردون الأحاديث الصحيحة التي يرويها البخاري بشروطه الشديدة المعروفة بدعوى أنها أخبار آحاد بينما يرون دلالات الآثار قطعية بل ويدعي بعضهم أن التاريخ المبني على الآثار يرتقي إلى مصاف العلوم العلمية[٣]، مع أن دلالات الآثار غير قطعية واحتمالات الصدق فيها ضعيف ورواتها مجهولون وجزء كبير من تحليلاتها قائم على خيالات وأوهام أو مبنياً على

(١) انظر طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، ص٩ ـ ١١.

(٢) دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية، محمود وصفي محمد، دار الإصلاح، الدمام السعودية، ص١٧.

(٣) انظر: طرق البحث العلمي، ص١١.

قناعات مسبقة وتأثيرات بيئية أو دينية أو تمليه دوافع إفساد وتخريب مما يبرهن على أن لها دوافع استعمارية.

ولن يصلح هذه الأمة إلا ما صلح عليه أولها ونحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

* * * * *

المبحث الثاني
الوسائل المستخدمة لتعظيم الآثار

استخدم الآثاريون عدة وسائل لتحريك قلوب المسلمين حتى تعظم الآثار ويُعتز ويُفاخر بها من ذلك:

١ ـ المتاحف والمعاهد الآثارية:

المتحف معناه صالة عرض وهو دار علم صامتة بما فيه من معروضات وهو عند الآثاريين تعرض به الآثار وهو في حد ذاته معهد دراسة وتثقيف للباحثين ولأفراد الشعب إذ أن المتاحف تستخدم أساليب خاصة لجمع المقتنيات الأثرية وتعني بحفظها وصيانتها وهي تؤدي رسالة تربوية[(١)].

أما المعاهد الآثارية فهي التي تخرج الآثاريين الذين يشتغلون بنبش الآثار واستخراجها والمعرّفين الذين يعرّفون السياح والباحثين عن المناطق الأثرية بقصد الفرجة على الآثار وأماكنها ويشرحون ويفصلون عن أحوال تلك الآثار.

«والمتاحف الشرقية ثمرة من ثمرات جهود مئات المستشرقين الذين تفرقوا في بقاع الشرق تحت حرارة الشمس اللافحة بين رماله ووهاده وجباله فكشفوا عما خلفه أسلافنا من حضارات سومرية وأكدية وبابلية وآشورية ومصرية وفينيقية وقرطاجنية وغيرها... يوم كانت مطمورة تحت الأرض أو ملقاة عليها أو مدونة في آجرها وصخورها وقد مرّ بها ملايين الناس طوال مئات الأجيال دون أن يتنبه لعظمتها[(٢)] متنبه حتى كشف عنها المستشرقون... فبعثوها من مرقدها في متاحف ومعاهد ومطابع ومجلات... وقد أشرف العلماء الفرنسيون على المتحف المصري منذ إنشائه حتى عام ١٩٥٣ وأنشأوا المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة (١٩٨٠م) وزودوه بمكتبة ومطبعة... وأنشأوا معاهد على غراره في معظم عواصم الشرق

(١) انظر معجم المصطلحات الأثرية، ص٢٦٠ ـ ٢٦١، مادة متحف ومادة فن المتاحف.

(٢) وأي عظمة لها إن التعظيم عبادة ولا تصح إلا بأمر من الله ورسوله ﷺ.

الأوسط . . . وأنشأ ديلاثر متحف قرطاجة وبروست متحف أنطاكية»[1] .

«والمتاحف أصبح لها من القداسة ما هو شبيه بقداسة دور العبادة : يجد الزائر الغريب للمتاحف الشهيرة مثل اللوفر في باريس والمتروبوليتان في نيويورك الجو في هذه الأماكن شبيهًا للغاية لبيت العبادة فلقد ربي كل متفرج منذ طفولته ليعظم كل الصور والتماثيل المحفوظة في هذه الأمكنة وكأنها ذروة الكمال ولكل منها قيم لاتقدر بثمن وليس له بديل فعندما يقف أمام فينوس دي ميلو أو الموناليزا لليوناردو دافنشي يؤخذ فيعجز عن الكلام .

يضاف إلى ذلك الجو الذي يضيفه المشرفون على هذه المتاحف من التعتيم المصطنع في بعض الأماكن والإضاءة الخافتة في بعضها الآخر ومن أسلوب العرض لبعض اللوحات كأن تعرض لوحة واحدة بمفردها في قاعة خاصة بها كما هو الشأن في لوحة الموناليزا في متحف اللوفر وقد يخصص لها بناء مستقل كما هو الشأن بالنسبة للوحة الجورنيكا حيث خصص لها بناء خاص ملحق بمتحف البراد في مدريد .

وحتى يتضح مدى إفساد ذلك للقلوب إليك ما يلي :

ورد في الصحف البريطانية منذ سنوات السؤال التالي :

لنفرض أن تمثالاً يونانيًا شهيراً وجميلاً فريداً من نوعه وهو لذلك لا يعوض كان في غرفة واحدة هو وطفل حي واندلعت النيران في الغرفة ولم يكن بالإمكان إلا إنقاذ واحد إما الطفل وإما التمثال فأيهما يجب إنقاذه؟

وكانت المصيبة أن كثرة عظمى من الذين أجابوا برسائلهم من الرجال ذوي الثقافة والمكانة المرموقة قالوا حسب ما ذكر : بأنه يجب إنقاذ التمثال وترك الطفل يهلك وكانت حجتهم في ذلك : أن ملايين الأطفال يولدون يوميًا بينما لا يمكن تعويض ذلك العمل اليوناني العظيم»[2] ويؤخذ من السبب الذي ذكروه أن كثيراً من

(١) المستشرقون، نجيب العقيقي ٣/ ٣٤٨ـ ٣٤٩ .

(٢) انظر الفن الإسلامي التزام وابتداع، صالح أحمد الشامي، دار القلم دمشق سوريا الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ص٦٤ ـ ٦٥ .

الآثاريين يفضلون ما يجدونه من تماثيل في بلاد المسلمين على المسلمين فقد ضحوا بطفل انجليزي مقابل ذلك التمثال فمن باب أولى عندهم أن تفضل التماثيل في بلاد المسلمين وغيرهم على المسلمين .

وكأن عقولهم مسخت فإن الإبداع في خلق الطفل لا يقارن بعمل التمثال ثم ومن قال أن الأطفال الذين يولدون يوميًا مثل ذلك الطفل .

ثم إن هناك التماثيل التي تنحت قد تكون أحسن في نظر أولئك من ذلك التمثال المراد إنقاذه ! ! .

«ومما لا تخفى دلالته في هذا الصدد أن الثري الأمريكي اليهودي الأصل روكفلر (ابن روكفلر الكبير) صاحب الملايين قد أعلن سنة ١٩٢٦م عن تبرعه بعشرة ملايين دولار أمريكي لإنشاء متحف للآثار الفرعونية في مصر يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن واشترط لمنح هذه الهبة أن يوضع المتحف والمعهد تحت إشراف لجنة مكونة من ثمانية أعضاء ليس فيها إلا عضوان مصريان فقط على أن تظل هذه اللجنة هي المسئولة عن إدارة المتحف والمعهد لمدة ثلاثة وثلاثين سنة . . . وقد كان واضحًا من تحديد صاحب الملايين مدة الإشراف بثلاث وثلاثين سنة . . . أنه يهدف إلى خلق جيل من المتعصبين للفرعونية ثقافيًا وسياسيًا .

ومصلحة الصهيونية في ذلك ظاهرة لأنها إذا نجحت في سلخ الدول الإسلامية من إسلامها أمن اليهود كل معارضة لاستقرارهم في فلسطين وعاشوا مع جيرانهم في هدوء يمكن لهم من الإعداد لوثبة جديدة يأكلون فيها جيرانهم النائمين لأن معارضة الدول العربية لمطامع اليهود في فلسطين إنما تستند إلى الإسلام فإذا انسلخ المصريون مثلاً من الإسلام ولبسوا ثوب الفرعونية مات الحافز الذي يدفعهم إلى مجاهدة اليهود ومعارضة دولتهم في فلسطين إذ يصبح اليهود والعرب لديهم عند ذلك سواء»[1] ، بل قد يرون أن لليهود حقًا من خلال ما يدعيه اليهود من الآثار .

ومما يؤسف له أشد الأسف قيام مجموعة من المسلمين بالتوسط عند حكومة أفغانستان للإبقاء على تمثالين من تماثيل بوذا التي دمرتها الحكومة الأفغانية تطبيقاً

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين دار الرسالة، مكة المكرمة، الطبعة التاسعة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٩٢م، ١٣٩ ـ ١٤٠ بتصرف .

للشرع الإسلامي المطهر، فكيف تجرأ هؤلاء المسلمون بالوساطة علماً أنهم حينما كانوا في طريقهم إلى المسؤلين يشاهدون في أفغانستان مئات الأطفال والنساء والشيوخ الذين أهلكهم الجوع والبرد لكن هؤلاء جاءوا لإنقاذ التمثالين ولم يعنهم إنقاذ آلاف الأطفال شيئاً والعياذ بالله وكأن هؤلاء الهلكى ليسوا بشراً فضلاً عن كونهم مسلمين.

ويلحق بالمعاهد ما يماثلها من كليات الآثار والأقسام الآثارية في الكليات.

وهذه مقتطفات من كتاب نشرته مؤسسة فرانكلين يشتمل على ما ألقي في مؤتمر عقد سنة ١٩٥٣ في جامعة برنستون بأمريكا اشترك فيه مجموعة أفراد من بلاد المسلمين اختيروا ووجهت إليهم دعوة للاشتراك في المؤتمر ببحوث إسلامية مع عدد مساوٍ لهم من الأمريكيين المشتغلين بالدراسات الإسلامية بعضهم قسس يحترفون نشر النصرانية في بلاد المسلمين ممن يسمون زوراً وبهتاناً مبشرين وبعضهم مستشارون في وزارة الخارجية الأمريكية[1] فإلى المقتطفات والكلام عن تطوير الشريعة بمفهوم الأمركيين الداعين للمؤتمر أنقله من كتاب الإسلام والحضارة الغربية لمؤلفه: جاك ريسلر وفيه: «ومن أساليبهم في التطوير كذلك ـ وهو أسلوب خبيث يخفي على أكثر الناس ـ بعث التاريخ السابق على الإسلام في كل بلد من البلاد الإسلامية، والكتاب الذي نعالجه يحتوي على مثالين لهذا الأسلوب في بحثي الدكتور كون والدكتور ولسون ـ الصفحات ـ (٢٨٩ ـ ٣٠١، ٣٣١ ـ ٣٤٢) وستجد في البحث الأول صورة من الاهتمام بتوجيه المسلمين للعناية بالتاريخ القديم حيث يقول الدكتور كون: (منذ الآن يجب أن يبذل علماء الآثار الغربيون جهداً مشتركًا لتدريب علماء الآثار المسلمين حتى يستطيعوا القيام بالعمل الذي يقومون به... ويجب أن يُبْذَل كل جهد ممكن للتأكد من أن هذه الأبنية والأهرام والتماثيل والنقوش سيحافظ عليها ـ ص٢٩٧.

وستجد في المقال الثاني صورة مما بذله الغربيون من جهود في تأسيس علم الآثار وإنشاء متاحف وطنية له في كل مكان يقول: (ومنذ حوالي قرن مضى أدت عمليات التنقيب الناجحة التي قام بها بوتا Bott ولايارد Layard في العراق،

(١) انظر الإسلام والحضارة الغربية، جاك ريسلر، ص١٢٥، ١٢٦.

وماريبت Mariette في مصر وشليمان Schliemann في تركيا، إلى تأسيس مصالح للإشراف على التنقيب وإلى إنشاء متاحف وطنية وتولى الأتراك الإشراف في الامبراطورية العثمانية أما في غيرها فقد أدت عناية الغربيين وعدم اهتمام المسلمين بالآثار السابقة على الإسلام إلى وضع الإشراف في يد الغرب: في يد فرنسا في مصر وإيران وفي يد بريطانيا العظمى في الهند وفي يد ايطاليا في ليبيا ـ ص٣.

ثم يقول عنه: (والذي حدث هو أن عالم الآثار الغربي في كل دولة من تلك الدول قد ساعد في إعداد قانون خاص بالآثار للبلد الإسلامي الذي يعمل فيه وأصبح «مستشاراً» لموظف وطني عين من حكومته مديراً لمصلحة الآثار)[1].

• دور المستشار:

المستشار كما يقولون ليس له سلطات تنفيذية بنفسه لكنه يباشر التنفيذ عن طريق ذلك المدير الذي تُقدم له النصيحة لكنها ليست كالنصائح إذ أنها نصيحة واجبة التنفيذ كما وصف ذلك اللورد ويفل (Wavell)[2].

٢ ـ المقررات والمناهج المدرسية:

في البلاد الإسلامية التي طغى فيها علم الآثار استخدمت مناهج التعليم لترسيخ وتعظيم الآثار بين المسلمين منذ الصغر فألزم الناشئة مثلاً بدراسة الآثار الجاهلية على شكل قصص تحكي تفاصيل عن عباداتهم الوثنية وشعائرها وقرابينهم وتقديس ما يسمونه «أجدادك الفراعنة» مثلاً على وجه يملأ قلب الناشيء اعتزازاً وفخراً لرموز الوثنية، ذلك أنها معروضة بأسلوب قصصي جذاب، أو على أنه تاريخ البلاد مع ما يصاحب ذلك من ضعف أولئك الناشئة في معرفة التوحيد لله والالتزام به ونبذ الشرك فعلى سبيل المثال كتاب: صور من حضارة مصر القديمة كتاب كله عن الآثار الفرعونية الجاهلية ومعبوداتهم الوثنية الشركية وقد أبرزها الكاتب على وجه يجر التلاميذ إلى الفخر بها في بداية المراهقة التي يكون فيها

(١) الإسلام والحضارة الغربية، جاك ريسلر ص١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) انظر ذلك في كتاب Allenby in Egypt: لمؤلفه اللورد ويفل (Wavell) ذكر ذلك محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩١.

الافتخار بالذات وما يدور حوله من الأشياء المحببة لهم، ذلك الكتاب مقرر على تلاميذ السنة الثانية الإعدادية بمصر.

كذلك كتاب: خلاصة تاريخ مصر القديم لطلبة السنة الأولى الثانوية، محمد عبدالرحيم مصطفى وأحمد صادق الطنطاوي الطبعة الثانية ١٩٤٧م مكتبة مصر القاهرة، يحكي التاريخ الحجري وتطور الإنسان المصري ومعرفته ثم تاريخ الفراعنة ومعتقداتهم، ومليء بالكذب والإفتراء مثل أن مصر هبة النيل وأن أخناتون أحد فراعنة مصر أول من نادى بالتوحيد - أي بتوحيد الألوهية - ومثل ترحيب المصريين بالاحتلال الاغريقي لمصر.

ولا تخلو كتب القراءة والمحفوظات من مواضيع تصب في نفس الاتجاه على درجات متفاوتة.

٣ ـ الصحف والمجلات:

كثير من الصحف والمجلات تتعرض للآثار من عدة زوايا مختلفة من ذكر لأهميتها التاريخية أو قيمتها الفنية أو تمجيد لها باعتبارها دلائل الحضارة القديمة، ومن ذكر لأمجادها وإنتاجها.

ويكثر كلام الصحف عن المواضيع الآثارية غالبًا أثناء وقرب المواسم السياحية والإجازات أو أثناء وقرب المهرجانات الآثارية.

وقد تتسمى بعض الصحف بأسماء لها مدلولات أثرية كصحيفة الأهرام وشعار بعض شركات الطيران أو أسمائها وما تقوم به كثير من الكتب السياحة ومكاتب شركات الطيران من طبع صور الآثار وتوزيعها مثلاً وهناك صحيفة السياسة الأسبوعية فإن لها اهتمامات بالآثار وبالذات الوثنية الفرعونية.

«وكثر حديث هذه الصحيفة عن الفراعنة فلم يخل عدد من أعدادها من حديث عن حضارتهم ومجدهم وكتب رئيس تحريرها في مقال عن (مصر الحديثة ومصر القديمة) يزعم أن ما يتوهمه بعض الناس من أن تغير الدين في مصر من الوثنية إلى المسيحية ثم إلى الإسلام وتغير اللغة فيها من الهيروغليفية إلى العربية قد قطع ما بين مصر الحديثة ومصر القديمة من صلات ليس إلا وهمًا من الأوهام وأن الحقيقة

العميقة هي أن هذه الصلة قائمة لا شك فيها بيننا وبين أجدادنا الفراعنة، وأخذ يتقصى كثيراً من مظاهر الحياة المعاصرة ليردها إلى أصل فرعوني قديم ثم قال (لا سبيل إذن إلى إنكار ذلك الاتصال النفسي الوثيق الذي يربط تاريخ مصر منذ بدايته إلى عصرنا الحاضر وإلى آخر العصور المستقبلة التي يمكن أن يعرفها التاريخ. ولئن تبدلت أسباب العيش ما تبدلت ولئن قربت سكك الحديد والبواخر والطيارات وكل ما يمكن أن يتمخض عنه خيال العالم من وسائل المواصلات بين أجزاء العالم ما قربت، بل لئن تهدمت الحدود الدولية وفنيت العاطفة الوطنية فسيبقى أبدًا الاتصال النفسي الوثيق الذي يجعل من مصر وحدة تاريخية أزلية[1] خالدة، فيما يصل إليه عقلنا من تصور الأزل والخلد . . . . فمن حق المصريين ومن الواجب عليهم أن يستثيروا دفائن الفراعنة جميعًا وأن يربطوا حاضرهم وماضيهم رباطًا ظاهراً لكل عين. وإنهم إذن ليضيفون إلى قوتهم قوة وليضاعفون مجدهم أضعافًا وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعًا ولها تذوقًا).

ثم يقول: على الكاتب أن يدعو . . . إلى أن تقوم نهضتنا على بعث المجد الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوربية الحديثة على بعث المجد اليوناني واللاتيني القديم وذلك (بالبحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة)»[2].

أما المجلات فمنها المجلات المتخصصة في الآثار ولا تطرق مواضيع أخرى كالتي تصدرها الجهات المعنية بالآثار كإدارات السياحة والمتاحف والمعاهد

---

(١) الأزل: استمر الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي كما أن الأبد استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل، والأزلي مالا يكون مسبوقًا بالعدم: والموجود أقسام ثلاث:

١ - إمام أزلي أبدي، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل.

٢ - وإما لا أزلي ولا أبدي: وهو الدنيا ومصر المذكورة أعلاه من هذا القسم، والكاتب جعلها من القسم الأول والعياذ بالله.

٣ - وإما أبدي غير أزلي وهو الآخرة: وعكسه محال فإن ما ثبت قدمه امتنع عدمه،

انظر: التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني، الدار التونسية للنشر، ١٩٧١م، ص١١.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ١٤٩.

المتخصصة .

وهناك مجلات أخرىٰ لها اهتمامات آثارية ثابتة في غالب أعدادها مثل مجلة العربي، والمجلة العربية، ومجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، والتراث العربي، ومجلة المنهل ودائماً ما تحوي هذه المجلات العديد من البحوث الآثارية .

وعادة لا تخلو أعداد مجلات خطوط الطيران من طرق مواضيع أثرية مختلفة سواء في داخل بلدان تلك المجلات أم في خارجها .

وقد تتسمىٰ بعض مجلات شركات الطيران بأسماء لها مدلول أثري مثل مجلة حورس، وهي بالجملة إما تمجد الوثنيات أو تدعو إلىٰ زيارتها أو تجعلها مثلاً أعلىٰ وقدوة[(١)] .

فهي عموماً تدعو إلىٰ «محاولة إحياء الماضي الفرعوني والإغريقي والجاهلي العربي وتمجيده وبعث الأساطير وإعادة صياغة الوثنيات والفلسفات السريانية والمجوسية والباطنية وإحياء عشتروت ويزوس وباخوس[(٢)]»[(٣)] .

وكانت الصحف تشغل الناس وتزيد من حماسهم بما تنشره من الصور وأخبار الكنوز الوثنية المستخرج من القبور الفرعونية[(٤)] .

٤ ـ الكتب:

الكتب التي صدرت وبين دفتيها مواضيع آثارية كثيرة جداً منها ما يتكلم عن المواقع الأثرية ومنها ما يحلل الآثار ومنها معاجم ومصطلحات ومنها ما يدعو إلىٰ جعل الآثار قدوة في العقائد والأخلاق والثقافة سواء بالطرح المباشر أو المغلف ومنها ما يحكي أساطير وخرافات الآثار ولا تخلو غالباً من عرض صور ورسوم

(١) انظر أصل هذا الموضوع: الصحافة والأقلام المسمومة، أنور الجندي، دار الاعتصام، ص١٤، ٢٧ .

(٢) عشتروت وزيوس وباخوس أسماء معبودات وثنية ولها قصص وأساطير تحكي قوتها وسيطرتها وصولاتها وحروبها وغير ذلك، انظر معجم المصطلحات الأثرية، ص٤١٥، ٥٦، ٤٩ .

(٣) الصحافة والأقلام المسمومة، ص٢٧ .

(٤) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدبة المعاصر ٢/ ١٥٤ .

توضيحية بل إن كثيراً منها مليء بذلك ومنها ما يحلل ويُلوي عنق الأدلة لاستنتاج أدلة تؤيد نظرية التطور وإنكار أن الله هو الخالق المدبر المتصرف في هذا الكون سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ومن نماذج الكتب:

اسم الكتاب	اسم المؤلف
إمبراطورية إبلا	علي القيم
نشوء الحضارات	بورهارد بريتنيس
تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتىٰ ٥٣٩ ق . م	عيد مرعي
ثقافة أوغاريت	إ . ش شيفمان
بلاد الشام	سلطان محيسن
أقدم الحضارات فى الشرق الأدنىٰ	جيمس ميلارت
آثار الأردن	لانكستر هاردنج
ماوراء التاريخ	وليم هاويلز
الآثار الشرقية	أرنست بابلون
آثار بلاد الرافدين	محمد طلب
معالم تاريخ مصر القديمة	رمضان عبده على
العصور القديمة	جايمس هنري براستد
تاريخ روما القديمة	محمود إبراهيم السعدنى
مصر والشرق الأدنىٰ	محمد بيومى مهران
طرق البحث العلمى فى التاريخ والآثار	طه باقر، وعبدالعزيز حميد
الرائد فى فن التنقيب عن الآثار	فوزي عبدالرحمن

أســم الـكـتـــاب	اسم المؤلف
الديانة الفرعونية	السيرولس بدج
الموسوعة الفرعونية	باسكال فيرنوس وجان
معجم المصطلحات الأثرية	محمد كمال صدقي

وغير ذلك كثير مما لم أذكره أو قد مرّ في ثنايا البحث .

٥ ـ الإعلام المرئي والمسموع:

تطرح في هذين الجهازين كثير من الندوات التي تناقش في أهمية الآثار وأماكن وجودها وتبرز عظمتها وصمودها وأن ذلك دليل إحكامها وقوتها وتدعو إلىٰ السياحة إليها والاهتمام بها لكن في الإعلام المرئي أظهر وأقوىٰ إذا تعرض نماذج ومقاطع من مواقع الآثار ويكون الشرح هنا أوفىٰ حيث أن طريقة العرض أمكن وتأتي أحيانًا تلك المقاطع الآثارية كشواهد وأدلة ضمن موضوع يحكي تطور البشرية ، حياتهم ومعيشتهم وزرعهم ونحو ذلك مثلاً ، وأحيانًا أخرىٰ تكون بصورة أعرف بلدك أو ما شابه ذلك .

٦ ـ الميادين وأماكن تجمع الناس:

تعرض كثير من النماذج الآثارية وخاصة التماثيل سواء كانت تماثيل إنسانية أو حيوانية من طيور وسباع أو نحو ذلك في كثير من الميادين العامة وتقاطعات الطرق الكبيرة .

كذلك تعرض أيضًا في أماكن تجمع الناس كبعض محطات سكك القطار وصالات انتظار الناس في بعض المطارات في بلدان العالم الإسلامي .

أيضًا لا تخلو كثير من ساحات الجامعات ومداخل الكليات من أشياء آثارية من هذا القبيل وقد رأيت ذلك في أحد البلاد الإسلامية ويلحق بذلك المسرح حيث تعرض مسرحيات تحكي عن أولئك الوثنيين وتصورهم بصورة الأبطال والعباقرة ونحو ذلك ، أو تعرض تمثيليات عن حياة الناس الجاهليين المستقاة من الآثار وما يجري بينهم من قصص حب وغرام وما يتبع ذلك من رقص وطرب ، وتحاكيهم في

الملابس والأخلاق والعادات والطقوس وأساليب الكلام من كلمات التأليه والتقديس لأوثانهم وما يشبه ذلك .

٧ ـ الإغراء المادي: يكون ذلك بأمور:

منها جذب الطلاب لدراسة الآثار علىٰ أساس الكسب المادي بعد التخرج كمرشدين سياحيين في المؤسسات السياحية أو لحسابهم الخاص كذلك تنشط في الأسواق محاكاة التماثيل وغيرها من الآثار بصنع نماذج مصغرة منها وبيعها علىٰ الناس وخاصة السياح حيث يحملون كثيراً منها إلىٰ بلادهم لإهدائها أو لاقتنائها .

٨ ـ الشعارات الآثارية:

وضعت الشعارات الدالة علىٰ الآثار الجاهلية علىٰ كثير من الأشياء التي لها مساس بالناس فمثلاً : «رسموا رأس أبي الهول علىٰ طوابع البريد وعلىٰ أوراق النقد . . . واتخذت كل كلية من كليات الجامعة شعاراً لها يمثل وثنًا من معبودات الفراعنة . . . وشاع هذا الطابع الفرعوني في كثير من أبنية الحكومة وأوراقها الرسمية وفي الزخرفة والنقش»[١] ويلحق بذلك ماتتخذه بعض الشركات والمؤسسات من شعار لها علىٰ أوراقها ومعلباتها وما تظهر علىٰ صناديق التعبئة أو أسمائها مما تتخذه من أسماء وثنية .

من ذلك برتقال نفرتيتي وبعض المنتجات الرياضية التي تحمل اسم «نيكي» وهو اسم صنم يسمونه إله النصر عند الاغريق[٢] مع ما لهذا اللفظ من معنىٰ فاسد خبيث في اللغة العربية .

٩ ـ الشعر والأدب:

انتشر التمجيد الوثني والاعتزاز والافتخار بالآباء والأجداد الوثنيين الجاهليين وأمجادهم من ذلك :

أين الفراعنة الألى استذري بهم ... عيسى ويوسف والكليم المصعق[٣]

(١) الاتجاهات الوطنية ٢/ ١٤٦ .

(٢) معجم المصطلحات الآثرية ، ص٢٧٢ .

(٣) استذرىٰ بهم : أي لجأ إليهم واستظل بظلهم . الكليم هو موسىٰ عليه السلام الذي كلمه الله ، المصعق : الذي صعق حين طلب الله سبحانه وتعالىٰ أن يراه . وهو يشير إلىٰ قوله تعالىٰ :

الرافعون إلى الضحى أباءهم   فالشمس أصلهم الوضيء المعرق

وكأنما بين البلى وقبورهم   عهد على أن لا مساس وموثق

فحاجابهم تحت الثرى في هيبة   كحجابهم فوق الثرى لا يخرق

كم موكب تتخايل الدنيا به   يجلي كما تجلي النجوم وينسق

فرعون فيه من الكتائب مقبل   كالسحب قرن الشمس منها مفتق

تعنو لعزته الوجوه ووجهه   للشمس في الآفاق عان مطرق

آبت من السفر البعيد جنوده   وأتته بالفتح السعيد الفيلق

ومشى الملوك مصفدين خدودهم   نعل لفرعون العظيم ونمرق

مملوكة أعناقهم ليمينه   يأبى فيضر أو يمن فيعتق[1]

وقد جعل الفراعنة ملاذًا ومتوكلاً عليهم لرسل الله عز وجل الذين لايتوكلون إلا على الله عز وجل وهل تعنو الوجوه لغير الحي القيوم؟ كلا والله لاتعنو إلا لله عز وجل وقوله هذا إلحاد وكفر، كما وقد أهان وجوه الناس وجعلها نعلاً لفرعون ونمرق إلى غير ذلك مما في هذه الأبيات من البلاء.

وهذه قصيدة أخرى:

وقف الخلق ينظرون جميعًا   كيف أبني قواعد المجد وحدي

وبناة الأهرام في سالف الدهر   كفوني الكلام عند التحدي

أنا تاج العلاء في مفرق الشرق   ودراته فرائد عقدي

أي شيء في الغرب قد بهر النا   س جمالاً ولم يكن منه عندي

هل وقفتم بقمة الهرم الأكبر   يومًا فريتمو بعض جهدي

هل رأيتم تلك النقوش اللواتي   أعجزت طوق صنعة المتحدي

ثم يقول:

أنا أم التشريع قد أخذ الرومان   عني الأصول من كل حد

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين (١٤٣)﴾ سورة الأعراف، آية: ١٤٣ وهذا تعليق على البيت في كتاب الاتجاهات الوطنية ١٢٢/١.

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

ورصدت النجوم منذ أضاءت   في سماء الدجى فأحكمت رصدي

وشدا (بنتئور) فوق ربوعي   قبل عهد (اليونان) أوعهد (نجد)[1]

وهذه القصيدة قد غنتها إحدى المغنيات الهالكة.

فهو يرى أن منبع الحكم والقانون من بلاده ويفتخر بذلك وهذا كفر ويرى أن المجد لبلاده سابق ومتأصل فكل مجد بعدها فهو مسبوق فكأن مجده مكافيء أو متقدم على غيره حتى عهد نجد وهو الإسلام؟!!

أما الأدب فيراد له أن يبنى على الوثنية الجاهلية القديمة يقول أحد دعاة ذلك: «إن واجبنا هو أن نبث في الشعب روح القومية وروح الإنتاج المحلي وأن أول ما نولي وجوهنا فليكن شطر الأدب الفرعوني قبل كل شيء فهو تراث الآباء والأجداد»[2].

فكان من ذلك توجيه الدعوة إلى «الكتاب والأدباء إلى البحث عن مواضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة وموروث التقاليد والعادات في شتى نواحي الحياة كما دعوا إلى إنشاء أدب خاص وفن مستقل في التصوير والنحت والموسيقى يتميز بطابعه المصري المحلي الخاص[3] مثلاً.

يقول الدكتور محمد محمد حسين: «أما دعاة التجزئة فقد نشطوا في أعقاب الحرب العالمية الأولى في الدعوة إلى بعث التاريخ القديم في كل جزء من أجزاء الوطن العربي وهو التاريخ السابق على استعرابها بدخولها في الإسلام واتخاذها لغتة فأطلت النعرة الفرعونية في مصر وأسفرت عن وجهها وغزا بها دعاتها كل ميدان: في الكتب المدرسية وفي النحت والتصوير وفي الصحافة وفي أنماط البناء وفي الأزياء وفي الأشعرة والشعارات وفي الأدب والقصة منه بوجه خاص»[4].

ولست في حاجة لبيان التأثير القوي للأدب في الناس سواء منه الشعر أو النثر.

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧ وبنتئور شاعر.

(٢) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، ص١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) المخططات الاستعمارية، ص١٣٩ ـ ١٤٠، وانظر الإسلام والحضارة الغربية، ص٢٣٦.

(٤) الإسلام والحضارة الغربية، ص٢٣٦.

١٠ ـ النظم والقوانين.

لا تكاد بلاد من بلدان المسلمين تخلو من نظام صادر من حكومته فيه بيان ما هي الآثار وحكم بيعها والمتاجرة بها وإصدار التراخيص اللازمة لذلك وكذلك التبادل المماثل مع آثار بلدان أخرىٰ وأحكام المخالفات في ذلك؛ كذلك تنظيم حفظها والأساليب في ذلك من تسوير وترميم وحراسة ونحو ذلك من نظم المحافظة علىٰ الآثار.

من ذلك « ٦ ـ ينبغي تحويل مرور الطائرات بعيدًا عن المدن وأن تقام المطارات خارجها بمسافة لا تقل عن ثلاثين كيلو متر حتىٰ لا تضار المباني الأثرية بها باهتزازات الهواء الشديد والناتجة عن مرور الطائرات»[١].

ومن نظمها أيضًا إلحاق إدارات الآثار بوزارة المعارف لتوثيق الروابط بين ميدان العمل الأثري وبين البحث والدرس في الجامعات مما يعني تنشئة الأجيال علىٰ قيم تستند إلىٰ أساليب الحياة والفكر في وثنيات الجاهلية[٢].

ومن المهتمين بالآثار من يقول: إن: «من واجب العرب وعلىٰ رأسهم الحاكمون منهم المحافظة علىٰ تاريخ العرب القديم بصيانة مواطن الآثار ومنع الاعتداء عليها بإنزال أشد العقوبات فيمن يحطم تمثالاً لاعتقاده بأنه صنم أو يهدم أثرًا للاستفادة من حجره»[٣]. وقد وقع تحطيم التمثال هنا بين أمرين متضادين أحدهما أمر رسول الله ﷺ وتحريضه أشد الحرص لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه **«ألا تدع تمثالاً إلا طمسته»**[٤] والآخر «إنزال أشد العقوبات فيمن يحطم تمثالاً «مع كونه معتذرًا بأنه صنم إلا أن الأمر بالتحطيم صدر من رسول الله ﷺ وهو الذي يلزمنا اتباعه وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر وألاّ نعبد الله إلا بما شرع وأن نقدم أمره ومحبته علىٰ الولد والوالد والأهل والنفس فضلاً عن بقية الناس والأمر الآخر صدر من ذلك المؤلف.

---

(١) المؤتمر السادس للآثار في البلاد العربية، طرابلس، ليبيا، ١٨ ـ ٢٧/ ٩/ ١٩٧١م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص٢١.

(٢) انظر: الإسلام والحضارة الغربية، جاك ريسلر، ص١٤٠.

(٣) المفصل في تاريخ العرب، جواد علي ١/ ٤٣.

(٤) رواه مسلم: ٧/ ٤٠ كتاب الجنائز باب الأمر بتسوية القبر.

١١ ـ المهرجانات الشعبية:

والمهرجانات الشعبية هي أماكن عرض ما يسمىٰ «الفولكلور» أو الموروث الشعبي أو التراث الشعبي، وكلمة الموروث الشعبي هي تفسير للفظ ثقافة، بمدلولها العام والتي يعرفونها بأنها «هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل علىٰ المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع»[١][٢].

ويدخل تحت لفظ «وغيرها»: الأساطير والخرافات.

بدليل ما يشمله الفولكلور من تراث شعبي سواء كان ذلك في أغاني الشعب أو أساطيره أو رقصاته التقليدية أو معتقداته الشعبية وحكاياته وخرافاته وأمثاله، ويستند الفولكلور أساسًا إلىٰ علم الخرافة الروائية والتي تتجلىٰ في الحكايات والقصص الشعبي والألغاز والأساطير والأغاني والتمثيليات والألعاب التي تنقل عبر التواتر الشفهي لا عن طريق التسجيل الكتابي[٣] ويعرفه محمد محمود الصواف بقوله «الفولكلور اصطلاح ظهر في أوربا في منتصف القرن الميلادي الماضي ـ التاسع عشر ليدل علىٰ الدراسات التاريخية بعادات الشعوب وتقاليدهم وطقوسهم وخرافاتهم وأساطيرهم ومعتقداتهم وفنونهم وما يجري علىٰ ألسنتهم من أغان وأمثال أو شتائم أو مراث أو أهازيج يدرس كله من خلال الآثار والعادات القائمة ويعمل فيه علىٰ إحياء الماضي برذائله وفضائله[٤] وهو الدراسات الشعبية[٥].

«وعلىٰ أية حال فإن مجال التعاون وثيق ومشترك بين دراسات الفولكلور

---

(١) المهرجان الوطني الثاني للتراث والثقافة، وثائق صحفية، الحرس الوطني، الرياض الطبعة الأولىٰ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص١٥ من المقدمة.

(٢) ولربط معنىٰ ثقافة بمعنىٰ فولكلور انظر: الانثروبولوجيا والفكر الإسلامي، زكي محمد اسماعيل شركة مكتبات عكاظ للنشر جدة الطبعة الأولىٰ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ص١٩٧ ـ ٢٠٣، وانظر: علم الفولكلور دراسة في الانثروبولوجيا الثقافية، محمد الجوهري دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٧٧م، ص٣٠ وما بعدها.

(٣) انظر الانثروبولوجيا والفكر الإسلامي، ص١٩٩.

(٤) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، محمد محمود الصواف، ص١٣٩، حاشية رقم ١.

(٥) المصدر السابق نفس الصفحة والهامش.

والأنثروبولوجيا من حيث دراسة الخرافات والأساطير والفن الشعبي والأدب الشفهي في المجتمعات المتخلفة والمتقدمة معًا، هذا بالإضافة إلى دراسة الصناعات والحرف اليدوية ومراسم الأعياد والزواج والوفاة والحفلات الشعائرية في المناسبات المختلفة»[1].

فعندهم أن الدين أي دين كان بما فيها الإسلام هو جزء من الموروث الشعبي «إننا في هذا المقام لا نستطيع أن نهمل التأثيرات الفولكلورية لا فيما تقدر عليه قراءة الورد وإنما فيما تمثله النبوءة التي تبدو عند الباحثين من أهم روافد الأسطورة عن علوقها بالشعر على اختلاف درجاته»[2].

وسبق الإشارة إلى أن علم الأنثروبولوجيا أنه علم الإنسان وأنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ أنثروبولوجيا طبيعية تدرس النمو الجسمي للإنسان من الناحية التطورية بمعنى تبحث عن أصل الإنسان والحيوان عمومًا وأنه حصيلة ارتقاء النوع الحيواني وتطوره منذ مئات آلاف من السنين، ولهذا فرع يدرس السلالات البشرية ومبناه على نظرية دارون.

٢ ـ الأنثروبولوجيا الاجتماعية وهي التي تدرس النظم الاجتماعية وخاصة نظم المجتمعات البدائية والمتخلفة والقديمة.

٣ ـ والأنثروبولوجيا الثقافية التي تدرس عادات الشعوب القديمة وتقاليدها دراسة تاريخية[3].

وهذه الفروع الثلاثة يرتكز عليها علم الآثار في حل رموز الآثار واستنطاقها وتحليلها ففيها الاستدلال من القطع الأثرية المكتشفة على الروابط الاقتصادية أو الدلالة على الحروب أو على العقائد والأخلاق الوثنية الجاهلية ونحو ذلك.

ووجود عملة رومانية في بلاد الشام يعني أن الشام كانت تتعامل بالعملة الرومانية مثلاً.

---

(١) الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي، ص٢٠١.

(٢) الحداثة في ميزان الإسلام، عوض بن محمد القرني، هجر الطباعة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص١٠٢، نقلة من كتاب، شعراء السعودية المعاصرون، أحمد كمال زكي، ص١٥٠.

(٣) انظر: معجم المصطلحات الأثرية، ص٣٨، مادة أنثروبولوجيا.

وظهر جليًا أن الفرعين الأخيرين من فروع الأنثروبولوجيا يشتبكان مع الفولكلور أو الموروث الشعبي.

والمهرجانات في قراها التي تقام فيها مثلاً تحتوي على نماذج مصغرة لكافة ما يسمونه بالموروث الشعبي وهو بهذا يرسخ الآثار ترسيخًا عمليًا يجعله مألوفًا للنفوس بل ومحببًا لها على أنه في بداياته لا يأتي إلا بالمتفق عليه بل يضاف إليه ما يجعله مقبولاً وهو أيضًا كما يلاحظ دائمًا في توسع وازدياد سنة بعد أخرى وعرضًا بعد آخر وهو أيضًا ـ وهذا قد يكون هو الأخطر ـ أنه يجعل الإسلام جزء من الموروث الشعبي وهو لم يخرج عن التعريف حيث شمول لفظ «التراث الشعبي» على المعتقدات والأساطير والخرافات ضمن بند المعتقدات الشعبية، والأقسام الأخرى هي: العادات والتقاليد، التراث القصصي، الحكاية الخرافية، الحكاية الفكاهية الأغنية الشعبية، اللغز، المثل، والثقافة المادية والتي تشمل البيت وأجزاءه والأثاث والأدوات والأواني وأدوات اللعب وأدوات العمل الزراعي والرعوي والأشغال اليدوية وأدوات الاحتفال وأدوات الفنون الشعبية[1] ويشمل كل ما أمكن إدراكه من الزمن الماضي لبلدٍ ما فمثلاً: تبدأ «رحلة الفنون الشعبية في مصر من العصر الفرعوني إلى اليوناني إلى الروماني إلى القبطي إلى الإسلامي إلى العصر الحديث تعكس الحياة فيها»[2].

وخير برهان على ذلك إقامة ما يسمونه أوبرا عايدة في مصر على فترات غير منتظمة في منطقة أثرية في جنوب مصر، وهي مسرحية تجسد قصة حرب وأسر وحب وخيانة بين قائد مصري وأميرة أسيرة حبشية، وهذا مختصر لأحداث الأوبرا التي وقعت في ٢ ـ ١٠/ مايو ١٩٧٨: «اتجهت أنظار العالم كله عبر القمر الصناعي لمشاهدة أوبرا عايدة التي قدمتها فرقة أوبرا فيرونا الإيطالية في مدينة الأقصر الأثرية فيما بين ٢ ـ ١٠ مايو الحالي وتقديم أوبرا عيادة في مكانها الطبيعي الذي جرت فيه في أرض الفراعنة بين المعابد القديمة يعد أكبر حدث فني في تاريخ مصر منذ القرن الماضي، تكلف هذا العرض عشرة ملايين دولار واشترك فيه ما يزيد عن ألف فرد نصفهم لاعب للأوركسترا والكورال والبالية والغناء وعشرات الفتيات المصريات

---

(١) انظر: علم الفولكلور، محمد الجوهري، ص٥٧.

(٢) التراث المفقود، نبيل فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠، ص٢٠٤.

المدربات على الرقص الفرعوني ونحو ٦٠ راقصًا نوبيًا و ٣٥٠ جنديًا بكامل عتادهم الحربي - أي الفرعوني - أيضًا و ٣٠ حارسًا مع النمور والفيلة والأسود»[1].

فهذا فيه يُعرض اللباس وطريقة الرقص والشعائر والقرابين التي تقدم للأوثان وتنشر الأخلاق والمعتقدات والقيم والأزياء الوثنية بذلك.

وتحرص بعض المهرجانات الشعبية حرصًا شديدًا على أن يكون الإسلام جزءًا من الموروث الشعبي وذلك بقصد التحكم فيه باسم البحث العلمي إما برفض بعضه أو تطويره أو إلغائه أو سحب القداسة عنه وجعله تابعًا وجزءًا من الموروث الشعبي الذي هو ملك للأجيال ورثوه عن الآباء والأجداد وأن من حقه أن يأخذوا منه ما يرونه مناسبًا لهم ويَدَعُوا ما لا يرون، وأصبح الإسلام قضية قابلة للنقاش هل نأخذ به أو ببعضه أو نتركه كله فهو إنتاج وكسب أولئك الذين مضوا، نفعل في ما ورثناه ما نشاء على حد زعمهم الباطل «عندما كان طه حسين وعلي عبدالرزاق يخوضان معركة زعزعة النموذج (الإسلام) بإسقاط صفة الأصلية فيه ورده إلى حدود الموروث التاريخي فيؤكدان أن الإنسان يملك موروثه ولا يملكه هذا الموروث ويملك أن يحيله إلى موضوع للبحث العلمي والنظر، كما يملك حق إعادة النظر في ما اكتسب صفة القداسة وحق نزع الأسطورة عند المقدس وحق طرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة»[2] وطبعًا هذا يحتاج إلى توطئة عند الناس أو صناعة الرأي العام كما يسمون ذلك لإعدادهم لقبول هذه الطوام وتهيئتهم لذلك.

وبعد أن تُرَسِّخ المهرجانات في أذهان الناس بأن الإسلام جزء من الموروث الشعبي القديم تبدأ المهرجانات في عرض حركة تطور الموروث الشعبي إلى أفق أفضل مما كان عليه في البداية ويتكلم الكتاب والشعراء والآثاريون بأن تطوير الموروث الشعبي قفز بالبلاد قفزات حضارية مهمة فيكون الإيماء لهذا الكلام الذي يُصرَّح به أنه ما دام أن الإسلام جزء من الموروث الشعبي القديم فالأفضل له أن يتطور أيضًا مسايرة لبقية الموروثات الشعبية، إضافة إلى أن الذين يسعون إلى تطوير الموروث الشعبي يهاجمون الجمود على المورثات الشعبية القديمة، وقد كانت

(١) المصدر السابق، ص٢٢٧.

(٢) الحداثة في ميزان الإسلام، ص٣١ نقله من مجلة فصول المجلد الرابع ج٣، ص٢٦، خالدة سعد.

المهرجانات قد رسخت في أذهان الناس أن الإسلام من الموروثات الشعبية فينسحب هذا الهجوم على الإسلام بعبارات إيمائية ولا تصل إلى درجة التصريح إلا فيما ندر أو إذا ناسب الحال وخلا الجو.

ومن المعلوم أن كثيراً مما في المهرجان له أشياء قديمة وأشياء حديثة فاستخراج الماء من الآبار تراه بالدِّلاء حينًا وبواسطة البهائم حينًا آخر فيما يسمى الساقية والسواني ثم تطور الحال إلى شبكات الري، وكذلك نظام الاتصال من أجهزة بدائية إلى أجهزة الكترونية متطورة، ووسائل المواصلات من ركوب الدواب تطور الحال إلى السيارات والطائرات وحتى الطائرات تشاهد أشكالاً وأنواعًا بدائية ثم تتغير الحال الطائرات العملاقة، طريقة تبريد الماء كانت بالزير أو القربة وأصبح يبرد بالمبردات الكهربائية، كذلك الأسلحة بأنواعها تلاحظ البدائي والمتقدم منها - كذلك التدريس وطرقه.

والمهرجان بوجه عام يوحي بأن كل ما يعرض فيه إنما هو ملك للأجيال سواء ما كان منها أفكار أو نظم أو مواد، وأنها قابلة كلها للتطوير والتغيير حينًا أو للإلغاء والاستغناء عنها حينًا آخر ويكون الدرس الموحى به ضمنًا وتلميحًا لا تصريحًا لماذا لا يُلغى الدين كله أو بعضه أو يطور بما أنه أحد الموروثات التي نملكها فكأن المهرجان يقول مثلاً: إن ماترونه هو من إنتاج الآباء والأجداد وهو مستقر منذ القدم وسواء ما ترونه من فنون أو صناعات أو حرف أو تدين كله يمكن تطويره أو بعضه أو حتى يمكن إلغاؤه مثلاً.

وقد رأيت في أحد المهرجانات ضمن أدوات المهرجان مسجداً صغيرًا مبنيًا من أدوات البناء القديم يمثل التدين ضمن مواد الموروث الشعبي وكأن الإسلام أحد أفراد الموروث الشعبي وإذا كان كذلك من ضمن الموروث الشعبي فإنه كغيره من الموروثات الشعبية يمكن تطويره أو التخلي عنه أو عن بعضه.

ورأيت أيضًا عرضًا لتعليم القرآن في وضع مضحك مزري ينظر له جمهور المتفرجين بعين الازدراء والاحتقار لا من حيث العادات المتبعة في التدريس فقط ولكن من حيث ملابس التلاميذ ومن حيث التأديب عليه والاحتفال بحفظه.

والتلاميذ في المهرجان لا يقومون بأي عمل إنتاجي أو عمراني كحراثة الأرض أو بناء البيوت أو رعي الماشية أو حتى صناعة الفخار لكنهم الأحقر في ملابسهم قياسًا بالآخرين الذين يؤدون أدوار المزارعين أو البنائين في نفس المهرجان، وهم الأسوأ في أخلاقهم فيما بينهم وفيما بينهم وبين معلمهم من بقية القائمين على الفروع الأخرى للمهرجان.

فالذي يمثل البناء ثوبه نظيف وجميل بل جديد على ما يلمس بيديه من الطين ونحوه وقل مثل ذلك عن راعي الغنم والقائم على حراثة الأرض أو استخراج الماء بينما الذين يحفظون كتاب الله في المهرجان ثيابهم مرقعة، الثوب قماشه أبيض والرقعة سوداء من قماش أسود وتوضع الرقع أحيانًا في ثوب الطالب من خلفه مقابل دبره مما يجعله مكان سخرية وهزء واستخفاف من جموع المتفرجين.

ثم إنه تعرض في المهرجان أنواع ونماذج من الآثار مما ينمي في قلوب المسلمين الاعتزاز بالآثار وحبها والحرص عليها.

يبقى سؤال وهو: هل الدين الذي يدين به البشر من الآثار؟

يتلخص تعريف الآثار بأنه ما خلّفه السابق للاحق أي ما خلفه الإنسان السابق للإنسان اللاحق.

ولو ألقينا نظرة على الدين سنجد أن الدين الذي تدين به البشر منه ما هو منزل من الله عز وجل ومنه ما هو من وضع البشر فما كان منه من وضع البشر وصنعه فلا نقاش فيه أنه مما خلفه السابق للاحق.

أما الدين المنزل من الله عز وجل فهو على حالين:

الأول: دين منزل من عند الله عز وجل على أمم قبل أمة محمد ﷺ لكنه حرف وبدل وزيد فيه من قبل البشر سواء كله أو بعضه فإن هذا التحريف والتبديل والزيادة تكون من جملة ما خلفه السابق للاحق.

أما ما بقي من الدين المنزل من عند الله على الأمم السابقة لأمة محمد ﷺ من التحريف والتبديل والزيادة فهو داخل ضمن قوله سبحانه وتعالى: ﴿...ائْتُونِي

بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا...﴾[١] وهو مثل القسم:

الثاني: الدين المنزل على رسولنا وحبيبنا عبدالله ورسوله محمد بن عبدالله ﷺ وهو الدين الذين تكفل الله بحفظه قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[٢] فهو وحي الله ووحي الله عمومًا سواء ما كان منه باللفظ والمعنى أو ما كان منه بالمعنى لايدخل تحت تعريف الآثار هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو ليس من الآثار لأمور:

١ ـ أنه ليس مما أنتجه السابق كالأبنية والأواني وكالأساطير والأمثال والشعر بل هو مما أنزله سبحانه وتعالى للناس جميعًا السابق منهم واللاحق إلى أن تقوم الساعة وهو لكل الناس في كل مكان وفي كل زمان.

٢ ـ أن وحي الله حاكم ومهيمن على الناس وما يملكون وما يدركون وفي كل شأن من شئون حياتهم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾[٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿...فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾[٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ...﴾[٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾[٦].

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٤.

(٢) سورة الحجر، آية: ٩.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(٥) سورة المائدة، آية: ٤٨.

(٦) سورة المائدة، آية: ٤٩.

ويجب على العباد المؤمنين السمع والطاعة لحكم الله وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أي أمر وأي شأن وفي كل شيء قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)﴾[2].

فمن لم يقبل حكم الله ولا التحاكم إليه فهو ممن قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)﴾[3] ويواجه بقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾[4] ثم قوله سبحانه وتعالى عن مثل هؤلاء: ﴿...وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾[5].

وكيف لا وهو سبحانه وتعالى الخالق فلابد أن تكون له الطاعة والخضوع والإذعان لأمره قال سبحانه وتعالى: ﴿...أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾[6]. وقال سبحانه: ﴿... لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾[7] فإنه سبحانه وتعالى ـ الحاكم في خلقه قضاء وقدراً وخلقاً وتدبيراً.

---

(١) سورة النور، آية: ٥١.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٠.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٥) سورة المائدة، آية: ٤٤.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٥٤.

(٧) سورة الكهف، آية: ٢٦.

والحاكم فيهم بأمره ونهيه وثوابه وعقابه[1].

فلا شريك له في ذلك كله فإن من أدخل شيئاً من حكم البشر مع حكم الله فقد أشرك ومن نحّى حكم الله وشرعه فقد عبد غير الله.

فدين الله ليس أثراً من آثار الناس وإلا لصح أن يعدلوه بعاداتهم وأعرافهم لكنه هو الذي يقومهم وهو مصدر عباداتهم وأحكامهم والمقياس الذي تقاس به أمورهم.

٣ ـ في حال كونه من الآثار فإنه يصح أن يكون الدين جزءاً مما أنتجه الإنسان وعندئذ يكون له حق التصرف فيه بالزيادة والإلغاء والتغيير ولكن ليس هذا حال دين الله بل هو حال نظم البشر الوضعية فإنك تجد ما هو معبود اليوم قد كان مهاناً أو العكس، وليس ذلك حال دين الله المنزل على رسوله ﷺ لعباده.

٤ ـ يلحق بدين الله سنن الله في هذا الكون وما أودعه الله فيه من العلم سواء عرفه الإنسان واستخدمه أم لم يستخدمه أو لم يعرفه أصلاً وهو مندرج تحت قوله سبحانه وتعالى: ﴿...أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ...﴾[2] أي بقية من دليل[3]، وهو الذي يكتشفه الإنسان كأحد أسرار المادة فليس من إنتاج الإنسان لكن تلك المعرفة هي التي تورث بين البشر أما العلم نفسه فهو موجود وقائم قبل البشر والله أعلم.

● البدء بأرض مصر:

«لأرض الكنانة مكان مرموق في قلوب العرب والمسلمين وقد سبقت في ميادين العلم والأدب ونبغ فيها رجال أفذاذ كانوا أساتذة لكثير من أدباء العرب، والدعوة فيها تؤثر في مصر وتنتشر منها إلى البلاد العربية والإسلامية بحكم انتشار صحافتها ومطبوعاتها وإمكاناتها الضخمة لذا ركز الاستعمار جهوده في هذا القطر الإسلامي الكبير ليفسده ويفسد به، يفتنه ويفتن به المسلمين.

وفي أعقاب الفترة التي تلت إلغاء الخلافة الإسلامية في الحرب العالمية الأولى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) ٥/ ٢٧.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي دار المعرفة بيروت لبنان طبع سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ٤/ ١٥٣ ـ ١٥٤.

قامت الدعوة إلى الفرعونية من رجال تتلمذوا على الغرب كانوا يعارضون الإسلام والعروبة يزعم هؤلاء الدعاة أن تغيّر الدين في مصر من الوثنية إلى النصرانية ثم إلى الإسلام وتغير الكتابة واللغة فيها من الهيروغليفية إلى العربية لم يقطع ما بين مصر الحديث وبين مصر القديمة من صلات وكانوا يحتالون لرد حياة مصر المعاصرة في مختلف مظاهرها إلى أصل فرعوني قديم ويدعون بكل وقاحة إلى أنه يجب أن تقوم النهضة المصرية على المجد الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوربية على بعث التراث اليوناني والروماني في عصور الوثنية السابقة على المسيحية»[1].

- **وهناك أسباب أخرى لاختيار مصر أولاً في التقرب عن الآثار ونبشها منها:**

١ ـ أن مصر يوجد بها آثار يونانية ورومانية بمعنى أنها عندهم امتداد حضارة الغرب الوثنية السابقة بل إنها ترتكز في مصر، ونبش آثار تلك الحضارات يجعل الاعتزاز بالمجد المصري والتاريخ المصري نفسه اعتزازًا بالمجد الروماني واليوناني الذي تعتز به أوربا ويكون في القديم والحديث تطويق مصر بالحضارة الوثنية الغربية ويسهل بذلك الهيمنة عليها وقيادها.

٢ ـ قرب مصر من أوربا وكثرة الآثار الرومانية واليونانية فيها.

٣ ـ ملاءمة مناخ مصر لنشر تماثيل الجاهلين حيث تنتشر الأضرحة وقبور الأولياء فيها.

* * * * *

(١) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام محمد محمود الصواف، ص١٣٩، بتصرف.

الفصل الثاني

أثر الدعوة إلى تعظيم الآثار على الأمة الإسلامية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عودة المظاهرة الشركية بين المسلمين.

المبحث الثاني: زعزعة الولاء والبراء لدى المسلمين.

المبحث الثالث: الدعوة إلى القوميات والعنصريات لتفكيك وحدة المسلمين وإضعاف قوتهم.

* * * * *

المبحث الأول

عـــودة المظاهر الشركية

قال الله عز وجل: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[1].

والآثاريون المتمكنون لا يقولون بأن غرضهم من نصب التماثيل في الميادين أنه لقصد العبادة، بل يعلنون أن قصدهم هو إظهار حضارة الأجداد وتأمل فنون الأقدمين لكنهم لا يسمون التماثيل غالبًا إلا آلهة حتىٰ أنني قرأت بعض كتب في الآثار لكنها قديمة لا تذكر تلك التماثيل بأنها آلهة إلا القليل منها ثم رأيت في كتب لاحقة نفس التماثيل في كتب أثارية أخرىٰ عن نفس الأماكن لكنها سميت فيها بعض تلك التماثيل آلهة.

فمن النوع الأول كتاب الآثار الشرقية لمؤلفه أرنست بابلون طبع ١٩٨٧م ترجمة عيسىٰ الخوري، دار حرب، طرابلس لبنان.

ومن النوع الثاني نشوء الحضارات القديمة لمؤلفه بورها ردير ينتيس، الأبجدية دمشق، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٩م الذي يؤله في كتابه أغلب الرسوم والتماثيل، وأغلب تحليلاته كذلك، وأغلب كتب الآثار من هذا النوع، فتسمية التماثيل آلهة أغلبه مبني علىٰ الهوىٰ.

ثم إن كثيرًا من كتب الآثاريين التي تتكلم عن تلك الآلهة المفتراة تورد لها قصصًا خرافية وأساطير تبسط فيها القول ممجدة ومظهرة لعظمة وقدرة خارقة محض افتراء ودجل لكن مع كثرته وتكراره يترسب في أذهان قرائها تصديق ذلك خاصة من لا يملكون حصانة مسبقة أو من نشأوا أصلاً علىٰ نوع من تلك الترهات، هذا من جهة، أو أنها تؤدي إلىٰ أن تنبذ جميعًا وتطرح وكل ما يمت إلىٰ الدين بصلة أيًا كان الدين،

(١) سور ص الآيات، ١ ـ ٥.

من جهة أخرىٰ عند من يسمون أنفسهم أحرارًا وهم العلمانيون حسب دعواهم وهم الملاحدة.

والوثنية علىٰ مر التاريخ هي عدوة التوحيد الأولىٰ والرسل كلٌ منهم يدعو قومه إلىٰ توحيد الله عز وجل ونبذ الشرك قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...﴾[1].

فالرسل مهمتهم الأولىٰ في الرسالة توجيه الناس إلىٰ عبادة الله الواحد القهار خالقهم وخالق السموات والأرض وما بينهما ومن لوازم عبادتهم لله وتوحيدهم إياه في العبادة تجنب الطاغوت أيًا كان.

و ﴿اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ مثل كلمة التوحيد [لا إله إلا الله] فيها نفي وإثبات فالمنفي عبادة الطاغوت والمثبت عبادة الله وحده، وكلمة التوحيد: لاإله: نفي لما يعبد، وإلا الله: إثبات أحقية العبادة لله وحده لا شريك له.

«والطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة فهو طاغوت من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله وهم كثيرون ورؤوسهم خمسة.

الأول: الشيطان الداعي إلىٰ عبادة غير الله والدليل قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾[2].

الثاني: الحاكم الجائر المغير لأحكام الله والدليل قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾[3].

الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله والدليل قوله تعالىٰ: ﴿...وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝٤٤﴾[4].

(١) سورة النحل، آية: ٣٦.

(٢) سورة يس، آية: ٦٠.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٠

(٤) سورة المائدة، آية: ٤٤.

الرابع: الذي يدّعي علم الغيب من دون الله والدليل قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾[2] فمن ادعى علم الغيب يكون مكذبًا للقرآن.

الخامس: الذي يعبد من دون الله وهو راض بالعبادة والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾[3].

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنًا بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل قوله تعالى: ﴿... فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾[4]»[5].

«فأما صفة الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتكفّر أهلها وتعاديهم.

وأما معنى الإيمان بالله: أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون من سواه وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله وتنفيها عن كل معبود سواه وتحب أهل الإخلاص وتواليهم وتبغض أهل الشرك وتعاديهم»[6].

ولفظ العبادة اسم وله معنى، ومعناه مشتمل وجامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة متضمنًا كمال الحب لله مع كمال الرجاء وكمال الخوف من الله سبحانه وتعالى فالعمل جزء من الدين والدين كله داخل في

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) سورة الأنعام، آية: ٥٩.
(٣) سورة الأنبياء، آية: ٢٩.
(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.
(٥) مجموعة التوحيد المسألة الثانية من مسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى ١/ ١٥.
(٦) المصدر السابق ١/ ١٤.

العبادة ومستهلك وقت الإنسان كله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ...﴾[2].

وقد أمر الله العباد بعبادته وحده ونهاهم أن يشركوا به شيئًا قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾[4].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ...﴾[5].

والآثاريون يعرفون خطورة الآثار على العقيدة الإسلامية ويفهمون ذلك يقول أحد المهتمين بالآثار «أن الناس هناك ينظرون إلى التماثيل نظرتهم إلى الأصنام والأوثان وإلى استخراج الآثار والتنقيب عن العاديات نظرتهم إلى بعث الوثنية وإحياء معالم الشرك»[6].

وكيف يأخذ على الناس أنهم ينظرون إلى التماثيل نظرتهم إلى الأصنام والأوثان وهم يسمونها آلهة في كتب الآثاريين فضلاً عن أنها فعلاً أصنام، وينسجون حولها القصص والخرافات ويثبتون لها الأساطير وهو في كلامه يعتذر عن

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.
(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٦٢ ـ ١٦٣ وانظر مجموعة التوحيد ١/ ١٦٢ ـ ١٦٤.
(٣) سورة النساء، آية: ٣٦.
(٤) سورة البقرة، الآيات: ٢١ ـ ٢٤.
(٥) سورة النساء، آية: ٤٨.
(٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/ ٨ ـ ٩.

عدم الاهتمام بالآثار في بعض بلدان المسلمين بالاهتمام المطلوب المؤدي للغرض في نظره.

وكذلك قولهم «أن الإسلام قد جاء بدين جديد وحضارة جديدة وكان حريصًا أن يسدل السجف على ما قبله من حياة وُصِمَتْ بأنها (الجاهلية الأولى) وإنها لكذلك في نظر الإسلام لما فيها من الإغراق في الوثنية ولما حوت من عادات تعتبر همجية إذا قيست بمعيار النظم الإسلامية»[1].

ونشر الوثنية بين المسلمين مقصود عند أساطين الآثار ومؤسسيها ومتعمد حيث يعلمون أن الأوثان والأصنام التي ينبشونها ويطلقون عليها اسم الآثار إنما هي معاول هدم الإسلام بحكم أنها عدوته الأولى، وليس أدل على ذلك مما ورد في كتاب التاريخ العربي القديم تأليف: ويتلف وفرتز هومل ول. رودو كالكيس وآدولف جرومان: «أول أعداء الإسلام التي خاض معها الحروب الطاحنة هي الوثنية التي هي موجودة في أصله وأرضه قبل أن يحارب النصرانية»[2] فكان حال الآثار وواقعه هو تنبيه هذه الوثنية الموجودة في بلاد المسلمين العدو الأول للإسلام وإقعادها من رقدتها لتدمير الإسلام وتفكيكه بها ولتكفي العالم الغربي بعض مؤونة قتال الإسلام والمسلمين.

ولأجل ذلك «فعالم الآثار إنما يهتم بالأشياء وبالطرق التي كانت تستعمل بها لإمكان إعادة بناء وسائل الحياة التي كان يحياها أجدادنا في الماضي»[3]، وذلك بـ «استخلاص الآثار وترميمها وإعادتها إلى حالتها الأصلية ثم الربط بينها وبين أصحابها الأقدمين وبعث الماضي حيًا أمام أعيننا في غاية الروعة والبراعة»[4]، لأن

(١) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السابقة، محمد محمود جمعة، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٩م، ص٧، ٨.

(٢) التاريخ العربي القديم، ويتلف وفرتزهومل و د. رردوكاكيس وأدولف جرومان ترجمة فؤاد حسنين علي، وزارة التربية والتعليم، قسم الترجمة، إدارة الثقافة العامة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ص١٧٣.

(٣) رجال الآثار، د. روبرت ج، بريدوود، ص٧.

(٤) أعمال الحفر الأثري اليونارد وولي، ص٧.

هناك قيمة مهمة بالنسبة لأعداء الإسلام وهذا من قولهم: «للمكتشفات الأثرية فإن هذه المكتشفات تعيد تجسيد صورة الإنسان القديم بكل نشاطاته المختلفة، فهي المنبع الذي يمكن عن طريقه استشفاف أفكار هذا الإنسان ومعتقداته»[1] «وإذا كانت أغلب المعتقدات الدينية القديمة قد اندثرت، فإن التعبير المادي عنها في شكل معابد ومذابح وتماثيل للآلهة قد يبقى، بل قد يمدنا هذا التعبير المادي بمعلومات يمكن عن طريقها الاستنتاج إلى أي مدى كانت مثل هذه المعتقدات منظمة تحت إشراف كهنة محترفين»[2].

ومن الممكن أن نعتبر عصر الترجمة في العهد العباسي هو بداية نبش الآثار وهو المعلم الذي اهتدى به أساطين الكفر الغربي في هدم وإضعاف المسلمين ودولتهم ذلك أن عصر الترجمة كان مصاحبًا له بعثٌ لكثير من الأفكار والفلسفات ذات الأصول الوثنية إلا أنهم تركوا الوثنيات الواضحة ونبذوها لقوة الإسلام وقوة دولته في ذلك الوقت.

أما في هذا العصر الذي نبشت فيه الآثار الوثنية فإنها أخرجت الوثنية بحذافيرها وقضِّها وقضيضها من ظلام التاريخ حيث غطاها وطمسها، وأبرزتها أيدي الآثاريين أمام الناس حيث قد واراها التراب، وبالتعريف بالأوثان القديمة والمعبودات الزائفة والتحليل للشعائر الوثنية المصاحبة أثمرت بروز الوثنية وانتشارها في بلدان المسلمين بشكليها المادي والمعنوي المحسوس، والمقصود من ذلك المحسوس: إنما هو المعنوي المصاحب من شعائر الوثنية ونشرها بين المسلمين بحجة تحليل نظم العبادة والدليل هو تركيز الآثاريين على الآثار الموصوفة عندهم بأنها ذات الصبغة الدينية كالمعابد والمقابر والتماثيل وهي تستحوذ ثلاثة أرباع الآثار تقريبًا إن لم يكن أكثر.

وبإلقاء نظرة على بعض الآثاريين وعلى ما ألّفوه من الكتب التي تعنى بالآثار وتحليلها نجد القصد الوثني واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار ومن ذلك هذه نماذج لمؤلفين وكتبهم في ذلك:

(١) الرومان، ص٢٥.

(٢) الرومان، ص٢٧.

مـاريت باشـا (١٨٢١ ـ ١٨٨١) له: مـعـابد وادي الملوك ومـدافن الســرابيـون ومدافن سقارة ومعبد أبيدوس وكتاب معبر دندرة ومصاطب سقارة[1].

جاسـتون مـاسـبيـرو (١٨٤٦ ـ ١٩١٦م) له: ثلاثة سنوات تنقيب قـبـور طيبـة وممفيس.

وجانو كلرمون (١٨٤٦ ـ ١٩٢٣) له: ضحية لعشتار بكتابة حميرية[2].

شاسينا (١٨٦٨ ـ ١٩٤٨) له:

قبور طيبة، معبد ادفو، معبد دندرة، المخطوط السحري القبطي[3].

ديسو (١٨٦٨ ـ ١٩٥٨) له:

أديان الحيثيين والحرانين والفينيقيين والسومريين[4].

وكنتينو مولود عام ١٩٧٧ له:

الزجر عند الأشوريين والبابليين، والسحر لدىٰ الأشوريين[5].

جان ماسبيرو (١٨٨٧ ـ ١٩١٥) له:

فقه قدماء المصريين[6].

الأب دريتون (١٨٨٩ ـ ١٩٦١) له:

كتاب معبد الدامود وتساعده الآنسة بو: مدفن رويٰ ومدفن بنهس[7].

السير ألن جاردنر له: مصر والفراعنة.

---

(١) المستشرقون، ١/ ٣٨٨.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٣٩٠.

(٣) المستشرقون ١/ ٣٩٤، ٣٩٥.

(٤) المصدر السابق ١/ ٣٩٦.

(٥) المصدر السابق ١/ ٣٩٦.

(٦) المستشرقون ١/ ٣٩٨.

(٧) المصدر السابق ١/ ٤٠.

مجريت موردداي (١٨٧٤ ـ ١٩٦٤) لها: مصر مجدها الغابر[1].

الاب باستيان رونز فال له: مكتشف معبد جوبيتر البعلبكي[2].

ومن الكتب أيضًا الديانة الفرعونية، السير دلس بدج.

سيتون لويد له: آثار بلاد الرافدين.

علي القيم: امبراطور إبلا.

تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتىٰ عام ٥٣٩ ق.م، د. عيد مرعي.

أ. ش. شيفمان: ثقافة أو غاريت.

يورهارد برينتيس لها نشوء الحضارة القديمة.

وغير ذلك كثير من كتب الآثار المليئة بالوثنية تجسيدًا وقيمًا وشعائرًا وبتمعن تلك الكتب ومؤلفيها يتضح أن أغلب هؤلاء الآثاريين غربيين يقصدون من نبش الآثار إعادة سنن الجاهلية بله نشر الوثنية بين المسلمين تلك العدو الأول للإسلام التي لم يفتأ يطمسها في كل مكان وزمان ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً.

ومن نافلة القول أن الوثنية تحيا بتسليط الأضواء علىٰ المعبودات والتماثيل والصور والرسوم ونصبها في الميادين وإقامة المتاحف لها وسبك القصص وترسيخ الأساطير والخرافات حولها وانتحال الأمجاد لها والافتخار بها وبيان أهميتها وقيمتها واختصاصها المزعوم كذبًا وبهتانًا كالزعم بأن هذا إله خاص بالنصر وآخر بالزرع وغيره بالنسل وخذ من مثل هذا الهراء، وهذه دعوة صريحة إلىٰ التجانس مع المعتقدات الوثنية القديمة المقتبسة من المكتشفات الأثرية وإلىٰ التجانس مع الأخلاق والمباديء والنظم الوثنية أيضًا[3].

فالتماثيل نصبت في الميادين العامة وأماكن تجمع الناس كصالات الانتظار وبنيت لها متاحف وإنك لترىٰ المتحف الفخم الضخم في مكان هام جدًا في بلد ما

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٥٠.

(٢) المستشرقون ٣/ ٣٥١.

(٣) انظر: تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتىٰ عام ٥٣٩ ق.م، ص١٢.

ولا يحوي إلا تمثالاً واحدًا، وذلك تبجيلاً وتعظيمًا وهل يشبه هذا الإهياكل المعبودات وبيوت العبادة الوثنية؟ وهذا نموذج مقتبس من الآثار:

«وأهم ما يلاحظ في أهرامات الأسرة الرابعة المراكب المقدسة منقوشة في الصخر قرب الهرم على شكل مركب الإله رع، فقد كان المصريون القدماء يعتقدون أن الإله رع وهو إله الشمس يجوب السماء ليلاً ونهارًا في مركب . . . ومن الطريف أن هذا الاعتقاد استمر لفترة طويلة بعد ذلك فأخذ المصريون يضعون في القبور مع موتاهم مراكب صغيرة ترمز لهذه الفكرة، ونجد في أيامنا هذه مراكبًا تصنع في الموالد من ورق ملون وتعلق داخل وخارج أضرحة الأولياء والمشايخ بالريف»[١].

ولا «نكاد نكون بحاجة إلى برهان طويل على أن اقتحام أفكار أو نزعات جديدة على المسلمين في أي ناحية من نواحي الحياة كان ينجم عنه غالبًا ـ وأحيانًا في فجاءة مفزعة ـ سلسلة كاملة من الحركات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية التي تؤثر في مظهره الفكري والمادي تأثيرًا عميقًا وأن ظهور هذه الحركات بسرعة في السنوات الأخيرة والعنف الذي قاومت به التقاليد والعادات القديمة أحدثا في العالم الإسلامي كله حالة قلق وحرج نفسي . . . وأن هذا القلق لهو محور معضلة الإسلام الحاضرة»[٢].

ومن أخص هذه النزعات وأسها نبش الآثار في كل بلد من بلدان المسلمين وإظهار وثنيته مع علمهم أن الوثنية هي العدو الأول الذي حاربه الإسلام قبل النصرانية ولذلك فقد «كان للانجليز من وراء كل ذلك هدف واحد هو: إضعاف العصبية الدينية وتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحدًا واحدًا، فالمصريون أحفاد الفراعنة واللبنانيون أحفاد الفينقيين والعراقيون أحفاد البابليون والأشوريين»[٣].

(١) تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى ١/ ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) وجهة الإسلام، جب، ص١٦ ـ ١٧.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ١١١.

ولذلك فإن المناطق التي خشي الاستعمار منها مستقبلاً فتتها جميعًا فبلاد الجزيرة العربية خاصة والبلاد العربية عامة التي خاف من انبعاث قوتها قسمها إلى وحدات سياسية وجغرافية ونبش لها تواريخ متغايرة من أصل وثني سابق على إسلامها من فرعونية وبابلية وفينيقية وأشورية ورومانية وحتى الوثنيات العربية أنواع كوثنية البتراء وحمير وسبأ والأحقاف والثموديين[١].

أما بقية بلاد المسلمين من غير العرب فمثل ذلك أخرج لها وثنياتها السابقة على تاريخها الإسلامي كالفارسية والطورانية والهندوكية والجاوية ونحو ذلك.

وكان من ثمار تلك الآثار إنشاء مجموعات من الكتل البشرية الهشة كل كتلة تقوم على الاعتقاد بأنهم شعب واحد وله تاريخ واحد مغاير لجيرانه وكذلك له أخلاق وعادات وتقاليد وطقوس مغايرة، كل ذلك له جذور ممتدة في عمق الزمن يبدأ غالبًا بتاريخ يتقادم من بعد خط دخولها الإسلام ويوغل في الوثنيات والجاهليات القديمة[٢] «فالفرس الذين دعتهم العصبية إلى الانحراف عن جمهور المسلمين طالما افتخروا بما كان لهم من تاريخ قبل الإسلام وقد اشتد شعور جنسي كهذا في مصر وتركيا حيث أخذ الناس يفخرون بتاريخهم الوثني القديم بخواقينه وفراعنته بل وصل الأمر إلى أن زغلول باشا زعيم مصر الديموقراطي سيدفن في مقبرة للعظماء تجمعه وأربعين من الفراعنة المحنطين»[٣] وهذه النتيجة لمسها أكبر وأعتى المستشرقين وهو من المهتمين بنشر الآثار بين المسلمين.

ويرى بعض الأتراك: «أن الترك من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجدًا وأسبقها إلى الحضارة وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل ويلزم أن يعودوا واحدًا ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية . . وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية فتكون عندئذ واسطة لا غاية وهم يتغنون بمدائح جنكيز ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئًا من أعمالهم

(١) انظر: في معركة البقاء، د. عبدالحميد عويس، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص٣٤.

(٢) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ٨٦.

(٣) وجهة الإسلام، جب، ص١٣٠ ـ ١٣١.

وأخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم وعن الذئب الأبيض الذي كانوا يعبدونه حتىٰ صوروه في بعض كتبهم الحديثة»[١] .

وهذا حاصل جهود مكثفة من جهات كثيرة من دول استعمارية لم يتم بين عشية وضحاها ولقد: «بذلت بريطانيا ومثيلاتها من دول استعمارية كثيراً في بث أفكار الفرقة والتناحر بين العرب وبين أنفسهم وقد كانوا بالأمس حلفاء فإذا هم دعاة إلىٰ الوثنية الجاهلية باسم الاهتمام بالآثار وتعظيمها وبعث التراث»[٢] .

وأثمرت جهود الغرب وسياسته وكان من ذلك أيضًا غير ما سبق أن «نتائج البحث العلمي الأوربي وتكوين تاريخ امبراطورية «ماجاباهت» أحيا لهم مجدًا قديمًا يفخرون به وإن غلو أحيانًا في تقدير ذلك المجد، واتخذ الشبان الجاويون مثلاً عاليًا في البطولة من شخصيات التاريخ الغابر كالملك (أرلانجا) والملك (أيام ورورك) و (جاج مادا) الوزير الأكبر لامبراطورية (ماجاباهت) الذين بعثهم علماء الآثار وعلماء اللغات من ثرىٰ التاريخ بعد أن كادوا يصبحون نسيًا منسيًا؛ ومن الواضح أن مقارنة مجد العصر الهندوكي الجاوي بمجد العصر الإسلامي هي مقارنة باخسة للطرف الثاني لأنها مؤدية حتمًا لرفع شأن الهندوكية علىٰ حساب الإسلام، . . . ولا عجب أن نجد مدارس (تامان سسوا) التي أنشأها (كي اجارد بوانتار) تلقن الطلبة إيثار المدنية الجاوية القديم أعني المدنية الهندوكية الجاوية علىٰ الإسلام»[٣] .

- **ومن ضمن التأثر: الحكم بغير ما أنزل الله:**

يرىٰ د. محمود السقا في كتابه: فلسفة وتاريخ القانون المصري من شروق العصر الفرعوني إلىٰ غروب العصر الروماني: «أن القانون المصري المعاصر استمد قواعده من القانون الفرنسي، وهذا ـ أي الفرنسي ـ أخذ من قانون جوستينان الذي تأثر بالقانون المصري حال الاحتلال الروماني لمصر ولما كانت قواعد قانون الألواح

(١) فكرة القومية العربية علىٰ ضوء الإسلام، صالح بن عبدالله العبود، دار طيبة، الرياض الطبعة الأولىٰ، ص١٠٧ .

(٢) المصدر السابق، ص١٣٧ .

(٣) وجهة الإسلام، جب، ص١٩٢ ـ ١٩٣ .

الاثني عشر أول قانون مدون في روما قد أمدت موسوعة جوستينان ببعض الأحكام فإن العودة التاريخية تؤكد أن قانون الألواح الاثني عشر قد أخذ بعض الأحكام من القانون المصري الفرعوني (قانون بوكخوريس) ومن قانون صولون وهذا القانون أيضًا استمد بعض أحكامه من قانون بوكخريس المصري.

إذن فإن بداية القانون الروماني ونهايته كانت عظيمة الصلة بالقانون المصري واستمدت منه الكثير من أحكامه، ولما كان القانون الروماني الأصل التاريخي للقانوني الفرنسي، ولما كان هذا القانون هو المصدر التاريخي المباشر للقانون المصري المعاصر فإن السلسلة التاريخية قد تكاملت حلقاتها ونستطيع القول في هدوء الباحثين عن الحقيقة أن: هذه بضاعتنا ردت إلينا»[١] هكذا يقول فهو يفتخر بالحكم بغير ما أنزل الله.

والتأثير أيضًا في الأخلاق واللباس وكافة القيم والتقاليد فالدعوة إلىٰ ذلك علىٰ أشدها «أما إذا لم يكن بد من الاستشهاد بأوربا فلنذكر أنها لم تنهض نهضتها العظيمة الحاضرة إلىٰ بالرجوع إلىٰ تراثها في حضارة الإغريق والرومان وآباء الكنيسة في القرون الوسطىٰ ثم بالبناء الذكي علىٰ ما وضع أولئك من قيم وتقاليد . . . إلخ»[٢] .

وهناك دعوات للاختلاط باستخدام الآثار لكنها ناعمة الملمس براقة منها ما جاء في موسوعة الفراعنة: «الحريم:

كانت الزوجة ـ الوحيدة بالطبع ـ[٣] وخدمها يتمتعون بأماكن خاصة بهم داخل مساكن أثرياء القوم، ولكن لا يعني ذلك أنه وجد في مصر القديمة مثل ذلك النوع من الحريم التركي أو خدور النساء حيث كانت النساء تعيش في نوع من العزلة والإقصاء؛ فكانت السيدات النبيلات في الدولة الحديثة يقمن حول الآلهة بتكوين ما

(١) فلسفة وتاريخ القانون المصري من شروق العصر الفرعوني إلىٰ غروب العصر الروماني، د. محمود السقا نشر النهضة العربية القاهرة، ١٩٩٢، ص١٨ ـ ١٩ .

(٢) فكرة القومية العربية، صالح بن عبدالله العبود، ص٢٨٩ .

(٣) هكذا موجود في النص.

يعرف بفرق الكورال من الموسيقيات والمغنيات يمكن أن نطلق عليهن اسم «الحريم» على وجه التقريب.

وخلال نفس العصر وجد نوع من المؤسسات التي تضم عدداً ضخماً من الإناث (وهي تعد مرادف لعبارة «مكان مسور بالسياج» أي مكان يحتجز فيه البعض)، وكانت دور الحريم هذه تدار لصالح الملكات اللاتي كن يحضرن للإقامة فيها.. ولقد عثرنا على عدة أماكن تعد كمقر «لحريم الملك» بكل من طيبة ومنف وأبو غراب[١]. وكانت هذه المقار تتمتع كذلك بأملاك عقارية وبدخل بعض الضرائب.. وكان يقوم بإدارة هذه الأعمال والإشراف عليها جهاز ضخم من الموظفين الرجال (مثل: المدير والقائمقام، والكتبة والمحصلين والوكلاء التجاريين وجنود الأمن) وليس هناك ما يشير إلى وجود ما يعرف بالخصيان في هذه الأماكن»[٢].

يعني أن ما يسمونه سيدات المجتمع النبيلات همهن الموسيقى والغناء والرقص وما يجر إليه وأن هناك أماكن تجمعات نسائية عادية لها إدارات رجالية تجبي الرسوم من المستفيدين وتجبي الضرائب أيضاً، ثم إن هذه الإدارة الرجالية ليسوا من المخصيين بل إن دواعي ورايات البغاء مشرعة وأن هذا من عادات أجدادهم منذ القدم وهو ما تنادي به جاهلية القرن العشرين فإن التفت إلى التاريخ وجدته يحاكي الواقع فلا يملك كثير من الناس مع ضعف الوازع الديني وحمى الشهوات إلا الاستجابة لمثل هذا النداء الشيطاني وتزيينه.

وإغراءات الفحشاء تأخذ صوراً وأشكالاً، ومن زوايا مختلفة من ذلك قول أحدهم: «وقد نظن أن النفور من مضاجعة المحارم شعور غريزي ولكن الواقع غير ذلك لأن الشقشة ـ نوع من القردة ـ وغيرها من الرئيسات لا تنفر من ذلك الفعل كما أنه يوجد مع الأسف عند بني الإنسان، والواقع أنه لولا وجوده لما كانت هناك قواعد مقررة ضده وللزواج من المحارم بعض الأضرار البيولوجية لأنه قد يؤدي إلى ظهور العيوب الوراثية المتنحية ولو أن الفكرة الشائعة بين الناس عن هذه المسألة ليست

(١) طيب ومنف وأبو غراب مواقع أثرية في جنوب مصر.

(٢) موسوعة الفراعنة، باسكال فيرنوس وجان يويوت، ص١٣٠ ـ ١٣١.

صحيحة كل الصحة والدليل أن الشقشة لم تنقرض تماماً. والواقع أن ثقافتنا ذاتها هي التي تعلمنا وتلقننا بكل دقة أن ننبذ بقوة وعنف فكرة الاتصال الجنسي بالمحارم. والظاهر أيضاً أن ذلك التحريم (والتابو) هو أحد الابتكارات الاجتماعية الأساسية التي ابتكرها الإنسان»[١]، وهذا الكلام يسنده ويبرهن عليه مؤلفه على نبش الآثار وما فيها من فجور.

وغالباً ما يكون الاهتمام والتركيز على الآثار ذات الصلة بالتدين الوثني كالمعابد والقبور والأصنام «وكل قبر أو منزل أو معبد هي مصادر تمدنا بالعديد من الدلائل على نواحي نشاط المجتمع الذي تنتمي إليه هذه المصادر»[٢].

ويتفق الآثاريون تقريباً «على أن المعابد هي الأمينة على الثقافة والحافظة لها وأنها مراكز إشعاعها»[٣].

«ولم تقتصر عناية الخلف بآثار السلف على التحف المنقولة أو الكنوز من الذهب والفضة بل امتدت إلى العمائر القديمة على مختلف أنواعها من دينية ومدنية وعسكرية وحظيت المباني الدينية بأكبر نصيب من الصيانة والحفظ، ومن ثم كان معظم ما وصلنا من آثار معمارية قديمة عبارة عن مبان دينية من معابد أو قبور»[٤].

فالقبور وما تحويه بعضها من دلائل أنها أوثان معبودة، أو المعابد وما فيها من أوثان، والمعابد الفرعونية واليونانية والرومانية الموجودة في مصر وغيرها، وكذلك ما يوجد في بلاد الرافدين من معبودات سواء في مقابر أو معابد أو ميادين إنما هي مجال خصب ورحب لعلم الآثار وهي المستودع والحافظ الأمين للثقافة والعقيدة الوثنية الجاهلية، وهي مركز إشعاع لتلك الوثنية والقيم الأخلاقية الجاهلية «وإذا كانت أغلب المعتقدات الدينية القديمة قد اندثرت فإن التعبير المادي عنها في شكل معابد ومذابح وتماثيل للآلهة قد يبقى بل قد يمدنا هذا التعبير المادي بمعلومات يمكن

(١) ما وراء التاريخ، وليم هاولز، ص٣١٧.

(٢) الرومان، ص٢٧.

(٣) تاريخ مصر القديمة، نيقولا جريمال، ص٤١٩.

(٤) مدخل إلى الآثار الإسلامية، ص٩.

عن طريقها الاستنتاج إلى أي مدى كانت مثل هذه المعتقدات تحت إشراف كهنة محترفين»[1] «فعالم الآثار إنما يهتم بالأشياء وبالطرق التي كانت تستعمل بها لإمكان إعادة بناء وسائل الحياة التي كان يحياها أجدادنا في الماضي»[2].

ويتركز الربط بين الآثار وترجمة استخداماتها على الآثاري «فإن وصفه لعمليات استخلاص الاثار وترميمها وإعادتها إلى حالتها الأصلية ثم الربط بينها وبين أصحابها الأقدمين وبعث الماضي حيًا أمام أعيننا في غاية الروعة والبراعة»[3].

فإبراز هذه الآثار إنما هو إبراز للقيم والشعائر المصاحبة لها والتي عادة ماتكون وثنية وجاهلة إذ أنه «من خلال البحث في فنون تلك الحضارات لابد من الإشارة إلى الظروف الاجتماعية التي سادت تلك المراحل مع التأكيد على مقومات الانسجام بين ظروف ذلك المجتمع وتقاليده والمخلفات الفنية التي تعود إليه»[4]، وعليه فلابد من «تحليل النصب المعمارية والمنحوتات البارزة والمصورات»[5].

فإظهارها يكون بإبرازها وتحليلها وتركيب القصص وفلسفتها، واستنطاقها إنما هو إظهار لما فيها من شعائر ونظم، وإحياء لها ونشر بين المسلمين فيكون دعوة صريحة إلى الوثنية والجاهلية بين المسلمين وفي بلدانهم.

وتبدأ الدعوة إلى الوثنية الجاهلية فهذا أثري اسمه موريس يقول: «نحن ثمرة كيان جماعي ينطق فينا، لندع تراث الأسلاف يستمر فينا، ولنجعل من أنفسنا أبناء نشيطين وصادقين ملتحمين مع أجدادنا كيما نشكل قومًا واحدًا مدى العصور»[6].

(١) الرومان، ص٢٧.

(٢) رجال الآثار، روبرت، ج. بريدوون، ص٧.

(٣) أعمال الحفر الأثري، ليونارد وولي ضابط الاستخبارات البريطانية، ص٧.

(٤) تاريخ الفن القديم، شمس الدين فارس، د. سليمان عيسى الخطاط، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، دار المعرفة، العراق، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص٣.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) الملل المعاصرة في الدين اليهودي، د. اسماعيل راجي الفاروقي، مكتبةوهبة، القاهرة، مصر، طبع دار التضامن القاهرة، الطبعةالثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م ص١١١.

ثم بتسمية العقيدة الوثنية باسم البلد وإعطائها جنسية ووطنية سكان الدولة مثل قولهم: «كان الفنان المصري مكرسًا لخدمة الدولة المصرية والعقيدة المصرية... وعندما كان يقوم الفنان برسم أو تصوير شكل الجسم البشري فإنه لايرسمه أو يصوره حسبما يبدو له لحظة عابرة خاطفة بل كان يقوم بتضمين الرسم أو الصورة كل المعالم الأساسية الهامة.. الخ»[1].

فبدل لفظ العقيدة الجاهلية الوثنية أو الفرعونية أتي بلفظ مشترك بين الفرعون وغيره من أهل مصر من مسلمين ونصارى ووثنيين ويهود وخلافهم ألا وهو لفظ «العقيدة المصرية» فسحب المعنى بسرعة هائلة شملت الزمن الجاهلي والإسلامي على المصريين، وفي هذا المثال فإن القاريء العادي المصري في كثير من الأحيان سيعتز بهذا الميراث ويفخر به ولو كان مسلمًا وقل مثل ذلك في أقطار إسلامية أخرى.

وتم نشر ونصب التماثيل في الميادين العامة[2] وبهذا يظهر أن الغرض منه تغيير عقائد المسلمين العدائية تجاه الأصنام إلى الرضى عنها بله التعصب لها وتقديسها والدفاع عنها.

فعند الذهاب إلى بعض عواصم العالم الإسلامي تجد التماثيل منتشرة في الميادين وأماكن تجمع الناس مثل محطات القطارات وبعض الدوائر الحكومية والجامعات على أوضاع وهيئات تبعث في نفس الرائي إعطائها درجات من الإجلال والتعظيم وتؤيد بمثل هذا المقال عن قبطان: «نفذ ما في سفينته من الماء الحلو فأخذ يلح في طلبه ثم تبين له أن الماء الحلو تحته وهو لا يدري بعد أن قطعت سفينته المحيط ودخلت في مصب أحد النهار، ويشبه حالنا في مصر بحال ذلك القبطان «الماء الحلو في ثقافتنا؛ في بعض هذه الهياكل والمعابد التي نستطيع أن نشاهدها فنرى كيف صنع أجدادنا من هذه الأرض وبهذه الأدوات... ونستطيع أن نخرج منها ماء

(١) فن الرسم عند القدماء المصريين، وليم هـ. بيك، ترجمة مختار السويفي، مراجعة د. احمد قدري، مطبعة هيئة الآثار بالقاهرة، ص٤٥.

(٢) انظر موسوعة الفراعنة، باسكال فيرونس، جان يويوت، ص١٢٠، ٧.

حلواً لا لنشرب منه فقط وإنما نشرب منه ونوزع منه على العالم»[١]. فالماء الحلو نفد من سفينته أي لم يجد في الإسلام بغيته وكفايته، بل هو في نظره ماء مر مالح وهو يبحث عن الماء الحلو الذي كان تحت سفينته وهو لا يعلم والماء الحلو هنا هو الحضارة الجاهلية الوثنية الفرعونية يريد أن يعب منها ويتشبع ثقافة وأدبًا وأخلاقًا واعتقاداً ويطمح أن يسقي غيره من أقطار العالم بعد أن يروي بلده من هذه الوثنية الجاهلية ويستبشر وهو يرى «عودة التاريخ الفرعوني فجأة ودبيب الحياة فيه وتحرك الحضارة المصرية وسيرها على الأقدام»[٢].

ومعلوم ما فيها من الكفر الصراح والمعادات للإسلام، ونبش هذه الآثار الوثنية وأمثالها من الوثنيات الأخرى الدوارس في بلاد الإسلام شبيه بفعلة عمرو بن لحي الخزاعي الذي جمع الأصنام واستورد بعضها ونبش بعضًا آخر إذ أن فعل عمرو بن لحي جاء بقلة من التماثيل ونصبها ودعا الناس لعبادتها[٣] وحاول جمع أناس متعادين عليها.

ونباشو تلك الأصنام والوثنيات يريدون هدم الإسلام بمجموعة كبيرة جدًا من التماثيل متنوعة، تنسج حولها القصص والأساطير الموحية بعظمتها وقدرتها التي من صدقها دل على سذاجته ومن لم يصدقها قد تؤدي ببعضهم إلى نبذ الدين كليًا.

ودراسة الآثار ومعرفة نظم أهلها له تأثير في النفوس وتغيير للتدين لدى كثير ممن يحتكون بها وليس هذا بدعًا بل له سوابق «وذو النون المصري كان أول من تكلم في مراتب الأولياء ودرجات الأبدال ويرجح المؤرخون أنه نقل سلم الولاية من الأحوال والمقامات عن النظم الوثنية الفرعونية التي كانت جارية على تقسيم مناصب الكهنوت إلى مراتب ودرجات وقد أحاط ذو النون بهذه الأنظمة إحاطة شاملة لطول اطلاعه على آثار الفراعنة وتدقيقه في رموزها وكتاباتها»[٤].

(١) حصوننا مهددة من داخلها، ص٥٩، نقله عن أحد الكتاب.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، عن نفس الكاتب.

(٣) انظر: فتح الباري ٨/٥٣٦، وسبق الكلام عن عمرو في فصل السنة.

(٤) الصوفية في نظر الإسلام، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني بيروت، ودار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الثانية، ص١٠٨.

والآثار السابقة المملوءة بالشرك والوثنية تصور الحياة اليومية في رحابها بواسطة علم الآثار وإن مضى عليها ثلاثة آلاف عام وأربعة آلاف عام أو غير ذلك مما ينقل المسلمين إلى معايشة أولئك[١] وأهم الآثار المعمارية اليونانية وأكثرها هي المعابد وهي لا تخلو أبدًا من التماثيل ولإظهار فخامتها وتبين مدى تعظيمها يعمد إلى تضخيمها[٢].

ويبتهج الآثاريون كثيرًا كما مر بـ «عودة التاريخ الفرعوني فجأة ودبيب الحياة فيه وتحرك الحضارة المصرية وسيرها على الأقدام»[٣]، وهناك دعوات شبه صريحة إلى التجانس بين المسلمين وبين تلك الحضارات الوثنية في المعتقدات والأفكار، ويتم ذلك «بالبحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة ـ مثلاً ـ في ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة، ولقد فتح الغربيون أمامنا الباب واسعًا فمنذ كشف (شامبليون) عن سر الهيروغليفية حين حل طلاسم رموز حجر رشيد لم تنِ البعثات الغربية في أوربا وأمريكا عن البحث والتنقيب في الآثار المصرية وبعث ما تنطق به أحجارها الصامتة وما تنطوي عليه أوراق البردى القديمة»[٤].

فالمقصود ربط المسلمين بأمجاد الأحجار الصامتة بجميع الروابط الممكنة وبيان أهميتها.

«ونؤكد بالتالي إلى جانب اللغة والمعتقدات والأفكار قوة الرباط الذي يربط الإنسان العربي في العصر الحاضر مع حضارة المشرق العربي القديم ونبرهن بما لا يدع مجالاً للشك أنه الوريث الشرعي لهذه الحضارات»[٥].

ولكي يتسنى التأثير من شتى النواحي «يبحث عالم الآثار ليعرف كيف يبني

(١) انظر: الآثار الغارقة، روبرت سلفر برج، ص٦.

(٢) انظر: اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، د. لطفي عبدالوهاب يحيى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م، ٢٧٣، ٢٧٧.

(٣) حصوننا مهددة من داخلها، ص٥٩.

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/١٤٩ ـ ١٥٠.

(٥) تاريخ بلادنا الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق. م (أي قبل الميلاد) ص١٢.

الناس بيوتهم والأطعمة التي يأكلونها والأسلحة التي يستعملونها وكيف كانوا يلبسون وكيف كانوا يعبدون آلهتهم»[1] مع ما يصاحب ذلك من تمجيد للتماثيل ورفع لشأنها وقدرها ومن ذلك:

• **التماثيل العملاقة:**

تعمل نتائج هذا الكم الهائل من المنشآت الضخمة على تجسيم ألوهية الفرعون وهذا ما تبينه لنا الأهرام العجيبة للملكين خوفو وخفرع، كما أن صناعة التماثيل الملكية التي يبلغ الواحد منها عشرة بل عشرين متراً أو المنحوتة من الجرانيت أو من الحجر الرملي قد بلغت أوجها في خلال حكم الملك امنحتب الثالث ورمسيس الثاني ولكونها تتناسب في حجمها مع المعابد الإلهية أو الملكية المتسعة، وبإقامتها في الأماكن المكشوفة بالساحات المقدسة فإنها كانت تقوم بدور الأقنومات الخاصة بالفرعون كي يتعبدها الشعب وكانت توضحها تلك الأوصاف التالية (ملك الملوك) و (شمس الملوك) و (عاهل القطرين) وكذلك من تحبه تلك الآلهة أو غيرها.

ومن أكثر التماثيل العملاقة إثارة للإعجاب والإنبهار يمكننا أن نذكر تمثالا (ممنون Memnon) في طيبة والتماثيل (الأصغر حجمًا) والخاصة بالملك امنحتب الثالث بالأقصر وكذا تمثال الملك رمسيس الثاني الذي نقل من منف ونصب في ميدان محطة مصر بالقاهرة.

ومما يثير الإعجاب كذلك تلك التماثيل الملقاة والمحطمة بمنف وبمعبد الرمسيوم بالأقصر وهناك قطعتان أعيد استخدامها في تانيس تعدان من أضخم التماثيل حجمًا (٢٧ مترًا).

ولا شك أن التماثيل المنحوتة في صخور الجبل في معبدي أبو سنبل تعد من النماذج الرائعة لهذا النمط من التماثيل الخارقة في مقاييسها»[2].

وتسليط الأضواء على المعبودات والتماثيل والصور وسبك القصص المعظمة لها وذكر أمجادها ونسبة التأثير لها ونشره بين الناس على حسب تنوع التماثيل والصور

(١) الآثار الغارقة، وبرت سلفر برج، ص٨ ـ ٩.

(٢) موسوعة الفراعنة، باشكال فيرنوس، جان يويوت، ص١١٧ ـ ١٢٠.

كآلهة ـ على زعمهم ـ سواء في مجال الزرع أو النسل أو النصر أو الثروة أو الحب أو الخمر أو غير ذلك مما تطفح به الأسواق من كتب في هذا الخصوص مثل كتاب: الديانة الفرعونية: أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى، السير ولس بدج ترجمة يوسف سامي اليوسف.

واستخدم علم الآثار لإثبات نظرية التطور، وفي ذلك إنكار لتوحيد الربوبية إذ فيه إنكار وجحد أفعال الله وأن غيره هو الذي فعل الأفعال التي لا يفعلها إلا هو كالخلق، وللآثاريين آراء وأقوال منها: إن علم الآثار يكشف كيفية التطور الإنساني[1].

«وفي أفريقيا التي لا تزال حتى الآن منطقة بكرًا بالنسبة لعالم آثار ما قبل التاريخ وجدت بقايا لما قبل الإنسان وهي بالغة القدم لدرجة توحي بأنه ربما كان صحيحًا جداً التقدير الثاقب لداروين بأن إفريقيا ربما كانت المهد الأول للجنس البشري»[2] وتقديره الثاقب وإنما هو ثاقب للحقائق ومفسد لها.

«وأثبت الجيولوجيون أن مدة ظهور الإنسان العامل وتطوره بالمقارنة إلى عمر الأرض هي كيوم بالنسبة إلى ألف سنة، وعلى هذا الأساس حاول علماء الآثار في القرنين التاسع عشر والعشرين أن يرسموا صورة لتطور الإنسان في مدة قصيرة نسبيًا من الوحشية إلى المدنية»[3]، وليس خفيًا أن من أسباب التنقيب عن الآثار عند الآثاريين هو معرفة خط سير التطور البشري[4] بل «إن كثيرًا من علماء اليوم المتخصصين في الآثار وفي طبقات الأرض وتكوينها وفي السلالات البشرية وفي الجغرافيا البشرية وتوزيع السكان يكرسون حياتهم لإعادة تكوين تاريخ العالم. إنهم يعملون دون انقطاع في تصنيف أخبار حياة الإنسان على سطح كوكبنا الأرضي، ويعمل هؤلاء الدارسون والمخبريون العلميون على تجلية الغموض عن أسرار

(١) انظر: الموسوعة الأثرية العالمية، إشراف ليونارد كوتريل، تأليف ٤٨ من علماء الآثار، ص٤١.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩.

(٣) الموسوعة الأثرية العالمية، اشراف ليونارد كوتريل، ص٢٨.

(٤) انظر: الرائد في فن التنقيب عن الآثار، ص٧٨.

الماضي بدلائل ومفاتيح من ذلك الماضي، ويضمون مفاتيحها بعضها إلى بعض في مجهود كي يقفوا على تتابع الحوادث واحدة في إثر أخرى فيعرفوا كيف ارتقى الإنسان»[1].

فهم بهذا قرروا قضية تطور الخلق وحكموا فيها أولاً ثم ها هم يبحثون عن الأدلة فيموهون ويلوون تارة وينكرون تارة أخرى مما يجدون من الآثار حسب ما يناسب إثبات القضية عندهم.

وبقراءة كتب الآثار القديمة تجد فيها مسايرة لنظرية التطور الحيوي والعقدي والمعيشي والأخلاقي وتطور الأدوات والتطور الاجتماعي والثقافي، فالتطور الحيوي أي تطور الإنسان نفسه باعتباره كائنًا حيًا وأنه مر بمراحل متعددة من الأطوار والتقلبات متأثرًا بالبيئة وغيرها، وآخر مراحل تطوره هو الإنسان الحديث الذي نتج من شبيه القرد الذي نتج من القرد على حد كذبهم، أيضًا تطور من ناحية سكنه وعمله فبدأ بالكهوف ثم الأكواخ ثم البيوت، وتطور عمله من الصيد إلى الرعي إلى الزراعة، ثم بدأ يخزن الفائض عن حاجته، ثم تعامل مع الآخرين بالبيع والشراء ثم الحروب بينه وبين بني جنسه، وكذلك في الزرع والصيد والبناء والبيع والشراء، والحروب طور أدواته التي كان يستعملها.

كذلك اللباس كان عاريًا ثم بدأ بالستر شيئًا فشيئًا بالورق ثم بالجلود ثم بالنسيج، وكذلك الأخلاق بعد أن كان مثل الحيوان أصبح له نظم وأعراف وتقاليد وعادات وهذه بدورها وبمجموعها أدت إلى تطور التدين الذي اخترعه وبدأ بعبادة أشياء كثيرة ثم تطور إلى التثنية ثم إلى التوحيد على حد كذبهم وافترائهم وخلطوا بين ما يمكن أن يقبل التطور وما لا يمكن أن يقبله وجعلوا ما يمكن دليلاً على ما لا يمكن.

وحيث أن هذه التطورات تحتاج إلى سند من أدلة تؤيدها اتخذ أصحابها لها نوعين من الأدلة:

الأولى: البحث في الأمم والشعوب المتخلفة الموجودة في هذا العصر في الأدغال

(١) الكربون المشع وغيره، ص٦.

والأحراش المنقطعة عن الناس فإذا توصلوا إلى دليل ولو كان صغيرًا ـ لأحد أجزاء التطور سحب حكمة على بقية الناس وبقية مجالات التطور المفترى بغض النظر عما يقبل التطور وما لا يقبله.

الثاني: وهو المرتع الخصب والمجال الرحب للدجل والكذب والافتراء ألا وهو مجال الآثار وخاصة الموغلة في القدم منها[1].

وهذا نموذج من الإشارة إلى التطور سواء تطور الإنسان أو تطور المجتمعات:

«ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن علم الآثار أوثق وسيلة لجمع مصادر التاريخ الأصلية التي لا يمكن أن يتطرق الشك إلى أصالتها والاعتماد عليها ومع قصر عمر هذا العلم فإنه لا يقل في أهمية منجزاته واكتشافاته العلمية عن العلوم الأخرى فقد استطاعت معاول المنقبين أن تكشف عن حضارات وأقوام قديمة لم يكن يعرف عنها شيء حتى أسمائها فاتسعت بذلك آفاق المعرفة البشرية عن ماضي الإنسان وتطوره في سلم الحضارة منذ فجر حياته في الأطوار الهمجية في عصور ما قبل التاريخ التي شغلت زهاء ٩٩٪ من حياته على هذه الأرض وكيف تدرجت المجتمعات البشرية في تطورها الحضاري إلى أن تحققت تلك الظاهرة العجيبة في ظهور أولى الحضارات الناضجة في أرجاء الوطن العربي وفي مقدمتها حضارتا وادي الرافدين ووادي النيل قبل أكثر من خمسة آلاف عام كما أن علم الآثار أماط اللثام عن حضارات وثقافات أخرى لاحقة، الأمر الذي وضع في متناول أيدي الباحثين في تاريخ الحضارات المادية الأولى الغزيرة لدرس تطور الإنسان ومحاولة الكشف عن القوانين التي تحكم ذلك التطور وتسيير المجتمعات البشرية في تطورها فظهرت دراسات جديدة عن الحضارات هي الدراسات المقارنة مما مكن الباحثين في فلسفة التاريخ من إقامة دراساتهم المقارنة على أسس معتمدة»[2].

(١) انظر في ذلك كمثال الكتب التالية: نشوء الحضارات القديمة، بورهارد درينتيس، وما وراء التاريخ، وليم هاويلز، العصور القديمة، جايمس هنري براستد فويب دوزدقربان وتاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور، د. عيد مرعي، وطرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، طه باقر وعبدالعزيز حميد الباب الرابع وغير ذلك كثير.

(٢) طرق البحث العلمي في التاريخ والاثار، ص١٣٣ ـ ١٣٤.

«وهناك أمثلة كثيرة على الاكتشافات الأثرية سواء كانت من العصور التاريخية أم عصور ما قبل التاريخ ومعظمها كان للصدفة أثر بارز في معرفته والكشف عنه، ولعل أبرز الأمثلة عن عصور ما قبل التاريخ الاكتشافات الحديثة للبقايا العظيمة لفصائل وأجناس وأنواع بشرية لم تكن معروفة سابقًا وقد مد بعضها في عمر ظهور الإنسان والشبيه بالإنسان إلى عدة مئات ألوف من السنين مثل اكتشاف بقايا جنس الإنسان الذي أطلق عليه (Homohadils) وعثر على بقاياه في أولدافيا (في كينيا في عام ١٩٥٩م من جانب «ليكي» وقدر عمره بزهاء المليون والنصف عام) كما عثر على نماذج أخرى للأجناس البشرية القديمة في عدة أجزاء من العالم القديم مما زاد في كثرة أنواع تلك الأجناس وترتب عليه استنتاجات بيولوجية مهمة في تطور الإنسان البيولوجي وظهور الإنسان الحديث»[1].

«إنا ما نعرفه عن آلات العصر الحجري القديم الأدنى يفوق بكثير جدًا ما نعرفه عن الأقوام الذين صنعوا تلك الآلات، فحفريات الإنسان البكر نادرة للغاية ولا يزال هناك كثير من النقاط الغامضة عن الطريق الذي سلكته الإنسانية في تطورها في عصر البليستوسين بل وأيضًا عن الأسلاف الحقيقيين الذين انحدرنا نحن منهم. . .»[2].

وأخذ التطور أحقابًا من الزمن عندهم «فلم يتمكن الإنسان من المشي والتفكير واستخدام الآلات إلا لأن بليونًا من السنين أو ما يقرب منها قد مهدت له سبيل ذلك وقد ساعد هذا التطور على تعقد الكائنات الحية البسيطة كما ساعد فيما بعد الفقاريات الدنيا على تكون مختلف الأبنية كالعينين والمخ والهيكل العظمي التي استطاعت في النهاية أن تتطور في الحيوانات العليا في الدرجة التي تستلزمها الحياة البشرية»[3].

لكن واقعهم المتهافت يرد عليه ابتداء من قولهم: «أما بخصوص بقية العالم

(١) طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، ص٦٨ ـ ٦٩.

(٢) ما وراء التاريخ، لوليم هاويلز، ص١١٤.

(٣) المصدر السابق ص٢٧.

القديم فلا يوجد أي شيء على الإطلاق يتعلق بالأصول القديمة للسلالات الحديثة، ولذا فليس أمامنا لملء هذا الفراغ إلا التخمين والتفكير النظري»[1].

ومن أنواع الإنسان التي جرى تطور ـ على حد زعمهم الباطل ـ فيما بينها مما يذكرونه على خلاف بينهم:

١ ـ إنسان جنوب افريقيا.

٢ ـ إنسان جاوه.

٣ ـ إنسان كهوب بكين أو إنسان الصين.

٤ ـ إنسان روديسيا.

٥ ـ إنسان صولو.

٦ ـ إنسان بلتداون.

٧ ـ إنسان النياندر أو نياندر تال.

٨ ـ إنسان نبراسكا.

٩ ـ الإنسان الحديث أو الإنسان العاقل وأن أول ظهوره في أوربا[2] وهذا يعني أن التطور في أوربا أسبق.

وأصل فكرة التطور تؤدي في الأساس إلى إنكار الخالق «إن الأديان القديمة والحديثة إن اختلفت في كثير من الأمور فهي متفقة على وجود خالق لهذا الكون وقد استقرت هذه الحقيقة في نفوس الناس حتى لم يكن ليخطر في بال أحد أن يدعي غير ذلك ولكن الذي حدث هو أنْ أصاب بعض العلماء نكسة فراحوا ينكرون وجود الخالق ولكي يفسروا وجود هذا الكون اخترعوا **«نظرية التطور»**[3].

معنى التطور المقصود: «إنه يعني ارتقاء الحياة من جهاز عضوي ذي خلية

(١) المصدر السابق، ص١٣٨.

(٢) انظر ما وراء التاريخ، وليم هاويلز، ص١١٤ ـ ١٣١.

(٣) خلق لا تطور، فريق من العلماء، ترجمة د. إحسان حقي، ص٦ ـ ٧.

واحدة إلىٰ أعلىٰ درجات الارتقاء وهو بالتالي: التغيير الذي طرأ علىٰ الإنسان نتيجة حلقات من التغيرات العضوية خلال ملايين السنين»[1] وذلك أنه «حينما خرجت الكائنات الحية من الماء لتعيش فوق اليابسة انقلبت زعانفها أرجلاً وخياشيمها رئات وفلوسها جلداً»[2].

«ويبدو تناقض الآراء بهذا الشأن واضحًا من مطالعة كتاب: الأساس الحيوي لحرية الإنسان للعالم دوبز هنسكي حيث يقول: (لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك حتىٰ العشر الأخير من القرن التاسع عشر بأن التطور أمر واقع) ولكنه بعد صحيفتين من هذا القول يرجع ليقول: (مما لا شك فيه أن المظاهر التاريخية المتممة لحلقات التطور ما زالت غير معروفة تمامًا... ولا نستطيع أن نرىٰ الأسباب التي قررت تطور النوع الإنساني إلا من خلال ضباب) فهو من جهة يؤكد بأن التطور أمر واقع ومن جهة أخرىٰ يعترف بأن المظاهر التي قررت حلقات هذا التطور غير معروفة تمامًا بل إنه يراها من خلال ضباب... وهل يرىٰ المرء شيئًا ثابتًا من خلال ضباب؟!»[3].

والواقع أن نظرية التطور سلكت سبلاً لإقناع الناس منها الآثار والحفريات، ومنها تزييف الصور.

وهذا رد للبروفسور الأمريكي دوان ت. كيش:

«دعوني أورد هنا بعض الاقتباسات والاستشهادات من زعماء نظرية التطور: اعترف جارلس دارون أنه: حسب نظرية التطور لابد من وجود أعداد كبيرة جدًا من الأشكال الانتقالية فلم لا نجدها في طبقات الأرض؟ إن الحلقات الوسطىٰ بين الأحياء الموجودة حاليًا وبين الأحياء المنقرضة يجب أن تكون هائلة إلىٰ درجة لا يصدقها العقل.

وقال البروفسور جورج كايلورد سمبسون من جامعة هارفارد: (إن الفجوات والمراتب والفئات للأحياء المعروفة موجودة علىٰ الدوام وواسعة جدًا)..

(١) المصدر السابق، ص١٣.

(٢) خلق لا تطور، ص١٣.

(٣) خلق لا تطور، ص١٧.

وصرح البروفسور أي. ح. هـ كورنر، من جامعة كمبرج: (انني لا أزال أعتقد - وبشكل حيادي - أن سجل المتحجرات للنبات هو في صالح فكرة الخلق الخاص).

وليس هناك إثبات ولو في نوع واحد فقط يرينا أن نوعًا من الأحياء تبدل وتحول إلىٰ نوع آخر، وكما لاحظ البروفسور كولد سمث من جامعة كاليفورنيا: (إن من المستحسن أن نتذكر جيدًا أنه ما من أحد نجح علىٰ الإطلاق أن يقدم لنا نوعًا، تغير وتحول من نوع آخر نتيجة لتراكمات التغيرات الطفيفة).

لو كان التطور صحيحًا فلماذا لا نرىٰ حاليًا الأحياء المتدرجة عن طريق التطور؟ ألم يكن ضروريًا ظهور أنواع جديدة وأعضاء جديدة وتراكيب جديدة في بنية الأحياء حاليًا؟.

من المؤكد أن عمليات التطور لو كانت قد حدثت في الماضي فعلاً فإن من الضروري دوام عملها اليوم أيضًا... أما التسلسل المزعوم للحصان فهو وليد خيال وليس وليد دليل من المتحجرات إن المتحجرات العائدة لهذه السلسلة لم يعثر عليها في الفترات والأحقاب التي كانت تستوجبها نظرية التطور كما أن الأنواع الرئيسية منها ظهرت فجأة ودون أية حالات انتقالية...

وقد أورد دارون الزرافة كمثال واضح علىٰ الانتخاب الطبيعي فقد افترض أنه نتيجة لقحط شامل فقد تعذر الحصول علىٰ الأوراق الخضراء إلا من قمم الأشجار لذا فإن الزرافات من ذوات الأعناق القصيرة ماتت وانقرضت بينما عاشت الزرافات ذوات الأعناق الطويلة.

ومع ذلك فلم يثبت في أي سجل من سجلات المتحجرات ولا في أي مكان في الدنيا أن زرافة ذات عنق قصير قد وجدت أصلاً أو أنها عاشت في هذه الأرض علىٰ الإطلاق وإلا فماذا حدث للزرافات الشابة من ذوات الأعناق الطويلة.

لم يستطع دارون أن يدرك أن الخصائص الجسدية للنسل والذرية تتقرر ويجري برمجتها بعوامل جزئيات D.N.A لناقلات الوراثة أو المواد الوراثية للوالدين وليس عن طريق مد العنق أو تحريك أو تدريب أي عضو آخر في الجسم[1].

(١) يراجع عن موضوع الوراثة والجينات والكروموزمات، كتاب: الهندسة الوراثية وتكون الأجنة الحقيقية والمستقبل، تأليف، د. صالح عبدالعزيز كريم، دار المجتمع، جدة.

إن غلاف مجلة العلم بتاريخ ٩ كانون الأول سنة ١٩٦٦ يرينا صورة متحجرة خفاش قيل إن تاريخها يعود إلى ما قبل ٥٠ مليون سنة وقد ذكر أنها أقدم متحجرة خفاش ومع ذلك فهي تبدو مثل الخفاش الحالي تمامًا ودون أي فرق . . .

إذن لماذا لا نرى أية علامة أو بينة على أي تطور أو تغير بعد ٥٠ مليون سنة؟! .

وأحسب أن من المستحسن الآن إلقاء نظرة على الشواهد التي قدمها علماء المتحجرات في محاولة إعادة بناء نظرية تطور الإنسان . . .

بالنسبة لإنسان جاوا فقد استدل عليه عند العثور على عظمة فخذ مع قحف وثلاثة أضراس وقد اكتشف هذه العظام ضمن مسافة ٥٠ قدم وفي فترة امتدت سنة كاملة وقد كتم الدكتور ديبوا (مكتشف هذه العظام) مدة ثلاثين عامًا حقيقة هامة هي أنه وجد بالقرب من هذه العظام وفي نفس المستوى من الطبقة الأرضية جماجم بشرية اعتيادية .

إذن فالإنسان الاعتيادي كان موجودًا عندما كان يعيش مخلوق [جاوا] ومن المحتمل أن عظم الفخذ كان يعود لإنسان أما الجمجمة فلإحدى القرود الضخمة .

وقبيل وفاته وبعد أن تغلب ديبوا على جميع شكوكه السابقة التي لازمته في حياته المبكرة غير رأيه وقرر أن إنسان جاوا ربما كان قرد غابون وليس مخلوقًا شبيهًا للإنسان على الإطلاق .

ثم هناك ما أطلق التطوريون عليهما اسم «الحلقتان المفقودتان المذهلتان» وهما إنسان نبراسكا وإنسان بلتداون .

وفي المحاكمة المشهورة التي عقدت في (دايتون ـ تنيسي) حول مسألة التطور قُدِّم (إنسان نبراسك) من قبل أبرز العلماء من أنصار نظرية التطور كشاهد وكدليل على صحة نظرية التطور .

وقد تهكموا وسخروا وضحكوا على «وليم جينز» عندما اعترض على ضآلة الشاهد والبرهان، كان الشاهد الوحيد عبارة عن سن واحدة اعتبرت أنها تعود إلى إنسان ما قبل التاريخ والذي عاش ـ فيما يعتقدون ـ قبل مليون سنة، على أية حال فبعد مرور عدة سنوات وبعد اكتشاف متحجرات أخرى تبين أن إنسان نبراسكا

لم يكن إلا خنزيرًا . . . واعتقد أن هذه هي المرة الأولى التي قلب فيها الخنزير قردًا وذلك بفضل التطوريين ! ! .

في سنة ١٩١٢م قدم «جارلس دواصن» إنسان بلتداون»، كان ما قدمه عبارة عن قطعة من فك وضرسين وجزءًا من جمجمة واعتبرت هذه القطعة العظمية من قبل الإخصائيين والعلماء دليلاً وشاهدًا على مخلوق بين الإنسان والقرد عاش قبل نصف مليون سنة .

ولكن في سنة ١٩٥٣م أميط اللثام عن هذه المهزلة فقد ظهر أن الجمجمة تعود إلى قرد معاصر وأن الضرسين زرعتا قصدًا كما صبغت العظام صناعيًا بقصد تمويه وخداع الجمهور وقد أظهرت السهولة العجيبة التي تم بها خداع أكبر علماء العالم بهذه الحيلة على مدى قوة تأثير الأفكار المسبقة والقناعات المسبقة الموجودة بين علماء التطور»[1] .

وإذا كانت هذه الخدعة قد انطلت على علماء مختصين فغيرهم كثير من باب أولى ستنطلي عليه هذه الخدعة وإذا كانوا قد ضحكوا على بني جنسهم وهم الذين لهم من الأطماع ما لهم في المسلمين وفي بلادهم فنحن لسنا بأكرم عندهم من بني جنسهم فمن باب أولى أن يضحكوا علينا خاصة وأنهم يرومون إفساد إسلامنا وأخلاقنا ﴿ . . .وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ ﴾[2] .

---

(١) في نظرية التطور: هل تعرضت لغسيل الدماغ؟ البروفسور دوان ت. كيش، ترجمة أورخان محمد علي، دار الصحوة للنشر القاهرة، مصر، ص٣٠ـ٣٩، وقد أورد القصة وليم هاويلز في كتابه ما وراء التاريخ فقال:

«ومن الطبيعي جدًا أن يعتبر العلماء «الأجزاء الحفرية» أشياء ثمينة للغاية وأنه لا يمكن بالتالي إخضاع مكوناتها للاختبارات والفحوص القاسية وعلى ذلك فحين أراد الدكتور أو كلي من المتحف البريطاني قسم التاريخ الطبيعي أن يفحص في عام ١٩٥٠م مادة الفلورين الموجودة في فك بلتدون ليحسب مقدار عمره نزع قدرًا ضئيلاً جدًا منها بواسطة مثقب الأسنان، وقد زاد ذلك الفحص الجزئي الناقص من غموض المسألة إذ ثبت منه أن تلك البقايا حديثة نسبيًا في العمر وأصبحت المشكلة في النهاية لا تطاق بالنسبة للدكتور فاينر والاستاذ لجرو كلارك وهما من اكسفورد واستبد بهما الشك المتزايد فأقدما في عام ١٩٥٣ على اختبار ـ تلك الخدعة الموقرة وفحصها لأول مرة على أنها تضليل وتمويه متعمدان وفي نوفمبر من السنة نفسها أمكنهما أن يعلنا أن الفك، رغم كل مظهره القديم، ورغم أسنانه «الآدمية» المتآكلة ـ كان من العظام الحديثة وأن أسنانه بردت بيد آدمية وأن من الواضح أنه كان مجرد قطعة من فك بغام صغير أجري عليها كثير من التعديل والتزييف» ص١٣٦.

(٢) سورة الممتحنة، آية : ٢ .

والعلم التجريبي يمنع التطور، ومهما اختلفت ثقافات الناس إلا أنه يمكن أن يتعلموا خلال جيل واحد بمعنى آخر لو اختير من كل بلدان العالم المتحضر منها والمتخلف الشمال منها والجنوب الشرق منها والغرب الأبيض منها والأسود وما بين كل ذلك ثم شربوا من ثقافة واحدة لأنتج ذلك مثلما يشرب مجتمع واحد من ثقافة واحدة فقابلية التعلم واحدة في السابق من البشر واللاحق.

و «يسير العلم في طريقه إلى اكتشاف كنه أسرار إحدى أعجب المواد الوراثية وهذه المادة توضح إلى حد ما الأسباب التي تجعل الانتقال والإصطفاء الطبيعي وغيرها من العوامل التي يقدمها دعاة التطور غير قادرة على تكييف شكل مخلوق جديد يولد من مخلوق موجود في الحياة بغير شكل والديه.

إن العلماء يفهمون الآن بشكل أفضل الآلية ذات الدقة اللامتناهية التي تسهر بلا توقف على تطبيق قانون الوراثة القاضي بألا ينتج كل جنس إلا مثل جنسه، وقد اتجهت أبحاثهم إلى المادة المعروفة برمز (ADN) الذي يعني الحمض الريبي النووي فاكتشفوا أن هذا الحمض هو الذي يحمل القانون الوراثي للكائنات الحية.

وهذه المادة تعمل كمنظم مجهري يتمتع بذاكرة ويختزن عدداً كبيراً من التصاميم ويخرجها في الوقت المناسب لبناء خلايا كل هياكل النباتات والحيوانات وهذه المادة تركيب كيماوي تصنع منه خلال الإرث، وقد كتب العالم (بلان) بهذا الصدد ما يلي:

(إن مادتك الحمضية الشخصية موزعة خلال جسمك في نحو ٦٠,٠٠٠ مليار جزئية وهذا العدد هو التقريبي الوسطي للخلايا الحية التي يتزلف منها جسم الإنسان البالغ.. والشيء المحير هو أن هذا الجزء بسيط جداً وهو عبارة عن خطين ملتف أحدهما على الآخر بشكل لولبي ومكونين من ذرات مرصوفة بشكل زنجير بمسافات متساوية تربطها أربطة مقرضة.

وهذا الشكل الخيطي لهذا الجزيء عقلاني وهو شبيه بشريط الآلة المسجلة إذ أنه يختزن كمية كبيرة من المعلومات اللازمة طول الحياة وأشرطة (A D N) هي من السكر والفوسفات والأربطة المعترضة هي من مركبات الآزوت.. وإن الأوجه

المختلفة التي تتعاقب على أشرطة (A D N) هي التي تتحكم بالظروف التي تنمي الجسم مثلها في ذلك كمثل الضغط البسيط على شريط المسجلة المغناطيسي استجابة للصوت الصادر إليه، ويقول الدكتور بيدل: لو أردنا أن نعبر بالألفاظ عن أوامر (A D N) المسجلة في خلية إنسانية واحدة لملأنا موسوعة ذات ألف مجلد.

وما دام الـ(A D N) داخل النواة فإنه يظل يعطي الأوامر التي تسبب النمو والهضم وخفقان القلب والأفكار والإحساس منفذاً بذلك البرامج الكامنة فيه منذ أقدم العصور ولا يحدث أي تغيير في هذه البرامج إلا إذا حدث هذا التغيير نتيجة إشعاع أو حادث خارجي أثر في الخلية)...

وقد كتبت مجلة «العلوم الأمريكية» في عددها الصادر في (آب) اغست ١٩٦٣/ تقول بهذا الصدد ما يلي:

(إذا كان هذا القانون في الواقع عالمياً كما يبدو ذلك من هذه النتائج وغيرها يجب أن نستنتج من ذلك بأنه ظل ثابتاً ومستقراً خلال أطول فترة من فترات التطور العضوي أو بمعنى آخر أنه لم يخضع للتغيير قط) بمعنى نسف نظرية التطور وبيان أنها كذب محض.

أما عن نوع الاختلاف الذي تسمح به مادة (A D N) داخل الأنواع فإن مجلة العلوم السنوية لسنة ١٩٦٦ تقول:

لقد قرر علماء الوراثة بأن الصفات الإرثية للأنواع إنما تقوم على الأسس الأزوتية لجزيء (A D N)... ويحمل المورث ما لا يقل عن ألف وحدة قادرة على أن تشكل مادة خيطية طويلة، والمورثات موصوفة على طول الكرموزوم، وخلية الإنسان تحتوي على عشرات آلاف المورثات مجتمعة في ٢٣ زوجاً من الكروموزوم.

وهذه العشرات من الآلاف من المورثات تحوي كل واحدة منها ما لا يقل عن ألف وحدة تستطيع أن تحدث ما لا يحصى من التغييرات داخل النوع الواحد وهذا الأمر يفسر لنا سبب عدم وجود شخصين متشابهين تمام المشابهة في عالم الإنسان..

إن التركيب الكيماوي لمادة (A D N) الموجودة في كل الأجسام الحية يساعدنا

على فهم ظاهرة أخرى كثيرًا ما يعمد إليها علماء التطور لإثبات التطور وهي تشابه هياكل بعض الأجسام فقد دل علم التشريح المقابل على تشابه أشكال كثير من المخلوقات الحية فالضب له عضوان أماميان والطيور لها جناحان والقردة العليا لها ذراعان وهكذا الإنسان وإن مقارنة الهياكل العظمية تثبت تشابه البنية وقد استدل علماء التطور من هذا ـ أيضًا ـ على أن نوعًا من المخلوقات انبثق من نوع آخر بفضل التطور.

بينما قد دلت دراسة جزئيات الـ (A D N) على أن كل المخلوقات الحية تتركب بصورة رئيسية من عناصر كيماوية واحدة وإليكم ما قاله الاستاذ «بلات» بهذا الصدد:

(إن جزئيات الـ (A D N) تتألف من مركب كيماوي واحد ولها مظهر واحد وحجم واحد في الإنسان والكلب والذبابة وعفن الخبز وورقة العشب وهي مع ذلك منسقة بحيث تجعل كل حي يختلف عن غيره. . . فالكلاب تختلف عن الأسماك والطيور، وعفن الخبز يختلف عن أشجار التفاح، والفيلة تختلف عن البعوض). . .

إن الهوة التي تفصل الإنسان عن الحيوان عميقة جدًا ولا سيما من الناحية العقلية فالإنسان وحده من دون سائر المخلوقات يستطيع أن ينمي معلوماته أما الحيوانات فإنها تستطيع أن تتعلم بعض الأشياء ولكنها لا تستطيع أن تتخطى حدًا معلومًا فالطيور تستطيع أن تصنع الأعشاش، والنحل تصنع الخلايا، والكاستور يبني السدود ولكن كل هذه الحيوانات لا تستطيع أن تدخل أي تحسين على صنعها ولا يوجد حيوان استطاع أن يغير معلومات أجداده بل هذا من امتياز الإنسان وحده. .

إن دماغ الإنسان يختلف عن أدمغة بقية الحيوانات وهو يشكل حدثًا جديًا في الحياة، وكل الأجناس البشرية تتمتع بهذه الميزة. . . فأقوام استراليا البدائيين يستطيعون أن يتثقفوا في بحر جيل واحد وهذا يدل على أن الإنسان سواء أكان شرقيًا أم غربيًا متمدنًا أم بدائيًا؛ يتمتع بالقدرات العليا ذاتها وهذا ما أقره العلم، فالهوة إذن سحيقة بين الإنسان والحيوان. . .

وقد أشار العالم بالكيمياء الحيوية «ازاك ايزموف» إلى إمكانات الدماغ الإنساني في مقال كتبه في عدد ٩ تشرين الأول أكتوبر ١٩٦٦ من مجلة نيويورك تايمز بما يلي:

(لقد قرر العلماء بأن الدماغ الإنساني يستوعب في بحر الحياة حتى مليون مليار بحث وأن الدماغ يحوي عشر مليارات خلية سنجابية أو خلية عصبية) فما هي إمكانات كل خلية عصبية؟ يقول أزيموف:

(إن إنسانًا سليمًا وفي عمر ناضج ويتمتع بذكاء عادي يمتلك أكثر من عشرين مليون جزيء من (A D N) في كل خلية عصبية. . فمن البدهي إذن أن تؤلف الـ (A D N) نظامًا قابلاً للحفظ قادرًا على اختزان كل المعلومات والذكريات التي يود الإنسان حفظها؛ لا بل هو قادر على اختزان مليار مرة مما يحتاج إلى اختزانه الآن، إن هذه القدرة العظيمة على التذكر وعلى التصنيف وعلى استعمال المعلومات هي قدرة تفوق كثيرًا حاجة الإنسان الذي تدوم حياته ٧٠سنة أو أكثر بقليل وهذا يوحي بأن الخالق خلق الإنسان وأعطاه هذا الدماغ لكي يعيش حياة أبدية وأما الحيوانات فليس لها هذه القدرة لأنها خلقت لنشاط محدود وحياة محدودة).

وبالتالي فالهوة سحيقة جدًا بين الإنسان وبين الحيوان فلو كانت النظرية التطورية صادقة لما كانت هذه الهوة.

يقول علماء التطور بوجود مراحل للذكاء ولكننا لا نعلم بوجود ذلك قط ويزعم هؤلاء العلماء بأن الإنسان المعروف باسم «إنسان ما قبل التاريخ» والذي قد انقرض ـ كان يمثل الحلقة الوسطى فلماذا عاشت الحيوانات الدنيا مثل القردة بينما انقرض إنسان ما قبل التاريخ المفروض فيه أن يكون أرقى من القردة؟ فهل وجد قط إنسان مثل هذا؟!»[1].

والتطوريون يلوون أعناق الأدلة الآثارية وغيرها، وما لا يتفق إطلاقًا من الأدلة يهملونه.

«يقول البروفسور جون، ن، مور. . . : (في سنة ١٩٦٧ قامت في لندن

---

(١) خلق لا تطور، تأليف فريق من العلماء، ترجمة د. إحسان حقي، ص٨٥ ـ ٩٢.

جمعية الجيولوجيين بالتعاون مع اتحاد الأبحاث البالونتولوجية[1] بنشر كتاب بثمانمائة صفحة اشترك في تأليفه مائة وعشرون من رجال العلم المتخصصين وقد قام هؤلاء العلماء بدراسة وتدقيق المتحجرات الحيوانية والنباتية وصنفوها ضمن ٢٥٠٠ مجموعة والنتيجة التي توصل إليها هذا الكتاب بعد رسم ٧١ شكلاً توضيحًا كانت ما يلي:

أن كل مجموعة من الحيوانات أو النباتات تملك تاريخًا خاصًا بها).

والغريب أن التطوريين يتعمدون عدم الإشارة إلى الحشرات عند شرح نظرية التطور ويتهربون من ذلك مع أن الحشرات تؤلف ٨٠٪ من أنواع الحيوانات والسبب بكل بساطة أن جميع هذه الحشرات بقيت دون أي تغيير يذكر منذ وجودها على الأرض قبل ٣٥٠ مليون سنة...

وقد جاء في التقرير الذي نشرته دائرة الحشرات في وزارة الزراعة في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٣١.

(أن أقدم الحشرات المعروفة تشبه الحشرات الموجودة حاليًا شبهًا تامًا إلى درجة أن علم البالنتولوجيا لا يعتبر هنا ذو فائد كبيرة).

وبما أنها لا تشكل أدلة في صف نظرية التطور بل ضدها لذا فليس من المستحب أبدًا التطرق إليها إذ ليس المهم عندهم إظهار الحقائق كما هي بل الانتصار للنظرية بأي ثمن كان»[2].

ولا يفوت أن أختم هذا الكلام بالاستدلال بقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ...﴾[3].

(١) علم البالونتولوجيا هو علم المتحجرات أي هو العلم الذي يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السابقة كما تمثلها المتحجرات الحيوانية والنباتية، كتاب في نظرية التطور، هل تعرضت لغسيل الدماغ البروفسور دوان. ت. كيش، ص١٣، هامش ١.

(٢) في نظرية التطور: هل تعرضت لغسيل الدماغ، البروفسور دوان ت. كيش، من مقدمة المترجم، ص١١-١٤.

(٣) سورة النور، آية: ٤٥.

وقوله تعالى: ﴿...وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦)﴾[4].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا...﴾[5].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾[6]..

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾[7].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ

(١) سورة الفرقان، آية: ٢.

(٢) سورة يس، آية: ٣٦.

(٣) سورة الزخرف، آية: ١٢.

(٤) سورة النجم، الآيات ٤٥-٤٦.

(٥) سورة فاطر، آية: ١١.

(٦) سورة الذاريات، آية: ٤٩.

(٧) سورة ق، آية: ٣٨.

السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) ﴾[1] .

ورد الإنسان إلىٰ أرذل العمر مسألة مهمة إذ أنها تنقض التطور من قواعده وتخرق سقفه وتخر عليه والرد إلىٰ أرذل العمر يتكرر ويشاهد باستمرار بين الناس والحيوان أيضًا فهو عكس التطور والارتقاء .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ . . . ﴾[2] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾[3] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ . . . ﴾[4] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ . . . إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ . . . ﴾[5] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . . . ﴾[6] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾[7] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ . . . ﴾[8] .

ومما رأيته مناسبًا من الردود أيضاً هذا الرد : «إن علم (البيولوجيا) ليس علمًا عن جوهر الحياة ، إنما هو علم يتعلق بظواهر الحياة ، بالحياة كموضوع ، كمنتج . .

---

(١) سورة الحج ، الآيات : ٥ ـ ٧ .

(٢) سورة الشورىٰ ، آية : ٢٩ .

(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .

(٤) سورة لقمان ، آية : ١١ .

(٥) سورة يونس ، آية : ٤ .

(٦) سورة غافر ، آية : ٦٢ .

(٧) سورة الطور ، آية : ٣٥ .

(٨) سورة الأنعام ، آية : ١٠٢ .

إن قصور علم البيولوجيا عن تفسير الحياة لا يمكن المرور عليه في صمت وأود أن أشير هنا إلىٰ أن الأمر لم يكن مفاجأة بالنسبة لي .

في سنة ١٩٥٠ ، وضع «أندريه جورج» سؤالاً واحدًا لعلماء البيولوجيا والأطباء ، وعلماء الطبيعة هو : ما هي الحياة؟ وكانت جميع الإجابات التي تلقاها حذرة وغير محددة ، ولنأخذ في ما يلي إجابة كل من «بيير لابان» و «جان روستاند» كنموذجين نمطيين : (يظل السر كاملاً ، فنقص معلوماتنا تجعل كل تفسير للحياة أقل وضوحًا من معرفتنا الغريزية بها) .

(حتىٰ الآن لا نعرف علىٰ وجه التحديد ما هية الحياة ، نحن لا نستطيع حتىٰ أن نقدم تعريفًا كاملاً دقيقًا لظاهرة الحياة) .

نظرًا لقدرة الكائن الحي علىٰ تجنب التحلل السريع إلىٰ حالة الاتساق الخامد اكتنفته الأسرار ، حتىٰ إن الناس منذ أقدم العصور كانوا يعتقدون بأن قوة خفية غير مادية خارقة للطبيعة (مقارنة بالروح) تعمل بداخل الكائن الحي ، فكيف يحارب الكائن الحي ضد انهياره؟ . . كل عملية ، أو حدث أو نمو في العالم ، كل ما يحدث في الطبيعة يعني في الوقت نفسه زيادة في قصور الطاقة . . أما الكائن الحي ، فإنه قادر علىٰ استبقاء هذه العملية بمعنىٰ الاستمرار في البقاء من خلال الأخذ المستمر من سلب (القصور في الطاقة) من الخارج . . لذلك ، يمكن القول بأن الكائن الحي يتغذىٰ علىٰ سلب «الانتروبي» .

وقد قال كلامًا من هذا القبيل عالم الحفريات الفرنسي «تيلهارد دي شاردان» : (علىٰ الرغم من كل العوائق يستمر المنحنىٰ من الجزئيات الكبيرة تجاه الكائنات الحية متعددة الخلايا دون توقف ، وهذا واحد فقط من المنحنيات التي تنبثق عليه الحرية ، والتنظيمات الذاتية ، والوعي . . ومن ثم ، فالسؤال هو : هل هناك ثمة علاقة بين هذه الحركة الغامضة للعالم تجاه حالات أكثر تعقيدًا وتجاه الداخل ، وبين الحركة الأخرىٰ (التي درسناها وألفناها جيدًا) والتي تجر العالم نفسه تجاه حالات خارجية وأكثر بساطة؟ . . . ولعل السر الجوهري للكون يكمن في هذا السؤال) .

(إن القدرة التلقائية للخلايا علىٰ خلق الأعضاء والسلوك الاجتماعي لبعض

الحشرات، من بين الحقائق الأساسية التي تعلمناها خلال الملاحظة. ولا نجد لها تفسيراً في ضوء فهمنا الحالي).

كت «كارل جاسبرز» في مؤلفه «علم النفس المرضي» عن خاصية عكس المذكور آنفًا عن الكائن الحي، فقال: (تظهر الحقائق النفسية كأنها جديدة وبشكل يستعصي على الفهم، إنها تأتي واحدة تلو الأخرى، وليس واحدة متولدة من الأخرى، فمراحل النمو النفسي للحياة السوية، شأنها في ذلك شأن غير السوية، تعطي هذا التتابع الذي يستعصي على الفهم، ومن ثم فإن قطاعًا طويلاً في الحياة النفسية لا يمكن فهمه حتى على وجه التقريب، إن الحقائق النفسية لا يمكن دراستها من الخارج، كما أن الحقائق الطبيعية لا يمكن دراستها من الداخل)...

وقال كل من «لويس دي بروجلي» العالم الطبيعي الفرنسي و«نوبل لوريت» في سنة ١٩٢٩ (إننا لا نستطيع أن نفسر الحياة من خلال معرفتنا الراهنة لعلمي الكيمياء والطبيعة).

وأكد عالم الأحياء السويسري «جاينو» بأن هناك فرقًا جوهريًا بين العلاقات (الكيمو ـ طبيعية) وبين الحياة، قال: (على علماء الطبيعة أن يدركوا، أننا نحن علماء الحياة قد اجتهدنا في تفسير الحياة بصيغ طبيعية كيميائية، ولكننا ووجهنا بشيء يستعصي على التفسير، إنها الحياة، لقد أوجدت الحياة شكلاً منظمًا، ليس مرة واحدة فحسب، وإنما ملايين المرات خلال بلايين السنين، إننا نواجه قدرة على البناء لا يمكن تفسيرها بواسطة علم الطبيعة ولا علم الكيمياء).

أما «أندرية لوف» عالم الأحياء الفرنسي الحاصل على جائزة نوبل سنة ١٩٦٥، والمشهور بأعماله في الآليات الجينية للفيروسات والبكتريا، فقد قال: (يمكن تعريف الحياة باعتبارها كيفية، أو مظهراً، أو حالة كائن حي، والكائن الحي نظام مستقل يتكون من أبنية ووظائف يعتمد بعضها على بعض وهي قادرة على التوالد... وقد قيل دائمًا إن الفيروس هو الرابطة بين المواد العضوية والمادة الحية، وفي الحقيقة، لا وجود للمادة الحية، فالخلية تتكون من عناصر: البروتين، والإنزيم، والحامض النووي، وهذه العناصر لبست عناصر حية، الكائن العضوي

هو الحي، وهذا الكائن العضوي، هو أكثر من مجموع أجزائه، لقد نجحنا في تخليق مركب من أحماض نووية فيروسية، وهذا في حد ذاته لا يعطينا الحق أن نتحدث عن تركيبة حياة لأنه في جميع هذه التجارب أُعيد إلى الفيروس عنصر، وهو عنصر جيني خاص بعملية التنوية... وأحيانًا تنبثق الحياة تلقائيًا من حيث لانحتسب... من السهل علينا إنتاج بعض أجزاء البروتين أو الحامض النووي، ولكن حتى الآن لم يصبح من الممكن بعد تخليق كائن حي... توليد بكتيريا واحدة ـ إن هذا لم يصبح بعد في إمكاننا الوصول إليه)....

ويشك «اليكسي كاريل» حتى في قدرة الإنسان على الفهم الكامل للحياة بداخل الخلية، فيقول:

(إن الأساليب التي تستخدمها الأعضاء في بناء نفسها غريبة على العقل البشري.. أكوام من المادة تنبثق من خلية واحدة مفردة، كأن بيتًا بأكمله يبني من طوبة سحرية، طوبة تقوم تلقائيًا بتوليد وحدات أخرى من الطوب... وتنمو الأعضاء بطريقة تذكرنا بما تفعله الجنيات في قصص الأطفال.. إن عقولنا تتوه تمامًا في العالم الداخلي للأعضاء)...

إن الحياة معجزة أكثر منها ظاهرة، انظر على سبيل المثال إلى عين الإنسان مستقرة في تجويف ممتلئ بالدهون، محمية بجفن من أعلى وجفن من أسفل وبها رموش وحواجب، وغشاء مخاطي، وملتحمة مكسوة بغشاء مخاطي، إن حركة العين في كل اتجاه ممكنة بواسطة عضلات متحركة، اثنان منها مستقيمان واثنان منحرفان، ويسهل الحركة جهاز دمعي يتكون من غدة دمعية وكيس دمعي وقناة دمعية، وهذه تحفظ العين رطبة وتحميها من التلوث، وتتألف مقلة العين من ثلاث طبقات: الأولى طبقة مكتزة غير شفافة وهي تتحور إلى قرنية شفافة في مقدمة مقلة العين، والثانية شبكة من الأوعية الدموية تلي بياض العين، يتدفق فيها الدم لتغذية العين، ولكي تؤدي العين وظيفتها توجد طبقة هي أهم جزء في العين، إنها الشبكية حيث توجد الخلايا البصرية ـ على شكل عصيات ومخروطيات ـ موصولة بخلايا ثنائية القطب وألياف يشكل مجموعها العصب البصري، وتمتلئ مقلة العين من الداخل بسائل مائي مرن شفاف. أما العدسة البلورية، فملتصقة بقزحية العين

ومتصلة بجسم هدبي في الجزء الأمامي، وعندما تمر أشعة الضوء خلال القرنية تعدل مسارها لتيسير البؤرة في خلفية العين، حيث تتكون هنالك صورة مقلوبة تنتقل إلى المركز البصري في المخ. وتستقبل كل عين الصورة من زاوية مختلفة، ويستقبل العصب البصري النبضات العصبية من كلا العينين فيحملها إلى وصلات الدماغ الأوسط على جانبي المخ، ثم ترحل على ألياف تمتد إلى الفص القفوي حيث ترى النبضات، والدموع ذات أهمية كبرى في تأدية العين لوظيفتها، تفرزها الغدة الدمعية لتحافظ على القرنية مبللة، ومن بين العناصر التي تتألف منها الدموع مادة تسمى «ليسوزيم» وهي مادة مضادة للبكتيريا تحمي العين من الملوثات، ويتحكم في تدفق الدموع العصب السابع في القحف وهو العصب الوجهي، والدموع، كمبيد للبكتيريا، أكثر فاعلية من أي منتج كيميائي، وهي مادة قادرة على تدمير مائة نوع مختلف من البكتريا، وتبقى هذه القدرة حتى بعد تخفيفها ستمائة مرة.

وبالمثل، للكبد عدة وظائف مختلفة، فهو كغدة، يفرز السائل المراري الذي يساعد في هضم الطعام، إن الكبد مصنع كيميائي لا يجاريه أي مصنع آخر، إنه يستطيع أن يعدل أي مادة كيميائية، وهو عضو ذو قوة هائلة في إزالة السموم، حيث يحلل كثيراً من الجزئيات السامة ويجعلها غير ضارة، وهو مستودع دماء، ومخزن لبعض الفيتامينات، والمواد الكربوهيدراتية المهضومة على هيئة جيلوكوجين، يطلقه الكبد ليحافظ على مستوى السكر في الدم، والكبد معمل لصناعة الإنزيمات، والكوليستيرول والبروتين وفيتامين «أ» وعناصر تخثير الدم، وعناصر أخرى كثيرة، وتحت ظروف معينة يستطيع الكبد أن يستعيد وظيفته «الجنينية» لإنتاج خلايا الدم الحمراء.

إن دماءنا تنقل عناصر الغذاء إلى الأجزاء المختلفة في الجسم، وتحمل الأوكسجين من الرئتين إلى الخلايا، وتحمل إلى الخارج ثاني أوكسيد الكربون من ثلاثين تريليون خلية بجسم الإنسان، علاوة على ذلك، ينقل الدم الهرمون، والأجسام المضادة التي تشكل دفاعتنا الداخلية، ويؤثر الدم أيضًا في تنظيم حرارة الجسم، أما كرات الدم البيضاء فإنها تحطم البكتيريا وتبتلعها وتهضمها، وتفعل الشيء نفسه بالنسبة لجميع الأجسام الغريبة الأخرى غير البكتيرية التي تهاجم الجسم.

يتكون الدماغ من المخ الذي ينقسم إلى نصفين: المهاد، مشتملاً على النخاع المستطيل وجسر من الألياف العصبية تصل فيما بين نصفي الدماغ؛ والدماغ الأوسط مشتملاً على المخيخ والحبل الشوكي، ويتحصن الدماغ بثلاث طبقات: طبقة جافة وطبقة لينة والنسيج الضام، وتتكون كتلة الدماغ من مواد بيضاء رمادية، ويحتوي النسيج الرمادي على الخلايا العصبية، والأنسجة البيضاء هي المحطة النهائية، ويشكل النخاع المستطيل مركز استقبال وترحيل ردود الأفعال ويرتبط مع مراكز المخ العليا بواسطة جسر من الألياف العصبية، ويعني المخيخ بالتوازن، والتآزر العضلي، وتنفيذ الحركات الدقيقة، أما مركز البصر وهو المعروف باسم (الفص القفوي) فإنه يقع في مؤخرة الدماغ، أما المناطق الخاصة بالسمع والشم، فتقع في الفصل الصدغي على جانبي الرأس، إن أبرز شيء ملفت للنظر في الدماغ هو كتلة المخ، لحاؤها الخارجي هو سحاء المخ الذي يتكون من طبقة رمادية من الخلايا العصبية، أسفلها نسيج أبيض، وفي قاعدته مركز إضافي صغير من مادة رمادية يطلق عليها «العقد القاعدية» وليس من اللازم أن تكون «المادة الرمادية أرقى من البيضاء ولا العكس صحيحًا، إنها معنية بتوزيع النبضات عبر اقتران الكروموزومات المختارة، بينما المادة البيضاء تعني بنقل النبضات عبر الألياف العصبية، وهما معًا تساعدان على نشوء الوظائف النفسية الرئيسية والانعكاسات الشرطية، ويبلغ متوسط وزن الدماغ حولي ١٣٠٠ إلى ١٤٥٠ جرامًا، ويحتوي على ١٤ ـ ١٥ بليون خلية.

وتملك الحيوانات أجهزة عادة ما تكون أقوى وأكمل من الأدوات التي في الإنسان، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك: أضواء بعض الحيوانات، وقيثارة الجراد، وصنوج صرار الليل، ومجموعة كبيرة من المصائد والشباك والفخاخ والأصماغ وغيرها... وقد ألف «أندرية تتري» كتابًا كاملاً في هذا الموضوع، هو: «الأدوات عند الكائنات الحية»، وفي هذا دليل على أن التطور لا يتقدم بطريقة عمياء أو آلية كما أعتقد «داروين» إنما التطور يتبع مبدأ النفعية، الاتجاه نحو ما هو نافع للكائن، وفي هذا إشارة إلى فكرة الخلق التي يمكن وجودها في المادة.

لقد وجد لدى الحية ذات الأجراس قدرة على الإحساس بالأشعة فوق الحمراء، وقد أثبت العلماء في جامعة كولورادو بالولايات المتحدة وجود هذا

المكشاف على رأس الحية، وأنه يتكون من أعصاب رفيعة جداً ذات خلايا خاصة تتغير عندما يلمع الضوء عليها، وقد أوضحت التجارب أن رد الفعل عند الحية يحدث في ٣٥ ميللي من الثانية بعد ظهور الأشعة، وهذا رقم قياسي في زمن رد الفعل لأي نظام بيولوجي معروف حتى الآن.

ولدى سمك القرش هوائي كهربائي فوق أنوفها يساعدها على اكتشاف الطعام المختبيء في الرمال بقاع البحر، وترسل جميع الكائنات الحية في البحر موجات كهربية ضعيفة يستطيع القرش التقاطها بواسطة هذا الهوائي الحساس.

أما الدكتور «الكسندر جوربوفسكي» وهو عضو بأكاديمية العلوم السوفيتية، فقد عاد يتبنى الفكرة القديمة التي دعمها «أينشتين» مع آخرين والتي تذهب إلى أن هناك بعض السمات الملغزة في تركيب الكون والمادة، وسأقتبس في ما يلي بعض الشواهد الهامة من الكتاب:

آلاف كثيرة من النمل الأبيض تتعاون في بناء جبل من النمل[1]، وعندما يكتمل، إذا به بناء بالغ التعقيد فيه مساحة كبيرة من الأنفاق، وفيه مخازن للأخشاب، وحرجات للبيض... إلخ.

وقد أجرى الاختبار التالي قُسّم جبل النمل إلى قسمين منفصلين تماماً، بينما كان لا يزال في مراحله الأولى من البناء، وبرغم ذلك استمر البناء بنجاح، فأقيمت كل الممرات والأنفاق والمخازن في كل قسم منهما بالطريقة نفسها تماماً بل أكثر من هذا أنشئت بينهما وصلات مشتركة.

وقد نظن أن كل نملة كانت على علم كامل بعمل لجارتها في القسم الآخر، لأنهما عملا تماماً بالأسلوب نفسه، ولكن الواضح لنا أنها لم تكن تعلم شيئاً عن عمل جارتها، لأنه لم يكن هناك اتصال بينهما، فدعنا نحاول تفسير هذه الظاهرة.

من الواضح أن كل نملة مفردة ليس لديها معلومات عن التصميم الكلي لجبل النمل، وإنما تعرف كل نملة فقط جزءاً من العملية الكاملة التي تساهم فيها، وعلى

(١) جبل النمل يبنيه النمل بأجسامه فهو نفسه لبنات البناء، وفي هذا تزداد حيرة العقل وتتجلى المعجزات (المترجم).

ذلك، قد نستنتج أن النمل في مجموعة فقط لديه المعلومات الكاملة بمعنى آخر أن الأفراد كأعضاء في مجموعة يملكون «معرفة عظيمة» أما باعتبارهم أفراداً، فإنهم لا يملكون شيئاً..

ساد اعتقاد لفترة طويلة من الزمن بأن أسراب الطيور المهاجرة في طريقها إلى المناطق الدافئة تقودها الطيور الأكبر سناً والأكثر خبرة، ولكن الحقائق لم تؤكد هذا الاعتقاد، فقد وجد البرفسور «جامتو هيروسوكي»، وهو عالم طيور ياباني أن السرب من الطيور ليس فيه طائر يقوده، وإذا حدث أن طائراً وجد في المقدمة، فإنه ليس بالضرورة قائد السرب، بل نرى أحياناً في المقدمة طائراً صغيراً...، والظاهر أن مثل هذا الطائر لا يعرف الطريق التقليدي ولا يستطيع توجيه الطيور الأخرى التي تعرف طريقها جيداً[1].

ويمضي «جوربوفسكي» قائلاً:

من الحقائق المعروفة من وجهة النظر البيولوجية أن العلاقة بين المواليد الذكور والإناث متساوية فإذا اختلت هذا العلاقة السوية تظهر تلقائياً عملياً لإعادة التوازن من جديد.

فإذا نقص عدد الإناث في مجتمع، فإن عدداً أكبر من الإناث يولد، وإذا كان لدينا عدد أقل من الذكور، فإن عدد المواليد الذكور سيزيد بالتالي... وهكذا تستمر العملية حتى يستعاد التوازن...

ومن البين أن الكائن الحي الفرد مستقل ولا يمكنه أن يؤثر على جنس مواليده، بمعنى آخر، إننا ـ مرة أخرى ـ أمام ظاهرة ذات قوانين خاصة بها... نحن مرة أخرى نواجه بتأثير يأتي من خارج كل كائن حي مفرد...

هذه الظاهرة مألوفة للجنس البشري، ويسميها علماء السكان «ظاهرة سنوات

(١) ثبت أخيراً أن الطيور تأخذ في طيرانها شكل مثلث زاويته تتجه للأمام مما يخفف في الجهد المبذول منها لأن من في المقدمة يخترق الهواء ثم ينقسم حسب ميول جسده وأجنحته وتتناسق بقية الطيور على ذلك الميول والله أعلم.

الحرب» حيث يقتل أثناء الحروب رجال كثيرون، ولكن سرعان ما تزيد نسبة المواليد الذكور حتىٰ يستعاد التوازن.

هذه الأمثلة السابقة أخذت من أول كتاب دراسي في علم الأحياء هذه المعجزات الحقيقية في الطبيعة يفسرها الدين باعتبارها أفعالاً لله سبحانه وتعالىٰ، ويمكن اختصار جميع التفسيرات العلمية في هذا المجال بأنها معجزات خلقت بذاتها - أليست هذه خرافة غزت عقل الإنسان؟ أن تطلب من شخص ما أن يتقبل عقله أن شيئًا علىٰ درجة من الكمال والتعقيد كعين الإنسان أو عقله قد وجد بمحض الصدفة»، يشبه أن تطلب من شخص أن يقبل بأن الأساطير الإغريقية حقائق واقعة.

ماذا إذن عن «المادة ذاتية التنظيم» و «الخلق الذاتي» لجميع تلك الأنظمة شديدة التعقيد، التي يمتلىء بها العالم الحي؟ دعنا ننظر في «التنظيم الذاتي» أو «الخلق بالصدفة» لجزيء واحد من البروتين، وهو المادة الأساسية لجميع الكائنات الحية المعروفة لنا.

لقد حاول «تشارلز يوجين جاي» عالم الطبيعة السويسري أن يقوم بحساب احتمالية الخلق بالصدفة لجزيء واحد من البروتين، ومن المعروف أن جزيء البروتين يتكون من أربعة عناصر مختلفة علىٰ الأقل، ولكي يبسط الحساب افترض «جاي» أن الجزيء البروتيني مكون فقط من عنصرين فحسب من ٢٠٠٠ ذرة بوزن ذري (١٠) وبعدم تناظر للجزيء من (٩ , ٠)، بهذه الشروط المبسطة قدر «جاي» احتمال خلق البروتين «بالصدفة» يبلغ (٢٫٠١ X ١٠ ـ ٢٣١)، فإذا أخذنا هذه النتيجة في الاعتبار في إطار عمر حجم كوكبنا الأرضي، فإن خلق مثل هذا الجزء قد يستغرق ١٠٢٤٣ بليون سنة تحت ظروف ٥١٠١٤ اهتزازه في الثانية، وتبعًا لذلك، لا يوجد إمكانية أن الحياة قد نشأت بالصدفة خلال ٤٫٥ بليون سنة التي يفترض أنها عمر الأرض.

وقد أعاد هذا الحساب «مانفريد إيجن» من «معهد ماكس بلانك لكيمياء الطبيعة الحيوية «في جوتنجن بألمانيا والحاصل علىٰ جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٦٨، فأثبت أن جميع المياه علىٰ كوكبنا ليست كافية لكي تنتج بطريق الصدفة جزيئًا

بروتينيًا واحدًا، حتىٰ لو كان الكون كله مليئًا بمواد كيميائية تتحد بعضها مع بعض بصفة دائمة، فإن البلايين العشرة من السنين منذ نشأة الكون لم تكن كافية لإنتاج أي نوع من البروتين، في مواجهة هذه الحقيقة، صاغ «يوجين» هذه الفرضية: التطور قبل الحياة ويعني «الحياة قبل الحياة» كما يطلق علىٰ هذه النظرية، نسب «يوجين» إلىٰ الحامض النووي قدرة علىٰ الحياة وهو بهذا ينسب إلىٰ المادة مبدأ التنظيم والاختيار والتكيف مرة واحدة، وهو مبدأ لا يدخل في تعريف المادة علىٰ الإطلاق...

وقال العالم الروسي «بلاندين» لو أن مليون معمل علىٰ الأرض عملت لبضعة ملايين من السنين في تركيب العناصر الكيمائية، فإن احتمال خلق حياة في أنبوبة اختبار ستكون شيئًا نادرًا، وطبقًا لحساب «هولدن» فإن الفرصة هي (١ إلىٰ ١٠ ١٣١).

هذا هو الأمر بالنسبة للتنظيم الذاتي لجزيء من البروتين الذي إذا قورن بكائن حي، فإنه يشبه طوبه إذا قورنت بمبنىٰ كامل.

إن العلم - وخاصة بيولوجيا الجزئيات - قد استطاع أن يضيق الثغرة الهائلة بين الحياة والمادة الميتة، ولكن بقيت الثغرة الصغيرة مستحيلة العبور، ولا شك أن الاستخفاف بهذه الثغرة يعتبر خطأ علميًا، ومع ذلك، فهذا هو الموقف الرسمي للمادية.

فكيف يمكن تفسير التباين الظاهري التالي: إذا وجدنا في اكتشاف أثري حجرين موضوعين في نظام معين أو قطعا لغرض ما، فإننا جميعًا نستنتج بالتأكيد أن هذا من عمل إنسان في الزمان القديم، فإذا وجدنا بالقرب من الحجر جمجمة بشرية أكثر كمالاً وأكثر تعقيدًا من الحجر بدرجة لا تقارن، فإن بعضًا منا لن يفكر في أنها من صنع الله، بل ينظرون إلىٰ هذه الجمجمة الكاملة أو الهيكل الكامل كأنهما قد نشآ بذاتهما أو بالصدفة - هكذا بدون فعل الله الخالق الباريء المصور - أليس في إنكار الإنسان لله هوىٰ بين؟»[1].

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، ٦٦ـ٧٨ بتصرف.

• علم الآثار يستغل لترويج العلمنة والإلحاد:

العلمنة والإلحاد بمعنىٰ إلغاء ومحاربة الدين والتدين أيًا كان من الحياة لكن ذلك لا ينادىٰ به دفعة واحدة ولا يمكن أن يتحقق أيضًا دفعة واحدة.

لكن بإسقاط قيمة الدين والتدين وتمكن ذلك عند الناس مع مرور الوقت وبالتدريج سينتهي إلىٰ الإلحاد.

ولكثير من القائمين علىٰ الآثار طرق شتىٰ للوصول إلىٰ ذلك الهدف منها.

١ ـ أن الآثار تبحث عن تطور البشر كمجموعات وسلالات وأصول وأجناس وتطور البشر من ناحية حيوية «بيولوجية» أي أصل الإنسان وأنه نشأ من حيوان أقل إلىٰ أن ينزل في دركات الإنحطاط ويوصف أنه من جرثومة إلىٰ آخر ما يقولون مما يعني إنكار الخالق سبحانه وتعالىٰ وبسط هذا في غير هذا الموضع.

كذلك البحث عن تطور البشر كحضارات نشأت في أزمنة متعاصرة أومتفاوتة وأخذت بعض حضارات الأمم من بعضها الآخر ولا يألوا الأوربيون جهدًا لإثبات تفوقهم الحضاري الجاهلي قبل حضارة الإسلام وبعدها في العصر الحديث.

ومن خلال التنقيب والبحث في آثار الحضارات يظهرون بتحاليل تقوي ما لديهم من أفكار مسبقة ومن ذلك: الاستدلال من الآثار تخمينًا بالعلاقة الطردية بين سلطة الدين التي يمثلها الكهنة وسلطة المادة التي يمثلها الملك أو رئيس القبيلة وأنه كلما وجدت سلطة دينية حصل تردي وتخلف حضاري وكلما ابتعدت السلطة الدينية كلما أمكن التقدم والازدهار وأنه متىٰ ما تسلمت السلطة الدينية سدة الحكم فهو بداية سقوط الدولة وتدهورها واضطرابها[1] وهذه الاستنتاج مأخوذ عند الغربيين من المقارنة بين حكومات عصور أوربا المظلمة التي يقودها البابوات وبين حكومات أوربا الحديثة التي نحي فيها سلطان الكنيسة الكهنوتي الوثني وتولىٰ القيادة حكم علماني مما يعني عند دارسي الآثار والمطلعين عليه أن الحكم متىٰ ما كان مربوطًا بالدين فإنه لن تقوم لدولة تفعل ذلك قائمة ولن تستطيع أن ترقىٰ في سلم الحضارة بل إن ذلك الارتباط سيكون سبب نكستها وذلها وترديها إقتصاديًا وصناعيًا وستزداد فقرًا وحاجة وتخلفًا في شتىٰ مجالات الحياة.

(١) انظر نشوء الحضارات القديمة، بورهاريرينتيس، ص١٤٣.

لكن إن صح هذا في كثير من تجارب الحضارات والديانات إلا أنه لا يستمر فيها هذا من جهة فلا يشكل قاعدة.

ومن جهة أخرىٰ فإن الحضارة الإسلامية وما وصلت إليه من رقي في البناء والصناعة والحرف والزراعة والري والجسور والهندسة وعلم الميكانيكا والرياضيات والفلك والجغرافيا والكيمياء والطب والتخطيط وغير ذلك قد تم مع ارتباط سياسة الدولة بالدين في عصور الإسلام كعصر الخلفاء الراشدين وعصر بني أمية والعصر العباسي فهي مختلفة عن بقية الحضارات الجاهلية الوثنية والسبب في ذلك أن العلوم التجريبية جميعها وما تحمله من نواميس وقواعد قد صنعها وخلقها من أنزل الدين الإسلامي علىٰ عباده فهو سبحانه وتعالىٰ الذي شرعها جميعًا وهو خالق العقل ومنزل الوحي ولا تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح.

فما يصح علىٰ الحضارات الوثنية الجاهلية وأديانها في مثل هذه الأمور لايمكن أن يقاس عليها الحضارة الإسلامية والدين الإسلامي إذ أن كثيرًا من الديانات الوثنية ضد العلم والعلماء لأنه يقوض سلطانها لكن العلم لا يقوض سلطان الإسلام بل إن الإسلام يشد أزر العلم وكثيرًا ما يشير الإسلام في الكتاب العزيز وسنة المصطفىٰ ﷺ إلىٰ حقائق علمية.

٢ ـ كذلك ترسخ العلمنة والإلحاد بطريقة ماكرة وهي:

أنه يوجد بقايا ورواسب في الجاهليات من وحي الرسل السابقين مثل قصة الطوفان وأصل الخلق ونحو ذلك.

فيؤخذ هذا التوافق الموجود في ثنايا الجاهليات المختلفة مع ما يوجد من أساطير وخرافات أيضًا متكررة فيها علىٰ أن الجميع خرافات وأساطير وليس لها أصل صحيح، وبطبيعة الحالة العقل لا يقبل الأساطير ولا الخرافات كصراع الآلهة الذي يذكر كثيرًا عن كثير من الحضارات الجاهلية.

فإن العقل لا يمكن أن يقبل بذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وكمثال علىٰ استخدام بقايا وحي الرسالات علىٰ خرافة الأديان ما يأتي:

(١) سورة الأنبياء، آية: ٢٢.

«أما في المجال الديني فيبدو التأثير ـ أي الرافدي[١] ـ واضحًا في كثير من الأفكار والمعتقدات التي لا زالت تعيش بين ظهرانينا فالتصور الرافدي أن الماء هو أصل الخلق دخل مثلاً في قصة الخلق في سفر التكوين وأن الكوارث والأمراض ليست إلا عقوبة إلهية وأن على الإنسان أن يتحمل الألم والعذاب بصبر لها ما يقابلها في التصورات الدينية الرافدية»[٢].

فمعنى كلامه: أن التصور الرافدي هو أن الماء هو أصل الخلق، وأن التوراة أخذت ذلك من ديانات الرافدين يعني في الأسر البابلي الذي تعرض له اليهود إذ يقول الدكتور آرثر روبن أستاذ علم الاجتماع بالجامعة العبرية بالقدس: «إن علماء الكتاب المقدس كلهم مجمعون على أن العهد القديم (التوراة) جرى وضعه خلال وبعد النفي إلى بابل»[٣] وهو يتكلم عن ذلك على أساس أنها اعتقادات من إنتاج بلاد الرافدين فإذا ربطت ذلك بقوله تعالى: ﴿ ... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... ﴾[٤] ستلحظ أنه يشير إلى خرافة الإسلام أيضًا وأن الإسلام أخذ من اليهود لكن ذلك بطريقة ذكية خفية وأن الأديان جميعها متساوية بوجود الخرافات والأساطير ولا مانع من أن تتساوى جميعًا بنبذها وإقصائها ولم يلتفت إلى ما في الأديان من بقية الرسالات.

٣ ـ كذلك من طرق الدعوة إلى العلمنة والإلحاد بين المسلمين أيضًا:

أن التماثيل التي تستخرج من الآثار والصور تحاط بتحليلات واستنتاجات من التقديس والعبادة مع بيان سبب ذلك وبناءه على اعتقادات شخصية وأوهام وتخيلات وجدت في مخيلة أصحاب تلك الحضارات الوثنية القديمة ويسندون آراءهم تلك بتصاوير يستشف منها تقديس بعض الناس لملوكهم أو لكهنتهم وطلب النصر منهم أو الماء أو إنبات الزرع أو طلب النسل مع ما يصاحب ذلك من صور تفسر بأنها تقديم قرابين للآلهة.

---

(١) الكاتب يتكلم عن حضارة وادي الرافدين منذ أقدم العصور حتى ٥٣٩ ق. م.

(٢) تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق. م ص١١ ـ ١٢.

(٣) الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي د. عبد العظيم المطعني، دار الوفاء، المنصورة، مصر ١٤٠٧هـ ص٥٥.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.

ولا يشك كثير من القراء بأن ذلك محض استغلال مبني على خرافات لكن كثير من المسلمين يجد أوضاعًا مشابهة في محيطه في بلاد المسلمين وذلك حيث يوجد الصوفية والشيعة فإن لهم قبورًا ولهم أولياء سواء أحياء أو أموات يعاملهم مريدوهم وأتباعهم كما هو الحال في معتقدات الوثنيات الجاهلية القديمة بل إنه في الصوفية والشيعة أشد وأقوى وأوضح وهما أي التصوف والتشيع بوضعهما الوثني محسوبان على الإسلام فإذا قدما للناس على أنهما الإسلام واستقر في نفوس كثير من المسلمين ذلك فما الفرق بين التصوف والتشيع بهذه الحالة وبين الوثنيات الجاهلية القديمة التي لقن قارؤها بواسطة علم الآثار بأن ذلك محض خرافات وأوهام فيكون الناتج أن الإسلام المستقى من التصوف والتشيع مماثل لتلك الوثنيات الخرافية وعليه فيحكم على الجميع بالتخريف وأنهما يستحقان النبذ والترك على السواء علمًا أن بلاد المسلمين إلا القليل منها إن سلمت من التشيع لم تسلم من التصوف.

أخبار ومعلومات من الآثار تخالف صريح القرآن من ذلك قول بعضهم:

«وقد اتجه (اخناتون) نحو التوحيد في العبادة وآمن بالله أحد لا شريك له تمثله في قرص الشمس (اتون) الذي يرسل أشعته الذهبية على كل ما في الكون، حاملة الحياة والنور والضياء.

وهو أول من نطق بالشهادة، وأول من آمن بوحدانية الله تبارك وتعالى وكان يردد وهو يتعبد (أحد أحد لا شريك له) قضى إخناتون معظم أيام حكمه في محاربة (آمون) إله الدول القديم، وفي القضاء على نفوذه وعلى سلطة الكهنة وفي التبشير بالدعوة للدين الجديد.

لقد كان هذا الدين الجديد مظهرًا لاتساع أفق الفكر عند المصريين كما كان أول دعوة للتوحيد عرفها التاريخ»[١].

واخناتون هذا هو أحد ملوك مصر في زمن الفراعنة ولد ١٣٨٨ ق. م وتوفي وهو في الثلاثين من عمره ١٣٥٨ ق. م وحكم سبعة عشر عامًا[٢].

---

(١) تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى، توفيق أحمد عبدالجواد، دار وهدان للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٩٧١م ١/ ١٢، وانظر معجم المصطلحات الأثرية، ص٢٥، مادة اخناتون.

(٢) انظر تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى، ص٩٩، ١٠٣.

وانظر إلى الجرأة عند قوله: «وهو أول من نطق بالشهادة وأول من آمن بواحدانية الله» ثم إن في كون هذا التوحيد مظهراً لاتساع الفكر عند المصريين إشارة إلى أن الدين عند بلوغه التوحيد هو قمة الارتقاء والتطور في التدين بفعل الإنسان الذاتي وهو يخدم هذه النظرية والتي ترى أن الإنسان كان يعبد كل شيء ثم اقتصر على أشياء ذات نفوذ ثم بعد ذلك يصل إلى التوحيد فالمسألة عنده تطور: وثنية ثم شرك ثم توحيد.

وأين هذا من قوله تعالى: ﴿...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾[1].

وأين هذا من آدم عليه السلام أبو البشر وعشرة قرون من ذريته كلهم على التوحيد[2] قال سبحانه وتعالى عن آدم عليه السلام: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾[3] وأين هذا من نوح عليه السلام ومن آمن معه وهو الذي دعا قومه لتوحيد الله قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣)﴾[4].

كذلك مما يغيره الآثاريون ما ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى عن ثمود قوم صالح عليه السلام وأنهم ينحتون من الجبال بيوتًا قال الله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾[5].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ

(١) سورة فاطر، آية: ٢٤.

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٣٧.

(٤) سورة نوح الآيات ١ ـ ٣.

(٥) سورة الأعراف، الآيات: ٧٣ ـ ٧٤.

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)﴾[1].

وورد في تفسير ذلك من اتخاذ القصور في السهول والبيوت في الجبال:

«اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف ونقبوا في الجبال للشتاء»[2] مع وضوح الآية في هذا المعنى وأن البيوت ليست قبوراً لكن الآثاريين يطمسون الحق ويعارضون القرآن ويقولون إن مدائن صالح التي في الجبال ليست إلا مقابر كانت تستعمل للدفن وينفون أنها كانت مساكن[3].

ويلحق بذلك اتخاذ الآثار دليلاً ومسوغًا لأمور مخالفة لآداب الإسلام وقواعده «ومن أعجب مايلجأ إليه دعاة الاختلاط في بعض دعاياتهم أنهم يعارضون الإسلام بما جري عليه العرف عند بعض البائدين كالفراعنة أو بمذاهب بعض الدراسات الاجتماعية والنفسية الحديثة ومعارضة الإسلام بهذه أو بتلك لاتصدر إلا من جاحد بالله ورسالاته وكتبه... وقد قطع الإسلام ما بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين أبيه وقطع ما بين نوح عليه السلام وبين ابنه وبين لوط عليه السلام وبين زوجته فكيف لا يقطع الإسلام ما بيننا وبين الكفار من الفراعنة ـ وأمثالهم ـ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾[4]»[5].

كذلك مما يعارض به القرآن من الآثار الطوفان وأنه محض خرافة وجدت في التوراة نقلاً عن حضارات وخرافات وادي الرافدين أو تهوينه والإقلال من شأنه، وأشد منه اتخاذ الآثار دليلاً للتطور ونفيًا وإنكاراً أن الله هو الخالق مع ضعف

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٤١ ـ ١٥١.

(٢) زاد المسير في علم التفسير ٣/ ١٥٣.

(٣) انظر: علم الآثار جمال عبدالهادي، ص٦١، وانظر: المعالم الأثرية في البلاد العربية ٢/ ١٥٢.

(٤) سورة التوبة، آية: ٢٣.

(٥) حصوننا مهددة من داخلها. ص٨٦.

الاستدلال وسفاهته ويمكن تبين الغطرسة والكبر والبهتان والجحود من «التباين الظاهري التالي: إذا وجدنا في اكتشافٍ أثريٍ حجرين موضوعين في نظام معين أو قطعا لغرض ما فإننا جميعًا نستنتج بالتأكيد ان هذا من عمل إنسان في الزمان القديم فإذا وجدنا بالقرب من الحجر جمجمة بشرية أكثر كمالاً وأكثر تعقيدًا من الحجر بدرجة لا تقارن فإن بعضًا منا لن يفكر في أنها من صنع الله بل ينظرون إلى هذه الجمجمة الكاملة أو الهيكل الكامل كأنهما نشآ بذاتهما أو بالصدفة هكذا بدون فعل الله الخالق الباريء المصور أليس في إنكار الإنسان لله هوىً بين»[1].

ومعارضة القرآن يراد بها إنكاره وتكذيبه والله سبحانه وتعالى هو الذي تكفل بحفظه قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[2].

وقد تحدىٰ الجن والإنس أن يأتوا ولو بسورة من مثله حتىٰ ولو اجتمعوا فلن يأتوا بمثله أبدًا.

وإن طالب الحق النزيه المتجرد ولو كان من أي ملة ليجد فيه دلائل الصدق وصحة النسبة إلى الله تعالىٰ ومن الدلائل تلك الآيات الدالة علىٰ دقائق علوم لم تكن معروفة من قبل نزوله عند البشر ولم تنقلها كتب الأقدمين.

بل إن بعضها لم يعرف إلا في هذا العصر الحديث عند تقدم العلم والوصول إلىٰ دقائق الأشياء عن طريق المناظير ومقاييس الأشعة مما لم يكن موجودًا من قبل من تلك الأجهزة.

ومن العلوم التي تضمنها القرآن الكريم ما يأتي:

١ ـ أطوار الجنين الآدمي في بطن أمه:

قال: «البروفيسور كيت ل. بور أحد كبار العلماء في العالم في مجال التشريح وعلم الأجنة طلب منه أن يكون مستشارًا علميًا لإبداء رأيه من الجانب العلمي حول بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بمجال تخصصه.

هذا الاستاذ مؤلف لكتاب (The Developing Human) (أطوار خلق الإنسان) وهذا الكتاب مترجم بثمان لغات...

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص٧٨.

(٢) سورة الحجر، آية: ٩.

وعندما طلبنا[1] منه أن يبدي رأيه فيما سمع من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية إندهش وأعلن دهشته هذه، كيف يكون لمحمد ﷺ قبل ١٤٠٠عام أن يصف الجنين وأطواره هذا الوصف الدقيق الذي لم يتمكن العلماء من معرفته إلا منذ ثلاثين عامًا؟ وسرعان ما تحولت دهشته إلىٰ إعجاب بهذا البيان وهذا الهدي فتبنىٰ هذه الآراء في المجامع العلمية وقدم محاضرة بعنوان مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة... وتحدث الدكتور مور فقال: لقد أسعدني جدًا أن أشارك في توضيح هذه الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الخلق في القرآن الكريم والحديث الشريف. ويتضح لي أن هذه الأدلة حتمًا جاءت لمحمد من عند الله لأن كل هذه المعلومات لم تكتشف إلا حديثًا وبعد قرون عدة وهذا يثبت لي أن محمدًا رسول الله..

وأخيرًا قدم كيت مور ثلاث حلقات في التلفزيون الكندي عن التوافق بين ما ذكره القرآن قبل ١٤٠٠ عام وما كشف عنه العلم في هذا الزمان.

وعلىٰ أثر ذلك وجه له هذا السؤال: يا أستاذ مور معنىٰ ذلك أنك تؤمن بأن القرآن كلام الله؟ فأجاب: لم أجد صعوبة في قبول هذا...

يقول البروفيسور كيت مور في كتابه تحت عنوان: العصور الوسطىٰ: كان تقدم العلوم في العصور الوسطىٰ بطيئًا ولم نعلم عن علم الأجنة إلا الشيء القليل، وفي القرآن الكريم الكتاب المقدس لدىٰ المسلمين ورد أن الإنسان يخلق من مزيج من الإفرازات من الذكر والأنثىٰ وقد وردت عدة إشارات بأن الإنسان يخلق من نطفة من المني ويبين أيضًا أن النطفة الناتجة تستقر في المرأة كبذرة بعد ستة أيام والمعروف أن البيضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت في الانقسام تبدأ في النمو بعد ستة أيام من الإخصاب ويقول القرآن الكريم: إن النطفة (المني) تتطور لتصبح قطعة من دم جامد (علقة) وأن البيضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت بالانقسام أو أن البيضة التي بدأت بالانقسام أو الحمل المجهض تلقائيًا يمكن أن تشبه العلقة ويمكن رؤية مظهر الجنين في تلك المرحلة يشبه العلقة. ويكون مظهر الجنين في هذه المرحلة يشبه شيئًا ممضوغًا كاللبان... وكأن فيها آثار الأسنان التي مضغتها...

لقد كشفت الدراسات المكثفة للقرآن والحديث خلال السنوات الأربع الأخيرة

(١) هذا الكلام لمؤلف الكتاب الذي نقلت منه النص.

جهاز تصنيف الأجنة البشرية الذي يعتبر مدهشًا حيث أنه سجل في القرن السابع بعد الميلاد فيما يتعلق بما هو معلوم من تاريخ علم الأجنة لم يكن يعرف شيء عن تطور وتصنيف الأجنة البشرية حتى حلول القرن العشرين ولهذا السبب فإن أوصاف الأجنة البشرية في القرآن الكريم لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع[1].

الاستنتاج الوحيد المعقول هو أن هذه الأوصاف قد أوحيت إلى محمد ﷺ من الله إذ ما كان له أن يعرف مثل هذه التفاصيل لأنه كان أميًا ولهذا لم يكن قد نال تدريبًا علميًا»[2].

وانظر إلى قوله الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. الآية﴾[3].

٢ ـ وهن بيت العنكبوت:

حيث «أن بعض العناكب تنسج خيوطًا دقيقة جدًا إذ أنها تنسج بيتها من خيوط، كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه، وكل واحد من هذ الخيوط الأربعة مؤلف من ألف خيط، وكل واحد من الألف يخرج من قناة خاصة في جسم العنكبوت... وذكر بعض العلماء الألمان الباحثين في هذا الميدان أنه إذا ضم أربعة بلايين خيط إلى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته مع العلم أن متوسط قطر شعرة اللحية لا يتجاوز ١ , ٠ مليمتر.. وهكذا تتجمع الخيوط لتنشأ مسكنًا ومصيدة للعنكبوت... يقول الله تعالى: ﴿...وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[4] وقد توصل البحث العلمي من تحليل وتجزئة حقيقة وهن بيت العنكبوت كما أسلفنا فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحد المعروف في الدقة وتناهت في التجزئة»[5] وغير ذلك كثير.

(١) يقصد القرن الميلادي السابع الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم.

(٢) إنه الحق: معجزة العصر تتجلى في محاورة علمية مع ١٤ من رواد العلوم المعاصرة في شتى الآفاق، طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة ص: ٤ ـ ١٩.

(٣) سورة الحج، آية: ٥.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤١.

(٥) العلوم الطبيعية في القرآن، يوسف مروة، دار ومكتبة الهلال، منشورات مروة العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧هـ ـ ١٩٦٨م ص٢٠٩ ـ ٢١٠ بتصرف يسير.

ومن جهة أخرى: استخدمت الآثار قسرًا وليًا لإثبات نظرية التطور بأنواعه التي يزعمون كالبيولوجي ـ أي تطور الكائن الحي من حيوان لآخر ـ أو تطوره الاجتماعي والذي يجعلون الدين أحد أجزائه ـ أو تطوره الحضاري من نشوء الحضارات بدءًا بالتجمعات ثم الإمارات ثم الممالك وهم بذلك يجعلون الحياة كلها تطور وهذا مستند على نظرية لدارون لم يقم عليها دليل بل قام الدليل القاطع ضدها لكن الهوى يعمي ويصم فاعتبرت حقيقة علمية تدرس في الجامعات وينشأ عليها الأجيال لويت أعناق الأدلة الآثارية لإقناع الناس بأن نظرية التطور حقيقة فدعاتها من خلالها ينشرون الإلحاد بين الناس بإنكار الخالق وينشرون الزنا على اعتبار أن الإنسان كان قرد والجنس مشاع بين أفراده فلماذا الستر والحجاب الآن؟، فكل الحواجز المانعة من الزنا عندهم إنما هي محض تطور اجتماعي وتطور ديني!! قاتلهم الله أنى يؤفكون.

أخذوا من الآثار أدلة غير صحيحة أو نسبوها إليها وأغفلوا: البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير فكيف بسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أفلا يدل ذلك على العلي الكبير لقد عميت أبصارهم وبصائرهم وختم على قلوب كثير منهم عن مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[1].

وعن مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2].

يقول أحد علماء الغرب تثبت العلوم بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أبديًا، ولا تقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة... واليوم لابد لمن يؤمن بنتائج العلوم أن يؤمن بالخالق أيضًا ليس من المعقول أن يكون هناك خلق بدون خالق هو الله»[3].

(١) سورة الغاشية، الآيات ١٧ ـ ٢٠.

(٢) سورة الطور الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) وجود الله، عقائد الإسلام، د. يوسف القرضاوي مكتبة وهبة عابدين القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة/ ١٤١٠ ـ ١٩٩٠ ص٨٧.

وأشير إلى حقائق علمية أخرى ورد ذكرها في القرآن الكريم مثل:

١ - كون الجبال أوتادًا يعني أن لها جذورًا في الأرض. قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾[1].

٢ - ظلمات البحر. قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ...﴾[2].

٣ - نقص الأكسجين في طبقات الجو فينقص كلما زاد الارتفاع. قال تعالى: ﴿...وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ...﴾[3].

٤ - الإحساس وأن مراكزه في الجلد والأعصاب. قال تعالى: ﴿...كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ...﴾[4].

ويمكن زيادة الاطلاع عليها بتوسع وغيرها في مظانها من كتب الإعجاز العلمي في القرآن ومن أحسن الكتب في ذلك كتاب: مباحث في إعجاز القرآن للأستاذ الدكتور/ مصطفى مسلم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾[5].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾[6].

أيضًا من طرق إظهار الشرك: البحث عن الآثار لمعرفة تاريخ الفن:

فيظهرون الشرك بقصد معرفة تاريخ الرسم والتصوير والنحت بمعنى معرفة تاريخ الأصنام والمعبودات من دون الله فأصحاب هذا الشأن يقولون: «نواحي الفن الثلاث الرئيسية وهي البناء والنحت والرسم»[7] وإن كان الفن يشمل الرسم ونحت

(١) سورة عم، آية: ٧.

(٢) سورة النور، آية: ٤٠.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٥.

(٤) سورة النساء، آية: ٥٦.

(٥) سورة ص، آية: ٨٨.

(٦) سورة فصلت آية: ٥٣.

(٧) الفن في العراق القديم، انطون مورتكات ترجمة د. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة، سلسلة الكتب الفنية، مطبعة الأديب البغدادية، ص١١، من مقدمة المترجمين.

التماثيل والصور وفن العمارة والفنون التشكيلية والتطبيقية والصناعية لكنه على الأخص فن الموسيقى والرقص والتصوير والنحت والتماثيل[1].

وعن قوة العلاقة بين النحت والرسم والتصوير وبين الاعتقاد يقولون:

«كان الفنان المصري القديم مكرسًا لخدمة الدولة المصرية والعقيدة المصرية وكان مدربًا على إنتاج نوع من الفن هو بطبيعته سرمدي وخالد ولا يتعلق بزمن وفي جميع النقوش وأعمال الزخرفة التي أبدعها هذا الفنان على جدران المقابر والمعابد، كان من الضروري أن يتجاوز الفنان التعبير عن اللحظة العابرة أو الخاطفة ويسمو فوقها، وعندما كان يقوم الفنان برسم أو تصوير شكل الجسم البشري فإنه لا يرسمه أو يصوره حسبما يبدو له في لحظة عابرة خاطفة بل كان يقوم بتضمين الرسم أو الصورة كل المعالم الأساسية الهامة التي يعبر بها عن ماهية الجسم البشري وجوهره»[2].

ولمزيد بيان ارتباط النحت والتصوير بالقلب وما يعتقد وأن النحت والتصوير يمس شغاف القلب ويستهويه وأن ذلك وسيلة الوثنية في الانتشار ودابتها الذلول فإنه قد: «انبعث فن النحت أساسًا بمصر القديمة وتواكب ازدهاره مع استطالة نفوذ العقيدة الدينية خاصة وإذا ما استثنينا اليهودية والإسلام نجد النحت يخدم العقيدة الدينية ويساندها.

والحق ازدهر فن نحت التماثيل والنقوش منذ أخذت العقيدة البوذية تنتشر في الهند وفي غيرها من بلاد جنوب شرقي آسيا والشرق الأقصى، ووجدت العبقرية الهندية مجالاً رحيبًا لتوكيد مواهبها الفنية الفذة في نحت تماثيل البوذا أو مريديه وفي نقش الأساطير على جدران الهياكل والمعابد... ويبتدئ في الرسم عمق الشعور الديني وفرط حاسيته»[3].

ولبيان انعكاس العقيدة في الفن غير ما سبق سأذكر بعض المذاهب الفنية ودلالاتها في

(١) انظر تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، أنور الرفاعي، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، ص٣. وانظر: التراث الفني وطرق عرضه، وزارة الشئون الثقافية، تونس، ندوة حول هذا الموضوع، دراسات ملتقى خميس ترنان، منشورات الحياة الثقافية ١٩٧٨م، ص٧-١٠.

(٢) فن الرسم عند قدماء المصريين، وليم. هـ. بيك، ص٤٥.

(٣) البوذية، فؤاد محمد شبل، ص٢٢٢-٢٢٣.

التالي:

١ ـ الرومانتيكية: مذهب من مذاهب الرسم والتصوير جاءت «ثورة على الفن الكلاسيكي وعلى الأصول والتقاليد الفنية المفروضة على الفنان.

فلا تعرف الرومانتيكية القواعد المحفوظة أو الأساليب الموروثة أو المشاعر الملقنة وإنما هي تعبر عن إنطلاق وجدان الفنان وتدفق خياله للتعبير عن الانفعالات النفسية والعاطفية من خلال تعبير فني إنساني.

وقد اعتمد الفن الرومانتيكي منذ البداية على المبالغة في تصوير المشاهد فالحركات تكون أشد عنفًا والألوان أزهى دائمًا من الواقع والأبطال أعظم بطولة، الأشرار أشد شراسة وفتكًا والنساء أروع فتنة»[١].

٢ ـ التعبيرية: «تصدر عن انفعال باطن يطغى على الوجدان فينعكس على اللوحة دون التقيد بالطبيعة أو المنظورات الواقعية.

وقد نشأت في ألمانيا حيث الأساطير الحافلة بحاكيات الجن والعفاريت والغيلان المخيفة... ومن هذه المدرسة (بول كليه) السويسري الذي تميزت أعماله بشرود الخيال والتغلغل في عالم الأشباح والشياطين»[٢].

٣ ـ التكعيبية: «هي تصوير عالم جديد خارج من إحساس الفنان يعبر عنه بالأجسام المكعبة والإسطوانية والمخروطية. ويتحول كل شيء إلى أشكال هندسية»[٣].

٤ ـ الدادية: «ويهدف الداديون إلى مهاجمة القيم وتخريب الجماليات ومعادات الذين يحترمون الفن والجمال والإبداع. كما يهدفون إلى السخرية من الفن ذاته وعرض كل ما هو قبيح وغريب وعابث وغير معقول وتقول فلسفتهم: لابد من خلق فن يناقض الفن. وأصبح شعارهم: كل شيء يساوي لا شيء إذن: فاللاشيء هو كل شيء.. ولها مظاهرها الجنونية من معارض عجيبة وحفلات

---

(١) الفن الإسلامي التزام وإبداع، ص١٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص١١٠، ١١١.

(٣) الفن الإسلامي، ص١١١.

رقص شاذة وأمسيات شعر لا معقول حافل بألوان البلاهة المصطنعة»[١].

٥ ـ السريالية: «إن السريالية في الفن - في رأي هذه المدرسة ـ اتجاه إلى تحرير الإنسان من عبوديته ومن سيطرة العالم الخارجي بل وتحريره من العقد ومن الكبت الجنسي فالواقع الدفين في أعماق الفنان هو الذي يحرك يده لكي ينتج معبرًا عن رغابته وأحلامه وآماله وقد يظهر هذا التعبير في صورة أساطير خيالية خرافية تكون في بعض الأحيان كالطلاسم التي يستعصي على المشاهد فهمها»[٢].

وقد (قال مايكل لايرس) وهو سريالي معروف: «إنني لم أعد أؤمن بشيء حتى بالألوهية ولا أؤمن بعالم آخر»[٣].

فهذه الأنواع من أنواع الفن تجسد عقائد القائمين عليها وقد نشأت جميعها في بلاد الغرب وانتقلت إلى بلاد المسلمين[٤].

والمطالبة بإرجاع الفن إلى الآثار معلنة باسم الفن لربط الناس ولفت نظرهم إلى الآثار والاستلهام منها لتنعكس العقائد الوثنية المستلهمة من الآثار وتنتشر بين المسلمين ومن المعلوم أن جماهير الناس تدفع الفنانين لمواصلة عملهم وذلك بإظهار رضاهم عن عمل الفنانين أوبسكوتهم عن إنكاره مما يوحي أن الفنانين بعملهم هذا يمثلون موافقة جماهير الناس، من ذلك:

• **رابطة الفنانين المصريين:**

تشكلت أيضًا في بداية الثلاثينيات من الفنانين: إبراهيم جابر، أحمد عثمان، سعيد الصدر، عزت مصطفى، عبدالعزيز فهيم، لمناهضة الاتجاهات الاستعمارية في الفن بالعودة إلى الجذور العريقة وتعني به الفن المصري القديم»[٥].

فهذه دعوة إلى الاهتداء بالجاهلية لمناهضة الاتجاهات الاستعمارية فتكون فرارًا من الرمضاء إلى النار.

---

(١) المصدر السابق، ص١١٥.

(٢) الفن الإسلامي، ص١١٧.

(٣) الإسلام بين الشرق والغرب علي عزت بيجوفيتش، ص١٤٥.

(٤) انظر الفن الإسلامي، ص١٠٦ ـ ١١٧.

(٥) التراث المفقود، نبيل فرج الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠، ص١١٤.

والتصوير ونحت التماثيل مدعاة إلى الشرك والوثنية قامت ابتداء بتقديس الصور[١].

والبحث عنها والتنقيب يراد به إحياؤها ومحاكاتها واستنطاقها «ومهما يكن من أمر التحولات الطارئة على العالم في مجال الفنون التشكيلية في هذا العصر المتغير فإنه لاينبغي لنا أن نتنكر لفنونا أونهمل تراثنا الذي ينبغي أن يسري في دمائنا مسرى العقيدة . . . ومن أجل هذا كان تركيزنا بخاصة على الحضارات الفنية المصرية والقبطية والإسلامية . . . باعتبار أن هذه الحضارات هي محور الجمال الفني الذي قام على ثرى أرض مصر الخالدة»[٢] ومن أين لها الخلود.

وما يذكر من فنون في النحت والتصوير والعمارة ترجع أصوله عندهم إلى «فنون العالم القديم ولابد أن يكون مدينًا بالكثير للفنون التي سبقته، ولما كان مهد الفنون آسية الغربية التي شهدت ازدهار أكثر الحضارات أهمية فقد جنى من تراثها ولكن اختار منها»[٣] وكثيراً ما يذكرون أن الحضارة والعمارة الإسلامية قد اقتبست أو سرقت من العمارة الإغريقية واليونانية والفارسية وغير ذلك وسيجد القارىء عن ذلك كثيراً من ذلك، عن المساجد وأعمدتها حتى المسجد الحرام بمكة وعن القصور والقلاع وقناطر الري ويفوت عليهم أن كثيراً من الصناع دخل في الإسلام.

وينسبون آثاراً محرمة من تصاوير لأشخاص ونحوها للمسلمين وأنها إنتاج إسلامي ومن ذلك قصير عمرة الذي ينسب إلى عهد الدولة الأموية وهو قصر فيه تصاوير لزعماء وقادة كقيصر وكسرى وملك إسبانيا وملك الحبشة وتصاوير فيها شراب ورقص ونحو ذلك ويلصقون ذلك بالمسلمين فما يمكن أن يكون مباحًا من الزخارف يتهم المسلمون بسرقته من غيرهم من الأمم وما كان في بلاد المسلمين أو صنع فيها وهو مخالف للإسلام ينسب إلى الإسلام وإن لم يصنعه المسلمون مع العلم أنه إذا كان المصنوع مخالفًا للإسلام وصنعه مسلم فإنه لايصطبغ ذلك العمل بصبغة الإسلام بل هو مخالف للإسلام.

---

(١) انظر: جمالية الرسم الإسلامي، الكسندر باب دوبولو، ترجمة علي اللواتي، نشر مؤسسات عبدالله بن عبدالله، تونس، ص١١. وانظر الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، ص١١٥.

(٢) التذوق وتاريخ الفن، محمود النبوي الشال ومحمد حلمي شاكر وزينب محمد علي، دار العالم العربي للطباعة، القاهرة، مصر، طبعة ٨٢/ ٨٣، ص٤ ـ ٥.

(٣) الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، ص٦.

المبحث الثاني

زعزعة الولاء والبراء لدى المسلمين

المسلمون في بلدانهم بمجموعهم لابد أنهم شاهدون مخلفات الأمم الجاهلية في أماكن متفرقة من بلدان المسلمين لكنها لا تلفت أنظارهم بإجلال وتعظيم وليس لها في قلوبهم مكانة وليس في قلوبهم محبة لها.

لكن بعد نبش تلك الآثار وتمجيدها وأنها أساس الحضارات العالمية ومركز الفخر والعظمة تغيرت قلوب بعض المسلمين فاهتمت بها وراحت تعدد أمجادها وتذكر سيرها وهو ما يقصده دهاقنة الكفر من نبشها، ولقد فاحت بعض العبارات والتصريحات مصرحة حينًا وملمحة حينًا آخر أن الهدف هو صرف ولاء المسلم إلى تلك الوثنيات بدلاً من أن ينصرف إلى الإسلام والمسلمين فيكون حبه للآثار ولمن يشتركون معه بكونها أصلاً تاريخيًا لهم جميعًا فيوالي النصراني والملحد من بلاده الذي يمجد تلك الوثنيات باعتبار أنه يشترك معه فيها بأنها آثارهم جميعًا.

وقد كان زعزعة الولاء من كونه للإسلام والمسلمين إلى تلك الوثنيات المحلية في كل بلد هدفًا ثم أصبح حقيقة واقعية.

فهي هدف يوم قال أحدهم: «إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام. ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات»[١].

ولا شك أن العاطفة والولاء عند المسلم كلما اتجه للوطن يضعف بناء المجتمع

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص٢٠٢، نقلاً من Neareastculture and society, Edited by T. cuyier Young.

المسلم وأن ضعف المجتمع المسلم انتصار حاسم لقوى أوربا[١].

ويعني باتجاه عاطفة وولاء المسلم للوطن أي لمجده الغابر قبل الإسلام وما به الاعتزاز الضارب في القدم المبني على الآثار، وقراءة الكتاب توضح ذلك.

وإيثار الحضارات الوثنية من فرعونية وآشورية وكلدانية وطورانية وفينيقية وهندوكية وتقديمها على الإسلام والتفاخر بها وتعظيمها ومحبتها وبناء الروابط بموجبها كل فيما يخصه منها هذا هو صرف الولاء لها والبراء من أجلها فلا تكون الهيمنة في قلوب المسلمين للإسلام بقدر ما هي لذلك التاريخ الوثني الجاهلي وأمجاده المزعومة الذي ترجم إلى محبة الوطن والتمجيد للوطن ولأجل الوطن «وكان من النتائج العجيبة لتأثير مدنية الغرب أنه غذت هذه النزعات ـ أي الوطنية ـ بما بعثت من مدنيات قديمة كانت مزدهرة من قبل في البلاد التي احتلتها شعوب الإسلام.

وإن طيف الحضارة الحيثية يبعث افتتاناً قوياً في بعض الزعماء الأتراك وشجع كشف مقبرة «توت عنخ آمون» بعض الدوائر الأوربية في مصر على إحياء «الحضارة الفرعونية» وهي حركة لم تمت بعد.

وحدثت مثل هذه النتائج أيضاً في أندونيسيا بسبب العثور على الحضارة الهندوكية الجاوية.

وربما تحدث الحضارة السومرية أو البابلية تأثيراً كهذا في العراق كما فعل ذلك ـ لا ريب ـ العثور على الحضارات الفارسية القديمة في فارس»[٢] وقل مثل ذلك عن سوريا وغيرها من بلدان المسلمين لكن قد تحقق ذلك فعلاً الآن.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ

(١) انظر: وجهة الإسلام، جب، ص٣٩.

(٢) وجهة الإسلام، جب، ص٢٢٢.

اللَّهِ...﴾[١].

«يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة حيث جعلوا له أنداداً أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه وهو الله لا إله إلا هو»[٢] فذكر أن من الناس من يتخذ من دون الله أنداداً بمعنى نظراء ومثلاء يساويهم في الله بالمحبة والتعظيم، ومن كانت هذه حاله بعد إقامة الحجة وبيان التوحيد علم أنه معاند لله مشاق له معرض عن تدبر آياته والتفكر في مخلوقاته فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب، لكن المؤمنين يحبون الله حبًا أشد من حب أهل الأنداد لأندادهم لأنهم أخلصوا محبتهم لله وأهل الأنداد أشركوا بها غيرها.

ولأن المؤمنين أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه.

والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا ومحبته عين شقاء العبد وفساده وتشتت أمره[٣].

وما حال معظمي الآثار الوثنية معها إلا كحال المشركين مع أوثانهم فكل منها لها مكانة وتقديس وتعظيم في قلوب كل منهم ومع كونها جميعًا في صف أعداء الله إلا أنهم صرفوا ولاءهم لها مع أن حقها أن تعتزل وتحطم وتطمس جميعًا قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام كقدوة للمسلمين في التعامل مع الآثار الوثنية من تماثيل ونحوها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٥٦ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) ١/ ٢٠٢.

(٣) انظر تيسير الكريم الرحمن (تفسير ابن سعدي) ١/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾[2]. والرسول ﷺ حطم الأصنام التي عند الكعبة يوم فتح مكة وأرسل سراياه لتحطيم الأصنام خارج مكة كما مر سابقاً.

أما الكفار فإنهم يريدون للمسلمين الكفر، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ...﴾[3].

فإذا كان ود الكفار أن نرجع إلى الكفر فهذا شأنهم لكن إن نحن استجبنا لهم فنكون قد مددنا جسر المودة فيما بيننا وبينهم، هذا «ويحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين»[4] فعلى المؤمنين أن يعادوهم ويحذروا أحابيلهم وخدعهم، ومن أهم ما يقومون به الآن نبش الوثنيات ورفع رايتها وإعزازها باسم البحث العلمي ومعرفة سير الحضارات فكيف يرضى المسلمون بهذه الأوثان تغرس في ميادين البلاد الإسلامية ويكون لها من المجد والتكريم ما لا تستحق أدنى جزء منه، وهي المعبودة من دون الله وهي جرثومة الشرك ودابته الذلول.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ...﴾[5].

«نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ثم توعد على ذلك فقال: ﴿ ومن يفعل ذلك فليس

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥٢ ـ ٥٧.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٧٥ ـ ٧٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٠٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٥٣.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٢٨.

من الله في شيء﴾ أي ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد بريء من الله كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ... إلى أن قال: وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾[3][4].

فهذا نهي من الله وتحذير للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين السابقين واللاحقين أولياء من دون المؤمنين، وأن حال المؤمنين موالاة ومحبة السابق من المؤمنين مهما تقادم بهم الزمن كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[5].

فكذلك المعاداة بين المؤمنين والكفار خطها ضارب في القدم بأي اتجاه فهي عداوة بين المؤمنين والكافرين سواء كان الكفار معاصرين أم من الغابرين أم من الذين سيكونون.

والموالاة للمؤمنين وفيما بينهم للسابقين منهم واللاحقين والمعاصرين فمابال المسلمين يوالون الوثنية والوثنيين المتمثلة بالآثار من الصور والتماثيل وأصحابها الأقدمين ليس من حجة ولا سند إلا أن البلد واحد وقد قطع الله ما بين نوح عليه السلام وابنه وما بين إبراهيم عليه السلام وأبيه وقد قتل أبو عبيدة عامر بن الجراح

(١) سورة الممتحنة، آية: ١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥١.

(٣) سور الأنفال، آية: ٧٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٥٧.

(٥) سورة الحشر، آية: ١٠.

رضي الله عنه والده في غزوة بدر[١] حيث كان والده في صف الكفار.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾[٢].

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾. ومعناه: «أي لا يجتمع هذا وهذا فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة إلا كان عاملاً على مقتضى إيمانه ولوازمه من محبة من قام بالإيمان وموالاته ومن بغض من لم يقم به ومعاداته ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة الذي وجدت ثمرته والمقصود منه...

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو مع ذلك مواد لأعداء الله محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له فإن كل أمر لابد له من برهان تصدقه فمجرد الدعوى لا تفيد شيئًا ولا يصدق صاحبها»[٣].

وحال الآثاريين أنهم يدعون المسلمين إلى موالاة الطغاة والكافرين الأقدمين ومحبتهم ومحبة بقاياهم بحجة أنهم في أرضنا، وهم البعداء عنا دينًا فكيف يتم هذا والمؤمن لا يكون مؤمنًا إذا كان يود ويحب من حاد الله ورسوله ولو كان ذلك المحاد لله ولرسوله من آبائه وأبنائه أو إخوانه أو عشيرته؟!!.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ

(١) سير أعلام النبلاء ١/٨.

(٢) سورة المجادلة، آية: ٢٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) ٧/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾[١].

فيبين الله عز وجل أن فريقًا من الذين أوتوا الكتاب همهم أن يردوا المسلمين بعد الإيمان إلى الكفر.

وإن من أيسر السبل لذلك هو تزيين الأوثان والربط بينها وبين المسلمين بجسر من المحبة والمودة والموالاة تتغلغل في القلوب حتى إن المسلمين ليدافعون عن جرائيم الوثنية من التماثيل والصور ويحافظون عليها بعد أن أمروا بطمسها ومعاداتها واعتزالها والتبرؤ منها وبعد أن كان هذا حالهم معها، وأن من يفعل ذلك فلا يغيبن عنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾[٢].

فمن أظهر الإسلام وهو محب للكفار ومواليًا لهم وناصرًا لهم مع تركه لموالاة المؤمنين فهذا مستمسك بأوثق أسباب النفاق فهو في بؤرة النفاق ومن كان كذلك فإن الله عز وجل يبشره بأقبح بشارة وأسوأها وهذه البشارة هي: أن له العذاب الأليم.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٣].

ومن كانت هذه صفاته وحاله فما مقصوده من ذلك؟

هل يريد الكافرين ويبتغي عندهم العزة كلا لن يجدها فإن العزة لله جميعًا وقد جعل الله العزة له سبحانه وتعالى ولرسله ولعباده المؤمنين قال تعالى: ﴿...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨)﴾[٤].

وإن نبش الآثار وإظهارها ليطلب به الآثاريون ومن سايرهم العزة والمجد والتقدم ويطلبونها من مزابل الوثنية: أصنام وصور، ومن القائمين عليها من كهان

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٠.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٣) سورة النساء، آية: ١٤٥.

(٤) سورة المنافقون، آية: ٨.

ونحوهم وإن محبتها ومودتها والاعتزاز بها والافتخار بمآثرها أيًا كانت لهي من الشرك والكفر بمكان، وأن ذلك جسر من الموالاة والمحبة يراد للمسلمين أن يقيموه بينهم وبين الوثنية الجاهلية القديمة بقصد أن يتخذوا الكافرين وأوثانهم أولياء يعتزون بهم ويفاخرون، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين وترك موالاة المؤمنين وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين وعداوتهم[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾[2].

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة﴾ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾[3].

فأمر سبحانه أن نتأسى بإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ومن معه من المرسلين في قولهم لقومهم ﴿إنا براءوا منكم ومما تعبدون من دون الله﴾ وإذا كان هذا واجبًا على المسلم وأن يقول هذا لقومه الذين هو بين أظهرهم فكونه واجبًا مع الكفار الأبعدين أبين وأبين وإذا كان كذلك فهو أوجب مع الكفار الغابرين الذين ماتوا مع أدوات كفرهم من الأوثان ومن التماثيل والصور وغيرها.

وفي قوله تعالى: ﴿إنا برآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله﴾ تقديم البراءة من المشركين العابدين غير الله على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله لأن الأول أهم من الثاني فإنه قد يتبرأ من الأوثان ولا يتبرأ ممن عبدها فلا يكون آتيًا بالواجب عليه وأما إذا تبرأ من المشركين فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم وهذا كقوله

(١) انظر تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) ٢/ ١٩٧.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٣.

تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾[1] فقدم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم وكذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾[2] وكقوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾[3] فإن في ذلك التقديم فتح باب إلى عداوة أعداء الله فكم من إنسان لا يقع منه الشرك ولكنه لا يعادي أهل الشرك فلا يكون مسلمًا بذلك.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿...كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾[4] فقوله «بدا» أي ظهر وبان، وقدم العداوة على البغضاء لأن العداوة للأوثان وعابديها والداعين لها بشتى الوسائل أهم من البغضاء وإن كانت مطلوبة لأن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم فلايكون آتيًا بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء ولابد أيضًا أن تكون العداوة والبغضاء باديتين ظاهرتين بينتين.

ولما كانت البغضاء متعلقة بالقلب فإنها لا تنفع حتى تظهر آثارها وتتبين علامتها ولا تكون كذلك حتى تقترن بالعداوة والمقاطعة فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين.

وأما إذا وجدت الموالاة والمواصلة والبحث عن مواضع الإتفاق واتخاذها نبراسًا وقدوة ومرتكزًا للافتخار ونواة للمجد فإن ذلك يدل على المحبة لها وذلك على حساب دين الإسلام[5].

كذلك التشبه بأزياء الجاهلية المقتبسة من الآثار والتشبه بالعادات والهيئات

(١) سورة مريم، آية: ٤٨.

(٢) سورة مريم، آية: ٤٩.

(٣) سورة الكهف، آية: ١٦.

(٤) سورة الممتحنة، آية: ٤.

(٥) وانظر مجموع التوحيد ١/ ٣٣٤_٣٣٥.

يفضي ويورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة حتى إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد ثم اجتمعا في دار غربة كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم وإن كانا في بلدهما لم يكونا متعارفين أو حتى كانا متهاجرين أحيانًا، بل لو اجتمع رجلان في سفر أو بلد غريب فكانت بينهما مشابهة في العمامة أو الثياب أو الشعر ونحو ذلك لكان بينهما من الائتلاف أكثر مما بين غيرهما ممن لا يعرفونهما فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة فكيف بالمشابهة في أمور دينية أو أخلاقية أو موافقة في العادات والهيئات فإفضاؤها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد[1].

والغرض من معاداة الكفار من قبل المسلم هو أن تبقى شخصية المسلم واضحة قوية متميزة بارزة المعالم ترى دلائل الإسلام ظاهرة فيها وفي كل حركة من حركاتها[2].

* * * * *

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ١/ ٤٨٠ ـ ٤٩٠ وهو كتاب كله مهم في هذا الباب. وانظر مجموعة التوحيد ١/ ٣٤٠.

(٢) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس بن عبدالله بن محمد الجلعود، الطبعة الأولى/ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص٤٦.

المبحث الثالث

الدعوة إلى القوميات والعنصريات

الإنسان بطبعه وغريزته يلتفت إلى الماضي ويعتز به فإن لم يكن آخذًا بالشرع بإخلاص، واتباع، فمن الممكن أن الماضي يغذي العقول بما يضرها ولقد أدرك كثير من الساسة فعل الآثار في ترسيخ الوطنية وجعلها جامعة يلتقي عليها وحولها أبناء الوطن على تعدد واختلاف نحلهم وأفكارهم وعقائدهم وهذا مفسد للإسلام «وعلى سبيل المثال:

فإن هتلر وموسوليني كل منهما فهم جيدًا مدى اجتذاب الماضي للمواطنين وعهدوا إلى مجموعات ممن أسموهم علماء ودارسين لاستخراج دعاوى باطلة وبراقة حول منجزات مجيدة للألمان القدماء والرومانيين»[1].

ثم نقل ذلك إلى المسلمين ونشر بينهم وكثرة دعاة القومية والعنصرية الوطنية يركزون على الآثار الجاهلية كقوله بعضهم: «إن أول ما نحتاج إليه في تحقيق النهضة التي نصبوا إليها هو الالتفات إلى تاريخنا وتراثنا..

نريد أن نلتفت إليه ونتفهمه لنكتشف فيه جذور شخصيتنا فننفض عنها غبار الزمن ونرعاها، وسر عبقريتنا فنستلهمها ونفجر كوامن طاقاتها، وعناصر رسالتنا إلى هذا العالم المضطرب فننشرها...

أما إذا لم يكن بد من الاستشهاد بأوربا فلنذكر أنها لم تنهض نهضتها العظيمة الحاضرة إلى بالرجوع إلى تراثها في حضارة الإغريق والرومان وآباء الكنيسة في القرون الوسطى ثم بالبناء الذكي على ما وضع أولئك من قيم وتقاليد وفلسفات ما زالت هي المنهل الذي تستقي منه وتستلهمه»[2].

«فمن حق المصريين ومن الواجب عليهم أن يستثيروا دفائن الفراعنة جميعًا وأن

(١) رجال الآثار، روبرت. ج. بريدوود، ص١٠.

(٢) فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.

يربطوا حاضرهم وماضيهم رباطًا ظاهرًا لكل عين، وإنهم إذًا ليضيفون إلىٰ قوتهم قوة وليضاعفون مجدهم أضعافًا وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعًا لها وتذوقًا. . »[1]

ثم بين أن ذلك يتم بالبحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة. . .

«لقد نهضت إبلا من رقادها المديد لتقول كلمتها وتبوح لنا بأسرارها المذهلة وعلىٰ الرغم من أن ما كشف ـ حتىٰ الآن ـ من مكنوناتها هو جزء فقط مما ينتظر القيام به في السنوات القادمة فإن ما عرفناه كبير وكبير جدًا وهذا ما دعانا إلىٰ كتابة صفحات هذا الكتاب من منطلق شمولي مبسط عساه يجد صداه لدىٰ القارىء العربي المتعطش إلىٰ معرفة تاريخه القديم وجذوره القومية. . . خاصة وأن في اكتشافاتنا الآثارية المتلاحقة ما يدعو إلىٰ الاعتزاز بتراثنا الحضاري واستلهام الماضي من أجل الحاضر والمستقبل المشرق»[2].

«إن الشعور القومي ظاهرة راسخة سائدة في أي بلد إسلام وهو يحمل معه رائحة دخيلة، وكان الشعور الإسلامي ينزع علىٰ الدوام إلىٰ هدم الفوارق الجنسية حتىٰ أنه ليصعب التصديق أن هذه الفوارق ستسهل الآن إقامتها من جديد.

ولكن هناك شرذمة من المفكرين في بعض البلاد استهواهم التعصب الجنسي وهذا أيضًا أقوىٰ ما يكون في تركيا حيث نجد أن فكرة الجامعة التركية التي قبل الحرب قويت أثناء الحرب وكانت سببًا في كثير من الحركات التالية في الحكومة الجمهورية.

ولبلاد المغرب ـ كما أبان الاستاذ ماسينون ـ زعماؤها الذين يريدون سيادة الجنس البربري، وليست حركة الجامعة العربية في غرب آسيا بريئة من مثل هذه العناصر براءة تامة وكان من النتائج العجيبة لتأثير مدنية الغرب أنها غذت هذه النزعات بما بعثت من مدنيات قديمة كانت مزدهرة من قبل في البلاد التي احتلتها شعوب الإسلام.

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصرة، ٢/ ١٤٩.

(٢) إمبراطورية إبلا، ص٧.

وإن طيف الحضارة الحيثية يبعث افتتانًا قويًا في بعض الزعماء الأتراك وشجع كشف «مقبرة توت عنخ آمون» بعض الدوائر الأدبية في مصر علىٰ إحياء «الحضارة الفرعونية» وهي حركة لم تمت بعد، وحدث مثل هذه النتائج أيضًا في أندونيسيا بسبب العثور علىٰ الحضارة الهندوكية ـ الجاوية.

وربما تحدث الحضارة السومرية أو البابلية تأثيرًا كهذا في العراق كما فعل ذلك ـ لا ريب ـ العثور علىٰ الحضارات الفارسية القديمة في فارس غير أنه لايحتمل ـ علىٰ الأقل ـ أن يكون «لهذه الأطياف» في معظم شعوب العالم الإسلامي أثر يقارن بالأثر الذي أحدثه إحياء التراث الإغريقي في اليونان أوائل القرن الماضي. . . رغم أنها ربما تكون في المستقبل عنصرًا مغذيًا للحياة القومية»[1].

والتاريخ بامتداد جذوره في عمق الزمن مهم لتغذية القوميات «فنشأت القومية اليونانية علىٰ أساس تذكير التاريخ. . .

نشأت الفكرة القومية البلغارية علىٰ أساس إحياء اللغة البلغارية والتذكير بالتاريخ البلغاري. . .

وأما عند الأتراك فالأمور كانت أكثر تعقيدًا من جميع النماذج التي ذكرناها آنفًا لأن الشعب التركي كان العنصر الحاكم في دولة إسلامية كبيرة تجمع بين السلطنة والخلافة فالشعور القومي ظل تابعًا للشعور الديني مدة طويلة وذلك أوجد بعض الحالات الخاصة التي حملت القوم علىٰ معالجة الأمر بأساليب ووسائل خاصة وكان أهم هذه الوسائل إصلاح اللغة والأدب بنظرات قومية بحتة، وإعادة النظر في مباحث التاريخ علىٰ أساس تبعيدها من النظرات الدينية وإيجاد تاريخ تركي جديد يثير في النفوس حس الغرور والمباهاة بأمجاد الأجداد»[2] ويمكن أن يفعل بالعرب مثل ذلك التشتيت فيمكن «إثارة روح الوطنية في نفوس العرب بمناشدتهم أن يذكروا أمجادهم الغابرة وأن يثوروا علىٰ الأتراك فيطردونهم من علىٰ الأرض العربية»[3].

(١) وجهة الإسلام، جب، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) فكرة القومية العربية، ص٣١ ـ ٣٢.

(٣) فكرة القومية العربية علىٰ ضوء الإسلام، ص١٢٠.

وهذا بالتالي يفتت أقطار المسلمين لأنها قبل ذلك متحدة متماسكة فعدم وجود التمييز العنصري بين المسلمين هو أحد أبرز الإنجازات الأخلاقية للإسلام[١] وهذا ما لا يريده الإفرنج إذ يقول أحد ساسة الغرب «أهدافنا الرئيسية: تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها»[٢].

«وبذلت بريطانيا ومثيلاتها من دول استعمارية كثيراً في بث أفكار الفرقة والتناحر بين العرب وبين أنفسهم وقد كانوا بالأمس حلفاء فإذا هم دعاة إلى الوثنية الجاهلية باسم الاهتمام بالآثار وتعظيمها وبعث التراث، وعن طريق المستشرقين وعلماء الآثار المبشرين وغيرهم تحشد الجهود لبعث الدوارس الجاهلية ونبش القبور وحفر المدافن تنقيباً عن الفوارق في العادات واللغات والأوطان والأجناس بغية تعميق الإحساس وتضخيمه بالفوارق الشخصية حتى يطغى هذا الإحساس إلى حد التفريق بين المتماثلات والتسوية بين المختلفات من غير اعتدال»[٣] والآثار هي الأداة الفعالة في «إثارة روح الوطنية في نفوس العرب بمناشدتهم أن يذكروا أمجادهم الغابرة»[٤].

«وتاريخ بلاد الشرق الأدنى والأوسط يسير في ثلاث دوائر متحدة المركز هي: الإسلامية والعربية والقومية[٥] ولا تزال مسألة أي من هذه تقدم أنسب الهياكل لفهم الماضي هي موضوع جدل، لقد كان الهيكل العام تقليداً إسلامياً أو بعبارة أخرى أن الإسلام كان يبحث كوحدة تعتبر فيه مختلف بلاد الشرق الأوسط مجرد أجزاء، ولكن منذ أن ظهرت القومية في الشرق الأوسط أصبح الاتجاه العام نحو نقل التأكيد

(١) لورنس العرب على خطي هرتزل «تقارير لورنس السرية»، ص١٠١ من تقارير لورنس. وانظر وجهة الإسلام، جب، ص١٠ ـ ١٥ وهو مهم.

(٢) لورنس العرب على خطي هرتزل «تقارير لورنس السرية»، ص٧٠.

(٣) فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، ص١٣٧ ـ ١٣٨.

(٤) المصدر السابق، ص١٢٠.

(٥) الدائرة الإسلامية تشمل جميع المسلمين والدائرة العربية تعني العرب فقط على تنوع دياناتهم ويخرج بقية اخوانهم من المسلمين الأتراك والأفغان والهنود وغير ذلك والدائرة القومية أي الوطنية المحلية فكل دولة منفكة عن غيرها وتجمع شعبها على اختلاف نحله على محلة ترابه وتستخدم الآثار وسيلة لذلك.

من الوحدة الدينية إلى الوحدة السياسية ومن المعالجة المرتكزة على شئون البعث والقيامة إلى التركيز على الأمور الدنيوية والقومية، وأول ما بدأ هذا في تركيا، حيث رسم بعد ثورة ١٩١٨ خط يفصل بين التاريخ القومي التركي وبين التاريخ الإسلامي ثم امتد إلى بلاد أخرى أي إلى إيران ومصر وسوريا ولبنان، وعندما حصلت هذه الدول على استقلالها، وكما كان الحال في أجزاء أخرى من آسيا فإن التفسير القومي للتاريخ شجعته وغذته الحكومات ابتداء من مصطفى كمال في تركيا.

وكانت هذه الحكومات تؤمل أن تبني بهذا العمل شعوراً بالتماسك والصلابة القومية وقد سنت في سوريا ولبنان مراسيم حكومية نصت بوضوح على أن الغرض من التاريخ هو تقوية العواطف القومية والوطنية في قلوب الناس وكانت نتيجة هذا الدافع القومي الجديد هو عدم الاقتصار على العهود الإسلامية وحدها وقد التفت الأتراك في بحث الإلهام القومي إلى تاريخ الشعوب التركية في بلادهم الأصلية في أواسط وشرق آسيا وقام بعض المؤرخين المصريين بمثل ما قام به الأتراك فأخذوا يبحثون عن جذور الشعب المصري قبل الإسلام في مصر الفرعونية وأثار بعض العراقيين الماضي الآشوري، وتتبع اللبنانيون تاريخهم وأرجعوه إلى الفينيقيين أما المؤرخون الإيرانيون فقد نددوا بجهل الملالي وخرافاتهم واتهموا العرب بتدمير الحضارة الساسانية الرائعة»[١].

«ولقد أجفل المبشرون لما سمعوا النداء الوطني (مصر للمصريين) فقالوا إن هذا يعني (مصر للمسلمين)[٢]. ولذلك رجا المبشر صموئيل زويمر في ذلك الحين من بريطانيه أن تبدل سياستها تبديلاً أساسياً في وقت قريب وأن تعلن حياداً تاماً يشعر مصر بقوة بريطانيه وبنعمها ومعنى ذلك عند زويمر بلا ريب (فتح مصر للتبشير بالقوة). ولما خاب المبشرون في وقف تيار القومية الصحيحة[٣] عمدوا في كل بلد

(١) الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، جفري باراكلوا، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) قبل أن ينتشر مفهوم الوطنية.

(٣) ليس في القوميات الحديثة قومية صحيحة ومبنى القومية على رابطة إما لغوية أو ترابية أو عنصرية أو دينية ولا يصح منها إلا ما كان رابطته دين الإسلام.

إلى أقلية غير مسلمة في الأكثر وحاولوا أن يضموا إليها نفرًا بارزًا من المسلمين كما اتفق لهم في مصر فقط ليلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية جديدة . لقد أرادوا أن يبعثوا (الفرعونية) من خلال حجارة الأهرام في مصر ، والفينيقية من خرائب الساحل الممتد من يافا إلى اللاذقية على الشاطيء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ثم إنهم لفقوا في العراق دعوة أشورية»[(١)] .

وذلك أنه قد «كان للإنجليز من وراء كل ذلك هدف واحد وهو إضعاف العصبية الدينية وتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحدًا واحدًا فالمصريون أحفاد الفراعنة واللبنانيون أحفاد الفينيقيين والعراقيون أحفاد البابليين والآشوريين»[(٢)] وهلم جرا بقية شعوب المسلمين وآثار بلدانهم وانتسابهم لها واعتزازهم بها «ولا ريب في أن المشاعر الوطنية كانت الدافع الأساسي للدراسة المكثفة للماضي غير أن الخطوات الحاسمة في التقدم لم تصبح ممكنة إلا عندما رافقت القومية»[(٣)] ويلاحظ من هذا النص أن المشاعر الوطنية هي السبب والدافع لنبش الماضي ، والواقع أن فكرة الوطنية تُغذىٰ بالآثار ويشير المؤلف جفري باراكلو إلى أن الأبحاث والكتابات التاريخية كانت «أسلوبًا عرفيًا مقبولاً في معالجة التاريخ الآسيوي والإفريقي وكان عمومًا يركز على الفترة الاستعمارية أو على الماضي البعيد اللتين كان يراهما الفترتين الوحيدتين اللتين لهما أهمية عامة»[(٤)] والفترة الاستعمارية والماضي البعيد هما سيطرة الغرب على الشرق فالفترة الاستعمارية في هذا العصر ، والماضي البعيد قبل مبعث الرسول ﷺ .

ولبيان ذلك فإنهم يقولون : «ومع هذا فإن شمال إفريقية بارتباطه التاريخي الطويل مع المناطق الأخرى المحاذية للبحر الأبيض المتوسط كان له تاريخ يختلف عن

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، مصطفى خالدي وعمر فروخ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا ، لبنان الطبعة الخامسة ١٩٧٣م ، ص١٧٤ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، محمد محمد حسين ، دار الرسالة مكة الطبعة التاسعة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، ١/ ١١١ .

(٣) الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية ، جفري باراكلو ، ص٢٤٦ .

(٤) الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية ، باراكلوا ، ص٢٤٥ .

تاريخ إفريقية جنوب الصحراء الكبرى إذ أنه أصبح تحت تأثير وضمن الحدود السياسية لروما ثم للإسلام»[(١)] فهو يرى أن الشمال الإفريقي جزء من بلاده سابقًا وقل مثل ذلك عن بلاد الشام .

ولذلك لا يتم التاريخ ولا يكمل لبلاد الشرق الأوسط عند الغرب ومن سايرهم «إذا لم تذكر المستوطنات المتعاقبة التي أقامها الإغريق والرومان الذين كان يفترض بهم القيام بمهمة تأسيس العلاقات الأولى بين الشرق والغرب»[(٢)] .

ولابد أن يعلم أنه «من الجدير بالذكر بأن الامبراطورية الرومانية شملت في طياتها كل ما يعرف الآن بعالمنا العربي من حدود إيران شرقًا حتى موريتانيا غربًا ومن آسيا الصغرى شمالاً حتى أسوان جنوبًا ووحدت بين شعوب هذه المنطقة العريقة من ناحية ثم ربطت بينها وبين النصف الجنوبي من القارة الأوربية برباط سياسي وحضاري متين استمر ما يقرب من سبعة قرون من الزمان»[(٣)] .

وبعض الآثار في مصر يلقي الضوء على الحضارة الرومانية «إن هذه الوثائق والآثار لا تلقي الضوء على مصر فحسب بل إن بعضها يلقي الضوء على الإمبراطورية بكل عصورها وفتراتها وبفضل المصادر القديمة أمكن للمؤرخين الأوربيين من عمل الكثير من الدراسات التاريخية والحضارية عن الإمبراطورية الرومانية»[(٤)] .

والسبب كما يقول كرومر في كتابه مصر الجديدة أنقله من كتاب الاتجاهات الوطنية : «يجب ألا ننسى أنه لسد النقص الناتج عن عدم الاشتراك في الجنس والعقيدة واللغة والعادات والتفكير التي تكون الروابط الأساسية للاتحاد بين الحاكم والمحكوم يجب علينا أن نحاول ابتداع مثل هذه الروابط بين الإنجليزي والمصري

(١) الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية ، باراكلوا ، ص١٨٨ .

(٢) الحضارة العربية ، جاك ريسلر تعريب د . خليل أحمد ، ص٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥ .

(٤) تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص١٦ .

واصطناعها حسب ما تقتضي به الظروف. . .»[١] «ويقصد به طبع العرب والمسلمين والشرقيين عامة بطابع الحضارة الغربية والثقافة الغربية مما يساعد على إيجاد روابط من الود والتفاهم بين الحمار وراكبه وهي روابط تفيد الراكب دائمًا ولا تفيد الحمار»[٢].

وبناءً عليه فإن مجموعة من المؤرخين والمستشرقين اهتموا واعتنقوا فكرة أن العصر الذهبي للحضارة الأسيوية كان في الماضي البعيد[٣].

وبناء عليه حُللت الآثار واستنطقت وأُظهرت أمجادها وسُجل ذلك ونُشر «ولا ريب في أن كثيراً من هذه الكتابات في الفترة الأولى بالغت في إطراء الماضي كما أنها استهدفت إعادة الحقائق المعروفة تبعًا للمشاعر القومية ولذلك لم تقدم أية مساهمة جديدة للمعرفة القائمة على الحقائق»[٤].

وبذلك ساهمت الآثار بشكل كبير على إظهار فوارق جاهلية بين المسلمين وإبعادهم عن الإسلام بتبني تلك الفوارق الجاهلية حيث كانت البذور المهمة للعصبيات الوطنية المبنية على الوثنية لكل بلد تقريبًا وأصبحت أداة ربط بين المسلمين والغرب ولا يغيب عن الأذهان تكتل دول حوض البحر الأبيض المتوسط والله أعلم.

وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه.

* * * * *

(١) الاتجاهات الوطنية ٢/٤٢٦.

(٢) حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين، ص١١٥.

(٣) الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية جفري باراكلوا، ص٢٤٦.

(٤) المصدر السابق، ص٢١٣.

الخاتمة

اتضح من التعريف للمشاهد والآثار مدى الارتباط الوثيق بينهما وعليه فإن نبش الآثار إنما هو إحياء للمشاهد وخاصة ما كان من الآثار على شكل صور أو تماثيل.

علمًا أنها وغيرها من الآثار لا تخلو من نبش أو استحداث آثار فكرية لترجمة الآثار وتحليلها مما ينتج عنه نشر أفكار وثنية بين المسلمين الذين كان شغلهم الأول محاربة الشرك والمشركين.

كما أن تعظيم المشركين والآثار والاهتمام بذلك يولد في القلوب محبتها وموالاتها وهذا عكس المطلوب من المسلم تمامًا.

واتضح من الاهتمام بالصور في قوم أنها أدت بهم إلى الشرك على تدرج إذ أن محبتهم لصور صالحيهم نمت في قلوبهم إلى أن غلو فيهم وعبدوهم من دون الله بعد أن كانت محبتهم لصور صالحيهم في بداية الأمر في نظرهم معينًا لهم على عبادة الله ولما كان نصب صورهم لتذكرهم وتذكر أعمالهم ابتداعًا في الدين أدى بهم إلى نقيض ما أرادوا بأن جعلوهم شركاء لله في عبادتهم ـ تعالى الله عن الشرك علواً كبيراً ـ فيمكن أن تفعل الآثار بالمسلمين مثل ذلك وتقودهم إلى الشرك بالله.

أما اليهود وهم الذين يزعمون أنهم أهل توحيد ويزعم لهم ذلك بعض علماء الأديان فإنهم أشركوا في توحيد الربوبية وفي توحيد الألوهية ففي توحيد الربوبية كان من شركهم أنهم جعلوا ربهم خاصًا لهم من دون الناس وجعلوا لغيرهم ربًا أو أربابًا أخرى.

أما شركهم في توحيد الألوهية فلأنهم جعلوا لحاخاماتهم حق الطاعة المطلقة في تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي فالحكم على هذه الحالة ليس لله مع ما صاحب ذلك من تقديسهم لبعض القبور والمشاهد ودعائها من دون الله.

فذلك التعظيم والتقديس للحاخامات ولبعض قبور اليهود أدى بهم إلى

الشرك.

أما النصارى فإن الشرك عندهم لا يحتاج إلى بيان ولا إلى برهان لكثرته وانتشاره حيث لا تخلوا كنيسة من تمثال أو صليب أو صورة تعظم وتقدس وحيث أن كثيراً من الكنائس لا تخلو من قبر أو قبور.

فالمشاهد والآثار قدست عند النصارى وأوقعهم ذلك التعظيم والتقديس للصور والتماثيل والقبور في حضيض الوثنية وحمأة الشرك ومثل ذلك يقال عن العقائد الشركية عند الهندوس كثرة وتنوعًا في الأصنام المعظمة المعبودة من دون الله وكذلك فعل تعظيم الآثار المتمثلة بالنار عند الفرس.

ولما كان من سنن الله أن لا يجتمع في قلب العبد محبة الله ورسوله ﷺ مع محبة أعدائه.

فإن من يتشيع أو يتصوف من المسلمين غالبًا ما يقع في حمأة الشرك وبؤرة الوثنية حيث تعظيم مشاهد وآثار أولياء التشيع والتصوف كل ذلك يؤدي إلى الحج إلى قبورهم ودعائها من دون الله والطواف حولها وتقديم النذور والذبائح لها وسؤالها ما لا يقدر عليها إلا الله وهذا موقع في شرك الألوهية بدعائها ذلك وفي شرك الربوبية باعتقاد تأثيرها وقد خاطب الله الكافرين في كتابه الكريم بأن يعتبروا من مصارع الكافرين السابقين وأن سنة الله لا تحابي أحدًا أبدًا وأن من عمل مثل أولئك المعذبين فهو مستحق للتعذيب مثلهم وقد تكرر تعذيب الكافرين المكذبين للرسل في الدنيا وتكررت آثار ذلك.

وأوضح الرسول ﷺ كيفية التعامل مع تلك الآثار بتنوعها وأنها لا تقصد أصلاً وأن منها ما يكون التعامل معه بالطمس والإتلاف كالتماثيل والصور ومنها التسوية والهدم كبيوت الأصنام وأضرحة الموتى وما شرف من القبور ومنها التجنب كالآثار التي يصعب إتلافها.

ثم إحاطة الرسول ﷺ التوحيد بسياج من النواهي من أن يقترب الشرك كالنهي عن اتخاذ القبور أعياداً أو النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل ونهيه في ذلك، ومعلوم

قوله سبحانه وتعالى: ﴿... تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا...﴾[1].

وقوله ﷺ: **«فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»**[2] ولا يتصور الامتثال في اجتناب المنهي عنه حتى يترك جميعه فلو اجتنب بعضه لم يكن ممتثلاً، والنهي يقتضي الأمر فلا يكون متمثلاً لمقتضى النهي حتى لا يفعل واحدًا من أحاد ما يتناوله[3].

وقد التزم الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين بضوابط الأمر والنهي الشرعية عامة وفي ما يخص الآثار والمشاهد خاصة بل إن حرصهم في الإخلاص لله وفي الاتباع وترك الابتداع في الآثار والمشاهد كان دقيقًا وقويًا جداً وكان يذكر بعضهم في ذلك بعضًا، فهم الذين امتثلوا قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾[4] خير امتثال وأحسنه.

ومن المعلوم أن الصور والتماثيل جرثومة الشرك ونواته الأولى وأنها تشبه بل هي أخطر من جرثومة الأيدز - مرض نقص المناعة - قد لا تظهر أعراضها لكنها لا تترك ناحية من الجسم إلا تمكنت منه ثم تقضي عليه مرة واحدة ولا يمكن الخلاص منها إلا إذا أمكن اجتنابها واجتثاثها فجرثومة الشرك مصيبة تلحق بأصل الإسلام.

وأن نشر الصور والتماثيل ونبش الآثار واستخراج معبودات الجاهلية ومعرفة شعائرهم وأخلاقهم وعاداتهم ونشر ذلك مشوب بالإعجاب بين الناس ودعوتهم إلى الاطلاع عليه هو نشر الوثنية بعينه وإحياء للجاهلية.

وأن الآثار في البلاد الإسلامية متغايرة فكل بلد له آثاره التي تختلف عن آثار

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، ١٣/ ٢٦٤، ورواه مسلم بنحوه كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر ٩/ ١٠٨.

(٣) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣/ ٢٧٦.

(٤) سورة الزخرف، الآيتان: ٤٣ - ٤٤.

البلد الآخر وأن افتخار كل بلد بآثاره وتمجيدها والعناية بها يؤدي إلى صرف الولاء لها وإلى محبتها حتى وهي أحد عناصر الوثنية وأركانها وهذا ينافي الإيمان.

وأن الآثار ونبشها من بلدان المسلمين أحد الطرق الرئيسة عند الغرب لنشر الشرك في بلدان المسلمين ولتفريق المسلمين وتشتيتهم وإضعافهم ذلك أنه يصرفهم عن صراط الله المستقيم ويجعلهم متبعين للسبل متفرقين. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[2].

فنجد سبيل الفرعونية وسبيل البابلية وسبيل الفينيقية وسبيل الأشورية وسبيل الهندوكية وما أكثرها وقد غذيت القوميات الوطنية المتعددة بها.

ثم إن الآثار استخدمت لتوهين أنفس المسلمين وتحطيم معنوياتهم وتعويدهم على الهوان والمذلة وزرع قابلية الاسترقاق والخضوع لعدوهم وذلك بخداعهم أنهم كعرب كانت بلادهم محكومة من قبل أسلاف الغرب وأن ذلك لاغضاضة فيه بل هو شرف ومزية، وأغفلوا غالبًا أن كثيرًا من المحكومين أيام الفتوحات الإسلامية في الخلافة الراشدة كانوا كثيرًا ما يسلمون أنفسهم بل ويتمنون دخول جيوش المسلمين ليتخلصوا من نير الظلم والاستعباد سواء من قبل حكامهم الرومانيين أو الفرس.

ثم إن الآثار الوثنية استخدمت نبراسًا ومعلمًا ومرجعًا للفن والأدب والأخلاق بل والعقائد والشعائر والعادات والتقاليد.

واستخدمت دليلاً وسندًا معارضًا ومخالفًا للقرآن الكريم والسنة المطهرة في ذلك.

واستخدمت الآثار سلاحًا فعالاً لصد الناس عن دين الله وخاصة الغربيين الذين

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥٣.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٥.

يأتون لديار المسلمين فيجدون معالم الوثنية منتشرة هنا وهناك في وسط البلد مثلاً وفي أطرافها وخاصة إذا شاهد معها عباد القبور، فلا يشك أن المسلمين على هذه الحال بأنهم وثنيون بل هم في وسط الوثنية، بل إنهم يحمونها ويدافعون عنها فلا يمكن أن يقبل بالإسلام دينًا على هذا النحو.

ثم إن الآثار استخدمت داعيًا إلى الإلحاد بين المسلمين من جهتين:

الجهة الأولى: باعتبار أن الشعائر والعبادات والعادات ما هي إلا خرافات وأساطير وأوهام تأخذها أمة عن أمة أخرى سبقتها وتزيد عليها أحيانًا أو تنقص منها كالبابلية والأشورية والفينيقية والفرعونية ثم ربطوا الديانتين المسيحية واليهودية بتلك الحضارات وخرافاتها ومعتقداتها وجعلوا آية ذلك أن بعض أو كل تلك الأساطير والخرافات والاعتقادات والقيم التي عند اليهود أو عند النصارى إنما هي مقتبسة من تلك الحضارات السابقة لها المشار إليها.

ثم بعد ذلك زعموا أن الإسلام ـ وحاشاه ذلك ـ مقتبس منهما فيحسب أن جميع الأديان خرافة والصحيح إن دل هذا التوافق على شيء ولو كان قليلاً في الديانات إنما هو دليل على بعض آثار النبوة في الأمم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[2].

ثم جعل الخاتمة للقرآن الكريم المنزل على سيد المرسلين وخاتم النبيين عبد الله ورسوله محمد بن عبدالله ﷺ قال الله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[3] مع ما في القرآن من دحض لكل فرية وبهتان من أن يكون اقتباسًا مما سبق من الأديان والخرافات والأساطير فإن بين دفتي القرآن علومًا مادية بحتة لم توجد في كتب قبله فيما أعلم ولا في حضارة سبقته ومن تلك الحقائق

(١) سورة النحل، آية: ٣٦.

(٢) سورة فاطر، آية: ٢٤.

(٣) سورة المائدة، آية: ٤٨.

والعلوم:

١ ـ أطوار الجنين في بطن أمه.

٢ ـ كون الجبال أوتادًا يعني أن لها جذورًا في الأرض.

٣ ـ ظلمات البحر.

٤ ـ نقص الأكسجين في طبقات الجو فينقص بقدر الارتفاع.

٥ ـ الإحساس ومراكزه في الجلد والأعصاب.

٦ ـ وهن بيت العنكبوت **وغير ذلك كثير**.

إن علم الآثار استخدم استخدامًا صحيحًا في علوم شتى من علوم المادة فقد عرفت كواكب كثيرة بآثارها لا بذواتها والذرة مع أنها لم تر إلا ظلها أو خيالها بعد تكبيره وتضخيمه، لكن أغفل أو طمس أو حرف كلا ما يتعلق بتوحيد الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته فيها.

فمثلاً كما مر عندما يجد المنقبون تمثالين مدفونين في التراب وبجوارهما بقية من عظام إنسان أو حتى حيوان نجد أن الآثاريين على البداهة يوجبون أن هناك شخصًا نحت التمثالين وأبدعهما وقد كان صخرة صماء لكنهم لا يولون العظام الموجودة بجوار التمثالين أدنى اهتمام من حيث من أوجدهما؟ من ربهما؟ بل حتى صخرة التمثال قبل أن تكون تمثالاً من أوجدها هل خلق كل منهما من غير شيء أم أن كل منهما خلق نفسه؟ إن الذي خلقهما وخلق الخلق ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[١] وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * * * *

(١) سورة الحشر، آية: ٢٤.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ **آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي**، تأليف سيتون لويد، ترجمة محمد طلب تقديم سلطان محيسن، دار دمشق، مطبعة الشام، سوريا، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٣ ـ **الآثار الشرقية لحضارات كلدية وآشور وبابل وفارس وسورية وفينيقية واليهودية وقرطاجة وقبرص**، تأليف: أرنست بايلون، ترجمة: مارون عيسى الخوري، دار جروس برس وحكمت شريف، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٤ ـ **الآثار الغارقة**، تأليف: روبرت سلفر برج، ترجمة د/ محمد الشحات، نشر مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر/ ١٩٦٥م.

٥ ـ **آثار مصر القديمة في كتابات الرحالة العرب والأجانب**، تأليف: جيلاس عباس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ـ مصر ـ الطبعة الأولى/ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٦ ـ **الآثار النبوية**، تأليف: أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور ت ١٣٤٨.

٧ ـ **آراء بعض المستشرقين حول التراث العربي والرد عليها**، بحث ضمن مجموعة بحوث في كتاب أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ مكتبة التربية لدول الخليج العربي ـ الرياض/ ١٤٠٥ ـ تأليف د. محمد السويسي.

٨ ـ **أبحاث في الفكر اليهودي**، تأليف: حسن ظاظا، دار القيم دمشق، دار العلوم والثقافة، بيروت، الطبعة الأولى/ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٩ ـ **أبو حامد الغزالي والتصوف**، تأليف: عبدالرحمن دمشقية، دار الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.

١٠ ـ **الاتجاهات العامة في الأبحاثة التاريخية**، تأليف: جفري باراكلو، ترجمة د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى/ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١١ ـ **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، تأليف: د. محمد محمد حسين، دار الرسالة، مكة المكرمة، الطبعة التاسعة/ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٢ـ **الأنثولوجيا والفولكلور**، تأليف: إيكه هو لتكرانس، ترجمة: محمد الجوهري، حسن الشامي، دار المعارف بمصر، دار المجمع العلمي، جده، الطبعة الثانية/ ١٩٧٣م.

١٣ـ **أجدادنا في ثرى بيت المقدس**، تأليف: كامل جميل العسلي، مؤسسة آل البيت طبع عمال المطابع التعاونية، الأردن/ ١٤٠٢هـ ١٩٨١م.

١٤ـ **أحكام الجنائز وبدعها**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة/ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٥ـ **أخطار التبشير في ديار المسلمين**، تأليف: محمد بن عبدالرحمن عوض، دار الأنصار، القاهرة ـ مصر رقم الإيداع ٢٠٩٢/ ١٩٨٠م.

١٦ـ **أخلاق اليهود وأثرها في حياتهم المعاصرة**، تأليف: وفا صادق. دار الفرقان ـ عمان، الأردن الطبعة الأولى/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

١٧ـ **الأدب اليوناني القديم ودلالاته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي**، تأليف: علي عبدالواحد وافي دار نهضة مصر، القاهرة، مصر.

١٨ـ **أديان ما قبل التاريخ**، تأليف: اندرية لوروا ـ غوران، ترجمة: سعاد حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الأولى/ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٩ـ **أديان الهند الكبرى**، سلسلة: مقارنة الأديان، تأليف: أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ـ مصر ـ الطبعة التاسعة/ ١٩٩٠م.

٢٠ـ **أساليب الإقناع وغسيل الدماغ**، تأليف جي. إي. براون، ترجمة عبداللطيف الخياط، دار الهدى، الرياض، الطبعة الثانية/ ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٢١ـ **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**، تأليف: قاسم السمرائي دار الرفاعي للنشر ـ الرياض ـ السعودية، الطبعة الأولى/ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٢ـ **الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين**، تأليف: مصطفى نصر المسلاتي، دار اقرأ طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى/ ١٣٩٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢٣ـ **الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية**. تأليف: إبراهيم خليل أحمد. الناشر مكتبة الوعي العربي، القاهرة ـ مصر ـ ١٣٩٣.

٢٤ـ **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، تأليف: محمود حمدي زقزوق، دار المنار، القاهرة الطبعة الثانية/ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٥ـ **الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم**، تأليف: مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق الطبعة الثانية/ ١٣٩٩هـ.

٢٦ـ **إسرائيل والتلمود دراسة تحليلية**، تأليف: إبراهيم خليل أحمد، الناشر مكتبة الوعي العربي/ ١٩٦٧م.

٢٧ـ **الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام**، تأليف: علي عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع، القاهرة ـ مصر.

٢٨ـ **الإسلام بين الشرق والغرب**، تأليف: علي عزت بيجوفيتش رئيس جمهورية البوسنة والهرسك ترجمة محمد يوسف عدس ـ نشر مجلة النور الكويتية ـ الكويت، ومؤسسة فاريا ـ ألمانيا طبع وتوزيع مؤسسة العلم الحديث ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٩ـ **الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي**، تأليف: د. عبدالعظيم المطعني دار الوفا، المنصورة/ مصر ١٤٠٧هـ.

٣٠ـ **الإسلام والأديان دراسة مقارنة**، تأليف: د. مصطفى حلمي دار الدعوة. الاسكندرية. مصر الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٣١ـ **الأصول التاريخية لنشأة الدراما في الأدب العربي**، تأليف: سعد الدين حسن دغمان بحث ماجستير، جامعة بيروت طبع ١٩٧٣م.

٣٢ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، تأليف: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي.

٣٣ـ **أطماع اليهود وأسفارهم**، تأليف: فؤاد حسين مزنر، دار الكتب الثقافية، بيروت لبنان/ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٣٤ـ **أعمال الحفر الأثرى**، تأليف: ليوناردوولى. ترجمة. د. حسن الباشا، الناشر دار النهضة العربية.

٣٥ـ **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية تعليق محمد الأنور. أحمد البلتاجي. نشر دار التراث العربي، القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣٦ـ **أفيقوا أيها المسلمون وانظروا ماذا يراد بكم**، تأليف : أحمد الشريف ـ مكتبة الصحابة ـ جدة ـ مكتبة التابعين، القاهرة .

٣٧ـ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تأليف : شيخ الإسلام : أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، تحقيق ناصر عبدالكريم العقل، الناشر مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية/ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٣٨ـ **أقدم الحضارات في الشرق الأدنى**، تأليف : جيمس ميلارت، ترجمة : محمد طلب، الناشر دار دمشق ـ دمشق سوريا، طبعة أولى/ . ١٩٩٠م.

٣٩ـ **الألوهية في العقائد الشعبية على ضوء الكتاب والسنة**، تأليف عبدالسلام البسيوني، دار الإيمان، الإسكندرية، الطبعة الأولى.

٤٠ـ **الإمام زيد بن علي المفترى عليه**، تأليف : شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، المكتبة الفيصلية، مكة/ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

٤١ـ **إمبراطورية إبلا**، تأليف : علي القيم، الأبجدية للنشر، مكتبة الأسد، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى/ ١٩٨٩م.

٤٢ـ **الأنثروبولوجيا السياسية**، تأليف : جوجر بالانديه، ترجمة علي المصري ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى / ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٤٣ـ **الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي**، تأليف : زكي محمد إسماعيل شركة مكتبات عكاظ للنشر، جدة الطبعة الأولى/ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٤٤ـ **إنه الحق**، معجزة العصر : تتجلى في محاورة علمية مع ١٤ من رواد العلوم المعاصرة في شتى الآفاق، طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

٤٥ـ **الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية**، تأليف : عبدالوهاب الشعراني تحقيق : طه عبدالباقي سرور، محمد عبدالشافي، مكتبة المعارف، بيروت/ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٤٦ـ **إيقاظ الهمم في شرح الحكم**، تأليف : أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، مراجعة، محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، القاهرة ـ مصر.

٤٧ـ **بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار**، تأليف : السيد عبدالعزيز سالم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى/ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٤٨ـ **البداية والنهاية**، تأليف الحافظ ابن كثير الدمشقي ت سنة ٧٧٤هـ، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية/ ١٩٧٤م.

٤٩ـ **بذل المجهود في إفحام اليهود**، تأليف : الحكيم السمو أل بن يحيى بن عباس المغربي ت ٥٧٠هـ قدم له وخرج نصوصه وعلق عليه : عبدالوهاب أبو طويلة، دار القلم. دمشق. والدار الشامية، بيروت الطبعة الأولى/ ١٤١٠هـ.

٥٠ـ **بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ؛ الصيادون الأوائل**، تأليف : د. سلطان محيسن، الأبجدية للنشر، دمشق، سوريا. مكتبة الأسد، الطبعة الأولى/ ١٩٨٩م.

٥١ـ **بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار**، تأليف : عبدالرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ ـ ١٣٧٦هـ) نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة سنة ١٤٠٥هـ.

٥٢ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**، تأليف : محمد مرتضى الزبيدي، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

٥٣ـ **تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري**، تأليف : د. أحمد علي الناصر، دار النهضة العربية ـ القاهرة، الطبعة الثانية/ ١٩٩١م.

٥٤ـ **تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٤٣٩ ق. م**، تأليف : د. عيد مرعي، الأبجدية للنشر، مكتبة الأسد، دمشق ـ سوريا الطبعة الأولى/ ١٩٩١م.

٥٥ـ **التاريخ بين الحقيقة والتضليل**، تأليف : جمال عبدالهادي، وفاء محمد رفعت، علي أحمد لبن، دار التوزيع والنشر الإسلامي، القاهرة، دار الوفاء بالمنصورة.

٥٦ـ **تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي**، تأليف : أبو زيد شلبي الناشر مكتبة وهبة، القاهرة مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م.

٥٧ـ **تاريخ حضارة وادي الرافدين الجزء الأول في ضوء مشاريع الري الزراعية المكتشفات الآثارية والمصادر التاريخية**، تأليف : أحمد سوسة.

٥٨ـ **التاريخ العربي القديم**، تأليف : ويتلف وفرتز هومل وي. رودوكاكيس وأدولف جرومان، ترجمة : فؤاد حسنين علي، وزارة التربية والتعليم، قسم الترجمة، إدارة الثقافة العامة، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، مصر.

٥٩ـ **تاريخ علم الآثار**، تأليف: جورج ضو، ترجمة بهيج شعبان، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثالثة.

٦٠ـ **تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى، تأليف توفيق أحمد عبدالجواد**، دار وهدان للطباعة والنشر، الطبعة الثانية/ ١٩٧١م.

٦١ـ **تاريخ الفن عند العرب والمسلمين**، تأليف: أنور الرفاعي دار الفكر، الطبعة الثانية/ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٦٢ـ **تاريخ الفن القديم**، تأليف: شمس الدين فارس، د. سليمان عيسى الخطاط، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، دار المعرفة، العراق، الطبعة الأولى/ ١٩٨٠م.

٦٣ـ **تاريخ مصر القديمة**، تأليف: نيقولا جريمال، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر، القاهرة، الطبعة الثانية.

٦٤ـ **تاريخ اليونان**، الجزء الأول، تأليف: محمد كامل عياد، دار الفكر، دمشق، سوريا، تصوير ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م عن طبعة ١٩٨١م.

٦٥ـ **التبرك أنواعه وأحكامه**، تأليف: ناصر بن عبدالرحمن بن محمد الجديع، مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة الثانية / ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٦٦ـ **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، تأليف: مصطفى خالدي وعمرو فروخ ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الخامسة / ١٩٧٣م.

٦٧ـ **تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية/ ١٣٩٢هـ.

٦٨ـ **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، تأليف: محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري (١٢٨٣ ـ ١٣٥٣)هـ، راجعه: عبدالرحمن محمد عثمان، نشر محمد عبدالمحسن الكيتي ـ المكتبة السلفية بالمدينة. مطبعة الفجالة. القاهرة، مصر، الطبعة الثانية/ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤.

٦٩ـ **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، تأليف: أبو الريحان** محمد بن أحمد البيروني، عالم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٧٠ـ **التذوق وتاريخ الفن**، تأليف: محمود النبوي الشال ومحمد حلمي شاكر وزينب محمد علي، دار العالم العربي للطباعة، القاهرة، مصر، طبعة ٨٢/ ٨٣.

٧١ـ **التراث الفني وطرق عرضه**، وزارة الشئون الثقافية، تونس، ندوة حول هذا الموضوع دراسات ملتقى خميس ترنان، منشورات الحياة الثقافية/ ١٩٧٨م.

٧٢ـ **التراث المعماري الإسلامي في مصر**، تأليف: صالح لمعي مصطفى.

٧٣ـ **التراث المفقود**، تأليف: نبيل فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٩٩٠.

٧٤ـ **التصوف بين الحق والخلق**، تأليف: محمد فهر شقفة، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٧٥ـ **التصوير الإسلامي، نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه، تأليف**: أبو الحمد محمود فرغلي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى/ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٧٦ـ **التعرف لمذهب التصوف**، تأليف: أبي بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي، ت ٣٨٠هـ وتعليق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١ سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٧٧ـ **التعريفات**، تأليف: أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني، الدار التونسية للنشر، ١٩٧١م.

٧٨ـ **التعليق المفيد في تحقيق فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، تأليف** عبدالرحمن حسن آل الشيخ ت ١٢٨٥هـ، تحقيق وتعليق أشرف بن عبدالمقصود، مؤسسة قرطبة، ـ القاهرة ـ مصر، الطبعة الأولى/ ١٤١٢هـ.

٧٩ـ **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى/ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٨٠ـ **تفسير المراغي**، تأليف: أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، الطبعة الثالثة/ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٨١ـ **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، تأليف: وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى/ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٨٢ـ **تفسير النهر الماد من البحر المحيط**، تأليف: محمد بن يوسف الشهير بابن حيان الأندلسي الغرناطي ٦٥٤ ـ ٧٥٤هـ دار الفكر. الطبعة الثانية/ ١٤٠٣هـ.

٨٣ـ **تقريب التهذيب**، تأليف: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف. دار المعرفة، بيروت، لبنان، الناشر المكتبة العلمية، المدينة، السعودية.

٨٤ـ **تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، تأليف: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل، مكتبة ابن تيمية القاهرة.

٨٥ـ **تلخيص كتاب الاستغاثة المعروفة بالرد على البكري**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية وبهامشه كتاب الرد على الأخنائي لابن تيمية أيضًا المطبعة السلفية، بمصر/ ١٣٤٦هـ.

٨٦ـ **التلمود تاريخه وتعاليمه**، تأليف: ظفر الإسلام خان، دارالنفائس، بيروت، الطبعة السادسة/ ١٤٠٥.

٨٧ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تأليف: الحافظ يوسف المزي، راجعه سهيل زكار تحقيق أحمد علي عبيد وحسن أحمد أغا طبع دار الفكر، بيروت لبنان، المكتبة التجارية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٨٨ـ **توحيد الألوهية والفرق الضالة فيه (الشيعة الصوفية الباطنية)**، تأليف: سارة بنت فراج بن علي العقلا، كلية التربية للبنات، مكة المكرمة، رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة/ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٨٩ـ **التوراة بين الوثنية والتوحيد**، تأليف: سهيل ديب، دار النفائس. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية/ ١٤٠٥هـ.

٩٠ـ **التوراة تاريخها وغاياتها**، ترجمة وتعليق: سهيل ديب، دار النفائس، بيروت الطبعة السادسة/ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٩١ـ **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**، تأليف: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف، الرياض/ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٩٢ـ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تأليف: عبدالرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ ـ ١٣٧٦هـ)، حققه محمد زهري النجار، طبع ونشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، السعودية/ ١٤٠٤هـ.

٩٣ـ **ثقافة أوغاريت**، تأليف إ. ش. شيفمان، ترجمة: حسان اسحاق، الأبجدية للنشر، مكتبة الأسد، دمشق ـ سوريا، الطبعة الأولى/ ١٩٨٨م.

٩٤ـ **الجامع الأموي**، تأليف: علي الطنطاوي ـ مطابع دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية/ ١٣٨٠هـ.

٩٥ـ **جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري)**، تأليف: محمد بن جرير الطبري، شركة مكتبة ومطبعة البابلي الحلبي. القاهرة. الطبعة الثانية/ ١٣٨٨هـ.

٩٦ـ **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)** للإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم البخاري الجعفي (١٩٤هـ ـ ٢٥٦هـ) ضمن فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري. تأليف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة. مصر، الطبعة الثانية (١٤٠٠هـ).

٩٧ـ **الجامع الصحيح (صحيح مسلم)** للإمام أبي حسين مسلم بن حجاج القشيري (٢٠٦ ـ ٢٦١) ضمن شرح صحيح مسلم لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، حققه جماعة من العلماء، دار العلم. بيروت. لبنان، الطبعة الأولى/ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٩٨ـ **جامع كرامات الأولياء**، تأليف: يوسف بن إسماعيل النبهاني، تحقيق إبراهيم عطوه عوض، دار الفكر، بيروت، لبنان/ ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٩٩ـ **جذور الفكر الصهيوني**، تأليف: داود عبد العفو سنقرط، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى/ ١٤٠٣هـ.

١٠٠ـ **جمالية الرسم الإسلامي**، تأليف: الكسندر بابدوبولو، ترجمة علي اللواتي، نشر مؤسسات عبدالله بن عبدالله، تونس.

١٠١ـ **جنايات بني إسرائيل على الدين والمجتمع**. تأليف: محمد نداء، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤٠٤هـ.

١٠٢ـ **الجواب الباهر في زوار المقابر**، تأليف: شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨)هـ تحقيق سليمان بن عبدالرحمن الصنيع وشاركه عبدالرحمن بن يحيى اليماني، نشره قصي محب الدين الخطيب، طبع: المطبعة السلفية و مكتبتها، القاهرة، الطبعة الرابعة/ ١٤٠١هـ.

١٠٣ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني تحقيق: علي بن حسن بن ناصر، عبدالعزيز إبراهيم العسكر، حمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة ـ الرياض ـ النشرة الأولى/ ١٤١٤هـ.

١٠٤ـ **حاشية كتاب التوحيد**. تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

١٠٥- **الحداثة في ميزان الإسلام**، تأليف: عوض بن محمد القرني، هجر للطباعة، الطبعة الأولى/ ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٠٦- حصوننا مهددة من داخلها، تأليف محمد محمد حسين، دار الرسالة، مكة، الطبعة الثانية عشرة/ ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٠٧- **الحضارة العربية**، تأليف: جاك ريسلر، تعريب خليل أحمد خليل منشورات عويدات، بيروت، باريس - الطبعة الأولى/ ١٩٩٣م.

١٠٨- **الحضارة المصرية القديمة الجزء الثاني ضمن سلسلة مصر والشرق الأدنى القديم**، تأليف: محمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، الطبعة الرابعة/ ١٤٠٩.

١٠٩- **حكم التصوير في الإسلام**، تأليف: الأمين الحاج محمد أحمد، مكتبة دار المطبوعات الحديثة، جدة الطبعة الأولى/ ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

١١٠- **الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ «بعثت بين يدي الساعة»**. للإمام زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب (٧٣٦-٧٩٥) تحقيق وتخريج: عبدالقادر الأرناؤوط، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى/ ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

١١١- **حوار مع الصوفية**، تأليف: أبو بكر العراقي مكتبة دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١١٢- **خلق لا تطور**، تأليف: مجموعة من علماء الغرب، ترجمة د. إحسان حقي، دار النفائس ببيروت، لبنان، الطبعة الرابعة/ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١١٣- **الخميني والوجه الآخر في ضوء الكتاب والسنة، تأليف**: زيد العيص، دار اليقين، المنصورة، مصر الطبعة الأولى/ ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١١٤- **دائرة المعارف الحديثة**، تأليف: أحمد عطية الله، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية/ ١٩٧٥م.

١١٥- **دائرة معارف القرن العشرين**، تأليف: محمد فريد وجدي، دار الفكر، بيروت - الشركة اللبنانية للموسوعات العالمية، بيروت، لبنان.

١١٦- **دراسات إسلامية. الملل والنحل: الأديان**، إعداد عمر فاروق عبدالله مذكرة مكتوبة بخط اليد.

١١٧- **دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية**، تأليف: سعود بن عبدالعزيز الخلف، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، السعودية، الطبعة الأولى/ ١٤١٤هـ.

١١٨- **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، تأليف: أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية/ ١٩٩٠م.

١١٩- **دراسات في تاريخ العرب القديم**، تأليف: د. محمد بيومي مهران، لمطابع الأهلية للأدفست، الرياض/ ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

١٢٠- **دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية**، تأليف: محمود وصفي محمد، دار الإصلاح الدمام السعودية.

١٢١- **دراسات التاريخ وعلاقاتها بالعلوم الاجتماعية**، تأليف: هيو. ج ترجمة محمود زايد. دار العلم للملايين، بيروت/ ١٩٦٣م.

١٢٢- **دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين «الشيعة والخوارج»**، تأليف: أحمد محمد أحمد جلي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط٢، سنة ١٤٠٨هـ.

١٢٣- **دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني**، قرية ترمسعيا، منظمة التحرير الفلسطينية وجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني في الكويت، سلسلة كتب فلسطينية - ٤٥ - آب (اغسطس) ١٩٧٣م.

١٢٤- **الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، تأليف**: د. أبومحمد محمود فرغلي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١٢٥- **الديانات والعقائد في مختلف العصور**، تأليف: أحمد عبدالغفور عطار، مكة، الطبعة الأولى/ ١٤٠١هـ.

١٢٦- **الديانة الفرعونية**، تأليف: السيرولس بدج ترجمة: يوسف سامي اليوسف، دار منارات، عمان، الاردن، الطبعة الأولى.

١٢٧- **الرائد في التنقيب عن الآثار**. تأليف: د. فوزي عبدالرحمن الفخراني، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثانية/ ١٩٩٣.

١٢٨- **رجال الآثار**، تأليف: د. روبرت، ج بريدوود، ترجمة كمال الملاخ، دار الفكر العربي مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٠م.

١٢٩ـ الرد على الرافضة، للإمام المقدسي المتوفي سنة ٨٨٨هـ تحقيق أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافي القاهرة ـ مصر، الطبعة الأولى بمصر/ ١٩٨٩م.

١٣٠ـ رسائل الغزالي، تأليف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تقديم رياض مصطفى العبد الله.

١٣١ـ رسالة في الرد على الرافضة، تأليف: محمد بن عبدالوهاب، تحقيق: ناصر بن سعد الرشيد، دار طيبة الرياض.

١٣٢ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت سنة ١٢٧٠هـ. إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان الطبعة الرابعة/ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣٣ـ الرومان ـ دراسات في تاريخ الحضارات القديمة، تأليف: د. حسين الشيخ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ـ مصر/ ١٩٩٠م.

١٣٤ـ زاد المسير في علم التفسير، تأليف: أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن ابن علي بن محمد الجوزي القرضي البغدادي، تحقيق: محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله، تخريج السعيد بن بسيوني زغلول، دار الفكر. بيروت. لبنان الطبعة الأولى/ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٣٥ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، تأليف: شمس الدين بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ) تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية/ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٣٦ـ زبدة التفاسير من فتح القدير، تأليف: محمد سليمان عبدالله الأشقر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٣٧ـ سنن ابن ماجه. تأليف: الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، شركة الطباعة العربية السعودية. الرياض. الطبعة الأولى/ ١٤٠٣هـ ـ ١٩١٣م.

١٣٨ـ سنن أبي داود، تعليق: عزت عبيد الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، الطبعة الأولى/ ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

١٣٩ـ سنن النسائي (المجتبى)، لأحمد بن شعيب بن علي النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام السندي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

١٤٠ـ سير أعلام النبلاء. تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة/ ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

١٤١ـ سيكولوجية الخرافة والتفكير العلمي، تأليف: عبدالرحمن عيسوي، منشأة المعارف، الأسكندرية، مصر/ ١٩٨٢.

١٤٢ـ الشباب المسلم والحضارة الغربية، تأليف: حسن حسن سليمان، دار الشروق، جدة/ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٤٣ـ الشخصية الإسرائيلية، تأليف: حسن ظاظا، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية/ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٤٤ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن، تأليف: صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق سوريا، الطبعة الأولى/ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٤٥ـ شرح السنة، تأليف: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (٤٣٦ ـ ٥١٦هـ)، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرناؤط، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة الثانية/ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٤٦ـ شرح صحيح مسلم، تأليف: محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي ٦٣١ ـ ٦٧٦هـ راجعه، خليل الميس دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى/ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٤٧ـ شرح فصوص الحكم، تأليف: داود محمّد القيصري ويسمى أيضًا مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم، تولى طبعه ميرزا محمد ملك لكتاب شيرازي ١٣٠٠هـ بومبي.

١٤٨ـ شرح فصوص الحكم من كلام محيي الدين ابن عربي، تحقيق محمود محمود الغراب، مطبعة زيد بن ثابت، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٤٩ـ شرح نهج البلاغة، تأليف: عبدالحميد بن أبي الحديد المدائني تحقيق لجنة إحياء الذخائر، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

١٥٠ـ الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، تأليف: يحيى شامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى/ ١٩٨٦م.

١٥١ـ **شمال الحجاز (الجزء الأول الآثار)**، تأليف: حمود بن ضاوي القثامي، نشر دار البيان العربي، جدة طبعة ثانية/ ١٤٠٤هـ.

١٥٢ـ **الشيعة قادمون**، تأليف: جمال بدوي، القاهرة، الطبعة الأولى/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٥٣ـ **الشيعة وأهل البيت**، تأليف: إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان القرآن، لاهور باكستان، ط٣، سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

١٥٤ـ **الشيعة والتصحيح**، الصراع بين الشيعة والتشيع تأليف: د/ موسى الموسوي الطبعة عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٥٥ـ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تأليف: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط٢، ١٣٩٩هـ.

١٥٦ـ **الصحافة والأقلام المسمومة**، تأليف: أنور الجندي ـ دار الاعتصام، القاهرة.

١٥٧ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان ودمشق، سوريا، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٥٨ـ **الصوفية في نظر الإسلام**، تأليف: سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري ـ القاهرة الطبعة الثانية.

١٥٩ـ **الطبقات الكبرى المسماة لواقح الأنوار في طبقات الأخيار**، تأليف: عبدالوهاب بن أحمد المعروف بالشعراني، دار العلم للجميع.

١٦٠ـ **طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار**، تأليف: طه باقر، و د. عبدالعزيز حميد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق، الطبعة الأولى/ ١٤٠٠هـ.

١٦١ـ **عبادة الأوثان**، تأليف: عكاشة عبدالمنان الطيبي مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

١٦٢ـ **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، تأليف: د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى/ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٦٣ـ **العرب في العصور القديمة**، تأليف: لطفي عبدالوهاب يحيى، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية/ ١٩٧٩م.

١٦٤ـ **العراق القديم**، تأليف: جورج. ر، ترجمة حسين علوان حسين.

١٦٥ـ **العصور القديمة**، تأليف: جايمس هنري براستد، ترجمة. داود قربان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان/ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٦٦ـ **العقائد الوثنية في الديانة النصرانية**، تأليف: محمد طاهر التنير ومحمد المجذوب ـ دار الشواف ـ الرياض/ ١٩٩٢م.

١٦٧ـ **العقائد الوثنية في الديانة النصرانية**، تأليف: محمد طاهر التنير، تعليق محمد إبراهيم الشيباني، مكتبة ابن تيمية الكويت. الطبعة الأولى/ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

١٦٨ـ **عقيدة الألوهية عند اليهود في ضوء الإسلام**، تأليف: أميمة بنت أحمد ابن شاهين الجلاهمة، الدمام/ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٦٩ـ **علم الآثار**، تأليف: د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد رفعت، دار الشروق، جدة.

١٧٠ـ **علم الفولكلور دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية**، تأليف: محمد الجوهري، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية/ ١٩٧٧م.

١٧١ـ **العلوم الطبيعية في القرآن**، تأليف: يوسف مروة، منشورات مروة العلمية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى/ ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م.

١٧٢ـ **غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام**، تأليف: فتحي محمد الزغبي، دار المعارف القاهرة، مصر الطبعة الأولى/ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

١٧٢م ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، انظر: الجامع الصحيح، رقم: ٩٦.

١٧٣ـ **فتح البيان في مقاصد القرآن**، تأليف: صديق حسن خان، ت ١٣٠٧هـ الناشر، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

١٧٤ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية/ ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

١٧٥ـ **الفرق بين الفرق**، تأليف: عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفرائيني التميمي المتوفى عام ٤٢٩هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دارالمعرفة، بيروت، لبنان.

١٧٦ـ **فرق الشيعة**، للحسن بن موسى النوبختي وسعد بن عبدالله القمي تحقيق د/ عبدالمنعم الحفني دار الرشاد، القاهرة مصر، ط١ سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٧٧ـ **فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها**، تأليف : غالب بن علي عواجي ، مكتبة أضواء المنار ، المدينة ، السعودية ، الطبعة الأولى/ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .

١٧٨ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تأليف : علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، ت ٤٥٦هـ المطبعة الأدبية بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧هـ .

١٧٩ـ **فضح التلمود تعاليم الحاخاميين السرية**، تأليف : الاب آي . بي . برانايتس ، إعداد زهدي الفاتح ، دار النفائس ، بيروت الطبعة الثالثة/ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

١٨٠ـ **فقه التصوف لابن تيمية**، تهذيب وتعليق زهير شفيق الكبي ، دار الفكر ، العربي بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م .

١٨١ـ **الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة**، تأليف : عبدالرحمن عبدالخالق ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، الطبعة الثانية .

١٨٢ـ **فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام**،تأليف : صالح بن عبدالله العبود ، دار طيبة ، الرياض الطبعة الأولى .

١٨٣ـ **فلسفة فن التصوير الإسلامي**، تأليف : وفاء إبراهيم ـ مطابع الهيئة المصرية للكتاب .

١٨٤ـ **فلسفة وتاريخ القانون المصري من شروق العصر الفرعوني إلى غروب العصر الروماني**، تأليف : د . محمود السقا ، نشر دار النهضة العربية ، القاهرة/ ١٩٩٢ .

١٨٥ـ **الفن الإسلامي إلتزام وابتداع**، تأليف : صالح أحمد الشامي ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، الطبعة الأولى/ ١٤٠١هـ/ ١٩٩٠م .

١٨٦ـ **فن الرسم عند القدماء المصريين**، **تأليف** : وليم هـ . بيك ، ترجمة مختار السويفي ، مراجعة د . أحمد قدري مطبعة هيئة الآثار بالقاهرة .

١٨٧ـ **الفن في العراق القديم**، تأليف : أنطون مورتكات ، ترجمة د . عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، الجمهورية العراقية ، وزارة الإعلام ، مديرية الثقافة ، سلسلة الكتب الفنية ، مطبعة الأديب البغدادية .

١٨٨ـ **الفنون الجميلة في العصور الإسلامية**، تأليف : عمر رضا كحالة المطبعة التعاونية بدمشق ١٣٩٢هـ .

١٨٩ـ **الفولكلور في العهد القديم (التوراة)**، تأليف : جيمس فريزر ، ترجمة : نبيلة إبراهيم دار المعارف ، الطبعة الثانية .

١٩٠ـ **في تاريخ الشرق الأدنى القديم مصر . سوريه القديمة**، تأليف : أحمد أمين سليم . دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان/ ١٩٨٩م .

١٩١ـ **في التفسير الإسلامي للتاريخ**، تأليف : نعمان عبدالرزاق السامرائي ، مكتبة المنار ، الزرقاء الأردن ، الطبعة الأولى/ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م .

١٩٢ـ **في ظلال القرآن**، تأليف : سيد قطب ، دار الشروق بيروت ، القاهرة ، الطبعة الشرعية العاشرة : ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

١٩٣ـ **في الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام**، تأليف : محمد إبراهيم الفيومي ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر/ ١٩٧٩م .

١٩٤ـ **في نظرية التطور: هل تعرضت لغسيل الدماغ؟** تأليف : البروفسور دوان ت . كيش ، ترجمة أورخان محمد علي ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة ، مصر .

١٩٥ـ **القافلة، قصة الشرق الأوسط**، تأليف : كارلتون كون ، ترجمة : دجالي ـ دار الثقافة ـ بيروت .

١٩٦ـ القاموس المحيط ، تأليف : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر .

١٩٧ـ **القرابين البشرية والذبائح التلمودية عند الوثنيين واليهود**، تأليف : فتحي محمد الزغبي ، مطابع غباش بطنطا . مصر . الطبعة الأولى/ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

١٩٨ـ **قطر ماضيها وحاضرها**، تأليف : مصطفى مراد الدباغ ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الأولى جمادئ الأولى ١٣٨١هـ/ تشرين الثاني ١٩٦١م .

١٩٩ـ **القول المفيد على كتاب التوحيد**، شرح محمد بن صالح العثيمين دار العاصمة ، الرياض ، الطبعة الأولى/ ١٤١٥هـ .

٢٠٠ـ **قوى الشر المتحالفة، الاستشراق ـ التبشير ـ الاستعمار وموقفها من الإسلام والمسلمين**، تأليف : محمد محمد الدهان دار الوفاء ، المنصورة ، القاهرة ، الطبعة الثانية/ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٢٠١ـ **القيم والعادات الاجتماعية**، تأليف : فوزية دياب ، دار الكاتب العربي ، القاهرة .

٢٠٢ـ **الكتاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثة**، تأليف : كاثلين م . كنيون ، تعريب شوقي شعث وسليم زيد ، دار الجليل دمشق ، الطبعة الأولى/ ١٩٩٠م .

٢٠٣ـ **الكربون المشع وغيره من أساليب تأريخ الماضي**، تأليف: لين وجراي بول ترجمة زكريا الرادعي، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة.

٢٠٤ـ **كشف الأسرار**، تأليف: روح الله خميني، تقديم: محمد أحمد الخطيب، دار عمار للنشر عمان، الأردن، الطبعة الثانية/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٢٠٥ـ **الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ**، تأليف: محمود عبدالرؤوف القاسم، توزيع دار الصحابة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٢٠٦ـ **الكنز المرصود في قواعد التلمود**، ترجمة يوسف نصر الله، دار القلم. دمشق. دار العلوم. بيروت طبعة دار القلم الأولى/ ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٢٠٧ـ **لسان العرب**، تأليف: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٠٨ـ **لورنس العرب على خطى هرتزل ـ تقارير لورنس السرية**، تأليف: زهدي الفاتح ـ دار النفاعي ـ بيروت، لبنان الطبعة الرابعة/ ١٤١١هـ.

٢٠٩ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، تأليف: أبو الحسن علي الحسين الندوي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة/ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢١٠ـ **ما وراء التاريخ**، تأليف: وليام هاولز، ترجمة. د. أحمد أبو زيد. دار النهضة العربية. بيروت. لبنان/ ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢١١ـ **مجلة المختار**. عدد مايو سنة ١٩٥٨. مقال الفاتيكان: المدينة القديمة بقلم دونالتركارلوسي بيتي.

٢١٢ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم. العاصمي النجدي الحنبلي وساعده ابنه محمد، مطابع دار العربية، بيروت، لبنان، تطوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

٢١٣ـ **مجموع فتاوى ومقالات متنوعة**، تأليف: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن بن باز طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ الإدارة العامة للطبع ـ الرياض. الطبعة الأولى/ ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٢١٤ـ **مجموعة التوحيد**، تحقيق بشير محمد عيون، مراجعة عبدالقادر الأرناؤوط، الناشر مكتبة دار البيان، دمشق. سوريا، التوزيع مكتبة المؤيد الطائف/ ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢١٥ـ **محاضرات في النصرانية**، تأليف: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة. بمصر.

٢١٦ـ **مخاطر الوجود اليهودي على الأمة الإسلامية**، تأليف: د. محمد عثمان شبير، دار النفائس، عمان الأردن ـ الطبعة الأولى/ ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢١٧ـ **مختصر التحفة الاثني عشرية**، تأليف: شاه عبدالعزيز غلام حكيم الدهلوي، ترجمة غلام محمد بن محيي الدين بن عمر الأسلمي، اختصره محمود شكري الألوسي مكتبة ايشيق، دار الشفقة، استانبول، تركيا/ ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢١٨ـ **مختصر سيرة الرسول** ﷺ، تأليف: محمد بن عبد الوهاب، دار القلم بيروت.

٢١٩ـ **المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام**، تأليف: محمد محمود الصواف، دار الاعتصام ـ القاهرة ـ توزيع دار الإصلاح. الدمام ـ الطبعة الثالثة/ ١٣٧٩هـ.

٢٢٠ـ **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، تأليف: حسن الباشا، دار الاتحاد العربي، نشر دار النهضة العربية/ ١٩٧٩م.

٢٢١ـ **مدخل إلى علم الآثار**، تأليف: السير ليوناردوولي، ترجمة د. حسن الباشا، مراجعة عبد المنعم أبو بكر، الإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم بمصر، سلسلة الألف كتاب (٩٤).

٢٢٢ـ **المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم**، تأليف: محمد علي البار، دار القلم دمشق، دار الشامية بيروت، الطبعة الأولى/ ١٤١٠هـ-١٩٩٠.

٢٢٣ـ **مذكرات السلطان عبدالحميد**، ترجمة محمد حرب. دار القلم، دمشق. الطبعة الثالثة/ ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

٢٢٤ـ **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، الجزء الأول، تأليف: سعاد ماهر محمد، مطابع الأهرام/ ١٩٧١م.

٢٢٥ـ **مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة**، تأليف: د. ناصر بن عبدالله بن علي القفاري، دار طيبة للنشر، الرياض، ط٢، سنة ١٤١٣هـ.

٢٢٦ـ **المستشرقون**، تأليف: نجيب العقيقي دار المعارف: القاهرة ـ مصر ـ الطبعة الرابعة.

٢٢٧ـ **مستشرقون**، سياسيون ـ جامعيون ـ مجمعيون، تأليف: نذير حمدان، مكتبة الصديق، الطائف، السعودية الطبعة الأولى/ ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٥٥- **الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة**، تأليف: ناصر بن عبدالله القفاري وناصر بن عبدالكريم العقل، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٢٥٦- الموسوعة الأثرية العلمية، إشراف ليونارد كوتريل تأليف ٤٨ عالمًا أثريًا، ترجمة د. محمد عبدالقادر محمد و د. زكي اسكندر، الهيئة المصرية للكتاب/ ١٩٧٧.

٢٥٧- **موسوعة الفراعنة**، تأليف: باسكال فيرنوس، جامعة يويوت. ترجمة د. محمود ماهر طه - دار الفكر للدراسات - القاهرة مصر - الطبعة الأولى/ ١٩٩١م.

٢٥٨- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٥٨م - **موطأ الإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثي**، إعداد: أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ-١٩٧١م، الطبعة التاسعة/ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٦٠- **الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق**، تأليف: محمد عزت الطهطاوي. دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية. بيروت، لبنان، الطبعة الأولى/ ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٢٦١- **النبوات**، تأليف: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية ت ٧٢٨، دار الفكر.

٢٦٢- **نشوء الحضارات القديمة**، تأليف: بودهاردبرنتيس، ترجمة جبرائيل يوسف كباس، الأبجدية للنشر، مطابع ألف باء الأديب، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى/ ١٩٨٩م.

٢٦٣- **النصرانية من التوحيد إلى التثليث**، تأليف: د. محمد أحمد الحاج، دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،/ ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٢٦٤- **نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم**، تأليف: جيمس برتشارد - تعريب عبدالمجيد زايد - الناشر هيئة الآثار المصرية.

٢٦٥- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تأليف: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ت ٨٨٥هـ، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة - مصر الطبعة الثانية/ ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٢٦٦- **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، تأليف: شمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا. المكتبة القيمة مدينة ناصر. مصر، الطبعة الرابعة/ ١٤٠٧هـ.

٢٦٧- **هذه هي الصوفية**، تأليف: عبدالرحمن الوكيل، مكتبة أسامة، الرياض.

٢٦٨- **الهندسة الوراثية وتكوين الأجنة الحقيقية والمستقبل**، تأليف، د. صالح عبدالعزيز كريم، دار المجتمع جدة.

٢٦٩- **واقعنا المعاصر**، تأليف: محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، الطبعة الثانية/ ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٢٧٠- **وجاء دور المجوس**، تأليف: عبدالله محمد الغريب ط٦ سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٧١- **وجهة الإسلام: نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي**، تأليف: هـ. أ. ر. جب، ل: ماسينون، ج كامغماير، ك. ك. برج، لفتانت كولرنل فرار، أشرف على تحريره جب - ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة الطبعة الأولى/ ١٣٥٣هـ- ١٩٣٤م المطبعة الإسلامية - القاهرة - مصر.

٢٧٢- **وجود الله، عقائد الإسلام(١)**، تأليف: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة عابدين، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة/ ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٢٧٣- **اليهود**، تأليف: زهدي الفاتح، الطبعة الثانية/ ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢٧٤- **اليهود تاريخ وعقيدة**، تأليف: كامل سعفان دار الاعتصام. الطبعة الثانية.

٢٧٥- **اليهود في تاريخ الحضارة الأولى**، تأليف غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه/ ١٩٧٠م.

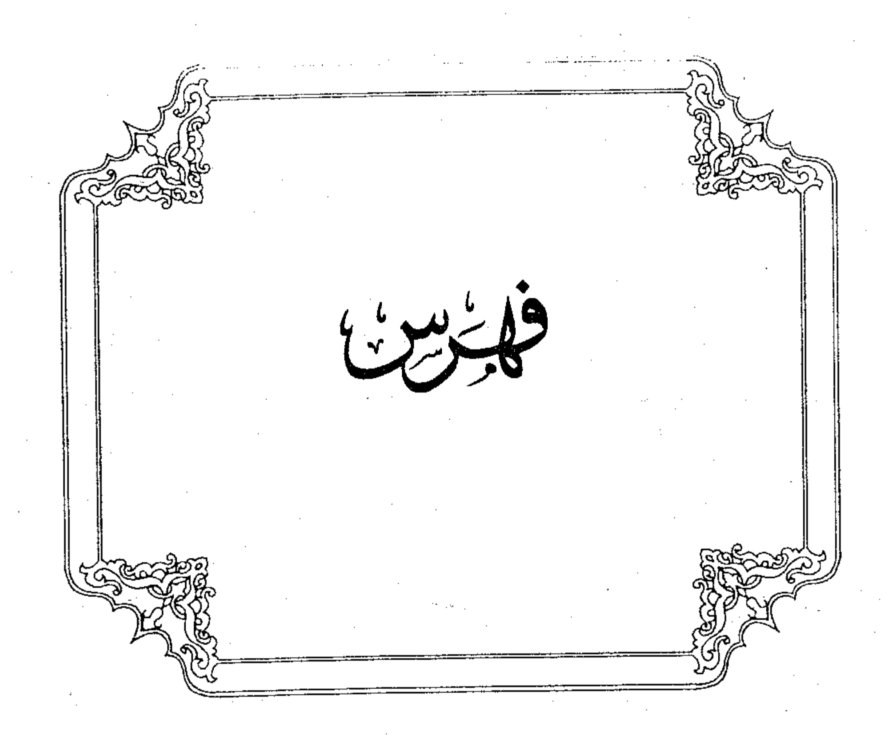
٢٧٦- **اليهود في القرآن**، تأليف: عفيف عبدالفتاح طبارة. دار العلم للملايين بيروت لبنان. الطبعة الخامسة/ ١٩٧٧م.

٢٧٧- **اليهود في القرآن والسنة بعض من خلائقهم**، تأليف: محمد أديب الصالح، دار الهدى، الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤١٣هـ-١٩٩٣م

٢٧٨- **اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**، تأليف: عبدالوهاب الشعراني، دار الفكر.

٢٧٩- **اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري**، تأليف: د. لطفي عبدالوهاب يحيى - دار النهضة العربية، بيروت/ ١٩٧٩م.

*****



فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

* * *